

مَعْرَكَةُ عَيْنِ جَالُوتَ

٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م

دِرَاسَةٌ فِي الْجَيْشَيْنِ الْمَمْلُوكِيِّ وَالْمَغُولِيِّ

اللَّوَاءُ الرُّكْنُ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ ضِيَا هُرُوتِر

مَعْرَكَةُ عَيْنِ جَالُوتَ

٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م

دِرَاسَةٌ فِي الْجَيْشَيْنِ الْمَمْلُوكِيِّ وَالْمَغُولِيِّ

اللَّوَاءُ الرَّكْنُ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ ضَاهِرُوتِر

مَعْرَكَةُ عَيْنِ جَالوتَ

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي - Sarmed74 @sarmed74 Twitter
قاتلنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Tihama_books /t.me/ Telegram

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين *
إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا
الضالين﴾^(١).

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في
العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل
إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد^(٢).
وبعد:

فهذه دراسة متواضعة موثقة لمعركة عين جالوت / ٦٥٨ - ١٢٦٠ / في الجيشين المملوكي
والمغولي. كنت قد أعددتها لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب «التاريخ» من جامعة القديس
يوسف في لبنان، أضعها بين يدي القراء الكرام بعد أن بذلت الوسع فيها راجياً أن أكون قد
وفقت للحق والصواب.
وقد رتبته كما يلي:

- ١ - المقدمة: وتتضمن نبذة عن المماليك وحياتهم وطرق قتالهم.
- ٢ - خطة البحث: تحدثت فيها عن طريقة دارستي للموضوع مبيناً ما احتوت عليه من فصول.
بعد أن ذكرت تراجم لأهم من كتب في الجيشين المملوكي والمغولي.
- ٣ - الفصل الأول: وتضمن امتداد وارتباط معركة عين جالوت بالمعارك التي سبقتها.
- ٤ - الفصل الثاني: أشرت فيه إلى مسرح عمليات معركة عين جالوت.
- ٥ - الفصل الثالث: بينت فيه التوازن القتالي للطرفين المقاتلين.
- ٦ - الفصل الرابع: وذكرت فيه قادة واركأن الجيش المملوكي والمغولي والصفات القيادية للقادة
والأركان.

(١): سورة الفاتحة

(٢): البخاري ومسلم في (الدعوات) وابن حنبل واللفظ له

- ٧ - الفصل الخامس : وكان للتنظيم والتوجيه المعنوي .
 - ٨ - الفصل السادس : احتوى على الصنوف والاسلحة المشتركة في القتال .
 - ٩ - الفصل السابع : كان عن التدريب والعمليات .
 - ١٠ - الفصل الثامن : تحدث فيه عن الشؤون الإدارية .
 - ١١ - الفصل التاسع : تضمن آثار المعركة .
 - ١٢ - الخاتمة : حيث جبكت جميع الفصول والمواضيع السابقة .
- أخيراً وضعت فهارس لأهم المصادر والمراجع .

دمشق / ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م

اللواء الركن الدكتور

محمد ضاهر وتر

- مقدمة -

لقد شغل المماليك البيض الذين أتوا أسرى في الحرب، أو شراء من الاسواق، دورا هاما في التاريخ العسكري والسياسي الإسلامي، وكانوا عماد الجيش وركيزته منذ أيام المعتمد العباسي. فكانت تشكيلات الجيش في عهد هذا الخليفة سنة / ٢٠٣ هـ / ٨٣٣ م - ٢١٢ هـ / ٨٤٢ م من الترك الذين سيطروا وشكلوا طبقة عسكرية ذات امتيازات أثرت فيما بعد على مجريات الاحداث وتطورها في الدول المتعاقبة وتركت بصمات باقية حتى الان في جميع الصعد ولاسيما العسكرية منها^(١). فالدولة الاخشيدية تشكل جيشها من المماليك الاتراك والديلم حيث بلغ عدد جيش مصر والشام أربعمئة ألف جندي. وبلغ جيش المماليك الخاص بمحمد بن طغج ثمانية آلاف^(٢). أما الدولة الفاطمية التي تلت الدولة الاخشيدية فكان جيشها من الاتراك والأكراد والديلم وغيرهم، وكذلك فإن الدولة الايوبية التي سبقت الدولة المملوكية كان جيشها مؤلفا من المماليك الترك^(٣).

وكان الملك الصالح أيوب هو الذي اعتنى بالمماليك البحرية وأرسى قواعد نظامهم، لما مسه منهم من وفاء بالعهد، واستقامة في الأمور، وشدة في القتال، وانضباط، وطاعة، وأسكنهم في قلعة الروضة وكان عددهم ألف مملوك تركي وقد أطلق عليهم « المماليك البحرية »^(٤)، ودرهم التدريب العقائدي والقتالي، بعد أن كان يشتريهم صغارا خلافا للقاعدة التي كان عليها من

(١): المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١ / ١٦ وما بعدها.

Lewis, the Arabs in History: 5/ 97, 6 / 103, 104

Lane - poole, A History of Egypt in the middle Ages 9 / 242 - 243.

(٢): المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١ / ٢٠ - ٣٠ وما بعدها.

(٣): المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ١ / ٤١ وما بعدها.

Lane - poole, A History of Egypt in the middle Ages 9 / 242 - 243

(٤): دعوا بالمماليك البحرية لأن ثكناتهم كانت في جزيرة الروضة من مدن النيل (بحر النيل). انظر شبولر - العالم الإسلامي في العصر المغولي: ١٠٨ حتى تاريخ العرب / ٧٦٣ /

سبقه من الملوك إذ كانوا يتنازعون الممالك كبارا، جاهزين للانخراط في الجيش مباشرة^(٥). انقسم المماليك أنفسهم إلى عدة فئات تبعاً لسبق دخولهم وقدمهم في الجيش، ولتنوع الشراء ولانتباههم إلى السلاطين أو الأمراء، ولتنوع الخدمة على أن أهم هذه الفئات هم المحترفون أجناد الحلقة الذين كانوا يشكلون الأغلبية في الجيش، وقد بلغ عددهم في عهد الناصر محمد بن قلاوون / ٢٤ / ألف وزاد هذا العدد أو نقص في عهد كل سلطان، إلا أنهم كانوا أكثر من غيرهم من الفئات التي حملت لواء الدفاع عن أرض الشام ومصر، وهناك إضافة إلى ذلك كان الجيش غير النظامي أو الإحتياطي المؤلف من العرب والترك والأكراد والمواطنين من السوريين والمصريين الذين بلغ عددهم فوق / ٣٠٠ / ألف مقاتل^(٦).

تحتاج كل دولة في بدء انشائها إلى رجال ذوي قدرة، وأبطال شجعان ذوي لياقة بدنية عالية، وحركة وخفة في ساحة المعركة، وإلى أسلحة متطورة. فالجهد كل الجهد منصب نحو تربية المقاتلين تربية عسكرية، متحدين غيرهم بالقوة والعنف. وهذا ما كان للدولة المملوكية إذ اعتمدت على السيف والحرب وعلى كل ما يوصل إلى هذا السبيل، فكان إن حازت النصر في معركة عين جالوت والمعارك التي تلتها، وظلت تكبر وتعظم إلى أن انقسم جيشها وأختلف، وظهر الفساد وانتشر الظلم حتى إذا أتت معركة مرج دابق انطفأت جذوتها وزالت من الوجود^(٧).

لقد ازدهرت الفروسية في العصر المملوكي، ونشطت التدريبات المختلفة على الأسلحة المتنوعة، وتطور العلم الحربي بشكل لم يتطوره في الأمم الأخرى بالدرجة نفسها^(٨). فأنشئت

(٥): المقرئزي - السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٢ / ٣٤١، شبولر - العالم الإسلامي في العصر المملوكي: ١٠٩ / الاسكندري: تاريخ مصر: / ٢٣٥ / .

ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٣٣١، ٣٧١.

Lane - poole, A History of Egypt in the middle Ages: pp. 242, 243.

(٦): الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ١٠٥، ١١٦ المقرئزي - الخطط: ١ / ٩٥ زكي - الجيش المصري في العصر الإسلامي: ١١

(٧): ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧ / ٧٩.

ابن خلدون: ١٢١ - ١٢٦. القرمانى - أخبار الدول وآثار الأول: ٢٢٠

(٨): David Ayalon, Gun powder and fire arms in the Mamluk Kingdom, (8)

المدارس والكلليات الحربية، وكثر المعلمون، واتسعت القاعدة التدريبية في جميع الأسلحة المختلفة كالمدفعية والهندسة والمشاة والنفط والنيران. وما ساعد على ذلك نجاح الجيش المملوكي في الانتصار على الجيش المغولي في أول معركة خاضها معه، وقيام قادة عسكريين عرفوا بالشجاعة والحزم والقوة أمثال قطز والظاهر بيبرس وبرقوق الناصري وبدر الدين بكتاش، وإينال العلائي الظاهري وأزبك اليوسفي وشبك الفقيه والأشرف قايتباي وغيرهم^(٩)، وتوفير الوسائط المادية المختلفة، وكثرة الأموال، ونزوح عدد كبير من العلماء والفرسان إلى البلاد، واستقرار الأمن، والسمعة الكبيرة للجيش المملوكي، ونقل الخلافة من بغداد إلى مصر، وسهولة الاطلاع على المصادر لتوفر المكتبات التي تحوي الكتب التي تتكلم عن الفروسية وفروعها المختلفة. وكان أغلب الملوك والسلاطين والأمراء من الفرسان المعدودين الذين شهدت لهم ساحات المعارك ومن الذين لهم علم بالرماية ولعب الرمح وضرب السيف، وحسن استخدام للأسلحة المعروفة في ذلك العصر^(١٠). ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء بل كان أغلب الجنود، أو قل جميعهم من الفوارس ومن المدربين على تلك الأعمال التي هي في نظرهم في مقدمة كل أمر^(١١).

رافق العصر المملوكي الحروب الكبيرة، والمعارك القتالية المتتالية في البر والبحر، ونشاط صناعة الأسلحة، وظهور حوادث مليئة بالفن الحربي على مستوى الهجوم والدفاع والالتفاف والتطويق والحركة العالية في الميدان والمطاردة العنيفة التي اتصفت بالشدة والقسوة والتماس الدائم مع العدو الهارب والكمين والإغارة والتلاقي وقتال المدن والشوارع الذي ظهر بسماته

(٩): اليونيني - ذيل مرآة الزمان: ١ / ٣٨٠ وما بعدها، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥ / ٢٩٣، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧ / ٩٦، سرور: الظاهر بيبرس: ٢٨ - السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: ٢ / ٢٧٢ / ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣ / ٨٣، ٣٢٥.

الذهبي: دول الإسلام: ٢ / ١٦١.

(١٠): ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٣ / ١٠٥.

(١١): ابن تغري بردي: المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي: ٣ / ١٢٢، القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول:

٢١٦، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١ / ٣٤٩، ٤١٧.

البارزة في المعارك الداخلية بين الأمراء، أوبين الأمراء والسلاطين، والمسير الطويل من مصر إلى بلاد الشام أو إلى البلاد المغولية أو الارمنية أو الصليبية، وتشكيل الجيوش الكبيرة إلى الجهات المختلفة لفتحها، والجاهزية القتالية الدائمة التي تكون في حالة استعداد وتحفز دائم. ولم يكن حديث الفئات المختلفة وشرائح المجتمع إلا الحرب، وسير القادة والمقاتلين، ووصف المعارك والاسلحة والخيال، وذكر الانتصارات والهزائم، وتقويم الطرفين المتنازعين والتعرض للمساوىء والمحاسن.

وكان من بين أنواع القتال استخدام الدفاع المتحرك الذي كان يرمي إلى جذب العدو واستدراجه ومن ثم القضاء عليه وتدميره في منطقة لا يستطيع ان ينقذ منها نفسه من هلاك محقق.

ومن أهم أسس هذا النوع المفاجأة والخفة والدوريات والكمائن، وتنظيم الصفوف بتشكيلة متالية قادرة على المناورة والإلتفاف والتطويق (١٢) ولقد نفذه الجيش المملوكي في معركة عين جالوت، وقام بأعمال متالية مكنته من الانتصار على خصمه وبرز كقوة ضاربة يحسب حسابها في العالم، وكجيش قادر على تطبيق هذا النوع من القتال بكل كفاءة عالية (١٣). إن الذي يستطيع أن يشغل دورا كبيرا في الدفاع المتحرك هو الخيل وهي الوسيلة الرئيسية لتنفيذ كل المراحل. ومن هنا جاء الاهتمام بها وتدريبها وتعويدها على الخصال الحميدة وعلى رؤية الاسلحة المستخدمة، وعلى وضع اللجام ومنع الصهيل، والمرونة في القيادة، وعلى الجري في الميدان، وعلى الرياضة المستمرة، وعلى اقتحام الأنهار والحواجز، وعلى كل ما من شأنه الوصول إلى حركية عالية، وقابلية طبقا لظروف الدفاع المتحرك (١٤).

(١٢): الناصري - مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ١٧٧ - ١٩٣.

(١٣): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٣ / ٥ / ٢١٩.

الهمداني: جامع التواريخ: ٢ / ١ / ٣١٤.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧ - ٧٩، ٨٥ وما بعدها.

(١٤): الرملي: مخطوطة اسبال الذيل في ذكر جياذ الخيل: ٣٠، ٤٥، ٤٩.

الناصرى: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ٢٥٣.

الرماح: مخطوطة عمل الرمح على الأرض والفرس: ٢٠ وما بعدها.

استخدم الجيش المملوكي جميع الأسلحة الشائعة آنذاك الهجومية كالنشاب والقوس
والسيف والخنجر والطبر والدفاعية كالدرع والترس والزردية والخوذة والمغفر وغيرها^(١٥). وكانت
لديه صنوف التشكيلات القتالية، كالفرسان والمشاة والنفط والنيران والهندسي والمدفعي^(١٦).
وكانت أغلب الأسلحة الهجومية والدفاعية تصنع محليا بواسطة عمال مهرة من الشام ومصر.
وقد عد السيف من أهم أنواع الأسلحة حتى ضرب المثل بالسيف الدمشقي الذي تميز
بطريقة صنعه وحدته وصقله^(١٧).

-
- (١٥): الفلقشندي: صبح الاعشى: ٢ / ١٣٥، ١٣٦، النويري: نهاية الارب في فنون الأدب: ٦ / ٢٣٩ -
٢٤١. زكي: السلاح في الإسلام: ١٦ - ٣٩.
(١٦): الهمداني: جامع التواريخ: ٢ / ١ / ٣١٤، اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ١ / ٣٥٦، ٣٥٧.
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول: ٢٧٩. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة: ٣٤٠، ٣٤٢.
(١٧): الرماح: صورة عن مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به: ١١ وما بعدها زيادة: دمشق في عصر
المماليك ٤٤، ١١٠. ريسلر: الحضارة العربية: ١١٧ - ١١٩، بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية: ٩٢.

خطة البحث

هذا الموضوع عسكري يتعلق ببداية العصر المملوكي العسكري . ومن الطبيعي دراسة جميع المسائل العسكرية لهذا العصر غير أنها واسعة جدا فسيحة الجوانب بعيدة الزمان والمكان . ولذلك ارتئي أن يبحث جانب واحد بكل التفاصيل الصغيرة والاختصاصية خير من أن يكون البحث عاما وشاملا .

وعلى هذا فإن الأطروحة تضمنت موقعة عين جالوت فقط وقد تلازمت بالموضوعية والمنهجية العلمية والإختصاصية التي تسبر المجهول ، وتتعمق في الدراسة والتنقيب ، وتتجاوز الصعوبات وتكشف عن الامور العسكرية المهمة والتي لها دور كبير في تطوير العلم العسكري من جميع جوانبه القتالية والإدارية .

فلم يتعرض الباحث لفكرة إلا فصلها ولا لحادثة إلا وثقها ، ولا لنقطة إلا أظهر ما فيها من أمور عسكرية ذات بال وأهمية ، سيما وأنه قد خدم في تلك المناطق ، وعاش في تلك الأراضي وعلى مسرح العمليات التي وقعت فيها هذه سنين طويلة .

لقد احتوت هذه الخطة تسعة فصول بالإضافة إلى المدخل الذي أشير فيه إلى أهم المخطوطات والمصادر والمراجع وأهم الأعلام الذين كتبوا في هذا الموضوع .

(١) الفصل الأول : امتداد وارتباط معركة عين جالوت بالمعارك التي سبقتها :

تطرق إلى الإمتداد والمقارنة ما بين المعارك التالية : عين جالوت ، حطين ، اليرموك ، القادسية ، وكلها كانت فاصلة ، وعلى مسرح عمليات واحد ، ونتائج وآفاق انتصارية متشابهة ، ومبادئ قتالية متقاربة وتنظيم إداري مترابط الاجزاء وأسلحة بقيت متكاملة مع التطور والامتداد إذ ظل السيف في أهميته ، والخيال في عدوها وصخبها ، وساد ترتيب القتال الذي كان متبعا من قبل واعتمد بصورة خاصة الترتيب الذي يقرر نظام الصفوف ، وامتزجت العقيدة القتالية حتى كانت مفاصلها متصلة .

وأما قادة هذه المعارك فكانوا على جانب كبير من التشابه في الشجاعة والقيادة والخبرة والتصميم والإبداع ، والتوفيق في الانتصارات المتتابعة .

٢) الفصل الثاني : مسرح عمليات معركة عين جالوت :

يتضمن دراسة مسرح عمليات معركة عين جالوت الذي أوضحت فيه المحاور الذاهبة والآية إلى أرض المعركة ، والسهول والجبال والغور والهضاب الشرقية لنهر الأردن . كما تعرفنا على الهيئات الأرضية والتلال والوديان والينابيع والأنهار المحيطة بساحة القتال ، وكذلك فإنها قد وصفت بعض المدن الفلسطينية مثل نابلس وعكا وصور وصيدا والناصرية وقيسارية وغيرها . وقد درست ميول الأرض والتربة وتأثيرها على تمرکز الجيشين المملوكي والمغولي .

٣) الفصل الثالث : التوازن القتالي للطرفين المتقاتلين :

درست في هذا الفصل الفئات والأجناس التي كان يتألف منها الجيشان المتقابلان ، فقد كان الجيش المملوكي مؤلفاً من المماليك السلطانية ، وأجناد الحلقة ، وأجناد الأمراء ، وأولاد الناس والمواطنين من العرب والأكراد والترك والشراكسة ، أما الجيش المغولي فكانت أغلبيته من المغول والأرمن والأجناس المختلفة الأخرى ، وكان لكل فئة من هذه الفئات صفات ومميزات تختلف عن غيرها في الصفات الشخصية والقيادية والجسمية .

٤) الفصل الرابع : قادة وأركان الجيش المملوكي والمغولي والصفات القيادية للقادة والاركان :

بحثت فيه الصفات القيادية للقادة والاركان الذين تولوا قيادة الجيشين المملوكي والمغولي في معركة عين جالوت ، وإن من أهم قادة الجيش المملوكي قطز وبيبرس وسنجر الحلبي ، أما الجيش المغولي فقد كان يقوده هولاكو وكتبغانوين وبايجونين وكان لكل فريق صفات مكنتهم من القيادة ، وخاضوا غمار الحرب وهم على جانب كبير من البراعة الحربية القيادية العالية .

٥) الفصل الخامس : التنظيم والتوجيه المعنوي :

لقد احتوى على مادتين رئيسيتين هما التنظيم والتوجيه ففي حال التنظيم كانت هناك أهم نقاطه التنظيم والتسلسل والوظائف والرتب العسكرية ، وحجم الجيش ، والجيش الإقليمي والمركزية والإحتياطية ومجلس الحرب ، والمحاکمات والعقوبات ، والعرض والاستعراض والترقيات والمكافآت وما إلى ذلك . أما التوجيه فقد أشتمل على أهم النقاط وهي المكافآت بأنواعها كالترقيات والمنح المالية وبث العقيدة والروح المعنوية في نفوس المقاتلين .

٦) الفصل السادس : الصنوف والاسلحة المشتركة في القتال :

جمع هذا الفصل الاسلحة المختلفة في كلا الجيشين الهجومية منها والدفاعية على المستوى الفردي والجماعي . وقد كانت متقاربة ومتشابهة . ومن أهم الأسلحة الهجومية السيف والرمح والطبر والنشاب والقوس والخنجر والجنبيه والدبوس . ومن أهم الأسلحة الدفاعية الدرع والزردية والخوذة والدبابة والطارق وقد تطورت بعض الأسلحة بعد المعركة كالبندق الرصاص والمكاحل والمدفعية . ومن أهم الأسلحة الفردية السيف على الاطلاق ، والجماعية المنجنيق . وقد شكلت أسلحة متتالية تميزت بشيء من الإستقلالية كتشكيلات الفرسان ، والمشاة والهندسة والنفط والنيران والمدفعية . وكلها كانت تؤدي دورا كبيرا في القتال .

٧) الفصل السابع : التدريب والعمليات :

إنه من أهم الفصول حيث يبحث على مستوى العمليات وعلى مستوى الفن الحربي ، فقد ظهرت فيه المبادئ الحربية التي لها صفة تدريبية وحقوقية وقاتلية ، والتفوق في القوى والوسائل ، والإستطلاع والتوجيهات العملياتية ، والطليلة ، والحشد على الاتجاهات الرئيسية والإخفاء والتنمية ، والتضليل الإستراتيجي ، والقوة المعنوية والحرب النفسية وغيرها من المواضيع التي لها تأثير مباشر على سير المعركة تكتيكيا وإستراتيجيا . كما ركز أيضا على الدفاع المتحرك الذي يعتبر الصفة البارزة في قتال الجيشين المملوكي والمغولي . وقد استخدماه في جميع حروبها وخاصة في معركة عين جالوت .

٨) الفصل الثامن : الشؤون الإدارية :

ما من جيش يقاتل إلا وخلفه مؤخرة تخدمه بجميع أنواع الوسائل المادية كالاسلحة والذخيرة والتعليمات والمهمات والعلف ووسائل النقل المختلفة ودفع الرواتب وتقديم الخدمة الطبية حفاظا على صحة المقاتلين لتبعد عنهم الوباء والمرض . ومن الطبيعي أن يستلزم وجود هذه المواد مستودعات للإستلام والتخزين والصيانة والصرف للقطعات والتشكيلات . كما أن الشؤون الإدارية تتضمن الإدارات المرتبطة بها وهي الاشغال العسكرية والغنائم والمالية وغيرها . وهناك الامداد في جميع الظروف ، وإلى جميع الوحدات المقاتلة ، وبجميع الأصناف ولاشك أن النقل له أهمية كبرى وتتوقف فعاليته على نوع الوسائل وحمولتها وقدرتها على مواكبة التشكيلات القتالية في أرض الميدان وفي مسرح العمليات .

٩) الفصل التاسع : آثار المعركة :

آثار المعركة كانت على المستويين المحلي والدولي ، إذ تأثر المصريون والشاميون بهذه المعركة سياسيا وعسكريا فقد أبعدت عنهم شبح الموت والدمار ، كما تأثر بها الأوربيون فحافظوا على تراثهم وحفظوا أموالهم ، وتحولت سيول التخريب عن بلادهم أما الأيوبيون فقد أنضم قسم منهم إلى الدولة المملوكية ، وقضي على ماتبقى منهم سيما الذين عارضوا أو وقفوا في وجه المد المملوكي وبسط هيمنته على البلاد .

لقد تطور أسلوب القتال بعد المعركة ، وأزداد حجم الجيش والتشكيلات القتالية التابعة له . وقد قتل قطز ، واستقرت الخلافة في مصر نقلا من بغداد ، وظهر بيبرس كأبرز سلطان في البلاد عمل لبلاده وجيشه ، وأسس تلك الدولة التي استقرت في الحكم سنين طويلة .

١٠) الخاتمة

حبكت الخاتمة جميع الفصول والمواضيع السابقة حيث تميزت تلك الفترة المملوكية بالشدة والقوة في النظام والإنضباط وإن معركة عين جالوت أعطت دروسا في الفن الحربي ، والعقيدة القتالية والترقية الدينية التي مجدت القتال ورفعت من معنويات المقاتلين . ثم جاءت هذه الخاتمة على أسباب هزيمة الجيش المملوكي في آخر مرحلة وفي زمن شيخوخته . وكم تكون القوة الحربية معبرة عندما تقترن بالقوة السياسية وبالضوابط الأخلاقية . وكم تكون متطورة عندما توازن بين قواها الحربية المختلفة ، وفروعها الإختصاصية . فلقد اختل التوازن بين القوتين البحرية والبرية ، وبين فروع الهندسة والطب والشؤون الإدارية والمشاة والنفط والنفير وغيرها .

شغل التنظيم بال قادة الممالك، فقسموا دولتهم إلى عدد من النيابات والقلاع، وعين فيهما السلطان نوابا له. وكان الامراء بصفتهم هذه يمثلون السلطين السياسية والعسكرية للمدن: دمشق، حلب، طرابلس، حماة، صفد، الاسكندرية، الكرك، غزة، فلسطين، مصر، حمص، القدس، وبيس التي احدثت فيما بعد في زمن الاشرف شعبان^(١). أما أمراء القلاع فكانوا قادة عسكريين مستقلين عن أمراء المدن، ولديهم الأسلحة والذخائر والتموين، مهمتهم الدفاع عن القلعة^(٢). ومن هذا يتبين أن التنظيم العسكري يشمل القائد الأعلى وهو السلطان الذي يتولى قيادة الجيوش كافة، والأتابك وهو القائد العام للقوات المسلحة، ونائب السلطان وهو القائد الإقليمي في المدينة، والمقدم قائد القلعة. ثم تدرج الوظائف والرتب العسكرية من أمير خمسة إلى أمير مائة مقدم ألف جندي. ولا تختلف الوظائف القيادية في الدولة المملوكية عن سابقتها في الدولة الأيوبية كالنائب ورأس النوبة وأمير مجلس وأمير سلاح وأمير آخور، والحجوبية وسواها، وغيرها من رتب بالجيش^(٣).

وإذا كان الممالك قد قصروا في دفع عجلة التنظيم، وكانوا مقلدين أكثر من مبتكرين، فإنهم بلغوا في التدريب العسكري مرتبة كبيرة وحظا وافرا. فلقد صنف بعضهم الكتب العديدة، المراجع المختلفة التي تبحث في كل نوع من أنواع التدريب. فقد عثر على مخطوطات عديدة مصورة في معهد التراث العلمي العربي بحلب جمعها المعهد من مكتبات عديدة منها: مكتبة الفاتح وروان كشك باستانبول، وبلدية الاسكندرية، ونور عثمانية، والظاهرية بدمشق، والوقفية بحلب، والخزانة التيمورية بالقاهرة. أغلبية هذه المخطوطات موجودة باستانبول ذلك لأن العثمانيين عندما تغلبوا على الممالك نقلوا هذا التراث إلى مركز بلادهم كما نقلوا غيرها من المدربين والصناع المهرة من الذين كانوا يتقنون التدريب ويجيدون التأليف. وهذه الكتب والمخطوطات الموزعة على مكاتب العالم هنا وهناك تتناول الجوانب العديدة من التدريب، حيث

(١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١١ / ٥٤، ٦٤، ٢٦٣

١٢ / ١٠ / ١٧٦. ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ٤ / ٣٤ الخليلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ٢ / ٢٧١، القلقشندي: صبح الأعشى: ٧ / ١٨٠.

(٢): ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١ / ٣٩٥، ٤٠٦، ٤٠٨.

(٣): القلقشندي: صبح الاعشى: ٤ / ١٦ وما بعدها، الدواداري: الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب:

٧ / ٢٤٧، ٢٦١، ٣٧٨.

ساد التخصص الذي نراه اليوم في التدريبات العسكرية . وإذا علمنا أن التدريب كان في سن مبكرة أدركنا أهميته وفعاليته . سيما وإنه كان يسبقه تدريب عقائدي وتوجيه معنوي قوي ، حيث كان المشايخ يقومون بهذا الدور في الطابق أولا ثم فيما بعد في دور القرآن والمساجد والمدارس ذات المذاهب الاربعة ، والتي كانت منتشرة بصورة واسعة في مصر والشام^(٤) .

لم يمض زمن طويل (عشر سنوات) على دخول المماليك الجيش الأيوبي حتى وقعت معركة المنصورة التي جرت بين المماليك بقيادة بيبرس في ظل حكم شجرة الدر أرملة الصالح أيوب ، وبين الصليبيين بقيادة الملك لويس التاسع . فكان لهم الاثر البارز في الانتصار لاسيا دور الفارس الشجاع ركن الدين بيبرس الذي كان له الدور الكبير أيضا في معركة عين جالوت التي حدثت بعد عشر سنوات من معركة المنصورة^(٥) ، وأدت هذه المعركة إلى زعزعة أركان الصليبيين وبدأوا بعدها بالانحسار والتقهر تحت ضربات الجيش المملوكي الذي انتصر في عدة معارك ساحلية فيما بعد^(٦) .

ولعل معركة المنصورة غرست في قادة الجيش المملوكي ثقة الانتصار في معركة عين جالوت على المغول وشجعتهم على الدخول في مواجهة أكبر قوة ضاربة في العالم ، وبذلك أتيج لهم أن ينتصروا على أكبر دولتين كانتا موجودتين في الأراضي العربية وتهددان باستمرار مصر ودمشق وبغداد^(٧) .

(٤) : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار : ١ / ٩٢ وما بعدها . النعمي : الدارس في تاريخ المدارس : ٢ / ٢٩ ، ٦٤ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١١٤ ، ارنولد : تراث الإسلام ٣٢٧ .

(٥) : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٣ / ٥ / ٢٣٨ ، ٢٣٩ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٦ / ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ . المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك : ١ / ٢ / ٣٦٨ .

(٦) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٨ / ١٥٦ . ابن الولادي : تاريخه : ٢ / ٣٥٨ .

(٧) : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٣ / ٥ / ٢٣٨ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٧ / ٧٩ . المقرئزي : الخطط : ٣ / ٩٣ .

حدثت معركة عين جالوت، والمهاليك قادة وجنودا يخوضون القتال وهم على خبرة عملية، فلقد سبقته معارك كبيرة وتدريبات نظرية مستمرة وقد ملكوا شجاعة ورثوها وتمرسوا عليها، ولياقة بدنية اكتسبوها بالتمارين الصعبة والرياضة الدائمة. ومعرفة تامة بعدوهم الذي انحدروا من جنس شبيه به، وعلى يقين من الثبات لانهم يعلمون أنها الفرصة الوحيدة للوقوف أمام المغول، وإلا ضاع وجودهم، وانقلبوا خاسرين وعادوا عبيدا كما كانوا من قبل، وعلى عقيدة دينية تستعذب الموت وتكره الحياة، وعلى تكتيك قتالي وفن حربي وخطة استراتيجية تضع الدفاع المتحرك في أولويات أنواع القتال، وعلى سلاح صانوه وألفوا استخدامه بهذه الصفات دخلوا المعركة فانتصروا على عدوهم^(٨).

أما السبب لاختياري معركة عين جالوت فلاهميتها العسكرية من جوانب عديدة ولكونها معركة فاصلة في التاريخ اتسم قادتها بالحزم والتصميم وكان جنودها على مستوى الانتساب العقائدي القتالي، وإن التدريب العالي هو الذي اكسبهم الإحتمال وقوة العزيمة، وإن تصديهم لظلم وجور الجيش المغولي أبعد عن الإنسانية القتل والدمار.

أولا - المعركة الفاصلة:

لاقتل معركة عين جالوت عن معركة حطين التي وقعت في الشمال الشرقي منها غربي بحيرة طبرية^(٩) وعلى أرض فلسطين، وفي مسرح عمليات واحد بين الأيوبيين والصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م^(١٠) وكان من نتائجها أنها سهلت تقدم الجيش الأيوبي نحو الساحل، وكانت سببا لافتتاح البلاد الأخرى من بلدان الساحل، كما كانت مقدمة للانتصارات الكبيرة التي سجلها صلاح الدين الأيوبي وكانت من المعارك الحاسمة التي حولت مجرى الحروب

(٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٧ / ٩٧، أبو الفداء: تاريخه: ٢ / ١ / ٢١٤ الاسحاقى: أخبار الأول: فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول: ١٣٢. السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة:

٢ / ٣٩، ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر: ٢ / ٢٩٧.

(٩): الحموي: معجم البلدان: ٢ / ٢٧٤.

(١٠): ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ٦٠.

الصلبية وفتحت أمام الأيوبيين آفاقا جديدة^(١١). ولا تقل عن معركة اليرموك في الجنوب الغربي من سورية وإلى الشرق من نهر الأردن في وادي ذي ثلاث شعب يجري فيه نهر اليرموك، ويتابع سيره فيمر بعدد من القرى منها الياقوصة والحمة ثم يصب وينتهي في أسفل بحيرة طبرية، وهو مكان إلى الجهة الشرقية من مكان معركتي حطين وعين جالوت^(١٢)، وكانت اليرموك كما هو معروف بين العرب المسلمين وبين الامبراطورية البيزنطية سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م^(١٣) وكان من نتائج هذا الانتصار فتح بلاد الشام، واتساع هيبة الجيش العربي الإسلامي، وانكفاء الروم وتقهرهم، وكانت هذه المعركة بداية النهاية، وسببا للفتوحات التي تلت^(١٤) ولا تقل أهميتها (عين جالوت) أيضا عن معركة القادسية التي وقعت غرب مدينة بغداد وتبعد عن الكوفة خمسة عشر فرسخا وعن العذيب أربعة أميال، وهي مكان خصب تكثر فيه المياه والنخيل^(١٥) حيث كانت بين العرب المسلمين وبين الفرس سنة ١٤ هـ / ٥٣٦ م^(١٦) وقد سجلت هذه المعركة انتصارا كبيرا، وتقدم بعدها العرب إلى الغرب والشمال وانهزم الفرس وتوالت الإهزيمات ورحلوا عن الأراضي التي تمسوا أن يعيشوا فيها أبدا. تلك المعارك الاربعة التي سجلت نصرا ساحقا، في بقعة من الأرض تكاد تكون متقاربة.

استطاع الجيش المغولي أن يقهر أجزاء كبيرة من العالم وأن يستولي على معظم البلاد، وأن يذيق أهلها البأساء والضراء، وأن يملأ قلوب أعدائه رعبا، فما وقف في طريقه جيش إلا انتصر عليه، وما تصدى له شعب إلا وهزمه ولم يتعود على الهزيمة أبدا. ودخل معركة عين جالوت وهو

(١١): ابن شداد: النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ٦٤، ابن كثير: البداية والنهاية: ٢ / ٣٢٢،

شاهنشاه: منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماء: ٢٩٠ وما بعدها.

(١٢): الحموي: معجم البلدان: ٥ / ٤٣٤.

(١٣): ابن عساکر: التاريخ الكبير: ١ / ١٥٩.

(١٤): للحموي: معجم البلدان: ٥ / ٤٣٤، زيدان: التمدن الإسلامي ١ / ٥١ / ٦١.

(١٥): الإدريسي: نزهة المشتاق: ١٣٧ - الحموي: معجم البلدان: ٤ / ٢٩١، القزويني: آثار للبلاد وأخبار

العباد: ١ / ١٥٩. الطبري: تاريخه: ٣ / ١١ / ٣١.

ابو الفداء: تقويم البلدان: ١٩٨. شيخ الربرة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: ١٨٥.

(١٦): الطبري: تاريخه: ٣ / ١١، ابن كثير: البداية والنهاية: ٧ / ٣٨، ابن بطوطة: رحلته: ١ / ١٩٤.

يعلم علم اليقين بالانتصار المحقق كما انتصر من قبل ، ولكنه كان يحدث نفسه في أمور كثيرة منها :

أن عدده قليل أمام كثرة الجيش المملوكي وإن محاور الإمداد طويلة وبعيدة . هولاكوقد رحل وارتحلت معه بعض الجيوش وانشغل في حروب داخلية ، وإن التأييد الشعبي مهزوز من قبل المواطنين في دمشق والبقاع الذين أذاقهم مر العذاب . كل هذه الأمور كانت تقع في مخيلة كتبغا قائد الجيش المغولي ، الذي كان يمني نفسه بالانتصار ، وما أن دقت ساعة الخطر حتى تبين له أن الأمل مفقود ، وإن الهزيمة محققة . وأنتصر الجيش المملوكي وكان ذلك انعطافا تاريخيا ، أودى بحياة الجيش المغولي إلى الأبد . وثبت قواعد الجيش المملوكي في أرض الشام ومصر ، وحكم البلاد ما يقارب ثلاثة قرون^(١٧) .

ثانيا - الصفات القيادية :

لقد كان قطز قائد الجيش المملوكي ويبرس قائد الطليعة يملكان صفات قيادية أهلتهم لانتزاع النصر من الجيش المغولي . فقد كانا على جانب كبير من الشجاعة والإقدام وقوة الاحتمال^(١٨) ، ولهما خبرة سابقة في الحروب وقيادة الجيوش^(١٩) ، وهما مصممان على النصر مهما كلفهما ذلك من عناء وجهد وتقديم^(٢٠) ، وهما اللذان اتفقا على وحدة الجيش وتماسكه وقويا فيه الروح المعنوية ، وشجعاه على خوض هذه المعركة التي إن هزم فيها الجيش المملوكي لم يبق

(١٧) : أبو الفداء : تاريخه ٣ / ١٩٠ - ٢١٤ ، الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ٢ / ١٦٨ . حتى تاريخ العرب : ٧٦٢ .

(١٨) : الكتي : قوات الوفيات : ٢ / ٢٦٨ ، أبو شامة : الذيل على الروستين : ٢١ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٧ / ٩٦ ، سرور الظاهر بيبس وحضارة مصر في عصره ٢٨ ، عطية : القاموس الإسلامي : ١ / ٤٠١ .

(١٩) : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٣ / ٥ / ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٣٦٨ .

(٢٠) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ٧ / ٧٩ ، ٨٥ وما بعدها ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : دراسات في تاريخ وآثار فلسطين : ١ / ٢٩٧ .

للعنود أي أثر لهم وستضيع مكاسبهم ، وسيشردون كما كانوا من قبل^(٢١) وهما اللذان رتبا الصفوف بتشكيلات قتالية تتناسب مع العدو وإمكاناته وأسلحته المستخدمة، وطبقا للدفاع المتحرك الذي ابتلع به الجيش المملوكي الجيش المغولي^(٢٢).

وكانت خطة محكمة حين تمركزت الدوريات على طريق انسحاب الفلول المهزومة من الجيش المغولي وقضت عليه قضاء مبرما^(٢٣). وقد أحسنا تنفيذ الخدعة حين تقدم الجيش المغولي قبيل بدء المعركة ووقع في الفخ حينما اصطدم (باليزك) الحرس المتقدم وبدوريات الإستطلاع التي كانت أمام الجيش المملوكي^(٢٤) كما أدخل الرعب في قلب كتبتغا قائد الجيش المغولي حين ظهر قادة التشكيلات عند شروق الشمس يوم المعركة برايات وبرتول كثيرة زادت في أعين العدو حجماً وتسليحاً وأدرك حينئذ الهزيمة التي ستكون قاسية ومرة^(٢٥). واهتما اهتماما خاصا بالتموين حين عرجا على عكا التي أعيدت فيها ملء الأوعية من الماء، واشترى الجيش جميع ما يحتاجه من الوسائط المادية، ثم أستاذف المسير بعد أن اخذ قسطا من الراحة، وبعد أن أمن من أهل تلك الديار الوعد بالحياد الذي لايميل فيه إلى الجانب المملوكي ولا إلى الجانب المغولي^(٢٦). وترفعا قبل دخولهما المعركة على ماكان بينهما من خلافات سابقة وبقيت هذه الخلافات مدفونة أثناء المعركة إلى أن ظهرت بعد الإنتهاء من القتال وعودة الجيش إلى مصر، وفي الطريق بادر بيبرس قطز بضربة سيف، ثم أكمل عليه، وتسلم السلطنة، ونظم البلاد وأجرى جميع الإصلاحات

(٢١): الهمداني: جامع التواريخ: ٢ / ١ / ٢٥٣، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٢ / ٤٣١ وما بعدها.

(٢٢): الناصري: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المداين وحفظ الدروب: ١٨٩ وما بعدها، البونيني: ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٦١، العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام: ٢٦٧.

(٢٣): الشهابي: تاريخه ٤٣٩، الاسكندري: تاريخ مصر ٢٣٦.

(٢٤): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٢ / ٤٣٠، العربي: المغول ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢٥): ابن أياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١ / ٣٤١، هندي: الجيش العربي في عصر الفتوحات ٤٩.

(٢٦): المقرئزي: السلوك ١ / ٢ / ٤٣٠، ابن جبير رحلته ٢٩٣.

على مختلف الصعد، واهتم بأمر الجيش اهتماما كبيرا^(٢٧). وركز أثناء المعركة على التعاون والتنسيق فيما بين القوة الرئيسية والطليعية مما أدى إلى جعل الجيش المغولي يقع بين فكي الكماشة ولم يستطع أن يتخلص من هذا الطوق الذي أحبط كل محاولاته^(٢٨) ومن الجدير بالذكر أنها خرقا صفوف العدو ليصلا إلى قيادة الجيش المغولي فيعملان على شلها وقتل قائدها الذي بقتله سادت الفوضى وضعفت المعنويات وبانت ملامح النصر للجيش المملوكي^(٢٩).

ثالثا - العقيدة القتالية :

لاشك أن العقيدة هي مصدر القوة، ومبعث التوجيه المعنوي وهي أصل إرادة القتال التي تقدم فيها الروح والمال بكل طوعية واختيار ولقد أخذ المماليك بقسط وافر من العقيدة التي نشأت منذ ظهور العرب المسلمين، وعند أول معركة مسلحة مع العدو في بدر الكبرى، ثم تطورت مع الأقوام التي حملوها مع ما يتناسب والأسلحة الجديدة، وحجم الجيش ومسرح العمليات^(٣٠). نشأ الجندي المملوكي منذ نعومة أظفاره على الدين الإسلامي، فتربى تربية دينية منذ صغره، حتى إذا قوي عوده تربى تربية عسكرية مليئة بالتدريبات المختلفة القاسية، فهو بهذا قد جمع بين التربية الدينية والعسكرية^(٣١). فالأولى لها أساتذة مربون، وكذلك الثانية^(٣٢).

(٢٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧ / ٥٤، ٥٥، ٨٤، الصفدي: الوافي بالوفيات ٩ / ٤٨٤، ٣٣٢ / ١٠

Lane - Poole, A History of Egypt in the middle Ages 9 / 262, 263, 264.

(٢٨): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٣ / ٥ / ٢١٩، اهتمداني: جامع التواريخ ٣١٤ / ١ / ٢.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: دراسات في تاريخ واثار فلسطين ١ / ٢٩٦. (٢٩): جامع التواريخ: ٢ / ١ / ٣١٧، ٣١٨ وما بعدها. ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧ / ٧٩، ٨٥ وما بعدها.

(٣٠): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٤٢٩. ابن خلدون: تاريخ ٥ / ٣٧١.

(٣١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: ٢ / ٢ / ٥٢٤.

(٣٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٩ / ٥٦، ١٨٦. أبوشامة: الذيل على الروضتين: ٢١٥.

وللأولى أمكنة للتدريب في المساجد والمدارس وفي ساحات المعركة، وللثانية أمكنة كذلك في الميادين العامة المختلفة. وقد أتيح للسلطين أن يسهروا على تربية المقاتلين فكريا وجسديا، وكان بعضهم يشرف بنفسه على تدريبهم وطعامهم ومنامتهم وشؤونهم الخاصة والعامة. ومحاسب المدرب والمتدرب على تقصيرهما بأشد العقوبات^(٣٣). وكان من أهم المواد التي يتدرب عليها الجندي هي القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن وكتب الأحاديث على المذاهب الأربعة، وفي المرحلة الثانية يدرّب على ركوب الخيل وعلى لعب الكرة، وعلى اللعب بالأسلحة المختلفة وعلى طرق القتال العديدة التي منها المقاتلة والمجاوله والدوران والمطاردة والتطويق والمطاعنة^(٣٤). بهذه العقيدة وصل الجيش المملوكي إلى أعلى مرتبة من الكفاءة العالية والجاهزية القتالية، وبهذه التربية انتزع المماليك دولتهم وأسسوها وأنتصروا على أعدائهم. وبهذا التدريب المزدوج دخلوا معركة عين جالوت وانتصروا على الجيش الذي انتصر على جيوش العالم.

رابعا - التدريب العالي:

لقد أهتم قادة المماليك بالتدريب العسكري وأولوه أهمية خاصة، وأنفقوا الأموال في تطويره، وقضوا أغلب أوقاتهم في الإشراف عليه ومراقبته وأنشأوا الميادين الخاصة، وهياؤا القاعدة التدريبية، وانتقوا المدربين من ذوي الخبرة والأصالة، واختاروا الطلاب من شريحة واحدة جلبوها من بلاد بعيدة.

قسم التدريب إلى المواد التالية: الضرب بالسيف، والرمي بالنشاب، الطعن بالرمح، واستخدام الدبوس، ولعب الصولجان، والمصارعة والمدفعية والنفط والثيران، والسباق على

(٣٣): مبارك: الخطط التوقفية: ١ / ٨٧، سرور الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره: ١٤١.

(٣٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٥٠٩، العربي: المماليك: ١٢٤، الرماح: مخطوطة في عمل الرمح على الأرض والفرس: ٣٠ وما بعدها. الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة: ٢٨ - ١٤١.

الخيل وأصول التدريب^(٣٥). ولكل مادة من مواد التدريب مدرب خاص بها يعلم أصولها وفروعها مثل الرماح حسن الأحذب الذي كان مختصا بالتدريب على الرمح^(٣٦)، والزرديكافش الذي كان مختصا بالتدريب على المنجنيق^(٣٧)، وإبراهيم الحلبي الذي كان مختصا بالتدريب على المدافع والمكاحل^(٣٨) وغيرهم.

فإذا درب المعلم على السيف مثلاً قسمه إلى أقسام ثم يشرح كل قسم وعمله وطرقه على الأرض أولاً ثم ظهر الخيل ثانياً، وكيفية القبض عليه باليد اليمنى من ذبابته، حتى يكون القائم باليد اليسرى^(٣٩).

وهناك تدريبات مختلفة ودقيقة ومتسلسلة تصل في نهايتها إلى ضرب الخصم في الأماكن القتالة. وقد ألف عن السيف كتب كثيرة عديدة أشبه ما تكون اليوم عن بندقية آلية أو عن سلاح حديث حيث توجد جميع التساؤلات التي يمكن أن تزيد الطالب ثقافة وعلماً، وأن تؤهله لاستخدام هذا السلاح بكل فعالية. وهكذا الأمر في كل الأسلحة المتوفرة، فإذا أخذنا مثلاً المنجنيق درست فيه المديات التي ترتبط بعدة إجراءات لزيادة المدى أو إنقاصه، ومسافة الرمي التي تقاس بقائس المسافات، ووصف وتسمية أجزائه المتحركة والثابتة والقطع الملحقة به، ثم

(٣٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٦ / ١٣٠، ٧ / ٨٤٤، ابن تغري: المنهل الصافي والمستوفي بعد

الوافي: ١ / ٢٣٤، ٢ / ٢٦٦، ٣ / ١٤٤، ٥٣، ٢٠، السخاوي: الضوء اللامع: ٢ / ٣٤، ٤١ / ٣٠٨،

٣٠٩، الظاهري: زبدة كشف الممالك: ١٢٥، القلقشندي: صبح الاعشى: ١١ / ١٧٣.

(٣٦): انظر مؤلفاته العديدة عن الرمح منها: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة: ٢٨ وما بعدها، ومخطوطة

اللعب بالرمح في معرفة الفروسية: ١٤ وما بعدها، ومخطوطة في عمل الرمح على الأرض والفرس: ٧٥ وما بعدها.

(٣٧): انظر مؤلفه الاتيق في المناجيق: ١٥١٤، ٤١، ٤٦، ٤٨، ١٦٣، ١٧٦، ٢٢١.

(٣٨): ابن تغري بردي: حوادث الدهور: ٣ / ٤٧٤، ابن كثير: البداية والنهاية: ١٣ / ٢١٩.

(٣٩): الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة: ٢٩، ناصر الدين: مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في

الفروسية ولعب الرمح: ٤١، ٤٢، الناصري: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ١٧،

ينتقل المدرب إلى دراسة المقذوفات التي يقذفها ونوعها ومدياتها وما إلى ذلك^(٤٠).

وقد أجاد ابن غانم الاندلسي بوصف هذا السلاح في كتابه «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع». وإذا كانت جميع الأسلحة ومواد التدريب الأخرى قد أخذت حيزاً من اهتمام القادة، فإن الخيل والتدريب عليها من أهم المسائل التدريبية لأنها تتصل من قريب أو بعيد بكل الأسلحة المستخدمة وبالفارس وهو على ظهر الخيل. وبهذا فإن المقاتلين الممالك كانوا على جانب كبير من الاهتمام بالخيول واقتناء الأفضل منها حتى ولو بلغت ثمناً مرتفعاً^(٤١) وهذا مما سهل على المقاتلين المناورة في الميدان وخفة الحركة، وتفوقت على غيرها من الخيول التي كانت في العالم ولاسيما تلك التي كانت مع الجيش المغولي. وقد اشتهرت مصر بخيلها في ذلك الوقت^(٤٢).

ولقد أجاد العرب من قبل في وصف الخيل وتعرضوا لجميع أعضائها وكانهم صوروا الخيول العربية هي الخيل الوحيدة التي تصلح للمعارك والقتال^(٤٣).

وكان للخيول سوق يجتمع فيه الجند لا بتياع أحسنها وإقتناء أفضلها^(٤٤). وقد اشتهر رجال عرفوا الخيل والسوابق منها وكان أشهرهم في العصر المملوكي الملك الناصر محمد^(٤٥). وحصيلة القول أن التدريب لا يعتبر عالياً إلا إذا كان الفارس قد أتقن ركوب الخيل بكل أشكاله وألوانه فركب والدابة تركز بسرعة، والنزول في أثناء المطاردة ثم القفز عليها وما إلى ذلك من حركات تمكنه من أن يكون قادراً على استخدام أسلحته المختلفة التي يحملها من على ظهر

(٤٠): الزردكاش: مخطوطة الانيق في المناجيق ١٥ وما بعدها، ١٦٣ وما بعدها،

(٤١): البلقيني: مخطوطة قطر السيل في أمر الخيل: ٨٨ وما بعدها، المقرئزي: السلوك: ٢ / ١ / ٢١٠، ٢٣٦.

(٤٢): المقرئزي: السلوك: ٢ / ٢ / ٥٢٦، النوري: الامام: ٤.

(٤٣): ابن هذيل: مخطوطة في الخيل والسلاح وما يتعلق بهما: ٨٣ ابن الرسول الغساني: مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة: ٣، ٤، ١٣، ٩٩، الالوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ٢ / ٧٥ وما بعدها النوري: نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٠ / ١ - ٧٨، ٢ / ١٧ - ٣١.

(٤٤): زيادة: دمشق في عصر المماليك: ١٥٩، الأسدي: أحياء حلب وأسواقها: ٣١٢.

(٤٥): المقرئزي: السلوك: ٢ / ٢ / ٥٢٧، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٩ / ١٦٨.

جواده^(٤٦). ويرافق إتيان ركوب الخيل اللياقة البدنية التي تكون نتيجة لتدريبات قاسية . والمعرفة التامة بطرق القتال بما فيها الخدعة والمرونة، وأخيرا الرمي والدقة في الإصابة^(٤٧).

خامسا - جيش الإنقاذ:

لم يكن الجيش المملوكي قبل معركة عين جالوت قد اجتمع في حرب قادة وجنودا، ولكنه كان مقودا من قبل الأيوبيين الذين كانوا أكراد الأصل إلا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب فضلهم على بني جنسه وقادهم في معارك كثيرة، وكانوا معه مثالا للطاعة والانضباط^(٤٨). وبدأ حكم المماليك بشجرة الدر التي كانت مملوكة تركية عند زوجها الملك الصالح الأيوبي التي حكمت فترة بسيطة بعد موت زوجها، وتعاقت بعدها السلالة الملكية التركية بالمعز أيك التركماني (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) وانتهت بالملك الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان (٧٨٤ هـ / ١٣٨١ م) على مدى / ٣١ / سنة. ثم أستلم المماليك البرجية الذين كانوا من أصل شركسي^(٤٩). أما الجيش المغولي فقد خبر الحرب عدة سنوات مع أغلب شعوب العالم، واجتمعت قيادته وجنوده على أصل واحد، وبهذا فهو جيش واثق من نفسه متأكد من نصره^(٥٠). وقد اجتاحت هذا الجيش بغداد وقضى على أهلها، وطمس حضارتها كما هي عادته في

(٤٦): البلقيني: مخطوطة قطر السيل في أمر الخيل: ١٤٤ وما بعدها، الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في تعلم الاعمال الفروسية: ٦٣ ناصر الدين: مخطوطة المخزون لارباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح: ٣٠ وما بعدها.

(٤٧): الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٣٦، المقريري: الخطط ٢ / ٤٨٩، ٣ / ٧٦.

Lane- poole, A History in egypt in the middle Ages 9 / 250

(٤٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٣٣١، ٣٧١، السيوطي: من المحاضر في تاريخ مصر والقاهرة: ٢ / ٣٦.

(٤٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٦ / ٣٧٤ وما بعدها، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١ / ٢ / ٣٦٨ السيد: مفتاح الذهب: ١٣٥، حتى: تاريخ العرب: ٧٦٢، شبلر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: ١٧٧.

(٥٠): أبو الفداء: تاريخه: ٣ / ١٩٠ - ٢١٤، ابن كثير: البداية والنهاية: ١٢ / ٢٢٠، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية: ٢ / ١٦٨.

المدن التي استولى عليها من قبل^(٥١). ثم مر بالجزء الشمالي من سورية من حلب فشرذ أهلها، ودمر بناءها، ومن حلب انحدر نحو الجنوب فاستولى على المدن السورية حماة وحمص ووصل إلى دمشق فأخضع أهلها، ودب الذعر في قادتها وأهلها فهرب منهم الكثير والتجأوا إلى مصر^(٥٢). ولم يبق أمامه سوى القطر المصري الذي إن أخضعه وقضى عليه فكأنها حكم العالم العربي، وأصبحت البلاد مفتوحة أمامه نحو العالم الغربي^(٥٣).

لقد أدرك الجيش المملوكي خطورة هذا الوضع المتفاقم، فأعلن النفير، ودقت طبول الحرب، واجتمع المجلس الحربي المملوكي وقرر الدخول في القتال مهما كلفه ذلك من ثمن^(٥٤). وتردد بعض القادة ظنا منهم أن الجيش المغولي جيش قوي له خبرته وشهرته العالمية، لكن الأمر، استقر على مجابهة هذه القوة الطاغية^(٥٥) وخرج الجيش المملوكي من مصر، والتقى بالجيش المغولي في عين جالوت من أرض فلسطين^(٥٦).

وكان النصر بجانب الجيش المملوكي الذي أولى فرصة ذهبية من الخلافات التي سرت في أعدائه، وانسحب القسم الأكبر من الجيش وبقي تشكيل يقدر بفرقة في الوقت الحاضر، ومن القوة المعنوية التي كانت تتأجج في النفوس ومن أمور كثيرة لا مجال لذكرها في هذا المكان أدت جميعها إلى انتصار الجيش المملوكي على الجيش المغولي الذي شرد في الأفاق وهرب من أرض

(٥١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٧ / ٤٩ - ٥١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في تاريخ من ذهب: ٥ / ٢٧١، ابن الوردي: تاريخه: ٢ / ٢٨٣، السيد: مفتاح الذهب: ١٣٠.

(٥٢): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٥ / ٢٧٢، أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع: ٢٠٤. ابن الوردي: تاريخه: ٢ / ٢٩٣ - ٢٩٦.

(٥٣): شوبلر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: ١٠٩، العربي: المغول: ٢٥ الشيال: تاريخ مصر الإسلامية: ٢ / ١٦٩.

(٥٤): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين: ١٢٥. الطياخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: ٢ / ٢٩٠، ٢٩١، زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي: ٥٨.

(٥٥): الهمداني: جامع التواريخ: ٢ / ١ / ٣١١ - ٣١٣، السبكي: طبقات الشافعية: ٨ / ٢٧٧.

(٥٦): الحموي: معجم البلدان: ٤ / ١٧٧، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والباقاع:

٢ / ٤٥٣، زيادة: دمشق في عصر المماليك: ٢٦ مرجعي: بلدانية فلسطين العربية: ١٧٠.

المعركة لايلوي على أحد^(٥٧).

أنقذ الجيش المملوكي أرض مصر وأهلها من شر الموجات المغولية، التي تحرق الأرض ومن عليها، كما أنقذ تلك الحضارة التي انتقلت من بغداد ونمت وآتت أكلها، وعاش المواطنون بكل أمان واطمئنان^(٥٨)، وكذلك فإنه أزاح كابوس الحكم المغولي والصليبي عن دمشق والأردن وفلسطين، بعد أن أستولى الجيش المغولي على قسم كبير من هذه البلاد وقد اتيج للظاهر ببرز فيما بعد أن يوطد دولته، وينظم جيشه، ويتصدى بكل حزم للمغول الذين كانوا يترصون الشر بالشام وأهلها^(٥٩)، كما أنقذ هذا الجيش المصريين، فإنه خلص أو أوقف ذلك المد الخطير على أوروبا التي لم يكن فيها آنذاك من القوة ما توقف زخم المغول ويطشهم الذي رافقهم منذ نشأتهم^(٦٠). صحيح أن المماليك اهتموا بالناحية العسكرية، وتركوا الوظائف الإدارية بأيدي غيرهم، وصحيح أن هذه الدولة كانت تعتني بشؤون القوات ووظائفهم وتدريبهم وتسليحهم، فالسلطان قائد عسكري يقود الجيش في المعارك والحملات القتالية والامير قائد يتولى قيادة تشكيل من التشكيلات المقاتلة والجندي مقاتل لا يرضى بغير القتال بديلا، إلا أنهم قدموا لمصر والشام وأوربا خدمات كبيرة كانت على مر السنين رمز الخير والعطاء ورمز الحياة والبقاء^(٦١).

وإن انتقلت من المعركة وأهميتها، فإني انتقل إلى أهمية الأستاذ الدكتور نقولا زيادة الذي - باطلاعه الواسع وقدرته العلمية، وخبرته العملية - أرشدني إلى هذا البحث لعلمه أنه

(٥٧): أبو الفداء: تاريخ: ٢ / ١ / ٢١٤، الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار: ١ / ٢٩، الإصحاق: اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول: ١٣٢.

(٥٨): شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: ١٠٩، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية: ٢ / ١٦٩.

Lane - poole, A History of egypt in the middle ages: 9 / 263 - 270.

(٥٩): بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢٤٣، ٣٦٧، حتي: تاريخ العرب: ٧٦٦ دائرة المعارف الإسلامية: ٤ / ٣٦٥.

(٦٠): أسعد: يولو: ١١ وما بعدها، البغدادي: الإفادة والإعتبار: ١٢٦. الشيال: تاريخ مصر الإسلامية.

(٦١): شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: ١٠٩، حتى: تاريخ العرب: ٧٦٢، ٧٦٦ وما بعدها.

قريب من اختصاصي العسكري والتاريخي ، ولصلته الوثقى بالفروسية والأعمال القتالية ، فإنه
كل شكري وتقديري ، وإليه الفضل الكبير في حسن الاختيار ، وبلوغ المقصد ، ونجاح هذا
البحث .

وكم كان تقديري كبيراً للمدير معهد التراث العلمي العربي بحلب والعاملين معه ، حين
سهلوا علي الوصول إلى المخطوطات والمصادر والمراجع الموجودة في هذا الصرح العلمي ،
والمتعلقة بصميم هذا البحث ، فألى المدير والعاملين فيه شكري الوفور وثنائي الممدود .
ولا يفوتني أن أتقدم بعظيم الامتنان والتحية إلى كل من قرأ واطلع على هذه الأطروحة .

مدخل تعريف تقويمي بأهم المصادر

اتسم العصر المملوكي في مصر والشام بغزارة الكتابات التاريخية فقد ظهر فيه عدد كبير من المؤرخين الذين أوقفوا جهودهم اما على التاريخ العام أو الخاص أو السير أو التراجم وغير ذلك من الفنون، ويقتضي البحث في أحداث معركة جالوت ومقدماتها ونتائجها، الاطلاع على نوعين أساسيين من المصادر: أولهما المصادر التاريخية مع كتب الجغرافية والادارة وبقية المعارف وثانيهما الكتب التي أوقفت على فنون الحرب والسلاح وهي كثيرة جداً ولا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً.

وكان المؤرخ والجغرافي الحلبي عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، أبو عبد الله الأنصاري، قد عاصر قيام دولة المماليك، فهو قد ولد في حلب سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٧ م وعاش فيها حتى كان الغزو المغولي، فهرب منها وتوجه إلى مصر والتحق بخدمة السلطان الظاهر بيبرس، وظل في مصر حتى توفي سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م.

وكان ابن شداد مؤرخاً وجغرافياً صنف عدة كتب أهمها كتاب «الأعلاق الخطيرة» وقد غلب الطابع الجغرافي على هذا الكتاب ولهذا سنعود إلى الحديث عنه لدى الإشارة إلى غيره من المصادر الجغرافية، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى كتابه الذي أرخ به لحياة السلطان بيبرس وعصره، وهذا الكتاب أهم مصدر في بابه حوى من تفاصيل الأخبار ودقتها ما لا نجده عند غيره، لكن لسوء الحظ ان ما وصلنا منه يشكل قطعة صغيرة من آخر الكتاب وتحتوي هذه القطعة على مواد ثمينة ومفيدة على اختصارها^(١).

ولا يقل مكانة عن ابن شداد القاضي محيي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ - ١٢٩٢ م) فقد كان كاتباً في ديوان الانشاء في القاهرة عندما تولى السلطنة الظاهر بيبرس، وقد عاصر ابن عبد الظاهر قيام السلطنة المملوكية وكان من شهود عيان معركة

(١): نشرت قطعة كتاب ابن شداد بعنوان: «تاريخ الملك الظاهر» تحقيق أحمد حطيط، بيروت ١٩٨٣ انظر

مقدمة المحقق ص ٩ - ٢٧

عين جالوت، وظل طوال عصر يبرس محتلا وظيفة كاتب الانشاء، وتابع ذلك أيام السلطان المنصور قلاوون ثم ابنه من بعده الأشرف خليل.

دون ابن عبد الظاهر سيرة كل واحد من هؤلاء السلاطين الثلاثة في كتاب منفرد هم: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور» الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، وقد أودع هذه الكتب من المعلومات ما لانجده لدى مؤرخ آخر.

على أنه يلاحظ أن كتاب الروض الزاهر هو الوحيد بين الثلاثة الذي وصلنا كاملا، وعلى الرغم من ذلك فإن مجاء في الكتب الثلاثة هو تاريخ لعصر غني بالأحداث معتمد بشكل خاص بالنسبة لمعركة عين جالوت ونتائجها في بلاد الشام ومصر^(٢).

ويحتوي كتاب «ذيل مرآة الزمان» لقطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد اليونين البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) على مواد غنية جداً حول الفترات المبكرة من العصر المملوكي، ولا سيما حول تطورات الأوضاع في بلاد الشام بشكل عام أثناء الاجتياح المغولي وفترة عين جالوت، وعلى الرغم من أن هذه المواد قد عرفت بشكل مشوش بعض الشيء. لكن ماورد خلال أخبار الحوليات وفي داخل تراجم الوفيات ثمين جداً والافادة منه كبيرة^(٣).

وكان المهاليك قد قاموا إثر استيلائهم على بلاد الشام بتصفية الدويلات الأيوبية في هذه البلاد باستثناء مملكة حماة الأيوبية التي عاشت فترة طويلة. وكان أبرز الأيوبيين الذين حكموها في العصر المملوكي أبو الفداء إسماعيل بن علي (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣٢ م) وأبو الفداء هو صاحب شهرة واسعة نبعت من اسهاماته في ميداني علم التاريخ والجغرافية عند العرب، فقد خلف لنا بالتاريخ كتابه «المختصر في أخبار البشر» واسم كتابه بالجغرافية «تقويم البلدان» وميشار إليه بين كتب الجغرافية.

-
- (٢): نشر كتاب «الروض الزاهر» محققا من قبل عبد العزيز الخويطر، بيروت ١٩٧٦ وقبله كان قد جرى نشر كتاب «تشريف الأيام والعصور» محققا من قبل مراد كامل، القاهرة ١٩٦١ وقبل ذلك بأمد طويل نشر الجزء الثالث من كتاب الألفاظ الخفية محققا من قبل أكسل مويرغ لاينغ ١٩٠٢
- (٣): نشر كتاب «ذيل مرآة الزمان» في أربعة أجزاء وطبع في حيدر أباد الهند ١٩٥٤ - ١٩٦١

وبالنسبة لكتاب «المختصر في أخبار البشر» نلاحظ أن المواد الاخبارية لأحداث قيام الحكم المملوكي وأحداث الاجتياح المغولي هي ذات قيمة أساسية، فقد عاصر أبو الفداء بعض الأحداث التي شهدتها العصر المملوكي وحتوت سجلات مملكته الكثير من الوثائق التي عاد إليها^(٤).

ويعتبر الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٧ م) أشهر مؤرخي العصر المملوكي وأغزرهم إنتاجاً، وقد اشتهر كمحدث أيضاً، وكان أهم ماكتبه بالتاريخ كتاب «تاريخ الإسلام» واستخرج من هذا الكتاب عدة كتب مع شيء من الإضافات وطبع من هذا الكتاب بعض الأجزاء فقط، وهنالك أكثر من محاولة للنشر، وأودع الذهبي جل المواد الاخبارية الواردة في كتابه الكبير في كتاب سباه «دول الإسلام» وفي كتاب آخر دعاه «العبر» وفي مواد هذين الكتابين فوائد لا بأس بها^(٥).

وكان ابن الاثير الجزري حين اعتبر كتابه كاملاً في التاريخ، فعل ذلك على أساس اختصاره لتاريخ الطبري وإكماله حتى عصره مع بعض الاستدراكات وقام أبو الفداء باختصار الكامل وإكماله حتى أيامه، وبعد وفاة أبي الفداء جاء ابن الوردي عمر بن مظفر بن عمر المعري (٦٩١ - ٧٤٩ هـ / ١٢٩٢ - ١٣٤٩ م) فاختصر كتاب أبي الفداء وأكماله بعنوان «تتممة المختصر في أخبار البشر».

وكان ابن الوردي شاعراً أديباً وفقهياً تولى القضاء بمنج و توفي بحلب، وقد صنف عدة كتب في التصوف والأدب والنحو وغير ذلك لكن الفائدة بالنسبة لنا جاءت من خلال العودة لمواد «تتممة المختصر»^(٦).

ويعتبر كتاب البداية والنهاية لابن كثير من أشهر كتب تاريخ الإسلام العامة، وأهمها،

(٤): لكتاب أبي الفداء «المختصر في أخبار البشر» طبعة عثمانية غير محققة جاءت في أربعة أجزاء وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب بالتصوير في بيروت من قبل دار المعرفة بلا تاريخ.

(٥): نشر كتاب دول الإسلام محققاً من قبل فهمي محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم وطبع في جزئين في

القاهرة ١٩٧٤ وطبع كتاب العبر في الكويت ١٩٦٦ - ١٩٨٤

(٦): طبع كتاب تتممة المختصر في بيروت في مجلدين سنة ١٩٧٠ انظر الزركلي «مادة عمر».

ويحتوي هذا الكتاب على مواد غنية من العصر المملوكي ذلك أن ابن كثير عماد الدين إسماعيل القرشي (ت ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م) كان من عاش في دمشق المملوكية وشهد العديد من الأحداث كما أنه نقل عن تقديمه من المؤرخين، فقد نقل محتويات كتاب تاريخ البرزالي (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) المعروف باسم «الملتقى على تاريخ أبي شامة» وقد قلل من مكانة مواد ابن كثير كون مصادره باتت متوفرة، ومع ذلك أن نوع الاختيار والاقتباس مع مادونه من أخبار عصره أمور لها مكانتها، ولهذا جرت العودة إلى ابن كثير والأفادة منه^(٧).

ومثلما نبغ في بلاد الشام عدد من المؤرخين كبير شهدت مصر إقدام عدد من العلماء على التصنيف بالتاريخ العام بشكل حولي أو بالتاريخ الخاص، وكان من هؤلاء الحسن بن عمر بن الحسين بن عمر بن حبيب (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) وقد صنف ابن حبيب عدة كتب أوقفها على أخبار المهالك الأوائل كان منها كتاب «ذرة الاسلاك» ثم كتاب «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه» والمخطوطات المتوفرة من هذا الكتاب لا يمكن الأفادة منها، وأما الكتاب الآخر فقد نشر منه جزءان في القاهرة، وهوان حوى بعض المواد الاخبارية المقيمة، لقد كانت درجة الأفادة من الكتاب بشكل عام محدودة لغلبة الطابع الادبي والصنعة عليه^(٨).

ويعتبر ابن الفرات المصري ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٧٠٨هـ / ١٤٠٥م) من كبار المؤرخين المصريين في العصر المملوكي ذلك أنه وفر لنا بكتابه «تاريخ الدول والملوك» مواد ثمينة تعلقت بعدد كبير من الاحداث السياسية والعسكرية أثناء التصدي للغزو المغولي وخلال وقائع معركة عين جالوت.

لقد وصلتنا بعض مصادر ابن الفرات، وبعضها الآخر لم يصلنا، أضف إلى هذا أنه عاصر أحداثاً جمة فدون أخبارها كما وصلت بشكل رسمي إلى دوائر الدولة في القاهرة، ولهذا كانت

(٧): طبع كتاب البداية والنهاية في أربعة عشر جزءاً سنة ١٩٣٢ - ١٩٤٠ وأعيد طبعه بطريقة الافست وغيرها مراراً، والكتاب بحاجة للتحقيق وضبط النص بشكل دقيق.

(٨): نشر الجزء الأول ثم الثاني من تذكرة النبيه بتحقيق محمد أمين في القاهرة سنة ١٩٧٦ - ١٩٨٢، وهناك قطعة منشورة من ذرة الاسلاك غير متوفرة.

الافادة من هذا الكتاب كبيرة^(٩).

وكان ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) من المؤرخين الذين أمضوا شطراً من حياتهم في مصر والشام أيضاً، وابن خلدون أشهر من أن يعرف، وشهرته نابعة مما جاء في مقدمة كتابه في التاريخ بعنوان «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر».

والمهم بالنسبة للعصر المملوكي ليس المقدمة ولا محتويات كتاب التاريخ بشكل عام بل مشهده أثناء قيام دولة المماليك الثانية وحملات تيمورلنك ضد بلاد الشام^(١٠).

وكان ابن خلدون صاحب مدرسة تاريخية واسعة التأثير، وكان ممن تأثر به بشكل كبير المقرئزي مؤرخ مصر الإسلامية، ونظراً للمكانة العالية لهذا المؤرخ ولكونه قدم أهم ما صنف بأخبار الدولة المملوكية يستحق أن نقف عنده أكثر من سواه ونوليه المزيد من العناية.

والمقرئزي هوتقي الدين أحمد بن علي ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م من أسرة تنتمي بالأصل إلى بلدة بعلبك إلا أنها كانت تقطن في حي من أحياء البلدة عرف باسم حي المقارزة زالت الآن معالمه ولم يعد أحد يعرفه.

نشأ المقرئزي في كنف جده لأمه ويعرف بابن الصائغ، وكان من علماء الحنفية، ولهذا تأثر الحفيد بالجد فكان حنفياً حتى غدا شاباً فتحول آنذاك إلى المذهب الشافعي.

وحصل المقرئزي على ثقافة عالية، والتحق بعدد من الوظائف السامية، كما قام بزيارة عدد من بلدان الوطن العربي خاصة مكة ودمشق وأقام في كل منها فترة طويلة، وقد انتهت حياته بالقاهرة سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

وكان المقرئزي غزير الانتاج وخاصة في ميادين التاريخ، ويمكن تصنيف انتاجه في هذا الباب إلى قسمين: المؤلفات الكبيرة والرسائل الصغيرة، وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة أما على

(٩): جاء كتاب ابن الفرات في عشرة مجلدات، وتوجد نسخة خطية منه بخط المؤلف، تسعة مجلدات منها في فيينا والعاشر في مكتبة الفاتيكان، ونشر من هذا الكتاب حتى الآن قرابة نصفه في بيروت التاسع ١٩٣٦، الثامن

١٩٣٨، السابع ١٩٤٢، واثنان في بغداد الرابع ١٩٦٧ - ١٩٦٩، والخامس ١٩٧٠.

(١٠): طبع تاريخ ابن خلدون عدة مرات في مجلدات متعددة مامن طبعة يمكن اعتبارها علمية دقيقة، أما كتاب التعريف بابن خلدون فقد حققه محمد بن تاويت الطنجي وطبع في القاهرة عام ١٩٥١

موضوع من مواضيع التاريخ الإسلامي العام، أو على تاريخ مصر الإسلامية السياسي والعمراني، عبر عدة مراحل أولها منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الحكم الفاطمي، وثانيها تاريخ الخلافة الفاطمية حتى سقوطها، وثالثها - وهو ما يهمنا - منذ نهاية العصر الفاطمي وحتى أيامه في العصر المملوكي.

أما الرسائل الصغيرة فقد عالج فيها المقرئ عددا من المواضيع الهامة للغاية ارتبط معظمها بمشاكل العصر المملوكي، وفي هذه الرسائل تظهر أصالة المقرئ وعبقريته العظيمة، ويتصدر هذه الرسائل:

١ - الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك.

٢ - شذور العقود في ذكر النقود.

٣ - إغاثة الأمة بكشف الغمة.

لسنا بحاجة للحديث عن مصنفات المقرئ الكبيرة باستثناء كتابه السلوك، وقد أوقف المقرئ هذا الكتاب على التاريخ المملوكي مقدما له بأخبار الأيوبيين، ويعد هذا الكتاب العملاق المصدر الأساسي الذي لا يستغنى عنه في التاريخ المملوكي، ولحسن الحظ تم نشره كاملا باتني عشرة مجلدا كبيرا.

ومادنا بصدد الحديث عن المقرئ من المفيد أن نشير إلى كتابه الذي وضعه حول خطط القاهرة بعنوان «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، لأنه أساسي في التاريخ العمراني لهذه المدينة ولأصولها الإسلامية: قطائع أحمد بن طولون وفسطاط عمرو بن العاص، وأن نشير أيضاً إلى أن المقرئ شرع قبل وفاته بتصنيف كتاب على غرار تاريخ دمشق لابن عساكر أراد أن يؤرخ به لمصر والواردين إليها، وأراد أن يأتي كتابه هذا بثانين مجلدا مثل كتاب ابن عساكر، وقد دعاه باسم «المفاتيح الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها»، وقد لحق المقرئ بربه قبل أن يتاح له إكمال مشروعه الكبير هذا الذي بوبه حسب حروف المعجم، وقد قيل إنه كتب منه ستة عشر مجلدا قبل أن يتوفى.

لاندري مدى صحة هذه الرواية، ولاندري بالوقت نفسه حجم المجلد لدى المقرئ، والمعروف هو وجود خمسة مجلدات كبيرة من هذا الكتاب أربعة منها بخط المقرئ وهي موزعة

على مكتبات : لندن وباريس واستانبول ، وتحتوي هذه المجلدات - لاسيما الأول منها - مواد ثمينة جدا تحتاج إلى جهود طويلة لاستثمارها وحسن الاستفادة منها^(١١).

وفي بلاد الشام كان ابن قاضي شهبة أبوبكر أحمد الأسدي الدمشقي (٧٧٩-٨٥١هـ/١٣٧٧-١٤٤٨م) أعظم مؤرخيها أيام المقيزي وقد كتب تاريخا كبيرا ذيل به على تاريخ ابن كثير «البداية والنهاية» ثم اختصر هذا التاريخ، وكان حجم هذا المختصر كبيرا، نشر منه محققا الجزء الثالث، وهناك آمال بنشر بقية أجزاء الكتاب^(١٢).

إن ضخامة الانتاج التاريخي في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر ميلادي وجودته تلفت الانتباه، وهي ظاهرة جديرة بالدراسة من جميع الجوانب للتعرف إلى محصلات العصر المملوكي حضاريا وثقافيا، والنظر فيما إذا كان حقاً عصر انحطاط - كما يدعى عادة - أم عصر تفتح وتحولات كبيرة لم يكتب لها العيش لأسباب كثيرة.

وكان من بين كبار مؤرخي هذا العصر ابن حجر العسقلاني وهو أحمد بن علي بن حجر الشافعي العسقلاني الأصل، المصري المولد، القاهري الدار والنشأة (٧٧٣-٨٥٣هـ/١٣٧٢-١٤٤٩م) وقد اختلف ابن حجر إلى المعلمين والشيخ وعني بالدرجة الأولى بدراسة الحديث ورجاله. ودرس الفقه واللغة والحساب ونال قسطاً وافياً من علوم عصره.

كان ابن حجر غزير الانتاج وجيده، وكان الحديث ورجاله ميدان عمله الأساسي، ومع الحديث كتب بالتاريخ والتراجم، وكان كتابه «أنباء الغمر بأبناء العمر» أهم كتبه التاريخية، وسنشير إلى ماكتبه في ميدان التراجم أثناء الحديث عن هذا النوع من المصنفات.

تولى ابن حجر عدداً من المناصب العالية، وكانت له صلات شخصية ببعض السلاطين كما كان من أصحاب الرحلة في تتبع الاخبار داخل مصر وخارجها في الشام والحجاز واليمن، وأتاح له هذا كله ما لم يتح لغيره، فاطلع على معلومات عجز معاصروه عن الوصول إليها أودعها في

(١١): انظر سهيل زكار: اخبار القرامطة ص ٧١-٧٥ اتعاظ الحنفا - ط. القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ١١-٢٣.

(١٢): نشر الجزء الثالث محققاً من قبل عدنان درويش في دمشق ١٩٧٧ وجاء عمله فيه بمثابة جزء من أطروحة لنيل دكتوراه حلقة ثالثة في فرنسا - جامعة ليون.

كتبه التاريخية (١٣)

وفي القرن التاسع / الخامس عشر صنف أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) موسوعته التاريخية الكبيرة «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». وكان أبو المحاسن من أصل مملوكي، فلقد كان أبوه أتباعاً للعساكر بمصر ثم كافلاً للمملكة الشامية، وقد أتاح هذا له فرصة الاطلاع على كثير من تفاصيل أخبار عصره السياسية والإدارية والعمرانية، ومن هذا الباب جاء كتابه مفيداً لا بد من العودة إليه مراراً (١٤). واستمرت حركة التاريخ نشطة في القرن العاشر هـ / السادس عشرم وأهم مؤرخي هذا القرن علي بن دواود الصير في المعروف بالخطيب الجوهري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) ومحمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ / ١٤٢٤م) ومحمد بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م). صنف ابن الصير في كتاب «نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان» وصنف ابن إياس «بدائع الزهور في وقائع الدهور» أما ابن طولون فقد صنف العديد من الكتب الهامة عن دمشق وقلعتها وغوطتها وقراها، ومن أهم كتبه «تاريخ الصالحية» و«مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وإعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى» وكتب ابن طولون ومن عاصره مفيدة جداً ويمكن أن نصنف معها كتاب «التبر المسبوك في ذيل السلوك» للسخاوي (١٥). وشكلت الكتب المذكورة أعلاه بعض أهم التواريخ العامة للعصر المملوكي ويكمل ماجاء بها من معلومات ويغنيها كتب التراجم وهي كثيرة جداً سأتناول بالذكر أهمها فقط.

(١٣): حظي كتاب - أبناء الغمر بعناية كبيرة فنشر في وقت واحد في كل من القاهرة ودمشق وحيد آباد - الدكن في الهند.

(١٤): طبع كتاب النجوم الزاهرة محققاً من قبل دار الكتب المصرية في ست عشر مجلدة كبار آخرها سنة ١٩٧٢ انظر ج ١ ص ٣ - ٢٨

(١٥): ستمحدث عن السخاوي فيما بعد لدى ذكر كتب التراجم، وقد طبع كتاب نزهة النفوس محققاً في القاهرة في ثلاثة مجلدات من قبل حسن حبشي: ١٩٧٠ - ١٩٧٣ وطبع كتاب «بدائع الزهور» أكثر من مرة كان منها من قبل كتاب الشعب: ١٩٦٠ - ١٩٦١ وطبع تاريخ الصالحية وإعلام الورى أكثر من مرة بتحقيق المرحوم محمد أحمد دهمان، وطبع كتاب مفاكهة الخلان في القاهرة ١٩٦٢ - ١٩٦٣.

كان أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الأصل الدمشقي (٥٩٩-٦٦٥هـ/١٢٠٣-١٢٦٧م) قد عاصر قيام دولة المماليك وقد صنف في تاريخ الحروب الصليبية كتاب «الروضتين» وهو واسع الشهرة، وصنع للروضتين ذيلًا ترجم به لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين كما دون بعض أخبار الحوادث التي عاصرها وعلى هذا يمكن اعتبار مواده شبه وثائقية وعظيمة الأهمية لا يمكن الاستغناء عنها^(١٦).

وكان صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) من أشهر العلماء الذين أنجبهم صفد، ويعتبر كتابه «الوافي بالوفيات» من كتب التراجم الهامة وأوفاهها قاطبة، ويحوي هذا الكتاب تراجم عدد وافر من شخصيات العصر المملوكي، وبالنظر لكثرة رحلات المؤلف ولتسلمه لعدد من المناصب العالية فقد وقف على عدد من الوثائق الرسمية وأودع ماجاء بها في كتابه وهكذا تتضح أهمية هذا المصدر ومكانته^(١٧).

وقد أهتم المصنفون في العصر المملوكي بكتب التراجم مرتبة حسب سني وفيات الشخصيات أو حسب حروف المعجم، والمبدأ الثاني قد اعتمده ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» وابن شاکر الكتبي في كتابه «وفات الوفيات» وابن أيبك السالف الذكر، واعتمد المبدأ الأول محمد بن رافع السلامي (٧٠٤-٧٧٤هـ/١٣٠٥-١٣٧٢م) في كتاب حمل اسم «الوفيات» ومادة هذه الكتب هامة جدا بالنسبة لكل باحث في شؤون وأحداث العصر المملوكي^(١٨). ولقد لاحظنا قبل قليل أن أبا شامة أهتم بالترجمة لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين، ويعلده جاء ابن حجر العسقلاني الذي سبق ذكر مصنفه كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» والمعلومات الممكن استخلاصها من هذا الكتاب غنية تفيد في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والعسكرية^(١٩).

(١٦): طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٩٤٧ ثم أعيد طبعه بالتصوير في بيروت ١٩٧٤

(١٧) - يتولى العهد الألماني في بيروت منذ عام ١٩٦١ العمل على نشر هذا الكتاب محققا وجرى حتى الآن نشر نصفه تقريباً.

(١٨): طبع كتاب «وفيات الأعيان» أيضا أكثر من مرة أشهرها بعناية «معي الدين عبد الحميد» وطبع كتاب

الوفيات لابن رافع مرتين في بيروت ١٩٨٢ وفي دمشق ١٩٨٥

(١٩):

وسبقت الإشارة إلى أبي المحاسن بن تغري بردي وكتابه النجوم الزاهرة، ولأبي المحاسن كتاب هام بالتراجم هو «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» وواضح من عنوان الكتاب أنه جاء بمثابة عمل متمم لكتاب الوافي بالوفيات ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة آلاف ترجمة فيها مواد مفصلة على غاية من الأهمية^(٢٠).

وكان محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢/١٤٩٧م) من أشهر المؤرخين في أواخر العصر المملوكي وأغزرهم إنتاجاً، فقد ذيل على كتاب السلوك بكتاب سماه «التبر المسبوك» كما صنف «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وهو من كتب التراجم الواسعة وبالتالي أغزرها مادة، ويكمل هذا الكتاب مواد كتاب «الدرر الكامنة» وهوبيا حواه من تفاصيل يعد مصدراً أساسياً لكل باحث في تاريخ العصر المملوكي^(٢١).

وجاء بعد السخاوي نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ/١٦٥١م) فصنف كتاب «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» وقد تضمن هذا الكتاب تراجم عدد كبير من الشخصيات التي عاشت في أواخر العصر المملوكي، ويمكننا اعتباره حلقة متممة لسلسلة كتب تراجم القرون^(٢٢).

ويمكن أن نعتبر كتاب «مرآة الجنان وعبرة اليقظان» لعبد الله بن أسعد اليافعي بين الكتب التي غلب عليها طابع التراجم، والحاوي بالتالي لبعض المواد المفيدة، لكن أهم منه وأشهر كتاب «شذرات الذهب» لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨م) فهو من أوسع كتب التراجم شهرة فيه مواد وإشارات تاريخية غنية ومفيدة^(٢٣).

(٢٠): نشر جزء من هذا الكتاب في القاهرة ١٩٥٦ ثم أعيد طبعه حديثاً مع جزئين آخرين.

(٢١): طبع هذا الكتاب في أربعة أجزاء في حيدر آباد الدكن - الهند - بدون تاريخ وأعيدت طباعته بالتصوير في بيروت دار الجيل (بدون تاريخ أيضاً).

(٢٢): طبع هذا الكتاب محققاً في بيروت سنة ١٩٤٥.

(٢٣): طبع كتاب مرآة الجنان في حيدر آباد الدكن - الهند سنة ١٣٣٧ هـ وجاء في أربعة مجلدات ثم طبع ثانية بالتصوير في بيروت سنة ١٩٧٠.

وطبع كتاب شذرات الذهب في أربعة مجلدات حوى كل منها جزءاً من بيروت من قبل المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بدون تاريخ).

والمستعرض لأنواع الكتب التي صنفت خلال العصر المملوكي يلاحظ كثرة الكتب المتعلقة بالادارة والأمور العسكرية وذات السمة الموسوعية من ذلك :

كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» تصنيف شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت ١٣٤٨/٧٤٩) ويعد هذا الكتاب من أقدم الكتب في بابهِ ، يقدم المعلومات الموثقة حول نيابات الدولة المملوكية وطبيعة الإدارة في هذه الدولة وأهم الوظائف المدنية والعسكرية فيها^(٢٤) .

واعتمد هذا الكتاب وطوره شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) في الموسوعة الواسعة الشهيرة «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» ويحتوي هذا الكتاب على تفاصيل وافية لما أوجزه العمري ويزيد في إعطاء معلومات جغرافية واقتصادية وإدارية هامة جداً ، كما أن النصوص الوثائقية الواردة فيه لا يمكن الاستغناء عنها^(٢٥) .

ويحتوي كتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لفرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) على معلومات إدارية شديدة الأهمية حول نيابات الدولة المملوكية وهو يزودنا بعملومات مفيدة حول مراكز البريد وغير ذلك من إدارات الدولة^(٢٦) .

ويمكن أن نشير في هذا المقام إلى أهمية كتاب «معيد النعم ومبيد النقم» لتاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م) وكتاب «التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار» لمحمد بن محمد بن خليل الاسدي من رجال القرن التاسع الهجري /الخامس عشر ميلادي لما حواه من معلومات لها علاقة بالادارة والحياة العامة^(٢٧) .

وأهم منهما ما جاء في موسوعة نهاية الأرب للنويري ، وهو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم التميمي البركي ، عرف بلقب شهاب الدين ، وشهر بالنويري نسبة إلى نويرة ،

(٢٤) : طبع كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» بمجلدة لطيفة في القاهرة سنة ٣١٣ هـ وذلك بدون ضبط علمي للنص أو تحقيق .

(٢٥) : لقي كتاب صبح الأعشى عناية كبيرة وقد نشر محققاً بالقاهرة سنة ١٩١٠ - ١٩٢٠ - ١٩٧٢ وجاء في خمسة عشر مجلداً مع الفهارس .

(٢٦) : نشر كتاب «زبدة كشف الممالك» محققاً في باريس سنة ١٨٩٤

(٢٧) : طبع كتاب معيد النعم في بيروت ١٩٨٣ وطبع كتاب التيسير في القاهرة ١٩٦٧ .

وهي قرية من قرى بني سويف في مصر، وكانت ولادته - كما هو مرجح - سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م وحسب بعض الروايات سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢ / ١٣٣١م وهو من أبناء الخمسين.

نال النويري ثقافة جيدة، ويروى أنه عمل في الوراقة حيث كان ينسخ بخط يده الكتب ويبيعها، حتى أنه نسخ صحيح البخاري ثمان مرات. وكان خطه من الجودة والضبط بمكان، وهو يأتي على رأس الموسوعيين العرب، ونال شهرته من خلال تصنيف كتابه «نهاية الأرب في علم الأدب» وجاء هذا الكتاب في ثلاثين مجلدة كبار، ولم تنشر أجزاء تاريخ المهالك بعد، لكن ما نشر حتى الآن مجوي معلومات ثمينة عن المغول^(٢٨)

وتحتوي كتب المكتبة الجغرافية معلومات مفيدة حول العصر المملوكي، فقد عاصر - كما سلف بنا القول - المؤرخ والجغرافي بن شداد الحلبي ظهور الدولة المملوكية وقدم في كتابه «الأعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة» معلومات لا يمكن الاستغناء عنها^(٢٩).

وبالإضافة إلى كتاب الأعلاق الخطيرة يحتوي كتاب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» لشيخ الربوة محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) على معلومات مفيدة فيها وصف لنيابات بلاد الشام ولأعمالها مع بعض الاشارات الأخرى الكثيرة الفائدة^(٣٠).

وسبق أن أشرنا إلى أبي الفداء وإلى كتابه المختصر في أخبار البشر، وفي الحقيقة أن شهرة أبي الفداء قائمة على إسهاماته الجغرافية أكثر من إسهاماته التاريخية، فكتاب «تقويم البلدان» عد في مقدمة كتب الجغرافيين العرب ويحتوي هذا الكتاب على معلومات مفيدة من الدولة المملوكية ومدنها وقلاعها، لكن ينبغي التعامل مع هذه المعلومات بشيء من الحذر حيث أنها لا تمثل بشكل مطلق العصر المملوكي بل ما سبقه من عصور لأنه استقاها من مصنفات مبكرة

(٢٨): نشر من كتاب نهاية الأرب حتى الآن سبع وعشرين مجلدة بشكل محقق في القاهرة انظر سهيل زكار-

أخبار القرامطة ٧٠ - ٧١

(٢٩): كملت الآن عمليات نشر هذا الكتاب في دمشق وصحنا منه جزء لبنان والاردن وفلسطين، وقد نشر هذا

الجزء في دمشق عام ١٩٦٢

(٣٠): نشر هذا الكتاب في بطرسبورغ سنة ١٨٦٥ بشكل محقق.

التاريخ وليست وليدة مشاهدات المصنف^(٣١).

وزار مصر والشام خلال العصر المملوكي عدد كبير من الرحالة العرب وغير العرب، كان ابن بطوطة أشهرهم على الإطلاق، وابن بطوطة هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) وقد قام برحلة واسعة انطلق فيها من المغرب أيام المرينيين سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) وقد وصف ديار السلطنة المملوكية وصف شاهد عيان وتعتبر معلوماته على غاية من الأهمية، ولا يقلل مطلقاً من أهميتها أن ابن بطوطة أملى أخبار رحلته إملاء، وأنها وصلتنا كما صيغت من قبل واحد من تلاميذه^(٣٢)، وبما أن وظيفة الحسبة ظلت قائمة خلال العصر المملوكي ولها دورها المتميز، فقد شهد هذا العصر تصنيف عدة كتب في أمور الحسبة شهر منها كتاب «الحسبة» لابن تيمية الحراني، وتكمن أهمية هذا الكتاب فيما حواه من أفكار تتعلق بالحكم والسياسة الشرعية^(٣٣).

وامتاز العصر المملوكي بكثرة المصنفات التي نشرت حول العلوم العسكرية بشكل عام وخاص، وقد نشر بعض هذه المصنفات لكن جلها مازال مخطوطاً وسنعرض لأهم هذه الكتب بعد قليل^(٣٤).

ويلاحظ أن تاريخ الممالك قد لاقى عظيم الاهتمام في أوساط الاستشراق وقد تركزت هذه الدراسات على الأمور السياسية والتنظيمية العسكرية بشكل عام، وحين انتقل الاهتمام بهذا التاريخ إلى الباحثين العرب، ولا سيما في مصر حافظ هؤلاء الباحثون على هذه الاهتمامات ومركزوها حول مصر إلى أبعد الحدود، وحين مدوها إلى الشام جاء ذلك بشكل عابر وبدون تحليل أو تفسير، ولهذا كان مطلوباً بشكل مسوغ إيقاف دراسة معمقة حول معركة عين جالوت الفاصلة.

(٣١): نشر كتاب تقويم البلدان في باريس سنة ١٨٤٠م

(٣٢): طبعت رحلة ابن بطوطة أكثر من مرة من ذلك سنة ١٩٥٨ في القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى.

(٣٣): طبع كتاب الحسبة لابن تيمية أكثر من مرة من ذلك طبعة كتاب الجمهورية الديني - القاهرة - بلا تاريخ.

(٣٤): أوقفت مجلة المورد البغدادية عدداً خاصاً من أعدادها على الفكر العسكري عند العرب (المجلد الثاني

عشر - العدد الرابع - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م) انظر ص / ٧٩ - ٩٠ ، ٢٢٣ - ٢٥٢ - ٣٠٥ - ٤٢٠ .

ولقد كان لكل كاتب من الكتاب السابقين واللاحقين نصيب في معركة عين جالوت، بعضهم فصلها وآخرون اختصروا أخبارها، هذا ولم يتعرض العسكريون لجميع النقاط العسكرية في العمليات وأنواع القتال ومشرح العمليات^(٣٥) ولكنهم تناولوها من جانب واحد أو أكثر بقليل وتركوا أمور هامة تتعلق بالادارة والقيادة والتنظيم والتدريب والشؤون العامة، ومن هنا تأتي أهمية اختبار هذا الموضوع الذي سيتطرق إلى كل ناحية عسكرية في هذه المعركة التي عدت من المعارك الفاصلة في تاريخ العرب المسلمين، والتي استندت في مجرياتها ووقائعها إلى العقيدة والتصميم على النصر وإلى التضحية والنضال في سبيل الوصول إلى الهدف.

وتفاوتت أهمية الكتاب والباحثين الذين تعرضوا لهذا الموضوع تبعاً لمتزلة كل منهم الثقافية والأدبية والعسكرية، وللثقة وصدق الرواية والحديث، وللعهد القريب وللصلة الكبيرة بها، وللسماع والمشاهدة لآحداثها ووقائعها، ولقد اعتبر هؤلاء من الرواد الذين استقينا منهم البحث، وجعلناهم مصدراً معتمداً حيث رجعنا إليهم وأخذنا عنهم وذلك شروعاً بحسن الاحدب ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م وحتى ابن طولون ٩٥٣/ ١٤٥٧.

(٣٥): انظر الجيش العربي في عصر الفتوحات للعقيد هندي، والجيش المصري في العصر الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد: ١٢٦٠ - ١٨٠٧ للعقيد زكي وتاريخ مصر إلى الفتح العثماني للاسكندر الميجر. ج. سقدج

الرماح حسن الأحذب بن أيوب نجم الدين
(١٢٩٥هـ/١٢٩٦م)

لهذا المؤلف عدة مخطوطات أهمها: الفروسية والحرب والأسلحة، الفروسية برسم الجهاد، في علم الفروسية برسم العمل به، في عمل الرمح على الأرض والفرس، اللعب بالرمح في معركة الفروسية، وتوجد المخطوطة الأولى بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم /٢٨٢٥/ والثانية على نسختين إحداهما في مكتبة أحمد الثالث باستانبول تحت رقم (٢١٢٩) والأخرى في Stauts Biliothck 5552 والثالثة في مكتبة أحمد الثالث باستانبول تحت رقم ٣٤٦٧، والرابعة في مكتبة الفاتيكان برقم (٣٠٠) والخامسة في مكتبة دير الاسكوريال برقم ٩٧٤.

يعتبر الرماح في مقدمة من كتبوا في الفروسية والأسلحة وفن الرمي، كما يعتبر موسوعة حوت جميع العلوم العسكرية. فهو إن تكلم عن الرمح تكلم عن أوصافه وبميزاته وطرق الطعن به وأنواعه والمواد التي يصنع منها، حتى لا يترك للقارئ أو الباحث أي تساؤل عن السلاح. وإن تكلم عن السيف أو الترس أو باقي الأسلحة فإنه ينحومنحى التفصيل والشرح، فهو في مخطوطته مثلاً: الفروسية والحرب والأسلحة يتعرض لفن القتال في الرمح^(١). وكيفية الطعن، والطول والقصر، ومساعدات التدريب التي يظهر فيها صورة الرمح وأوضاع الرامي^(٢) المختلفة والطعن من أمكنة مختلفة كطوق الجوشن ومن أزراره^(٣) ومن عرقوبي الفرس، والتعطيل بالعقب، ورماية الفرس والسبق بالطعن، وكسر الرمح، وكيفية الكر والمطاردة وغير ذلك من الأمور التي يحتاج إليها الفارس^(٤).

على أن المدقق لمخطوطات الرماح يتبين له تكرار المواضيع التي يطرقها، والمسائل الدراسية التي يذكرها، فقد تشابه مخطوطتان من حيث المعنى والمبنى كمخطوطة الفروسية برسم الجهاد، والفروسية والحرب والأسلحة، إلا أن هذا التشابه يزيد في فهم الصورة والسلاح التي يتحدث عنه، ولا تخلو الثانية من صور يزين بها صفحات مخطوطته طلباً لإدخال المعلومات الصحيحة في

(٤،٣،٢،١): الرماح مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٣/٤، ٦، ٥، ١٠ ومابعدها.

ذهن الفارسي المبتدئ^(٥) ثم لا ينسى أبدا أن يذكر المواد التي تصنع منها القنابل المختلفة والمتفجرات والأسلحة النفطية مضافا إليها بعض الصور والايضاحات^(٦) وكذلك فإنه يفصل في باقي الأسلحة كالترس والدبوس والمنجنيق، والنشاب والقذور على اختلافها إذ لا يكفي بإجمالها بل يدخلها في حركتها وأقسامها الثابتة والمتحركة^(٧) وهو إن أرشدك إلى كيفية ركوب الخيل فهو يدلك على النواحي التسلسلية والفنية التي ينبغي على الفارس^(٨) إتباعها. من مجمل مخطوطات الرماح يتبين لنا أنه فارس ومدرب وصانع كيميائي. فهو يأتي على كل هذه الأمور فيصفها وصفا عجيبا، حتى لتشعر أنك أمام رجل وعى كل شيء عن الفروسية والأسلحة المختلفة، وكأنه أكاديمي تدرج بالفارس المبتدئ، حتى أصبح فارسا يذ غيره بفضل هذا التدريب المنهجي الصحيح، هو من المختصين بالرمح والعمل به حتى لتجد مخطوطاته جميعا مملوءة بالمعلومات المتقاربة عن الرمح ولا سيما المخطوطات التالية: عمل الرمح على الأرض والفرس، واللعب بالرمح في معرفة الفروسية، الفروسية والحرب والأسلحة، وهذا مما يدل ويؤكد على تمكنه من اختصاصه وسعة إطلاعه وخبرته الأكيدة في الحروب والتدريبات المختلفة.

علي بن محمد بن عبد الظاهر، علاء الدين السعدي

(٧١٧هـ/١٣١٧م)

لابن عبد الظاهر عدة مؤلفات منها في الميدان العسكري: مفاخرة السيف والرمح^(٩)، وكان رئيس ديوان الانشاء وكتب سر الملوك الثلاثة: ببرز، قلاوون، خليل. وكان له حظوة كبيرة

(٥): الرماح مخطوطة الفروسية برسم الجهاد: ٨ وما بعدها، الرماح مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة: ١٠ وما بعدها ٤٣، ٣٧، ٣٦.

(٦): الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة / ٣٩ وما بعدها ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ وما بعدها ٨١ وما بعدها ٩٣.

(٩): الزركلي: الأعلام: ٤/ ٣٣٤.

عندهم، وقريب مجالسهم، وعلى صلة وثقى وإطلاع على أعمالهم ومعاركهم وممارس لكتاباتهم الخاصة والعامة، ومصاحب في بعض الأحيان لهم في حلهم وترحالهم، بهذه الأعمال أمكنه التعرف على الأمور السرية وأحوال الدولة بكاملها والنيابة بأجمعها، وعلى كل المراسلات التي تصدر وترد إلى السلطان.

وكان لابن عبد الظاهر من ثقافته الواسعة ما يستطيع أن يلم بدقائق الأشياء، وأن يكتب عن الواقعة بكل دقة ووضوح، وأن يأخذ عنه الكثيرون من المؤرخين المشهورين أمثال المقرئ وشافع العسقلاني والناصرى الشافعى وغيرهم، ولقد كان صداحا حين رثى الملك الظاهر بقصائد أشاد فيها ببطولاته وشجاعته وقهره للصليبيين وللتتر وفتح للقلاع والحصون^(١٠).

ومما يدهش الباحث أن هذا المؤلف صور حصار القلاع والحصون بكتابته وكأنها تنطق بالواقع، وتقرب المشاهد والمراحل القتالية، وكأن الصورة الطبوغرافية تشاهد عن فيلم سينمائي بما فيه من ألوان وأشكال يمر أمام ناظره بصور مختلفة وجموع جند محتشدة، وأنواع أسلحة مستخدمة، وقوة رجال وإقدام على اقتحام أشد المخاطر، ومما يؤخذ بالحسبان تلك الوثائق والمراسلات المتبادلة بين أطراف النزاع التي كانت لها أهمية كبرى في إظهار النظم الحربية والقوانين التي كانت سائدة في تلك الحقبة الزمنية وتكشف لنا ماهية المعاهدات والآثار المترتبة بعد انتهاء القتال.

وكما هو واضح فإن هناك توازنا بين النشاط القتالي للجيش وبين النجاح الإعلامي الذي كان يقوم به ابن عبد الظاهر قبل القتال وأثنائه وبعده، مما قد يطلق عليه في الوقت الحاضر (التوجيه السياسى والمعنوى) الذي كان واضحا قوي العبارة مؤثرا في سامعيه، متجاوبا مع فكرة القائد السلطان ومع أهداف القتال.

(١٠): ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ٢١ ومابعدها.

الرماح محمد بن عيسى بن إسماعيل الحنفي، نجم الدين الأحذب

بعد ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م

لهذا المؤلف كتابا وحيدا عثرنا منه على نسختين ، إحداهما في مكتبة أحمد الثالث باستانبول تحت رقم ٢٦٥١/ ، والثانية في مكتبة باريس تحت رقم ١٤٦٢/٣ باريس ٢٨٢٨ . وهو غير الرماح الأول وان هناك بعض القريبى فيما بينهما .

لقد أجاد الرماح ابن إسماعيل في مخطوطته (نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية فهو من حيث التنظيم قد أتى على ذكر فقرات كتابه بشكل مبوب وواضح بحيث يسهل على القارئ أن يتدبى بالسهل ثم بالصعب ثم الأصعب ، وأن يرى مدخلا يرضاه لنفسه بحيث يلج إلى المواضيع ذات الفائدة الكبيرة والمعلومات الواسعة ، كما أن التنسيق كان واضحا ، وكذلك المسائل الأخرى كالتدريب والتوجيه ومسائل الفروسية الدقيقة .

يحتوي المخطوط على جميع نقاط الادارة العسكرية التي يحتاج إليها الفارس ، إذ يتعرض بادئ ذي بدء إلى العقيدة مبينا أهميتها ، حاثا على الجهاد في سبيل الله ، آتيا بما يرفع من معنويات المقاتلين^(١١)

ثم ينتقل إلى الرمي وأهميته وطرق التدريب عليه ، وكيفية الوصول إلى دقة الإصابة^(١٢) ثم إلى الرمح والطنن به ، وإلى السيف ودوره الكبير في القتال ، وكيفية الضرب في المواقع الحساسة ، والانتقال إلى استخدام الأسلحة الأخرى في حال وجود السيف ، ثم إلى الترس الذي عدد الأنواع المختلفة منه ، وما يصلح منه لصاحب الرماح ، أو لصعد السيوف والأسلحة الهجومية^(١٣) ثم لا ينسى أن يذكر باقي الاعتدة والأسلحة والخيل ، ويعدد أصنافها وميزاتها في كل حالة من حالات القتال ، فهو يشير مثلا إلى السرج واللجام وأشكالها المختلفة وأوضاعها وصفاتها التي تساعد على الانتصار والفوز على الخصم^(١٤) ومن النواحي الهامة التي تركز عليها هي مسألة التدريب في القوات المسلحة ، كما أكد على الرياضة واللياقة البدنية للفارس الذي عليه أن يتعلم رياضة الصولجان التي تؤهله وتمهد له الطريق للوصول إلى الفروسية^(١٥) .

(١١) : الرماح ابن إسماعيل : نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية : ٤ وما بعدها .

(١٢) : (١٣ ، ١٤ ، ١٥) : الرماح ابن إسماعيل : نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية : ٤ وما بعدها .

١٦ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

إن من يدقق في محتويات هذا الكتاب يتبين له سعة إطلاع الرماح على الإدارة العسكرية، والإحاطة بكل أنواع الأسلحة آنذاك وما يجدر ذكره أنه ركز حديثه على الفرسان وعلى إتقان الرمي الذي هو أساس القوة وعلى ممارسة الرياضة التي هي أساس اللياقة البدنية والتحمل والثبات في ساحات القتال. وإن هذين الموضوعين لا يزالان يشغلان الجيوش الحديثة حتى الآن، بل يعتبران الأصل في تدريب المقاتل لتحقيق الانتصار.

محمد بن منكلي الناصري
(١٣٧٦هـ / ١٧٧٨م)

عاصر معظم سلاطين المماليك البحرية، وتآلق نجمه وزادت سيرته في زمن السلطان قلاوون وأولاده، وخدم مع الملك الأشرف شعبان وكانت وفاتها في سنة واحدة^(١٦).

لقد ألف الناصري كتاباً يتضمن تسعة وثلاثين باباً أسماه، «الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب» وهو مخطوط في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٤٣ / ج كما عثرنا على مؤلف آخر اسمه «الأدلة الرسمية في التعابي الحربية».

ابتدأ في التكلم عن السيف وأهميته في الحروب، وسقايته وصيانتها وأنواعه، وصناعاته وأصنافه في الجودة والقوة، فبدأ بالبيان فالقلعي ثم الهندي، معرجاً على طولها، ثم بين فضائل السيوف البيض والدمشقية، حتى إذا ما انتهى من أوصافه الفنية والقتالية انتقل إلى طرق القتال به مع التوسع في كيفية استخدامه مع غيره من الأسلحة ومن راجل أو راكب^(١٧) وهكذا يمضي الناصري في السير على هذه الطريقة بالنسبة لباقي الأسلحة كالرمح والنشاب والترس والنفط والنيران التي فصل فيها وأسهب في وصفها واستعملها^(١٨).

وكما أجاد في وصف الأسلحة كذلك فإنه أجاد في وصف مسرح العمليات وحدد له المعالم،

(١٦): حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢/ ٥٠.

(١٧): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ١٣٢، ١٢٨، ٢٠، ٤.

(١٨): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ٧٠ وما بعدها.

وطلب من الفارس أن يتقل فيه بخفة ورشاقة وأن يكون متبها حذرا من خصمه الذي يحاول استخدام الأساليب المختلفة لطعنة أو ضربة^(١٩).

وكذلك فإنه حدد الخصائص القتالية في المدن والشوارع والقتال الليلي والمناطق المحصنة، ثم عدد الطرق والأساليب والحيل والأسلحة التي تستخدم في تلك الحالات المختلفة^(٢٠).

وأما عن التعبئة ونظام الصنوف وترتيب القتال فإنه فصلها وبين عملها ككل وكجزء وأهمية القيادة عندما يحتدم القتال وتتقابل الجيوش، وأعار أهمية كبرى للتخطيط والتنظيم والاحتمالات المختلفة في لعب الحرب، وكأنه بذلك قائد وإداري وفني ومعلم وفارس ومن الجدير بالذكر إن الناصري وضع لكل حالة من حالات القتال حيلة وطرائق لإبطالها. فمن الهجوم هجوم معاكس، ومن الدفاع هجوم، ومن التطويق فك وتدوير. ومن الانسحاب إعادة تنظيم، ومن المطاردة كمين، ومن الكراديس مجموعات قتالية، ومن الالتفاف القريب والبعيد حصار وتدمير للعدو^(٢١). ولو أتيت تطبيق مذكره في مخطوطته لتهيات فرص النجاح الكبيرة للانتصار لاحالة لجميع القادة، وما استطاع العدو أن ينال من الجيش المملوكي أو يخرق صفوفه أو يدمره بمعركة من المعارك.

طبيغا الأشر في البلكميشي اليوناني

١٣٩٥هـ / ٧٩٧م

لهذا المؤلف عدة كتب عسكرية اختصاصية أهمها: الجهاد والفروسية وفنون الأداب الحربية، بغية المرام وغاية الغرام، غنية الطلاب في معرفة الرمح النشاب، رمي النشاب^(٢٢) المخطوطة الأولى منها نسخة في دار الكتب المصرية تقع في ٢١٤ / صفحة والثانية قصيدة في

(١٩)، (٢٠، ٢١): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ٨٢ وما بعدها ٦٦، ٢٧٢، ١٧٨ / وما بعدها.

(٢٢): بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١٦٧/٢، زيدان: تاريخ اللغة العربية: ٢٧٦، ٢٧٨ المخطوطة الرابعة نسخها محمد بن عبد الرحيم التلواني سنة ٨٠٥، انظر المكتبة الوقفية بحلب تحت رقم ٨٠٢٠ خاص

السهم قدمها للسلطان أشرف مخطوطة في لندن والثالثة تبحث في الرمح وكيفية الطعن به وكذلك النشاب وكيفية التسديد به والرمي محفوظة في باريس ودار الكتب المصرية، والرابعة في المكتبة الوقفية بحلب - العثمانية تحت رقم ٨٠٢/ خاص، هذه المخطوطات جميعا وبصورة عامة تبحث في فنون القتال وركوب الخيل، والفارس، والأعتدة الحربية، والأسلحة المختلفة والخيال في الحروب، والميادين، وأنواع السباق، ومبادئ الحرب، والهجوم والدفاع، وأشكال المسارح المربعة المستديرة والمستطيلة والمقلوبة والمقابلة والضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنشاب وضروب الفروسية المختلفة.

عاش هذا القائد العسكري الذي كان برتبة مقدم^(٢٣) وخدم في القوات المسلحة كقائد لواء في زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين^(٢٤) ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م - ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م حيث كانت فترة حكمه عشرين سنة.

كان في كتابه «رمي النشاب» اختصاصيا إذ تكلم عن القسي وصناعتها وأنواعها وموادها الأولية التي تصنع منها، فتعرض لوزنها وطولها وكيفية القبض عليها واستخدامها أثناء الرماية، وعن السهم فصل في نصلها وشكلها وكل ما يتعلق بها كالإطلاق والتسديد وأوضاع الرامي، وعن الخيل وحفظها أثناء رمي النشاب، والأماكن والجهات التي يرمى السهم فيها، ووضعية الجلوس على ظهر الجواد كالاستقامة وشد الركبة، والتصاق الساعد، والرفس والقبض والمدا فوق كفل الفرس، وغيرها من الأمور التي تدل الفارس على الاستخدام الصحيح وعلى الدقة، وعلى الإصابة المحققة حتى لشعر وأنت تقرأ في مخطوطته أنه قد جعلك في جوتدريبي قتالي علمو بالحركة والحيوية والنشاط^(٢٥) ومن تمكنه بعلمه وفهمه لاختصاصه أنه نظم أرجوزة ذكر فيها جميع المعلومات المتعلقة برمي النشاب وقواعده وأصوله^(٢٦) ثم شرح تلك الأرجوزة بشيء من التفصيل بحيث يدل على أفضل النشاب فيقول: «أحسن صفات النشاب أن

(٢٣): الأشرقي: مخطوطة النشاب ٧

(٢٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١١/ ٢٥ وما بعدها.

(٢٥، ٢٦): الأشرقي: مخطوطة رمي النشاب: ٧ وما بعدها، ١٣ وما بعدها، ٥ وما بعدها ١٨، ١٩.

يكون مستدير النحت صلب الخشب، نقي من العقد والشظايا والحفر، سليم من الاعوجاج حسن الدوران عند فركه على ظفر الأصابع وخاصة إذا دورته وهو قائم على نصله^(٣٧) . . . ثم هو يتحرى ويسال غيره حتى يقف على أجود القسي وأعظمها تأثيراً، ثم يعمم تلك التجارب والخبرات فكانها أوتي من حisie التدريب، وأساليبه المطبقة في ذلك العصر وهذا ما يجعله في مقدمة المدربين الذين أخذوا على عاتقهم تعليم هذه المادة بأصول شيقة يحسن فهمها ويستوعب كل ما قيل عنها . وكذلك فإنه في مخطوطته «الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية» تراه يسترسل في ركوب الفارس ويطول الشرح والتفصيل في لباس الفرس فيذكر الركاب والعنان والسرj والسوط والسرفسار، ثم يشرح الأسلحة المختلفة التي يستخدمها الفارس، ففي الرمح مثلاً أبواب مختلفة كالطعن والدخول في الميدان والتكوير وغيرها من الأبواب الكثيرة التي تحتاج إلى زمن طويل للتدريب عليها وإلى معاناة وتعب للوصول إلى فهمها وتطبيقها^(٣٨) وهكذا ترى هذا الكاتب في مخطوطاته الأخرى يسير على نفس المنهج والأسلوب^(٣٩) .

ابن أرنبغا الزردكاش

٨٦٧هـ / ١٤٦٣م

عاش هذا المؤلف مغموراً، فلم نسمع عن أنبائه شيئاً، إلا أنه كان من سلالة عسكرية، فورث عن أبويه حب القتال والفروسية، وتربى في بيئة حربية تمجد القتال وتفتخر بالشجاعة والإقدام^(٣٠) وإذا كان كتابه الوحيد الذي ألفه وأهداه إلى السلطان ظاهر برقوق «الانيق في المناجنيق» فهو مؤلف مخطوط قيض الله له الدكتور إحسان هندي فحققه وأخرجه إلى الوجود ومعهد التراث العلمي العربي بحلب ١٤٠٥ / ١٩٨٥ وكتب عنه الاستاذ جرجي زيدان الذي

(٣٧) : الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب : ٧ ومابعدھا ١٣ ومابعدھا ١٨، ١٩.

(٣٨) : الأشرفي: مخطوطة الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية ٧ ومابعدھا .

(٣٩) - الأشرفي: مخطوطة غنية الطلاب في معرفة الرمح والشباب ١٥، ٢١، ٣٠.

(٣٠) - المقرئزي: إغائة الأمة بكشف الغمة ٤ / ١٣ / ٤٧، ٤٨.

اعتبره كتاباً يحتوي على وصف للمنجنيق وبعض القطع الداخلة في تركيبه^(٣١) فهو يتضمن معلومات دقيقة حول هذا السلاح، إذ يتناول المؤلف فيه الصور المختلفة للمنجنيق بشكله الكامل وأوضاعه المتباعدة وقطعه التبديلية قطعة تليها قطعة أخرى، ثم يسهب في الوصف فيهن^(٣٢) فكانها أوتى من حسن التدريب، وحقق الصنعة مامكنه من أن يتناول هذه التفاصيل فهو إن تكلم عن الرماية فقد أجاد بها إذ علمنا كيف نرمي لمسافات بعيدة أو قريبة. وماهي الإجراءات المتخذة حيال ذلك، وماهي العدد والآلات التي تستخدم في الزيادة أو النقصان^(٣٣) ولا يكتفي بذلك بل يتعرض إلى كيفية صنعها وماهي المواد الداخلة في صنعها، فهو كالصانع الماهر تماماً عرف مهنته فبرع بها، ونال من ذلك حظاً وافراً والمأمأ كافياً^(٣٤) ثم يتقل بنفس الأسلوب فيشرح قذائف المنجنيق المختلفة التي منها القدور الجير والمخرم، والصنوبر، والمخفي، والسقوط، والمراكب، وغيرها، ومنها السهام المختفي والنجمي والمدهون والدبقي ومنها الاحجار المخرم والخطاط والمراكب^(٣٥).

وما يشار إليه أن الزردكاش قد أتى على ذكر تطوير هذا السلاح وتاريخه. متدرجاً في ذلك من المجانيق البدائية إلى المجانيق المحمولة إلى ذات العجل، فالمكاحل، ثم المدافع^(٣٦) وكان أشبه بضابط تسليح في وقتنا الحاضر يعرف السلاح بدقة كاملة، ثم فوق هذا يعرف طرق التطوير والابداع فيه^(٣٧).

(٣١): الزردكاش: الانيق في المناجيق ١٥/١٤

(٣٢): زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧٨/٣

(٣٣): الزردكاش الانيق في المناجيق ١٦٣/٤٨ زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧٨/٣

(٣٤): الزردكاش: الانيق في المناجيق: ١٧٦، ٢٢١، ابن غانم الاندلسي: مخطوطة العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ٣٨.

(٣٥): الزردكاش: الانيق في المناجيق ٤٨، ١٦٣.

(٣٦): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٦٩/٥ وما بعدها.

(٣٧): القرماني: أخبار الدول وآثار الاول ٢٢، زيادة: دمشق في عصر المماليك ٨، زكي: الجيش المصري في العصر الاسلامي ٥٧، سمكوغ: مدخل إلى تاريخ الشراكسة ٦٨

ومن الصعوبات التي تعترض الباحث وجود مصادر ومراجع كثيرة بلغات أجنبية عديدة أهمها: الفرنسية والانكليزية والفارسية والتركية والاطالية والارمنية بالإضافة إلى العربية. ومهما أوتي الباحث من علم ودراية فلن يتم له الاإمام الكافي بكل هذه اللغات أو الإحاطة بها إحاطة كاملة.

كما امتزجت عدة لغات مع بعضها في الاحاديث التي كان يتعامل بها المإليك، حتى لتظن أن لغة ما قد نحتت من هذه جميعا لتكون مستقلة وملتصقة بالعصر والبيئة، فمن هذه الالفاظ ماتكون مركبة من ثلاث كلمات للغات متباينة عربية وفارسية وتركية وأمير جاندادر^(٣٨) أمير عربية و«جان» معناها الروح وهي فارسية و«دار» وهي تركية ومعناها المسك ومنها مايركب من اللغتين التركية والفارسية «سنجدادر»^(٣٩) «سنجق» تركية ومعناها الرمح «دار» فارسية، أو عربية وفارسية «أمير شكار»^(٤٠) أمير عربية و«شكار» فارسية ومعناها الصيد هذه اللغة المنحوتة قد تكون سهلة على الباحثين الذين عاشوا في تلك الحقبة الزمنية، بل يمكن أن تكون طيعة عند العامة من الناس لكثرة تداولها واستعمالها حتى غدت مألوفة، أما وبعد أن مضى حين من الدهر على تلك اللغة، فإنه بات من الضرورة أن يرجع الباحث إلى المصادر ليتعرف على معانيها ومدلولها وفي هذا يحتاج إلى الاإمام بلغة جديدة وتعابير لم يألفها من قبل.

ولقد كان الخليط من الأجناس المتباينة يتكلم بلغات مختلفة إلا أن اللغتين التركية والشركسية هما اللغتان اللتان يتكلم بها السلاطين والأمراء والضباط وكبار الجيش^(٤١). تراث كبير، وثقافة واسعة، ومؤلفات عديدة، ومعرفة متنوعة وموسوعات ضخمة وألوان

(٣٨): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦١/٥، سيتجناس: المعجم الفارسي الانكليزي ٣٥٣، السيوطي: حسن المحاضرة ١٣٠/٢، الدواداري: الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٢٧٠/١٠٩/٩، عطية: القاموس الاسلامي ٥٦٦/١

(٣٩): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٨/٥، سيتجناس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٩٥، الدواداري: الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر ١٧/٩، ٢٦٢

(٤٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦١/٥، سيتجناس: المعجم الفارسي الانكليزي ٧٥١

(٤١): Lewis, The Arabs in History: 9/156.

مختلفة من العلوم، وأشكال شتى من الفنون، واختصاصات قيمة جمعت بين الأدب والعلم والتاريخ والجغرافية والإدارة والقانون والفروسية والقتال والدين والدنيا والسلام والحرب، خلفه لنا عصر المماليك وأوصله إلينا أولئك العلماء الذين كتبوا وأولئك الأدباء الذين توسعوا، فكانوا غزيرين ببادتهم، متمكنين من اختصاصهم متيقنين من مهنتهم، متسابقين في العلم والمعرفة، ذلك لأنهم عاشوا ذلك العصر، وسمعوا ورأوا وجمعوا مجربين، وعن فوارس خاضوا غمار الحروب، وعن قادة تمرسوا على القتال، وعن رجال رافقوا الحملات وشهدوا الوقائع والمهزات والظعن بالرمح والرمي بالنشاب.

لعل ازدياد وتقدم العلوم العسكرية يعود إلى تشجيع السلاطين والقادة المماليك للمؤلفين الذين كتبوا في هذا المضمار، وإلى القيادة المملوكية التي كانت على جانب كبير من الثقافة العسكرية، والخبرة الميدانية، حتى أن هذه الثقافة والعلوم طغت على غيرها، وفضلت على كثير من المهن والصناعات، حيث أنها جاءت في وقت كان الناس جميعاً في تلك المنطقة في مصر والشام بحاجة إلى العلوم العسكرية ليردوا بها كيد الأعداء، وبطش التتر ولتتعاظم مع عدوهم بقوة السلاح وحدة السنان والقول الفصل البعيد عن الهزل، وإلى أن سلاطين الدولة المملوكية رجعوا وأكرموا كل عالم وفارس، وفتحوا أبواب دولتهم إلى الوافدين عليها من العراق والاندلس وبلاد المشرق والمغرب الذين دارت عليهم دائرة السوء، وتشتوا في أنحاء الأرض، ورأوا أنهم قد اهتدوا إلى تلك الديار المصرية والشامية التي احتضنتهم فتابعوا مسيرتهم العلمية وإنتاجهم الثقافي والعسكري وبسطوا أعلامهم يكتبون بكل حرية حتى انتشرت العلوم، وازدادت المعارف وكثرت المؤلفات.

لقد نالت المكتبة الحديثة حظاً وافراً من المؤلفات العديدة التي تبحث في التاريخ المملوكي بعضها عربي والآخر أجنبي بعضها عسكري والآخر مدني بعضها مترجم وبعضها في لغات متعددة إفرنسية وإنكليزية وإيطالية، وأهم هذه الكتب تاريخ العرب لحتي، ودمشق في عصر المماليك لزيادة، والسلاح في الإسلام لزكي، والظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره لسرور، والمماليك في مصر لزقلمة، ومصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك لعاشور، وقيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام للعبادي، وتاريخ الأمم الإسلامية للخضري، أما الكتب العربية فأهمها العالم الإسلامي في العصر المغولي لشبولر، وتراث الإسلام لآرنولد، والحضارة العربية لريسلر،

وطبقات سلاطين الإسلام للين بول، وهنالك العديد من الكتب الأجنبية التي تحدثت عن العصر المملوكي وعن معركة عين جالوت وعن أبطالها، وعن الفئات التي اشتركت في القتال في هذه المعركة، وعن الأسلحة التي اشتركت في القتال وأهمها المستعمرات الافرنجية في سوريا في القرنين الثاني والثالث عشر Colonies Erqnques، وسوريا في عصر المماليك Demombynes، والعرب في التاريخ برنارد لويس Bernard Lewis، وتاريخ فارس الادبي ل إدوارد براون Edward Brawne، والبارود والأسلحة في المملكة المملوكية دافيد آيلون David Ayalon، وتاريخ مصر في العصور الوسطى ل لين بول ستانلي Stanley Lan Poole وأخيرا المجلة الشرقية الايطالية Orientalia العدد الرابع التي صدرت في روما عام ١٩٣٥م التي تكلمت عن ماركو بولو والمبشرين وهي غنية بالمعلومات عن التتر والمماليك وبخاصة عن صريم الدين عبد الله الذي روى معركة عين جالوت وتحضيراتها ومشاهدها وتفصيلاتها^(٤٢).

الفصل الأول

معركة عين جالوت والمعارك التي سبقتها

لقت موقع فلسطين الجغرافي والتاريخي والديني والاقتصادي الأهم القديمة والحديثة، فهي تقع في قلب الوطن العربي، ولها منافذ على القارات كأوروبا وآسيا وأفريقيا، فهي معبر لآسيا من أفريقيا وإليها^(١). ولها ساحل على البحر المتوسط، وتتميز بتباين تضاريسها وخصب أراضيها ووفرة مصادر المياه العذبة والمعدنية.

لفلسطين نفحة دينية جمعت الأديان السماوية الثلاثة: ففيها ما يستوي هؤلاء جميعاً من مدن وقري، وأماكن توجد فيها رسل وأنبياء، وحصلت فيها أحداث دينية وتاريخية ورد ذكرها في القرآن والانجيل والتوراة، وفيها ولد الرسول عيسى، وإليها أسرى الرسول محمد ﷺ، مما جعل فلسطين أرض الأديان ومهد الحضارات ومنحها قدسية لدى شعوب الأديان السماوية الثلاث، وفي فلسطين آثار دينية وتاريخية تحكي قصص السابقين، يقصدها الناس من كل فج عميق، فما من مدينة إلا فيها أثر، وما من منطقة إلا فيها قصة وتاريخ، وما من جبل أو سهل إلا حدثت فيه حادثة، أو وقعت فيه واقعة، وما من حبة من تراب أرضها إلا كانت فيه الخيرات والبركات^(٢). في فلسطين مناطق ومواقع شهدت معارك بين جيوش مختلف الأقوام على مر العصور، فالفرس في عام ٥٢٥ ق.م قاتلوا في أرضها، وكانت تتبع إليهم أغلب البلدان الفلسطينية كالقدس وغزة وخان يونس وغيرها^(٣) كما أن العبرانيين قاتلوا ضد أهلها وكذلك الرومان في عام ١٠٤ ق.م^(٤). ثم أتى العرب المسلمون في القرن الأول الهجري واستقذوا بعض المدن الفلسطينية من أيدي الروم، وجرت بينهم معارك طاحنة كان لها أثر كبير وصلة فنية تاريخية بمعركة عين جالوت، ثم توالى الصليبيون فالجيوش الإسلامية كالفاطميين والأيوبيين والمماليك الذين كانت لهم معارك مشهورة مع الصليبيين والمغول على أرض فلسطين التي ظلت محافظة على حدودها وأهميتها القتالية.

(١): طوطح: جغرافية فلسطين ٨

(٢): الحموي: معجم البلدان ٤/٤٧٠ - ٣٤٦/٥، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ١/١٨٥، البغدادي:

مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ١/٢٣٨

(٣): علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١/٦٢١

(٤): كرد علي: خطط الشام ١/٩٣

لقد حارب العرب المسلمون في تلك المنطقة على جبهات كثيرة ضد الروم والصليبيين والمغول، واستطاعوا أن يحققوا انتصارات كبيرة عليهم في عدة معارك أهمها اليرموك وحطين وعين جالوت^(٥).

ابتدأ الصدام المسلح مع الروم في غزوة مؤتة^(٦) وتلتها غزوة تبوك^(٧) ثم فتح مآب في خلافة أبي بكر الصديق وفحل^(٨) وغزة وعكا^(٩) في سنة ٦٣٦/١٥، وبعد قرون عدة استطاع الصليبيون أن يستولوا عليها في سنة ١١٠٣/٤٩٧ وأعاد فتحها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧/٥٨٣ وسقطت مرة أخرى في يد الصليبيين وأعادها المماليك في سنة ١٢٩٠/٦٩٠^(١٠) وصور التي فتحها العرب المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، وبقيت تحت الحكم الاسلامي حتى سنة ١١٢٤/٥١٨ فأخذها الفرنج وتمكن المماليك من أخذها سنة ١٢٩١/٦٩٠، وعسقلان^(١١) وقلاع قرين^(١٢) وكوكب^(١٣) والكرك^(١٤).

(٥): الخطيب: تاريخ بغداد ١/١٤٤، الطبري: تاريخه ٣/١١، ابن كثير: البداية والنهاية ٧/٣٨٠، ابن عساكر: التاريخ الكبير ١/١٦٩، الواقدي: فتوح الشام ١/١٠٢، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦١ وما بعدها، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١/٢/٤١٧، أبو الفداء: تاريخه ٢/١/٢١٤

(٦): الواقدي: المغازي ٢/٧٥٥، ابن هشام: السيرة النبوية ٤/١٥، ابن سعد: الطبقات ٢/٩٢، الحموي: معجم البلدان ٥/٢١٩

(٧): ابن شهاب الزهري المغازي النبوية ١٠٦، ابن هشام: السيرة النبوية: ٤/١٥٩، ابن سعد الطبقات ٢/١١٨، ابن حزم: جوامع السيرة ٢٤٩.

(٨، ٩): الحموي معجم البلدان ٥/٣١، البلاذري: فتوح البلدان ١١٥، مرمجي: بلدانية فلسطين العربية ١٧٩، الحموي: معجم البلدان ٤/١٤٣

(١٠): البغدادي مرآة الاطلاع في أسماع الأمكنة والباق ٢/٩٥٤، مرمجي: بلدانية فلسطين العربية ١٦١

(١١): المقدسي: أحسن التقاسيم فيم معرفة الاقاليم ٢٤، الحموي: معجم البلدان ٤/١٢٢

(١٢): مرمجي بلدانية فلسطين العربية ١٨٨

(١٣): الحموي: معجم البلدان ٤/٤٩٤

(١٤): مرمجي: بلدانية فلسطين العربية ١٩٣

لقد ارتبطت هذه المعارك جميعا مع بعضها وامتد سابقها بلاحقها، فكانت المدينة أو الموقع أو المنطقة تتعرض لعدة معارك، تسقط أحيانا وتعود أحيانا أخرى، والحروب بين الطرفين سجال، فالعرب المسلمون من جهة، والدخلاء على البلاد من جهة أخرى.

إذا أردنا أن نختار من هذه المعارك من حيث الامتداد والارتباط فإننا نختار المعارك التالية:

اليرموك وحطين، فإنها معارك جرت في ظروف قتالية وإدارية مشابهة لمعركة عين جالوت.

معركة اليرموك

وكان مسرح معركة اليرموك إلى الغرب قريباً من المكان الذي وقعت به معركة عين جالوت، فهو لا يتعد كثيراً إلى الغرب من سهل مرج ابن عامر، ومن بحيرة طبرية التي هي جزء متمم من تلك الأراضي، وهي التي كان بجانبها منخفض اليرموك، وحولها التلال، وفيها السهل الذي وقعت فيه المعركة، إن التشابه كبير بين المسرحين والظروف القتالية والقيادية والادارية، إن معركة عين جالوت تعتبر وكأنها جزء أو تنمة لمعركة اليرموك.

حدثت المعركة في العشر الاخير من تموز سنة ١٥ / ٦٣٦^(١٥) بين الجيشين العربي الاسلامي والجيش الرومي، وكان عدد الجيش الاول أربعين ألف مقاتل^(١٦) وكان القائد العام للجيش خالد بن الوليد ونائبه أبا عبيدة بن الجراح، أما الجيش الرومي فكان مائتي ألف أويزيد بقيادة القائد العام ماهان، استمرت المعركة ستة أيام وبدأت نهايتها مع إطلالة اليوم السادس حين خرج غريغوري (جرجير) قائد جيش السلاسل طالبا المبارزة لقائد الجيش العربي، وأنبرى أبو عبيدة بن الجراح، وتقابل القاتدان وجرت بينهما محاولات عديدة قتل على أثرها غريغوري، وعاد أبو عبيدة إلى صفوف الجيش^(١٧)، وهنا أمر القائد بالهجوم المعاكس العام، والتف قادة المجنبات، وتحرك خالد بن الوليد من الجنب اليميني وأحاط بقوات الروم (السلاف، والارمن) التي كانت في المواجهة^(١٨)، واستطاع بالتعاون مع عمرو بن العاص وشرجيل أن يتقدموا بالتفاف طوقوا به هذه القوات، وأوقعوا بها الخسائر الكبيرة كما استطاع أبو عبيدة في القلب أن يثبت مواجهة العدو بالكامل، ولم يلبث خالد بن الوليد ومن معه أن يصلوا بالتفافها إلى مؤخرة جيش ماهان وهنا دب الذعر في صفوف هذا الجيش، وبدأ ينسحب بشكل غير منظم، وانتشرت الفوضى في صفوفه وهرب باتجاه وادي رقاد الذي كان مقبرة له^(١٩).

(١٥): ابن عساكر: التاريخ الكبير ١٥٩/١

(١٦): الواقدي: فتوح الشام ١٣٩/١، دحلان: الفتوحات الإسلامية ٢٩/١

(١٧): الواقدي: فتوح الشام ١٤٧/١

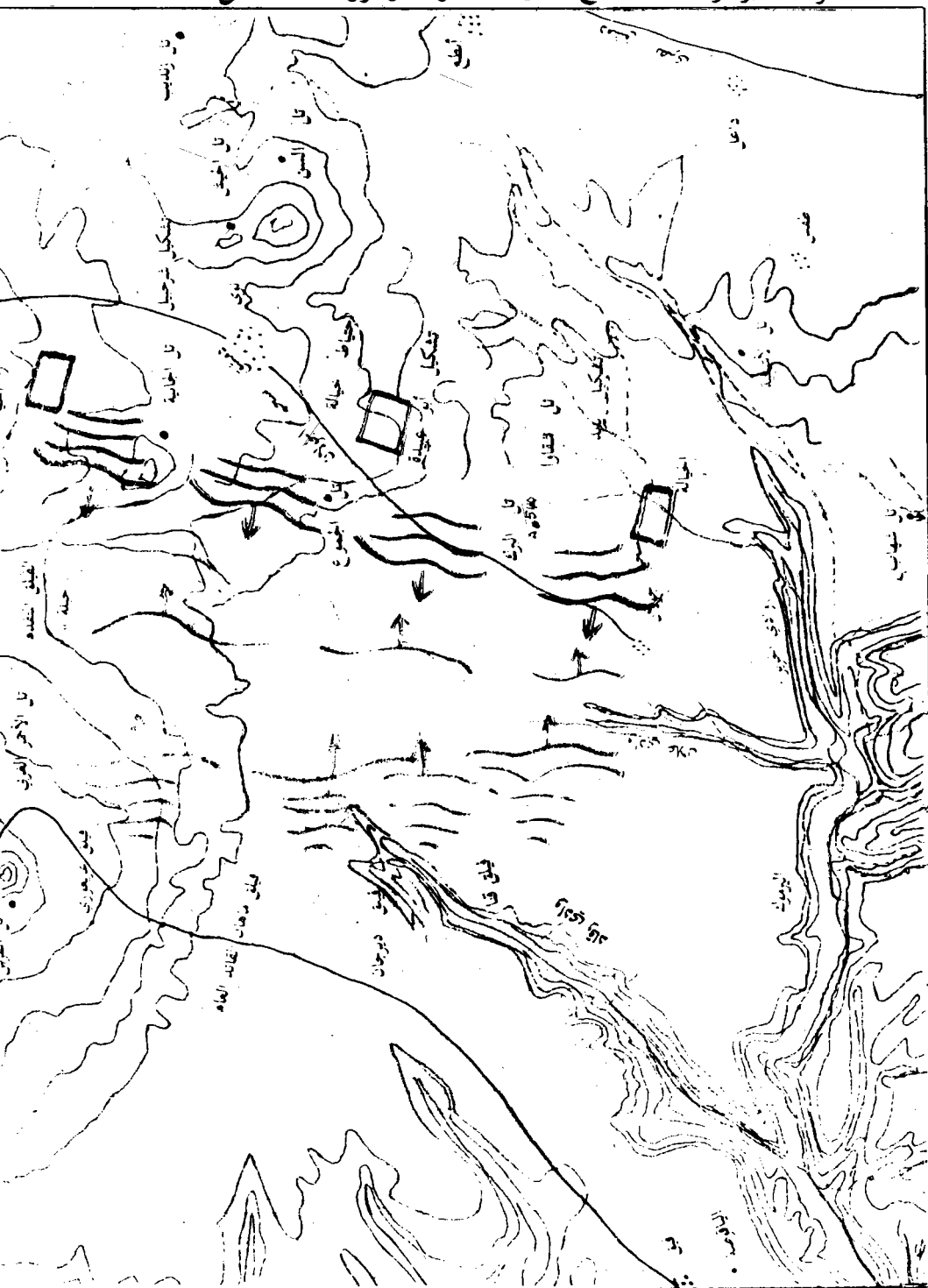
(١٨): الواقدي: فتوح الشام ١٤٠/١

(١٩): ابن العربي: تاريخ مختصر الدول ٩٩، أكرم: سيف الله ٤٩٤ وما بعدها.

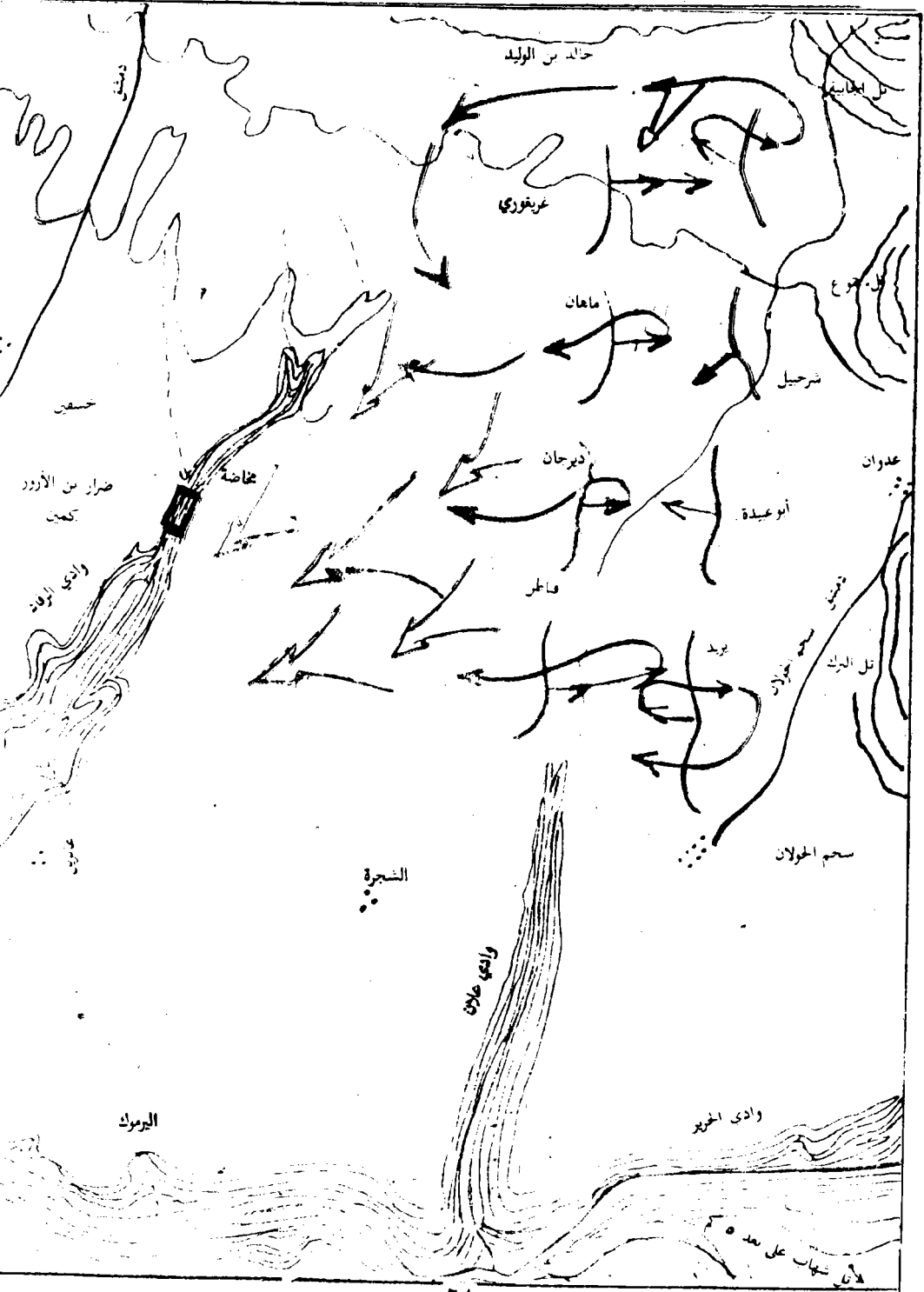
لقد أسرع ضرار بن الأزور في وحدة من الخيالة بمطاردة الفلول المنهزمة التي نجت واستطاعت أن تجتاز وادي الرقاد، وكمن لهم في الضفة الغربية من هذا النهر، وحين فرحوا بنجاتهم من النهر رأوا مجموعة من الجنود مستلين سيوفهم فوق رقابهم فأيقنوا بهلاكهم، ثم قضي عليهم^(٢٠).

(٢٠): ابن عساكر التاريخ الكبير ١/ ١٦٩، أكرم: سيف الله ٤٩٧

معركة اليرموك وضع القوات العربية والرومية قبل بدء القتال



— الجيش الروي ثلاثة صفوف على أنساق
— الجيش العربي ثلاثون صفاً على أنساق



معركة حطين

حدثت معركة حطين في ربيع الثاني في ٤ تموز من سنة ٥٨٣ / ١١٨٧ في قرن حطين الذي يقع في الشمال الشرقي من عين جالوت بمسافة حوالي ٣٠ كم وإلى الغرب من بحيرة طبرية، وتحيط به جبال ومرتفعات من الغرب ومن الشمال الغربي ومن الجنوب الغربي، أهمها جبل ترعان الذي يبلغ ارتفاعه ٥٤٨ م عن سطح البحر، والجبال: دامية وطابور والذهي التي تقع كلها إلى الجنوب من هذا القرن، ويلاحظ أن الميول تقل تدريجياً حتى سهل مرج ابن عامر حيث وقعت معركة عين جالوت، وتتصل هذه بتلك بعدة طرق أهمها: حطين - الناصرة - عفولة - مرج ابن عامر، وحطين - وطبريا - بيسان - عين جالوت. ومن حطين طريق غربي إلى عكا وحيفا.

حطين قرية بين طبرية وعكا، وتبعد عن طبريا فرسخين بالقرب منها قرية يقال لها حياره^(٢١) وفي هذا المكان وقعت المعركة الفاصلة بين الأيوبيين والصليبيين وكان النصر فيها لصالح الدين الأيوبي الذي امتدت معاركه فيما بعد نحو الساحل، وحرر البلاد الفلسطينية^(٢٢).
تحرك الجيش الأيوبي، من دمشق إلى بصرى - درعا - أريد - جسر المجامع - طبرية - صنبرة - حطين - لوبيه. وسار الجيش الصليبي على المحور من عكا - شفا عمرو - صفورية حيث تحشد هناك، ثم تحرك نحو حطين^(٢٣).
اختلف في عدد الجيشين المتقاتلين، وتضاربت المصادر عن عدد المشاة والفرسان، وفي كل الأحوال فإن الجيش الفرنسي كان يتفوق على الجيش الأيوبي بالقوى والوسائط^(٢٤).

(٢١): الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٧٤، المقرئزي: الخطط ١/ ٢٢٧

(٢٢): شيخ الرتبة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ٢٦٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٢، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦٤، شاهنشاه: منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماء ٢٩ ومابعدهما، الذهبي: دول الاسلام ٢/ ٦٩

(٢٣): ابن شداد: النودار السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦١

(٢٤): ابن كثير: البداية والنهاية: ١٢/ ٣٢٠، الذهبي: دول الاسلام ٢/ ٦٩، فشر: تاريخ أوروبا ١/ ١٩٠

أشرقت الشمس في صباح يوم القتال تشوى الاجسام ، وتلفح الوجوه ، مما يزيد في العطش ، وتشتد الحاجة إليه أثناء القتال ، ظهر جيش صلاح الدين الايوبي إلى الجبل وهو متجه إلى الغرب والجنوب الغربي على أنساق ، ومن خلفه بحيرة طبرية ، أما الجيش الصليبي فإن ظهره غير محمي ، وجهه إلى الشمس وإلى الشرق^(٢٥) .

بدأت المعركة كغيرها من المعارك السابقة بالمبارزة ، فقتل المبارزون من الجيش الصليبي ، وأعطيت إشارة الهجوم ، فتقابل الفريقان بالسلح الطويل المدى وهو النبال ، فتراشقا ثم أمر القائد العام باستخدام سلاح النفط والنيران ، حيث أطلق على الجيش الصليبي عدة مقذوفات جعلت النار تضطرم بين صفوفهم سيما وأن منطقة تمرکز الجيش الصليبي كانت زرعاً هشياً يابساً ، اشتعلت فيه النيران بسرعة ، فلم تقو فرسانهم ولا مشاتهم على الاقتراب منها ، ثم تقدمت ميمنة الجيش فاندفعت الخيالة وتبعتها المشاة ، وكذلك بالميسرة ، وأما القلب فقد ظل ثابتاً يجذب إليه المقاتلين من الافرنج ، وماهي إلا ساعات حتى اخترق الجناح اليميني جيش الصليبيين وتقدم إلى الامام ثم التف من الخلف بتوقيت واحد مع الجناح اليساري ، فأصبحت القوات الصليبية بين فكي الكماشة ، ولم يكن لهم من مهرب ، فقتل حوالي نصف الجيش بهذا التطويق ، وأسر أكثر من ثلثه وفر الباقي لايولي على شيء وترك وراءه مخلفات كثيرة^(٢٦) .

وبانهزام الجيش الصليبي وفراره ، بدأ نوع جديد من القتال هو المطاردة ، تبعه الجيش الايوبي وظل على تماس مباشر معه ، فاعتصم قسم من الفارين قبل حطين ، فحوصروا ، ومنع عنهم الماء ، وكان الجو صيفاً وحاراً ، فعطشوا واستسلموا^(٢٧) .

جرى قبل القتال استعراض الجيش في منطقة التحشد (عشراً) من قبل القائد العام للجيش الايوبي حيث استكمل الاعتدة ، والأسلحة وأجرى التفقد وأمر الجند بالتزود بالطعام

(٢٥) : ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ / ٣٢١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦٢

(٢٦) : ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ / ٣٢١ ، ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦١ / ٦٢ ،

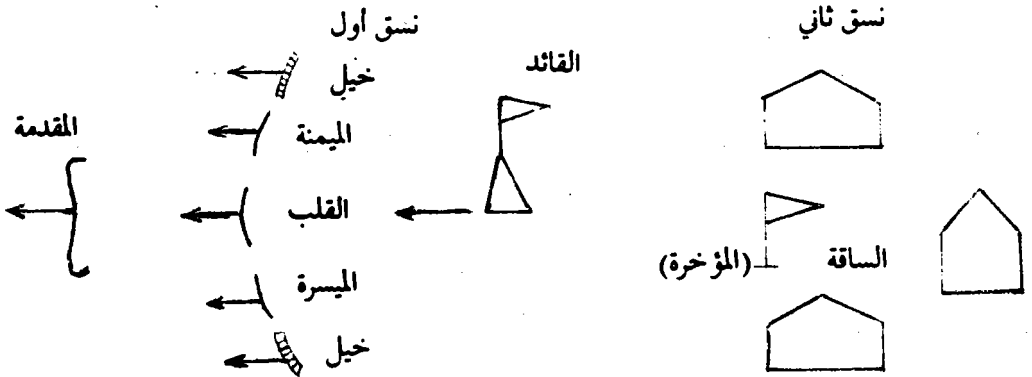
السبكي : طبقات الشافعية ٧ / ٣٤٥

(٢٧) : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦٢ ببلي : حياة صلاح الدين الايوبي ١٦٠

والشراب، والاستعداد التام لمقاومة العدو، وبعث فيهم حب القتال، ورفع من معنوياتهم، وحدد التشكيلات والأطلاب، وعين القادة والأمراء، واتخذ جميع التدابير الإدارية والقتالية^(٢٨). اشتركت جميع الأسلحة المتوفرة في القتال ومنها السيوف والرماح والنبال والحراب، والمنجنيقات، وسلاح النقط والنيران وكان لسلاح الفرسان دور كبير في هذه المعركة، إذ كانوا يشكلون الحرس المتحرك الذي يمتاز بالخفة والمناورة السريعة، والالتفاف والتطويق^(٢٩).

لاتزال تشكيلة القتال على ماهي عليه في الجيش العربي الاسلامي وخاصة في معركتي القادسية واليرموك وهي الميمنة والميسرة والقلب والمقدمة والساقة، إلا أن تراتيب القتال تطورت على ماكانت عليه وأن كانت محافظة على المبادئ الأساسية وأهمها الصفوف المنسقة خلف بعضها بعضا، وقد يكون الصف الواحد كتيبة أقل أو أكثر حيث تأخذ الكتيبة الواحدة مواجهة من ١ - ٢ كم أما عمق الصفوف وعددها فيكون تبعا لحجم الجيش والمهام والأرض وعدد الخيول والمشاة المشتركة في القتال، وهناك حالات عديدة نذكر منها:

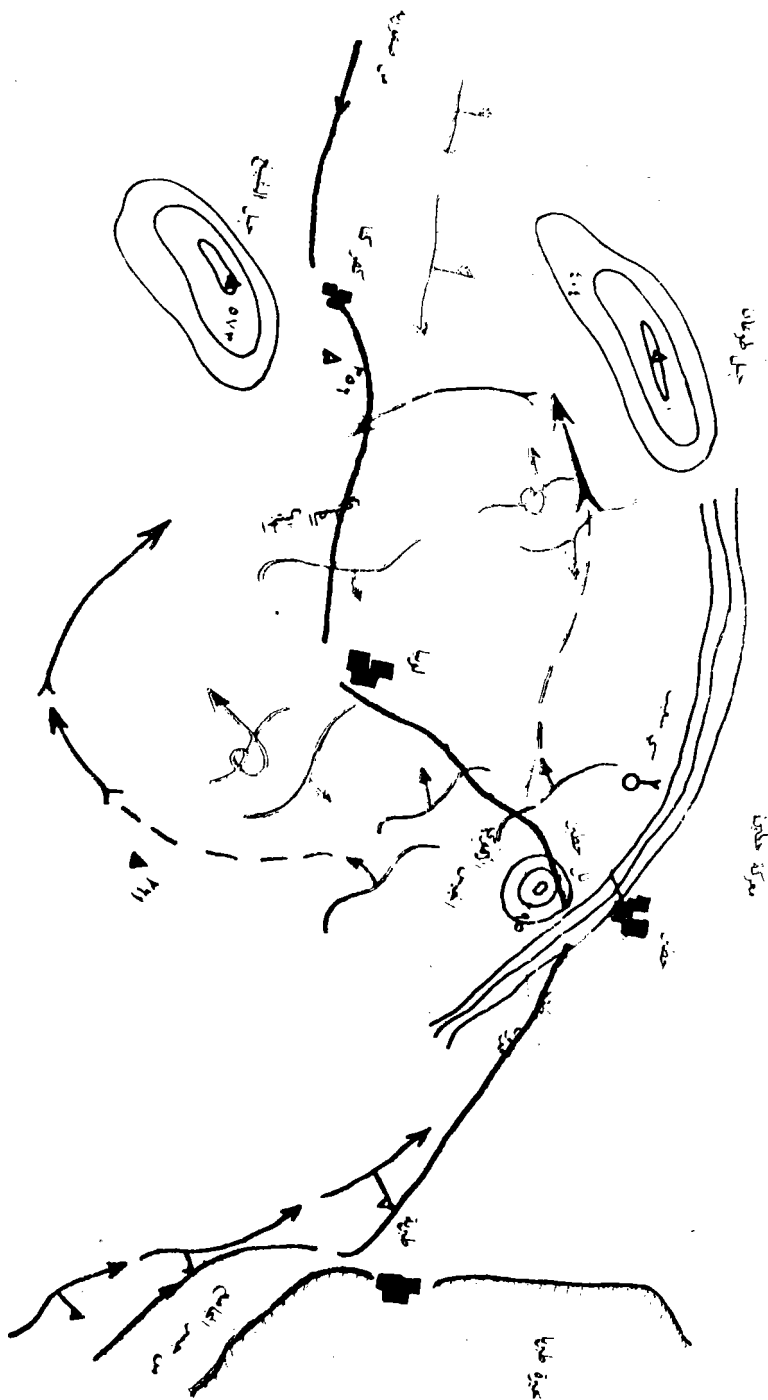
حالة (١):



(٢٨): ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦١، ببلي: حياة صلاح الدين الايوبي ١٥٧

(٢٩): ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦١ ومابعدهما.

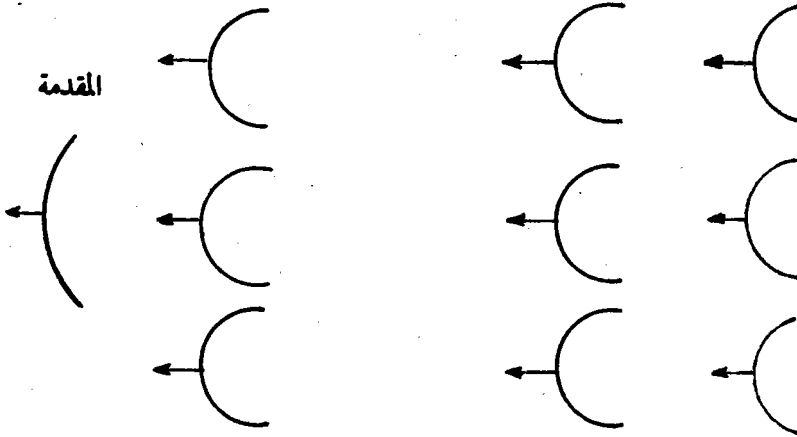
11-12-13



قد تكون الخيل موزعة على جانبي الميمنة والميسرة، وقد تكون على جناحي الجيش للقيام بأعمال الالتفاف والتطويق، وقد يكون قسماً منها بيد القائد كاحتياط، يمكن استخدامه في الأمكنة التي يراها مناسبة، وبخاصة حين حدوث خرق في الصفوف إذ يوجهها في هذه الحالة إلى مكان الخرق ليثبت به الوضع وليعيده إلى مكان عليه، فيطرد القسم من الجيش الذي خرق وتجاوز الصف الأول، أو تستخدم الخيل بجانب القلب على اليمين واليسار ليناور بها قائد الجيش وليدفعها إلى الأمكنة المهددة، وحين تكون الخيل في الصفوف المتأخرة أو على الجناحين فإنه يتقدم الدارعون ويتأخر الحاسرون (٣٠).

حالة (٢): على ثلاثة صفوف

نظام الكتائب



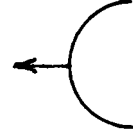
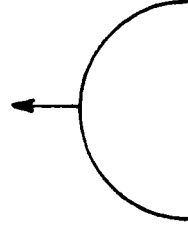
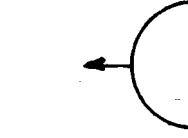
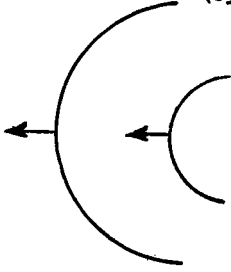
(٣٠): ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦٦ شاهنشاه: منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب

الهلال

حالة (٣):

الهلال الكبير أو الصغير أي الذي له دائرة واسعة أو ضيقة أو هلال مركب (٣١) الهلال الكبير في الوسط والهلالين الصغيرين في الجانبين.

(الهلال الكبير والصغير)



الهلال المقلوب

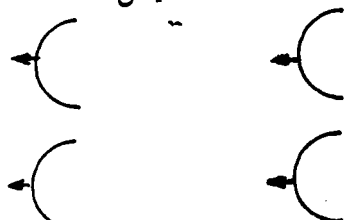
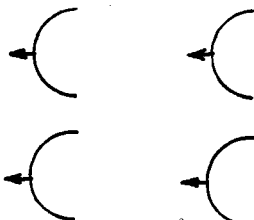
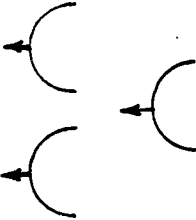
حالة (٤):

حالة (٥): (٣٢) التشكيل المثلثي، المربعي، المستطلي، الدائري، المعيني

مثلث

مربع

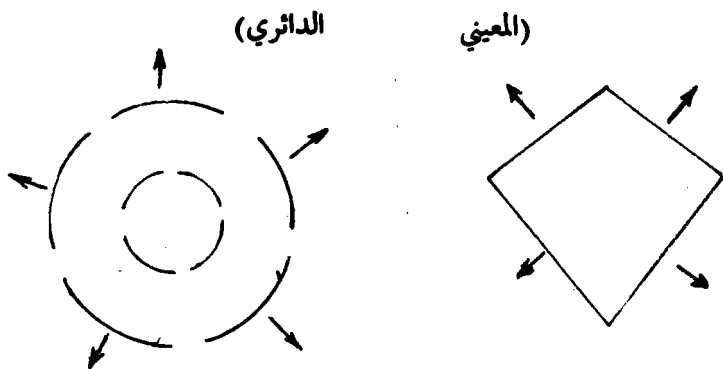
مستطيل



يكون البعد بين النسق الأول والثاني في التشكيل المستطلي أبعد من التشكيل المربعي.

(٣١): انظر مخطوطة الرماح: نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٤، ١٥٢

(٣٢): انظر مخطوطة الرماح: نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٤ وما بعدها.



يمكن أن يتبع في الحرب أية تشكيلة تناسب الوضع القتالي المتجدد، فيمكن للجيش أن تكون أحد تشكيلاته مثلًا والأخرى معينا، والباقية هلاليا أو دائريا أو ماشابه ذلك.

أطلق على تشكيلة الهلال (الأجم) وعلى الكبير من الأهلة «الهلال الحاد» وعلى الصغير «المحج» يوضع على الأجنحة الحادة القادة الذين اتصفوا بالثبات والقوة والحركة النشيطة، يتقدم الهلال وتتقدم أجنحته ويبقى القلب ثابتا، وتتقدم الميمنة والميسرة ويكون التقدم منتظما ومتساويا. فإذا تقدمت الميمنة خطوة تقدمت الأجنحة خطوتين مع انحراف إلى الداخل، ومن جناح «المحج» ثلاث خطوات، حتى إذا كان الهلال يتقارب، انضمت الطلائع من الجوانب وصار العدو في الوسط^(٣٣)، وهذه التشكيلة استخدمها الجيش المملوكي فيما بعد حيث طبقها مع بعض التطوير في معركة عين جالوت، وهو ما يطلق عليه في الوقت الحاضر الدفاع المتحرك، وطبق هذه التشكيلة أيضا الملك الظاهر بيبرس في حصاره لقيسارية ودخوله إليها^(٣٤).

إن التشكيل المربعي أو المستطيل الذي من شروطه أن يكون طوله ضعف عرضه، تتخذ هاتين التشكيلتين في حال اتخاذ العدو تشكيلة الهلال، وتراعى المسافات بين الصفوف، وترسل الكمان إلى مقدمة الترابيب القتالية، بين كل كمين وكمين مسافة تحددها قوة العدو وشكل

(٣٣): انظر مخطوطة: نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٤ - ١٥٢

(٣٤): انظر مخطوطة الرماح: نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٤ وما بعدها

تراتييه والأرض^(٣٥) في هذه التشكيلة يكون ثلاثة أرباع الجيش أمام العدو والربع الباقي في النسق الثاني ومقسم إلى خمسة صفوف .

أما التشكيل المعيني فيكون الترتيب قليل العرض ، وهو أكثر الاشكال تطبيقاً وأرهاباً للعدو لكثرة عدده ، ويقسم الجيش في هذه الحالة إلى ثلاثة أقسام : الثلث مقدمة في أربعة مواضع ، والثلث الثاني في المجنبتين ، والثلث الباقي في الساقة على ثلاثة أنساق^(٣٦) ، أما الشكل الدائري فيتخذ عندما يتفوق العدو في كثرة أكثر من ضعف لكي يتاح للقوات المقاتلة الحرية والحركة في جميع الاتجاهات ، ولتضليل طلائع العدو عن اتجاهاتها الرئيسية ، وإبعادها عن أهدافها بنصب بعض الكائنات أمام تقدمها ، وهذه التراتيب يمكن أن تتخذ في حالة الدفاع وفي أراضي العدو المجهولة التي لم تستطلع^(٣٧) .

يتألف الصف الواحد من ستة عشر مقاتلاً ويسمى هذا العدد «العصبة» ، يمكن أن تنسق هذه الصفوف في العمق وتصل إلى ألف وأربعة وعشرين صفاً وتكون القوات المسلحة في هذه الحالة قد بلغت من الحجم ما يزيد عن ستة عشر ألف من الجنود^(٣٨) ويسمى هذا الحجم حنثذ العسكر الأعظم .

يلاحظ أن التشكيل في القوات المسلحة هو تشكيل ثنائي ، يبدأ بالعسكر الأعظم الذي يتشكل من جيشين ، والجيش الواحد من طائفتين والطائفة من زمرتين والزمرة من كوكبتين وهكذا . . . (انظر الشكل) .

يبدأ التشكيل بالعصبة وينتهي بالعسكر الأعظم ، ويبدأ بصفين من المقاتلين وينتهي بألف وأربعة وعشرين .

وكان قائد التشكيل (الوحدة) في الميمنة ، ويتلوه رئيس أركانه في الميسرة ، وإن ترتيب الجيوش الأول والثاني في الميمنة والثالث والرابع في الميسرة ، أما إذا كان الجيش يقاتل لوحده فإن نظام هذا الترتيب يسري على التشكيلات .

(٣٥) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤال الأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٦

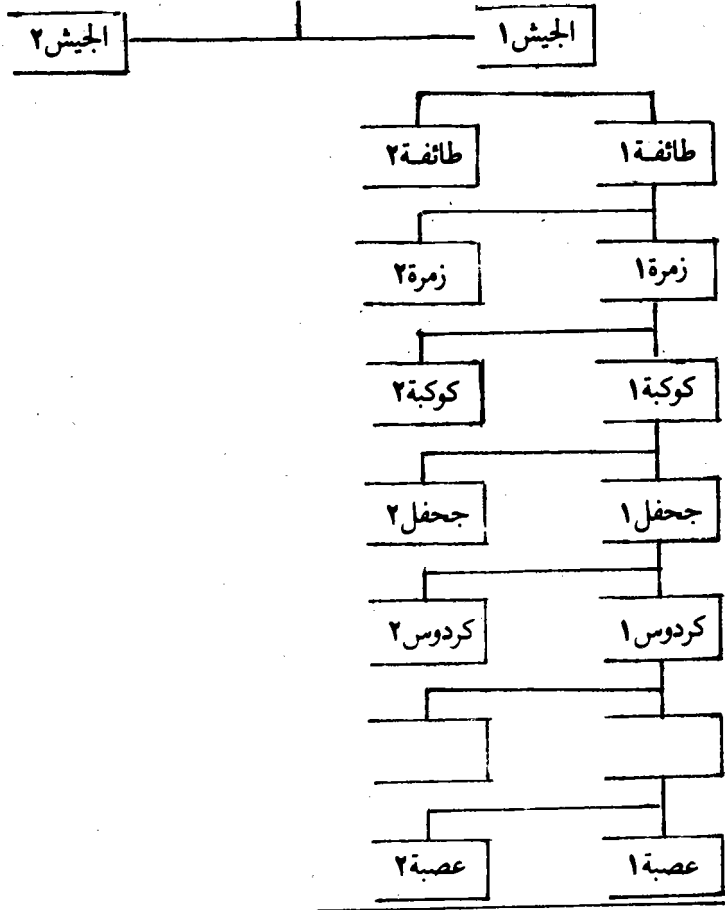
(٣٦) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤال الأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٧

(٣٧) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٨

(٣٨) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٥٠، ١٤٩

لكل تشكيل أركان مؤلفة من عدد من الضباط القياديين، وكذلك مجموعة خدمة تتألف من صاحب الدابة «السائق» في الوقت الحاضر، والبواق والحاجب والمراسل، إنما لا يتخلفون عن الصفوف المنتظمة، ويلحقون بعناصر الاستطلاع «الكشافة» (٣٩)

الخميس (العسكر الاعظم)



(٣٩): انظر الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ١٢٩ وما بعدها، تراها مبسطة وواضحة وقد أورد الكاتب كثيرا من التنظيم والملاكات والتوصيفات للوظائف وتشكيلات القتال المختلفة، فكأنها تحس أن هذه المعلومات كافية للقادة والأركان، وفيها شيء من التفاصيل والدقة وطرق القتال المتنوعة في كل جو من الأجواء، وفي أي ظرف من الظروف.

الفصل الثاني

مسرح معركة عين جالوت

مسرح المعركة

تقع عين جالوت في سهل مرج ابن عامر في الجزء الجنوبي الشرقي منه يحده من الشمال الشرقي الناصرة، ومن الجنوب جنين، ومن الجنوب الغربي الكرمل وجبال نابلس، ومن الشرق جبال فقوعة ووادي جالوت، ومن الشمال الغربي تلال شفاعمرو. عين جالوت قريبة من وادي جالوت وجبال الفقوعة، تمتد إليها المحاور من جميع الجهات من الداخل ومن الساحل، تحيط بها الأنهار والوديان، وتكتنفها الجبال، وتنعم بالسهل الذي تقع فيه. ١ - الأنهار والوديان:

تبدأ من الشمال إلى الجنوب وأهمها:
وادي أربيل:

ينبع من الجليل الشرقي، ويصب في الشمال من بحيرة طبرية، وإلى الجنوب من المجدل.
وادي الفجاس:

ينحدر من جبال الجليل الأدنى، ويستدئ من شمال شرق الناصرة حوالي / ٢٠ / كم. جنوب حطين حوالي / ٦ / كم. ومن شرق الشجرة حوالي ١٦١ كم ومن جنوب شرق لوبية مباشرة، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ليصب في نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية.
وادي البيرة:

يبدأ من شرق جنوب جبل الطور، ومن السفوح الجنوبية الجبلية للناصرية، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ليصب جنوب جسر المجامع.
وادي العشة:

يبدأ من شمال شرق سهل مرج ابن عامر بحوالي / ١٠ / كم. ومن سفوح جبال الجليل الأدنى. وفي جنوب قرية تمرة ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي. ويكون في أوله دقيقاً وضيقاً، وفي الوسط والنهاية يعرض ثم ينتهي في نهر الأردن.

نهر جالوت (جالود):

ينبع من جنوب شرق العقولة بالقرب من قرية زرعين، ثم ينحدر من ارتفاع / ٣٦٥ م / عن سطح البحر، فيمر ببلدة بيسان ثم يتجه شرقاً ليصب في الضفة الغربية لنهر الأردن حيث يبلغ انخفاضه عن سطح البحر / ١١٥٥ م /، قاطعاً مسافة / ١٧٥ كم / مشكلاً بعض الشلالات القليلة الأهمية من الناحية الاقتصادية، أما من الناحية العسكرية فهو معر الجيوش التي تأتي من الشرق، حيث يربط بين نهر الأردن وسهل ابن عامر، كما يفصل بين جبال الجليل وجبال نابلس، كما يؤدي إلى المنطقة الساحلية فأرض فلسطين. ومنها إلى الشمال حيث يمكن الوصول إلى الساحل اللبناني، وإلى الجنوب حيث تقع الأراضي المصرية. وهناك بعض الوديان الموازية من الجهة الشمالية الشرقية. وهذه الوديان تشكل عمرات واسعة إلى سهل مرج ابن عامر.

وادي بيسان:

يحيط ببلدة بيسان. ويشبه الغور، وفيه بعض المياه الراكدة في الصيف والجارية في الشتاء. وهذا الوادي عريض. يمكن أن تسلكه المشاة والخيالة وبخاصة على جوانبه الفسيحة. ويتخلله عدة طرق ذاهبة وآية إلى بيسان، كما توجد فيه بعض العيون والمستنقعات. وادي شوباش:

يبدأ من جنوب شرق جنين حوالي / ١٨ كم /، ومن شرق تلفيت، ومن جنوب شرق سهل مرج ابن عامر حوالي / ١٣ كم /، ويتجه نحو الشرق ليصب في نهر الأردن جنوب الصفا.

وادي المالح:

يجري من جنوب شرق جنين حوالي / ١٦ كم /، ومن قريتي تياسير وطوباس ثم يتجه شرقاً ويمر بخربة المالح، ثم ينحرف نحو الجنوب الشرقي، ثم إلى الشرق ليصب في نهر الأردن جنوب تل أبو الصوص.

وادي دورة (البقيعة):

يبدأ من شمال شرق نابلس حوالي (١١) كم، ومن محاذة جبل طمون نحو الجنوب الشرقي مارا بالبقعة ليصب في نهر الأردن شمال وامايا بـ (١٠) كم.
وادي الفارعة (الجوزلة):

يبدأ من الهضاب المحيطة بقرية طلوزة الواقعة شمال نابلس بحوالي / ٦ / كم، ويتصل بوادي بيسان الذي يتجه شمالا ثم ينحرف نحو الجنوب الشرقي / عماشيا (الجبل الكبير، ثم ينتهي بنهر الأردن شمال وامايا حوالي / ١ / كم.
نهر الأردن (الشريعة):

ينبع من شمالي الحولة عندما تلتقي روافده هناك، ثم ينحدر فيجتاز البحيرات ويصب في البحر الميت. ويبلغ طوله حوالي / ٢٥٢ / كم، وتكثر فيه الشلالات الصغيرة. وهو حاجز مائي يبلغ عرضه في بعض الأحيان حوالي (٣٠) م.
نهر المقطع:

ينبع من جبال جلبوع ومن سفح جبل الطابور (الطور) يمر في سهل مرج ابن عامر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي مارا بالنغنية وخربة المنصورة، بعد أن يمر بين جبال الكرمل، وتلال شفا عمرو، ثم يتابع سيره حتى يصل إلى شمال حيفا حيث يصب في البحر الأبيض المتوسط.
وادي أبو ناز (نهر المفجر):

ينبع من جبال جنيد، ومن بلدة القباطية. ويبعد عن عين جالوت إلى الجنوب حوالي / ١٢ / كم ثم ينحدر متجها نحو الغرب يمر في سهل عرابة ثم ينحرف نحو الجنوب الغربي مارا بباقة، ثم يتجه نحو الشمال الغربي مارا بخربة المجدل ليصب في البحر جنوب قيسارية حوالي / ٤ / كم. وهو نهر طويل إلا أن مياهه تقل في فصل الصيف.

وادي الخلادية :

يبدأ من جبال طرعان . ثم يتجه نحو الغرب مارا برمانة، ثم ينحرف نحو الجنوب الغربي ليلتقي بوادي مالك جنوب غرب صفورية ثم يسير ليلتقي بالنهر المقطع، ويعتبر أحد روافده . هذه هي أهم الوديان العرضانية القريبة من المعركة والتي تشكل طرقا طبيعية، يمكن الوصول بها إلى عين جالوت أو إلى اقرب منها من جميع الاتجاهات على أن أهمها هو نهر جالوت الذي يبدأ من المكان الذي جرت فيه المعركة، كما يشكل وديانا متسعة تضيق في الغرب وتفرج في الشرق والجنوب الشرقي . ونهر المقطع الذي يجري من الجنوب الشرقي للمعركة، ويتخذ اتجاهها نحو الشمال . ثم لا يلبث أن ينعطف نحو الغرب ليجري طويلا باتجاه البحر .

إذا بجانب المعركة ومن جهتيها الشرقية والغربية نهران يجريان بعكس بعضهما . الشرقي يصب في نهر الأردن، والغربي يصب في البحر الأبيض المتوسط لا يصلحان للملاحة، ولا يعيقان حركة المناورة للقوات المتجمعة في ذلك السهل الفسيح الذي امتلأ بالوديان الصغيرة والروافد لهذين النهرين وهكذا فإن كل الوديان السابقة التي مر ذكرها تتجه أما من الشرق إلى الغرب، أو من الغرب إلى الشرق ماخلا نهر الأردن الذي يبدأ من الشمال إلى الجنوب، وترفده جميع الوديان والأنهار المتجهة إليه، كما تشكل بعض الوديان والأنهر التي تصب فيه مسارات شمالية جنوبية لكنها مقيدة تسير المجرى الأساسي لنهر الأردن .

ومن جنوب المعركة انبثق وتجمع وادي أبو نار الذي يشق سهل عرابة في جنوب سهل مرج ابن عامر ويتجه إلى الجنوب الغربي ثم إلى الغرب نحو الساحل . ومن الشمال وادي البيرة الذي لا يبعد أكثر من / ١٥ / كم عن السهل .

هذه الأنهار والوديان المحيطة بأرض المعركة، تعطي امكانيات قتالية وإدارية كما تسمح للجيش بالتحرك نحو الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب، كما تسمح بنقل الإمدادات إلى أرض المعركة، بالإضافة إلى الاستفادة من الموارد المحلية المتوفرة التي يمكن الوصول إليها بسهولة .

٢ - الينابيع :

تركز الينابيع في مسرح العمليات، لاسيما في المكان الذي جرت فيه المعركة وأهمها :

عين الحية :

تقع إلى الشمال من مدينة الناصرة، وجنوب بلدة كفر كنا.

عين موسى :

هي بالقرب من عين الحية وإلى جنوبها بقليل، وشمال الناصرة حوالي ١٢ / كم^(١).

عين الميتة :

تقع في سهل مرج ابن عامر، الجزء الشرقي منه، جنوب الناعورة، وشمال شرقي العفولة وشرقي زرعين بـ ١ كم^(٢).

عين المغير :

تقع في الجزء الشمالي الغربي في سهل مرج ابن عامر في المجرى الاوسط لنهر المقطع، وشمال غربي العفولة^(٣).

عين المدوع :

جنوب غرب بيسان وإلى الشمال من جبال حلبون^(٤).

عين المدورة :

تقع على الشاطئء الغربي لبحيرة طبرية شمال المجدل حوالي ١١ كم.

عين القنا :

تقع جنوب عين موسى وشمال شرقي الناصرة^(٥).

عين القسطل :

تقع شمال شرق الناصرة جنوبي صفورية حوالي ١ كم^(٦).

(١): شيخ الربوة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ٢٠١.

(٢): حمار: موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٩.

(٣): حمار: موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٨.

(٤): حمار: موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٧.

(٥): حمار: موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٥.

(٦): حمار: موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٥.

عين العاصي :

تقع إلى الغرب من بيسان وإلى الشمال من تل الشوك^(٧).

عين الجندي :

إلى الشمال الشرقي من عفولة وجنوبي قرية تمره في سفح الجبل المطل عليها^(٨).

عين البادية :

إلى الجنوب من جسر المجامع ، وشرقي عين الجندي .

عين أم حجيل :

تقع إلى الشمال من عين البادية حوالي / ١٥ كم بالقرب من مجرى نهر الأردن وشرقي قرية

سيرين^(٩).

عين نصر :

إلى الجنوب من بيسان ، وإلى الشرق من عين المدوع .

عين المرة :

إلى الجنوب من عين البادية بالقرب من مجرى نهر الأردن ، شمال قرية الجبول^(١٠).

يلاحظ من أن منطقة القتال غنية بالينابيع الصافية العذبة التي تصلح للشرب والاستعمالات العديدة للجنود وأكثر ما تكون في الجهة الشرقية من عين جالوت وإلى الشمال منها ، حيث توجد في تلك البقعة أكثر من سبع عيون رئيسية ، كلها تنحدر نحو الشرق ، وأكثر العيون التي استفاد منها الجيش المملوكي والمغولي هي : عين جالوت ، الميتة ، والجندي القريبة من بعضها شمالا وجنوبا . وإذا كان التمرکز للجيش الحديثة بجانب المياه شرطا ضروريا ، فإن التمرکز للجيش القديمة وفي القرون الوسطى يصبح أشد ضرورة والحاجا ، وذلك لطبيعة الاعتدة والأسلحة ، وللتعب والارهاق اللذين يصيبان الجندي أثناء القتال أو التحرك .

(٧) : خمار : موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٢ .

(٨) : خمار : موسوعة فلسطين الجغرافية ٥٦ .

(٩) : خمار : موسوعة فلسطين الجغرافية ٥٥ .

(١٠) : خمار : موسوعة فلسطين الجغرافية ٦٦ .

٣ - الجبال :

يمكن تقسيم الجبال المحيطة بمنطقة القتال الى قسمين : القسم الشمالي ومركزه مدينة الناصرة ، والقسم الجنوبي ومركزه مدينة جنين .

القسم الشمالي :

من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب . إذا دققنا النظر في خارطة المعركة نرى جبال دامية التي تقع جنوب غرب بحيرة طبرية ، والتي يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر / ٢٧٩ م ، وجبل طابور الذي يقع شرقي الناصرة والذي يبلغ ارتفاعه / ٥٨٨ م ، وجبل أندور الذي يقع شمالي سهل مرج ابن عامر ، كما يقع في الجنوب الغربي من قرية غمره ، ويبلغ ارتفاعه / ٣٣٥ م ، وجبل قفره الذي يقع جنوب الناصرة ويشرف ايضاً على سهل مرج ابن عامر ، ويبلغ ارتفاعه / ٣٩٧ م وجبل الشيخ الذي يقع شمالي الناصرة بين كفر كنا والرنة ويبلغ ارتفاعه / ٥٧٣ م . ثم إلى الغرب من الناصرة تقع مرتفعات شفاعمرو .

القسم الجنوبي :

من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب تتكون عدة جبال ومرتفعات إلى الشرق والشمال من جنين أهمها مرتفع رابد الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من جنين ، ويبلغ ارتفاعه / ٧١٣ م ، ودير أبو ضعينه الذي يقع شرقي جنين مباشرة ، ويبلغ ارتفاعه / ٤٧٨ م ، وجبال فقوعة التي تقع شمال جنين وتشرف على وادي جالود ، وكذلك على سهل مرج ابن عامر ، ويبلغ ارتفاعه / ٧٦٢ م ، وهي تبدأ من الجنوب إلى جلبون إلى الشمال ثم تميل نحو الجنوب وتتقطع عند السهل ، ويبلغ أعلى ارتفاع لها في وسطها ، أما في الغرب من جنين ، فهناك الهضاب القليلة الارتفاع التي تختلف من مكان لآخر ، وتتخللها بعض السهول مثل سهل عرابه .

ميول هذه الجبال من مدينة الناصرة وإلى الشرق ، فالجبال الشرقية أقل ارتفاعاً من الجبال الغربية ، وكذلك منها إلى الجنوب ، إذ أن الجبال الجنوبية أقل ارتفاعاً من الجبال الشمالية ، أما في القسم الجنوبي فإن الميول من جنين إلى الشرق تكون قليلة ثم لا تلبث أن ترتفع وبخاصة في أربد ، ثم تكون في الشمال أكثر ارتفاعاً كجبال فقوعة .

٤ - السهول :

إن أهم السهول في تلك المنطقة وفي مسرح العمليات هو مرج ابن عامر . يبلغ طوله شرقا وغربا حوالي / ٤٠ / كم وشمالا وجنوبا حوالي / ٢٠ / كم . يرتفع عن سطح البحر ما بين / ١٥ - ٥٠ / م غزير المطر في قسمه الشمالي القريب من الناصرة ، وأقل غزارة في قسمه الجنوبي . يختلف مناخه عن مناخ السهول الساحلية . مناخه يميل إلى البحري من السهول الأخرى الداخلية^(١١) .

لا شك أن هذا السهل هو أوسع السهول الموجودة في فلسطين ، وأطولها وأغناها بالتربة والمياه والخصائص الزراعية المختلفة ، إذ يشكل هذا السهل قطاعا من الشرق إلى الغرب ، يفصل البلاد شمالها عن جنوبها . وهذا القطع يبتدىء من سهول بيسان من الجهة الشرقية القريبة من نهر الأردن ، ثم يسير نحو الغرب حيث يضيق في وادي الجالود ، ثم لا يلبث أن يفتح إلى الشمال والجنوب من جنوب شمال قفره ، ويمر بالعفولة وينتهي بجنين . ومن الشرق إلى الغرب حيث يبتدىء من نهاية جبال فقوعه إلى خربة المنصورة ، ويمر من زبوبة والنغنية إلى أبوزريق حيث يضيق ويبلغ أقصى ضيق له بين جبال الكرمل وتلال شفاعمرو .

مياه هذه السهل كثيرة ، حيث تكثر فيه العيون ، أهمها عين جالوت والميته وعين المغير ، كما أن هناك بعض العيون في أسفل وادي جالود من الجهة الشرقية . وهناك نهر جالود الذي يبتدىء من أول هذا السهل ثم ينحدر نحو الشرق ، ويرفده في مجراه الكثير من الوديان والينابيع . كما أنه توجد بعض المسيلات في وسط هذا السهل التي تشكل جداول تتجمع لتصب في وادي المقطع كما توجد بعض المستنقعات في الجزء الشمالي الغربي منه أي من منطقة النغنية وباتجاه جريان نهر المقطع .

ميول هذا السهل تبتدىء من جنين من الجهة الجنوبية الشرقية ثم تتدرج في الانخفاض البطيء باتجاه الشمال الغربي إلى منتصف السهل إلى جنوب العفولة ، كما تتدرج الميول من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية أو الجهة الجنوبية الغربية حتى منتصف السهل أيضا . ثم تتجه الميول نحو الغرب حتى تصل إلى العجرة .

(١١) : خار : موسوعة فلسطين الجغرافية ١٨٨ .

تكثُر الطرقات في هذا السهل، كذلك المدقات من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ويسهل السير فيه للراكب وللراجل على السواء. وتعتبر مدينة العفولة عقدة طرق هذا السهل إذ تشكل مركزاً رئيساً لجميع الطرقات المتجهة إلى جميع الجهات.

مما لا مرأى فيه أن هذا السهل أنسب مكان للقتال، ولو خير أغلب القادة العسكريين لانتقاء مكان ملائم يؤمن الشروط القتالية والإدارية في ذلك العصر لفضلوا بكل تأكيد سهل مرج ابن عامر، ومنطقة عين جالوت بالذات ذلك لأن المنطقة الغربية منه فيها بعض المستنقعات التي تعيق حركة الفارس، كما أن المنطقة الشرقية فيها وديان وأحجار كبيرة، وأخاديد تحد من الحركة، وتقيد من المناورة. ولو كانت المعركة في سهل بيسان لتعذر ذلك أيضاً لشدة حرارة هذا السهل في ذلك الفصل الذي جرت فيه المعركة، كما أن السهل فيه من السبخات التي لا تؤمن الشروط المناسبة للقتال. إذن من الناحية الزمانية والمكانية لا يوجد مكان أفضل من ذلك المكان. وكان اختياره موفقاً. كما توجد بعض السهول في تلك المنطقة مثل: عرابه إلى الجنوب من مرج ابن عامر، والبطوف إلى الشمال من مدينة الناصرة، وحطين الواقع غربي بحيرة طبرية، وسهل زرعين الذي يعتبر امتداداً لسهل مرج ابن عامر من الجهة الشرقية والذي يجري منه نهر جالود. وهناك بعض السهول الأخرى الصغيرة التي تتشكل في مجاري الوديان والأنهار، على أن تلك السهول لا تقدم بأي حال من الأحوال تلك المزايا المناسبة للقتال التي يقدمها سهل مرج ابن عامر. صحيح أن فيها بعض الطرقات، وفيها بعض المياه، والوسائط المحلية إلا أنها غير ملائمة لهذين الجيشين الكبيرين اللذين حشدا كل الامكانيات لتحقيق النصر.

٥ - المدن:

تقع هذه المدن في مسرح الأعمال القتالية، ولكنها بعيدة نوعاً ما عن خطر دخول القوات إليها، واحتلالها، وعادة ما كان يجري القتال بين الطرفين المتنازعين أي بين القوى العسكرية المتخاصمة، فإذا ما انتصر جيش، أبيح له المطاردة والاحتلال والقتل والتدمير، كما كانت تفعل الجيوش المغولية حين انتصارها. ومن أهم المدن:

الناصرة:

هي مدينة تقع إلى الشمال من مكان المعركة. بجانبها جبال الساعير ومن هذه المنطقة ظهر المسيح (١٢).

(١٢): شيخ الربرة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ٢٦٢.

جنين:

تقع بين نابلس وبيسان، وهي إلى الجنوب من منطقة القتال، وفيها مياه وثمرات ووسائل محلية (١٣).

بيسان:

هي على الجانب الغربي من الغور، وسط سهل خصب، كثير الأشجار في المدينة مياه كثيرة، وتسمى مدينة الغور، ومنها مر الجيش المغولي في طريقه إلى عين جالوت. ويقال: أن طالوت قتل جالوت في تلك البقعة من الأرض، وفيها أشجار النخيل، بينها وبين طبرية ثمانية عشر ميلا. وإن أهمية هذه المدينة من الوجهة الحربية أنها تقع على طريق يصل فلسطين بدمشق وحوران والبلاد الشامية، وتقع أيضا على طريق تصل بين المدن الساحلية مثل: عكا، حيفا، يافا. وبالإضافة إلى ذلك فإنها غنية بمصادرها المحلية. ومن مساوئها أنها كثيرة الرطوبة كثيرة المستنقعات مما يسبب بعض الأمراض والحميات للجيش المتمركز في أراضيها. وكانت في القديم من أهم المدن اليونانية، وتحصن الروم فيها والتجأوا إليها بعد معركة اليرموك، وفتحوا المياه في أراضيها لوقف ملاحقة ومطاردة الجيش العربي لهم (١٤).
حطين:

تقع إلى الشمال الغربي من طبرية وفيها سهل حطين من غربها والجبال من شمالها. صلاح الدين الأيوبي قاتل جيش الصليبيين في هذا السهل وانتصر. وفي حطين إلى الشمال منها قبر النبي شعيب. وفيها قبة النصر التي تقع على قرون حطين التي بناها صلاح الدين تخليدا لانتصاره. وقد اقترن اسم هذه البلاد بهذه المعركة الشهيرة الفاصلة (١٥).

(١٣): البغدادى: مراصد الإطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع: ١ / ٣٦٨.

(١٤): الاضطخري: مسالك الممالك ٥٦، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ٣٠، القرمانى: أخبار الدول وآثار الاول ٤٣١، القلقشندي: صبح الاعشى ٤ / ١٠٣ / ١٠٤، الحموي: معجم البلدان ١ / ٥٢٧، مرمرجي: بلدانية فلسطين العربية ٤٢، طوطح: جغرافية فلسطين ١٥٣.

(١٥): الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات: ١٩، الحموي: معجم البلدان ٢ / ٢٧٣، القرمانى: أخبار الدول وآثار الاول ٤٣٧، مرمرجي: بلدانية فلسطين العربية ٢ / ٦١، ٦٣، طوطح: جغرافية فلسطين ١٨.

طبرية:

هي في الغور على سفح جبل، هي غرب بحيرة طبرية، فيها الاسماك والحمامات الحارة المعدنية، فتحها الرومان، ثم نزعها الفرس ثم اتى العرب فجعلوها عاصمة « جند الأردن » ثم استولى عليها الصليبيون، ثم أعادها الأيوبيون، ثم صارت للماليك فيما بعد. فيها العيون والجداول والمياه الخاصة للإستشفاء من الأمراض والعلل وتعتبر من المدن المقدسة^(١٦).

عين جالوت:

هذه هي القرية التي وقعت فيها المعركة موضوع البحث. وإنها لمنطقة تعرضت لمعارك طاحنة قتالية. فلقد سار جالوت بجيش من البربر من فلسطين، وتمركز بالقرب من العين التي تسمى « عين جالوت » وزحف جيش بني إسرائيل بقيادة طالوت من الجهة الشرقية فعبروا نهر الأردن وتمركزوا قبالة الجيش البربري، وتبارز القادة، فقتل داود جالوت، وهزم جيش البربر، وقتل منهم الكثير. ثم استولى عليها الروم وبقوا فيها مدة حتى استنقذها الجيش الأيوبي في سنة ٥٨٣ / ١١٨٧. ثم تعرضت تلك المنطقة مرة أخرى إلى حرب دامية فاصلة كانت بين الماليك والمغول^(١٧).

٦ - محاور القتال في أرض المعركة:

يتصل بأرض المعركة (عين جالوت) عدة محاور بعضها ساحلية والأخرى داخلية^(١٨) ويسهل الوصول إلى مرج ابن عامر عن طريق الوادي، وحطين، وإربد، بيسان، وعن طريق غزة.

(١٦): الثعالبي: لطائف المعارف ٢٣١، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ١ / ١٤٥، القلقشندي: صبح الاعشى ٤ / ١٥١، الحموي: معجم البلدان ٤ / ١٧، الاصطخري: مسالك الممالك ٥٨، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٦١، طوطح: جغرافية فلسطين ١٧٥، ١٩٧٧.

(١٧): المسعودي: مروج الذهب ١ / ٥٥، ٥٦، الحموي: معجم البلدان ٤ / ١٧٧، البغدادي: مراصد الإطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ٢ / ٤٥٣، زيادة: دمشق في عصر الماليك ٢٦، مرمرجي: بلدانية فلسطين العربية ١٧٠.

(١٨): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٩، القلقشندي: صبح الاعشى ٤ / ٤٠٢: طوطح: جغرافية فلسطين ١٣، ١٤.

هناك طرق داخلية تخترق عين جالوت، أو تمر بالقرب، أو بمحاذاتها من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولها أهميتها القتالية والإمدادية وإذا ذكرنا بعض المحاور فلأن الجغرافيين القدامى، والمعاصرين للعصر المملوكي قد تطرقوا إلى ذكرها. ومن أهمها:

طبرية، اللجون، بيسان (١٩). ومن بيسان إلى عين جالوت. ومن طبرية إلى عكا (٢٠) أي من الشرق إلى الغرب وعبر سلسلة من الوديان وفي سفوح الجبال والهضاب، ومن طبرية إلى الرملة (٢١)، وهو طريق طويل يبدأ من طبرية ويمر في اللجون وفي بطن سهل مرج ابن عامر، ويمر بقلنسوة ثم يصل إلى الرملة حيث يقترب من القدس. وهناك محور مهم يصل بين مكانين مهمين هما حطين وعين جالوت (٢٢) يمر هذا الطريق بزرعين وهو الطريق الذي دخله الجيش المملوكي للملاقاة عدوه في المعركة التي نتكلم عنها، وأما الطريق الساحلي الذي يبتدىء من غزة ويمتد حتى اللد، ثم ينحرف نحو الجنوب الشرقي ليكون طريقا داخليا فيمر بالعوجا، الطبره، قاقون، فحمة، حطين (٢٣) ثم يتابع نحو أرض المعركة. وهناك طرق فرعية تصل المدن الكبرى مع بعضها مثل بيسان - نابلس - ويسان - العفولة. ومن يافا إلى زغر حيث يمر بالرملة، القدس، أريحا، البحر الميت (٢٤). وهناك شبكة طرق داخلية تصل البلاد مع بعضها منها طريق المدارج الذي يصل بيسان، تعاسير، نابلس، بيت المقدس. ومنها صور، صيدا، القدس. ومنها بيت المقدس، نابلس، ومنها أيضا إلى أريحا وبئر السبع.

محاور أرض المعركة هي المحاور التي تتوفر في تلك الأرض على المستوى التكتيكي، وتحتاز مسرح الأعمال القتالية من كل جهاتها. وهي الدروب والمسالك التي تحدد اتجاه القتال، وكيفية المناورة، والالتفاف القريب أو البعيد، مأخوذاً بعين الاعتبار نوع التربة وثبات الأرض وأورخاوتها

(١٩): المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٩٠.

(٢٠): الادريسي: نزهة المشتاق ٢٢٩.

(٢١): ابن خرداذبة: المسالك والممالك ٧٨ / ١١٦، ابن الفقيه: البلدان ١١٦، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٧ / ١٦٥. مرمرجي: بلدانية فلسطين العربية.

(٢٢): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٩.

(٢٣): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٩.

(٢٤): الاصطخري: مسالك الممالك ٦٦.

تحت سنانك الخيل وأقدام المشاة، وقوائم الدواب « وسائط القتال » المشتركة في المعركة .

تتدرج ميول أرض المعركة بالانخفاض من الشمال نحو الجنوب، ومن الجنوب نحو الشمال لتلتقي في الوسط في الخط الوهمي الذي يبدأ من جنوب زرعين ويتجه نحو الشمال مارا بجنوب العفولة، وبيجنوب عين المغير كما تتدرج الميول بالانخفاض من جنوب شرقي سفوح جبل قفزة، ومن السفوح الجنوبية لجبل الدوهي نحو الجنوب الغربي حتى تصل عين جالوت وعين الميته ثم تستمر مع جريان وادي جالود . وكذلك من السفوح الشمالية الشرقية لجبل الفقوعة باتجاه وادي جالود، على أن الميول الأكثر طولاً، والأكبر مساحة تبتدىء من غرب عين جالوت وتستمر في الانخفاض باتجاه مجرى نهر المقطع حيث تنتهي في الساحل باتجاه الجنوب الغربي .

يتخلل أرض المعركة عدة مسالك ودروب تتجه من الجنوب إلى الشمال، وتكثر في الجهة الجنوبية الشرقية، وحول عين جالوت بالذات . وتقل في الجهة الغربية والشمالية الغربية، وبخاصة حول الفنفية وعين المغير . وهذا مما يؤكد على أن المعركة وقعت في الجهة الجنوبية الشرقية من سهل مرج ابن عامر، وذلك لسهولة التحرك في هذه المنطقة، كما يؤكد على أن الجيشين المتقابلين كان أحدهما في الشمال الشرقي والآخر في الجنوب والجنوب الغربي، وأن الصدام الحقيقي وقع غربي عين جالوت . إن اتجاه المحاور « الدروب » يحدد اتجاه القتال . فالقتال بالاتجاه اسهل بكثير من القتال بغير هذه الاتجاهات، ويصعب على الخيل أن تتجاز الدروب بصورة عرضانية لكثرة التعرجات والردميات التي تكون على جانبي الطريق، كما تحدد هذه الطرق الاقسامات من الأرض، تستطيع القوات المتقاتلة من خلالها أن تحدد قطاعا عسكريا بين طريقتين متجاورتين لمباشرة القتال .

إن التربة ثابتة وصالحة للقتال في الجهة الشرقية، ورخوة غير متماسكة في الجهة الغربية، وهي لميولها لا تحتوي المياه، أو تتجمع في قاعها، بينما في الجهة الغربية حيث يقل الميل تكثر السبخات والمستنقعات مما يجعل السير في تلك الأراضي صعب . وإن الخيل لا يمكن أن تتحرك بحرية تامة . وهذا ما يؤكد ايضا على أن المعركة وقعت في الجهة الشرقية من مرج ابن عامر، أي بالقرب من عين جالوت، كما تقل الدروب والمسالك في المنطقة الغربية وذلك بسبب وجود هذه المستنقعات وعدم صلاحيتها حتى لسير المشاة .

ومما يلاحظ أن هذه المسالك اتخذت اتجاهها يساير اتجاه الجداول والروافد للنهرين اللذين يجتازان أرض المعركة . وهذا دليل واضح على أن هذه الطرق تتخذ في اتجاهها الجداول وتسايرها فإذا أراد أن يقطع الفارس هذه الاتجاهات بصورة عرضانية لاعاقته تلك المسيلات والمجاري المائية أيضا، ولما استطاع أن يتحرك بحرية .

الفصل الثالث

القوام القتالي للطرفين المتقاتلين

لقد كان الجيش المملوكي خليطاً من أقوام وأجناس مختلفة من أتراك وشراكسة وغير ذلك من أكراد، روم، عرب^(١)، كما كان الجيش المغولي يحتوي أيضاً في قوامه على بعض الفئات المغولية والتركية والارمنية إلا أنه في تركيبه البشري أقل خليطاً من الجيش المملوكي^(٢). إن مثل هذه الجيوش لا تقاوم كما لو كانت من فئة واحدة إلا إذا زالت الاختلافات كما كان الجيش المملوكي وكذلك تعمق التدريب القتالي بالمشاريع والمناورات المشتركة.

إن الجيش المملوكي ركز على العقيدة، واعتنى بتربية العسكري منذ صغره، ورباه تربية فكرية، مكنته فيها بعد أن يدخل المعارك بكل إقدام وشجاعة، وجعله يدخل الحرب دون خوف أو إحجام، ويلقي بنفسه حبا للموت فإن قتل فهو من الشهداء وإن عاش فهو من السعداء^(٣)، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الجيش اعتنى أيضاً بالناحية الحربية، وأكمل التدريبات المختلفة^(٤) أما الجيش المغولي فقد بسط هيمنته على العالم بفضل قوته العسكرية ونظامه الصارم (الياسا) والتدريب القتالي العالي الذي كان يتصف بالاستمرارية والعيش في ظروف المعركة الحقيقية التي إن أخطأ بها أردت بحياته، وإن أهمل شروطها وخصائصها كلفتها الهزيمة والعار. فهو إن قاتل فهو يقاتل عن جد وعزيمة، وإن حضر لها عاش حياة الحرمان مع الطبيعة في قرها وحرها، وفي ندرة المواد وخصبها، وفي صعود الجبال واتباع المضائق، وفي اجتياز الأنهار وتفادي المخاطر^(٥).

تعاقب على الحكم المملوكي فئتان كبيرتان هما «المماليك البحرية»^(٦) وأغلبها من الأتراك،

(١): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٧٢، ابن تغري: النجوم الزاهرة ٧/٣٣٠، زكي: الجيش المصري في العصر الاسلامي ١١

(٢): ابن الصقاعي تالي: وفيات الاعيان ٨٥، ١٦٧، العربي: المغول ٢٥٩

(٣): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٤٢٩، ٢/٢/٥٢٤، ابن خلدون: تاريخه ٥/٣٧١

(٤): الأشرفي: مخطوطة رمي النشاب ٣٦، المقرئزي: الخطط ٢/٤٨٩، أبو شامة: كتاب الروضتين ٢/٥٧٩، مبارك الخطط التوفيقية ١/٨٢

(٥): أسعد: يولسو ١١، ٧٣، البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٦، ١٢٧٧، الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ٢/٨٣، ٨٥

Rashid Al-Din, The Success Or Sofngnhis Khan/56

(٦): شوبرل: العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٠٨ حتى تاريخ العرب ٧٦٣

وقد حدثت معركة عين جالوت في عهد هذه الفئة و«المهاليك البرجية»^(٨) وأغلبها من الشراكسة، وقد حدثت معركة النهاية معركة مرج دابق في نهاية عصر هذه الفئة حيث أخفقت في التصدي للعثمانيين فانهزمت وكانت هذه الهزيمة خاتمة حكم المهاليك^(٩) أما خانات المغول فقد انحدروا من سلالة جنكيز خان وكان حفيده هولاكو هو الذي اجتاحت بغداد وحلب ولم يقدر له حضور معركة عين جالوت للاختلال الذي حدث في بلاده، فأُسرع في قسم كبير من الجيش، وأبقى قوة احتلال في بلاد الشام^(١٠)

- القوام القتالي للجيش المملوكي :

لقد كان القوام القتالي متبايناً في التدريب والتسليح والجنس والكفاءة القتالية والخبرة، فمن المقاتلين من كانوا لأول مرة يدخلون مثل هذه الحرب الحامية الوطيس، ومنه من كان له سبق في الحروب، وتمرس في المعارك، ومنهم من تعود على الكر والفر كحرب العصابات، فمثل هذا التباين يلزمه اشتراك جميع المقاتلين في بيانات أو مشاريع قبل الدخول في معركة حقيقية، وتنظيم الوحدات العسكرية بتنظيم يضمن تضافر كل الجهود لتحقيق الهدف الذي يصبو إليه هذا الجيش، وفرض انضباط قوي على العسكري وعلى القطعات على السواء ولعل أهم الفئات التي اشتركت في معركة عين جالوت هي :

أولاً: الترك :

جاءوا من بلاد القبجاق، واختلطوا مع المغول حين احتلوا بلادهم، وخضعوا لهم وكثر الرقيق المجلوب من هذه البلاد، واشترى الأيوبيون هذه الفئة وأدخلوها في قوام هذا الجيش ثم مالبثوا أن شكلوا دولة قوية عرفت باسمهم، واستلم المهاليك الحكم والجيش، فكان أول سلطان هو آييك التركماني، وكذلك قطز وبيبرس اللذان قادا هذه المعركة الفاصلة^(١١)

(٨) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/ ٣٣٠ شبلر : العالم الاسلامي في العصر

المغولي ١٣٩

(٩) : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥/ ٦٩ وما بعدها، القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ٢٢٠

(١٠) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/ ٢٢٠، زامباور : معجم الانساب والاسرات

الحاكمة في التاريخ الاسلامي ٣٥٩ - ٣٦٢

(١١) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/ ٣، ٨٥، ١٨٣، ابن الفرات : تاريخ الدول

الترك أمة شرقية من مساكنها سهوب تركستان في ماوراء جيحون، لغتهم خاصة بهم، بشرتهم بيضاء لهم عيون زرقاء، ووجه مدورة، وقامة طويلة^(١٢)، وهمة عالية، وشجاعة عالية وإيمان قوي وفروسية تدرّبوا عليها وأتقنوا خصائصها وشروطها، فكانوا في الرمي حاذقين، وفي ركوب الخيل نشيطين، وفي المناورة خفة وحركة، وفي فنون القتال مهرة^(١٣)، إذ اتخذوا القتال ديناً لهم فقد استوى فيهم من انضم إليهم من الأقوام الأخرى كالشركسي والرومي والكردي. مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم^(١٤)، لهم صبر على الحروب، وثبات في القتال. وقوة احتمال على الجوع والعطش والبرد^(١٥) واشتهروا كذلك بالود واللين والوفاء مع القسوة والشدة^(١٦)، ولقد انتشر الترك وتفرقوا إلى عدة قبائل منهم التتر ومنهم المغول، ومنهم الترك الذين نسبوا إلى أوغوز خان، وقد تشابهت في بعض الأحيان لغتهم وتباينت واتفقت في بعض الأحيان عقائدهم^(١٧)، وقد انقسم الترك طبقاً لوظائفهم ودخولهم في الخدمة وسنهم وانتمائهم إلى الفئات التالية:

١ - المالك القرصنة:

هم الذين دخلوا في خدمة السلطان، وسبقوا غيرهم من المالك، وهم المقربون إلى الديوان الشريف، وكانوا يتباهون على غيرهم بأنهم أقدم المالك هجرة وانتساباً إلى الدولة والجيش،

والمملوك ٩٧/٨، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣٦٣، ٣٦٨، ٨٩/٢، الكنتي: فوات الوفيات ١٥٩/١

(١٢): ابن صاعد: طبقات الامم ٨، الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ١٢٢/٣

Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, 9/262, 263

(١٣): ابن صاعد: طبقات الامم ٨، القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٥٨، الناصري: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٤٢، لوبيون: حضارة العرب ٢١٧، العزاوي: تاريخ العراق ٥١/١ ومابعدها

(١٤): الجاحظ: البلدان ٤٧٣، الرمزي: من تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ٣٥/١، العربي: المالك ٢٤٦

(١٥): ابن صاعد: طبقات الامم ٨، الطباخ: اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢٤٢/٣

(١٦): شيخ الرتبة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ٢٧١

(١٧): ابن صاعد طبقات الامم ٨، العزاوي: تاريخ العراق ٦٨/١ ومابعدها

وهم المرشحون للإمارة والذين يعاملون بمنزلة أمراء الخمسوات^(١٨) وكان لهم دور كبير في معركة عين جالوت، وكانت الأكثرية منهم في بدء تأسيس الجيش وتطويره، وقد كان لهم من الشدة والقوة في القتال، لكنهم - فيما بعد - وفي المعارك التي تلت تراخوا عن مهمتهم الأساسية واشتغلوا بالفتن والدسائس، وفي إثارة القلاقل والشغب^(١٩) حتى أن بعض الباحثين والمؤلفين يعزون انهزام الدولة المملوكية في أواخر حياتها إلى انقراضهم وبخاصة في معركة مرج دابق^(٢٠) كانوا يتقاضون مكافآت ورواتب نقدية عند خروجهم بحملة خارج البلاد وذلك لاسترضائهم، ودفعهم أن يقاتلوا مع الفئات الأخرى، فلم يقاتلوا عن حب الوطن أو عن عقيدة وإنما كانت المصالح الشخصية والمنفعة الذاتية هي التي تدفعهم للقتال^(٢١) ولكنهم ظلوا أوفياء أكثر من غيرهم، وأقدر على القتال والمجابهة.

٢ - المماليك الجلبان :

هم الذين جاؤوا إلى البلاد وهم كبار السن عن طريق الشراء^(٢٢) ثم دخلوا الجيش وهم على عاداتهم القديمة التي ألفوها من قبل وكان من الصعوبة أن يتربوا بتربية المماليك الصغار، فلم يتقنوا التدريب العسكري، ولم يؤسسوا على تربية عقائدية، فنشأت فيهم الفوضى، وانتشر الفساد، وسرت فيهم العادات السيئة وكثر السلب والنهب، وظلم الناس، وتفشى رفض الأوامر تجاه الرؤساء واحتل الانضباط^(٢٣).

(١٨) : ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك ١١٥، زكي : الجيش المصري في

العصر الاسلامي ١١

(١٩) : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/٢٦٠، ٢٧٨، ٢٨٠، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك

٣٨٦، ٣١٤، ١٧٤/١/٣

(٢٠) : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥/٦٨، الاسحاقى : أخبار الاول فيمن تصرف في مصر من

أرباب الدول ١٤٤

(٢١) : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٦/٣، ٨٤/٤

(٢٢) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦/٣٨٦، القلقشندي : صبح الاعشى ٤/١٦

(٢٣) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/١٣٤، ١٤١، ٣٨٣، ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع

الدهور ٣/٣٢٣، ٣٦٣

ومثل هذه العادات والصفات تؤدي بالجيش إلى التفكك وانعدام التعاون، والتخاذل في القتال، والاستهتار بالمهمات القتالية والابتعاد عن المسؤولية والتأثير السيء على غيرهم من فئات الجيش الداخلة في القوام، فقد توصلوا إلى فرض رأيهم على قادتهم إذ بعد انتصارهم في معركة تراهم يضغطون على السلطان بصرف مبالغ كبيرة من المال لقاء انتصاراتهم، فإن لم يعطوا قاموا بقتل قادتهم وزملائهم من الفئات الأخرى من المماليك^(٢٤).

ولقاء هذه الضغوط كان السلطان يستجيب لطلباتهم ويمنحهم ما يريدون، وفي بعض الأحيان كانت الضغوط تضطره لخلق نفسه، كما كانوا يتجاوزون حدودهم، فيعتدون على قادتهم، ويحاصرون رؤسائهم في مقر عملهم وفي بيوتهم، وينهبون دورهم بعد مقتلهم أو بعد هروبهم^(٢٥).

تزايد عددهم في عهود الدولة المملوكية وسيطروا على المماليك الأخرى، وخرجوا بالتجريدة أثر التجريدة، وفي حرب إثر حرب، لكنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وكانوا مصدر الفتن والقلاقل في الدولة^(٢٦) وهؤلاء كانوا من مختلف الجنسيات وقد حاربهم الملك الأشرف، وقضى على أكثرهم لما لمسه منهم من تخريب وفوضى، فتفرقوا فممنهم من دخل في المماليك السلطانية ومنهم من دخل مماليك الأمراء. وقد استخدمهم أكثر ما استخدمهم الأمير يلغا العمري^(٢٧)، وقد أثاروا الخلافات وعمقوها وتمكنوا من الدولة، وكانوا سببا في انهيارها^(٢٨) وهناك «عسكر الطبقة الخامسة» وهم قسم من مماليك الجلبان كانوا دون المماليك من بني جنسهم إذ كان يفرض عليهم الاتاوات وقسم من أموالهم ومن رواتبهم لصالح الجلبان^(٢٩).

(٢٤): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/٢٦١.

(٢٥): ابن إياس/ المصدر نفسه ٣/٣٢٣، ٣٦٣، ٣٧٥، ٤/١٧ القرماني: أخبار الدول وأثر الأول ٢١.

Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, 11, 329

(٢٦): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥/٣١.

(٢٧): الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ١/٣٥.

(٢٨): ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥/٦٩، القرماني: أخبار الدول وأثر الأول ٢٢، الاسحقاني:

أخبار الدول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٤٤.

(٢٩): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٩٥.

- الممالك السلطانية :

هم الفئة الخاصة بالسلطان التي جلبت إلى البلاد عن طريق الشراء، ولها مقام عند السلطان ثم انقسمت هذه الفئة إلى أقسام عديدة منذ أيام السلطان برسباي منها الظاهرية، الناصرية، الحاكمة، الأشرفية، نسبة إلى السلطان الذي تنتسب إليه هذه الأقسام والفروع^(٣٠) ولكل قسم تنظيمه الذي يختلف عن الآخر، وتبلغ ذروة سيطرتها وعزها في أيام السلطان الذي قرب منه هذه الفئة، وبعد موته إما أن تحافظ على كيانها أو تنضم إلى فئة أخرى لسلطان آخر، ولكنه على الاغلب تبقى هذه الفئات متكثلة متجمعة، يرقى إليها الشك من قبل السلطان الصاعد^(٣١)

لقد اختلف عدد الممالك السلطانية من زمن إلى زمن ومن سلطان إلى سلطان ففي أيام الظاهر بيبرس البندقداري بلغ عددهم /١٦٠٠٠/ وفي عهد المنصور قلاوون /١٢٠٠٠/ مملوك وفي ولاية الملك الأشرف خليل بن قلاوون /٤٠٠٠/ ^(٣٢) وقد أصابهم ما أصاب غيرهم من الضعف والانحلال والفساد والفوضى .

(٤) - أجناد الحلقة :

هم الذين كانوا ينتمون إلى فئات وطبقات مختلفة من الممالك وغير الممالك . وهم الكثرة الكثيرة، والأغلبية في الجيش، والعمود الفقري فيه، وهم الذين كانوا يشكلون تنظيمات القوات المسلحة من زمرة إلى لواء، ومن أمير خمسة إلى أمير فئة ومقدم ألف، وكل مائة لهم رأس باش^(٣٣) ونقيب، فمنهم من ينتمي إلى البحرية، ومنهم من ينتمي إلى القوى البرية وقد بلغ عددهم في مصر /٢٤٠٠٠/ وفي الشام /٣٦٠٠٠/ جندي^(٣٤) .

(٣٠) : ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/ ٣٧٠

(٣١) : Coudefroy Demombynes la Syrie a le pogue des Mamelauks 3/32

(٣٢) : ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق المسالك ١١٦، المقريزي : الخطط ٩٥/١

(٣٣) : باش أي رئيس، زهي كلمة تركية، وكان باش العسكر برسباي . وكان الأمير تمتاز يحمل هذا اللقب أيضا بالإضافة إلى وظيفة أمير سلاح، وقد تطلق هذه التسمية أيضا على رئيس التجريدة . انظر ابن اياس :

بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ١٠٣، ١١٣، ابن طولون : مفاهمة الخلان في حوادث الزمان ١/ ٦٢
(٣٤) : ابن تغري بردي : المنهل الصافي ٢/ ١١٣٥، ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق

والمسالك ١١٦، ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/ ٩٣، ١٠١، ١٠٢، ١٣٧، المقريزي :

الخطط : ٩٥/١، زكي : الجيش المصري في العصر الاسلامي ١١

(٥) - الممالك الخاصة (خشداش) (٣٥)

هم الملازمون للسلطان في بيته وخارج بيته، والمقربون إليه، وهم الذين يقومون بسوق المحمل، ويتجهيز مهمات وسفر السلطان، وما يتطلبه ذلك، والمرشحون للامرة، وهم قلة قليلة لا يمكن أن نطلق عليهم في هذه الأيام إلا الحراسة والمرافقة للقائد العام. وقد بلغ عددهم في أيام الناصر محمد بن قلاوون / ٤٠ /، ثم ازداد عددهم حتى بلغوا في عهد الملك الأشرف برسباني / ١٠٠٠ / مملوك (٣٦) لهذه الفئة خاصية قوى الرابطة الاجتماعية، وزيادة المعرفة فيما بينهم، سيما وأنهم نشأوا لا يعرفون الأقارب والأخوة ولا الأم والأب، ومن هنا انبثق فيهم التعاون والحرص الشديد على الدفاع عن زملائهم في السلم والحرب.

(٦) - أجناد الأمراء وأبناء الأمراء والسيفية:

هم الممالك الذين ينضوون في خدمة الأمير الذي يكون في السلطة، ويتدرجون في المناصب، ويأملون استلام أعلى المراتب في الجيش، وهناك أولاد الناس وهم ممالك أبناء الأمراء الذين يخدمون في كنف ابن الأمير، ويقعون تابعين له ومرافقين إياه، وهناك السيفية الذين مات سلطانهم أو أميرهم أو نحي عن السلطة.

ثانياً: الشراكسة:

بلادهم الأصلية جبلية، شاهقة الارتفاع، كثيرة التضاريس، تعصفها الثلوج وتتجمد فيها المياه في فصل الشتاء، وفيها الغابات والأعراج وتطل على البحار الدافئة كالأسود والبلطيق والخزر (٣٧) ألا وهي بلاد القوقاس التي تتوسطها من الشرق إلى الغرب جبال قازاق والجبال الممتدة على البحر الأسود، وتنحدر من هذه الجبال أنهار كثيرة أهمها قوبان والترك وكوفا التي ترفدها أنهار كثيرة تشكل في مجراها مستنقعات واسعة. منها ما يصب في بحر الخزر من الشرق، ومنها ما يصب في البحر الأسود من الغرب.

(٣٥): خشداش: كلمة فارسية معناها الزميل في العمل، والخشداشية في مفهوم الممالك الأمراء هم الذين تربوا

عند سيد واحد، ونشأت بينهم ألفة ومحبة، انظر المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣٨٨/٣/١

(٣٦): ابن شاهين الطاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٦، ابن تغري بردي: النجوم

الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢ / ١٧٥ / ٢٧٣ / ٢٨٥، زكي: الجيش المصري في العصر الاسلامي ١١

(٣٧): طرخان: مصر في عهد الدولة الجراكسة ٨، المفتي: أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس ١٢

وتقع في الشمال الاراضي السوفيتية، وفي الجنوب الاراضي التركية^(٣٨) أتى الشراكسة إلى مصر عن طريق الرق كغيرهم من الممالك، فهم ذوبشرة بيضاء، وطول فارغ، وقامة ممشوقة، ولياقة بدنية، وعيون زرقاء وجباه عريضة، وشعر ذهبي، يدرّب الشرکسي على ركوب الخيل منذ صغره ويلعب التمارين الرياضية المجهدّة، ويصطاد الحيوانات الوحشية، ويسبح في الانهار ويعبرها مهما كانت شدة التيار، ويغزو غيره، ويحارب جيرانه التتار، ومن عاداته ألا يولي دبره في القتال أبداً، ويظل يقاتل حتى يقتل أو ينتصر. والعار كل العار إذا هرب أو استسلم أو تهاون في القتال^(٣٩) وهو يحب الموت ويذل روحه، ولا يحسب حساباً للعدو، فهذا أرسلان بك أمير صاخه ينادي بأعلى صوته عندما أقدم على القتال:

« يا إلهي أعرف بأنني عاجلاً أم آجلاً سوف أموت ... »^(٤٠)

إذا قابل الشرکسي عدواً أقوى منه عدة وعدداً لم يخف ويثبت أمام خصمه ويقاتله، وإذا ثار فإنه يثور لكرامته بدافع من الشعور بالواجب الاجتماعي، وإذا تنافس الشراكسة فيما بينهم كان ذلك في البطولات التي قدموها، وفي المعارك التي خاضوها، وهذا التنافس يدفعهم لبذل كل ما يستطيعون، ويقدمون في سبيله كل غال وثمين. وإذا عهد إلى الشرکسي بعمل أداه بحوية ونشاط، دون أن يتطرق إليه الكلل أو الملل حتى ينتهي منه تماماً، فإن اعتراضه عائق تغلب عليه بكل حيلة، وإن اعتراضه صعوبة تراه لا يعابها، ولا يقيم لها وزناً، ولا يعير لها بالاً، فقد كان لدى الباحث ضابط شرکسي مرؤوس أوكل إليه عملاً عسكرياً، وأثناء تنفيذه أصيب بيده وهذه الإصابة كافية لاسعافه إلى المستشفى، إلا أنه لم يهتم بها، وعصب يده بنفسه بخرقه كانت معه، ثم تابع مهمته ونفذها وأكملها كما لو لم يكن قد أصيب أبداً، والشرکسي خفيف الحركة، فهو يعدو كالخيل ويلتفت كالنمر ويقدم كالأسد، ويعقص عدوه كالنحل، ويدور حوله كالصقر، ويطارده كالذئب. فهو إن كان راجلاً أدى حركاته بمهارة وسرعة، وإن كان راكباً كان كالبهلولان يميل يميناً وشمالاً يقاتل عدوه فيرتبك منه ويفر هارباً، ويحاول أن يصيبه فيخطيء سبهم. ويعلورمحه، وتطيش ضربته كل ذلك من الخفة التي يميز بها، ومن الحركات التي يؤديها

(٣٨): المفتي: أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس ١٢

(٣٩): المفتي أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس ١٣، ١٥، ٧١، ومابعدهما

(٤٠): سمكوع: مدخل إلى تاريخ الشراكسة ٧١

بسرعة عجيبة، ومن إتقانه لفن الجري والتدريب القتالي، وإذا ركب الخيل شاهدت مهارته، فهو على ظهر جواده فارساً، يقفز عن الفرس المغير، ويستقيم على المهاجم منه، وينزل الأرض ويؤدي فنه بحركات تدل على قيادته الدقيقة والمحكمة لحصانه. فهو إن وجهه ونحو العدو أقدم، وإلى الحواجز الطبيعية قفز، وإلى البحر غاص، وإلى جناح العدو شق صفوفه، وإلى الفرجات عبرها وإلى المسالك طرقها، والممرات الجبلية الضيقة تجاوزها^(٤١) وقيادة الحصان في وقته أصعب بكثير من قيادته الدبابة في الوقت الحاضر التي تتميز بحركتها العالية، وينيرها الكثيفة وبزيادة مدة قتالها^(٤٢) ترى هل كان الحصان في زمن الممالك الشراكسة بالذات يملك مثل هذه الصفات؟ نعم إن الشرکسي كان يقود حصانه بخفة عجيبة، يعدوبه ويطلق الرصاص من بندقيته وهو على جواده المغير، ثم يحشوها من جديد، ثم يسحب سيفه فيقاتل، ثم يعدو قافزاً على السرج^(٤٣) كل ذلك في آن واحد حيث أدى الحركية، وأطلق النيران الكثيفة، وظل يقاتل مدة طويلة، وأصل الليل بالتهار دون أن تبدو عليه علائم التعب، أو تظهر عليه أثره من قتر، أو ذلة من عدو. وإذا أريد التوسع في صفات الشرکسي الحربية، فإنه يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع «سياحة في الحكومات الجنوبية للإمبراطورية الروسية» للبروفسور الألماني بالاس وبل - جورنال للاقامة في تركيا» للعالم الانكليزي جيمس ستانيسلاس بل James Stanisles Bell وقفقاسيا وبلاد القوازي للعالم الألماني مورتيز فاغنر Moritz Vagner وكتاب الروس والشراكسة لشاعر القفقاس ميشل لرمونتوف Michal LerMontouf

ثالثاً: الاكراد

استعان بهم صلاح الدين الأيوبي في حروبه ضد الصليبيين واشتركوا في المعركة، واستعان بهم بيبرس ضد الفشة الايوبية، وكانت مساكنهم في البلاد الساحلية من فلسطين وبخاصة في نابا، ومن التركمان طوائف عديدة منها البازاتية والأراكية وغيرهما^(٤٤)

(٤١): الرماح: مخطوطة الفروسية في ركوب الخيل والنزول بالرمح ٣، ٤، ١٠، ١٢، ١٥٠، ٢٦ ومابعدها

(٤٢): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٥، ١٠٦

(٤٣): ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٧٩، ابن عبد الطاهر: الروض الزاهر ٤٨، اليوناني: ذيل مرآة الزمان

٣٠٠/٢، عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمالكي ١٧٥، ابن العميد: أخبار الايوبيين ١٧٥

(٤٤): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٥، ابن العميد: أخبار الايوبيين

رابعاً: المغول:

هاجروا من بلادهم التي أصبحت مسرحاً للعمليات ، ومرتعا للجنود والمغول أنفسهم دخلوا في الجيش المملوكي^(٤٥) وقد كان عددهم في معركة عين جالوت قليلاً جداً ثم ازداد حجمهم فيما بعد، إذ انضم إلى جيش الملك الظاهر بيبرس ثلاثة آلاف جندي حاربوا في صفوفه، وتولوا وظائف قيادية وإدارية فمنهم من تولى السقاية ومنهم من تولى طبلخاناه، ومنهم من تولى أمير عشيرة إلى عشرين ومنهم من تولى الامارة، ومنهم من استلم السلحدارية والجمدارية^(٤٦) ثم انضم مائة وثلاثة عشر فارساً وعشرة آلاف ما بين رجل وامرأة^(٤٧) وأسلم كثير منهم حتى أن الملك قازاق دخل الاسلام وكان لاسلامه شيء من القوة أضيف إلى الجيش المملوكي^(٤٨) وسكنوا في اللوق والحسينية، وأطلق عليهم «الوافدية»^(٤٩) إلا أن هذه الفئة من المغول كانت دون المماليك الذين جاؤوا عن طريق الرق والذين نشأت بينهم روابط كانوا يعتزون بها^(٥٠)

خامساً: العرب:

هم الذين عاشوا على الأرض العربية في مصر والشام، واشتركوا في معركة عين جالوت بكل فئاتهم، لم يكن لهم دور يذكر في العصر المملوكي، إذ كانوا يعتبرون طبقة دون طبقة المماليك، فهم قد اقتصروا بالزراعة والتجارة والأعمال الإدارية في حين أن المماليك اقتصروا بالقيادة والسياسة والجيش، أراد الملك الناصر أن يستبدل العرب بالمماليك، وما أن شرع في هذا السبيل من ترقية إلى رتبة (الأمير) وإدخالهم في صفوف الجيش، وتسليمهم وظائف قيادية حتى توقف كل شيء بموته، ثم أتى من بعده ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين فسار على طريقة

(٤٥): ابن تغري بدري: النجوم الزاهرة ٧/ ٣٣٠، القريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٧٧٥، القريري:

الخطط ٣/ ٣٤٨

(٤٦): ابن تغري بدري: النجوم الزاهرة ٧/ ١٩٠

(٤٧): ابن تغري بدري: النجوم الزاهرة ٨/ ٦٠، تسيير/ شتين: تاريخ سلاطين المماليك ٣٨

(٤٨): ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٤٤، الدوادري: الدر الفاهر في سيرة الملك الناصر ٦٧،

السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/ ١٢٩

(٤٩): مبارك: الخطط التوفيقية ١/ ٨٤، ٨٩، ١٣٤

(٥٠): القريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢/ ٣/ ٧٥٠

الملك الناصر وتوقفت تلك الاعمال والافكار بموت السلطانين، إلا أن العرب برزوا كجنود أوفياء انضباطيين، لديهم حب النظام وفهم لامور الجيش، وتولى عدد منهم رتبة أمير مقدم، ووظائف قيادية^(٥١) ومن أبرز الفئات العربية التي اشتركت في المعركة هي :

(١) - العربان

كان أشهرهم آل ربيعة بن طيء من كهلان من القحطانية، لقد ظهر منهم في أيام الدولة الايوبية مانع بن حذيفة وغنام بن الطاهر اللذان كانا في أيام الملك محمد بن العادل. وبقيت سلالتهم من بعدهم في عصر الدولة المملوكية وكان أشهرهم زامل بن علي بن حذيفة وأخوه أبا بكر بن علي وعيسى بن مهنا وأولاده الذين كانت لهم حظوة عند السلاطين وكانوا ينزلون عليهم فيحسنون ضيافتهم، ويقيمون عندهم أياما، ويخلعون عليهم ويهدونهم أقمشة وامتعة قيمة. وكان آل مهنا هم الذين قادوا الاعراب في البادية، إذ عين السلطان أميرا كبيرا عليهم يسوسهم ويقودهم، كما عين لكل قبيلة أميرا في الشام ومصر^(٥٢).

لقد اشترك في معركة عين جالوت أمير العرب الكبير مهنا بن مانع بن حذيفة، ثم عين الظاهر بيبرس فيما بعد عيسى بن مهنا أميرا، وكلفه بالمحافظة على الطرقات ووفر له الاقطاعات وأعطاه ما أعطى الامراء. وظلوا يتعاقبون في الامارة حتى أواخر الدولة المملوكية^(٥٣). كما اشترك آل مرا أخوة آل مهنا وكان أميرهم أحمد بن حجي في أربعة آلاف فارس. وقد اشتهر هؤلاء بالفروسية والشجاعة، وباقتنائهم الجياد العربية الاصيلة والاسلحة الحديدية والثياب الحمراء الاطلسية والخوذ القوية والرماح الخطية، والسيوف القاطعة^(٥٤). وآل علي وهم من آل ربيعة أيضا وأقرباء آل فضل وآل مهنا وآل مرا. منازلهم الغوطة والمرج شرقي دمشق، وكان من امرائهم رملة بن حجاز. وعيسى بن زيد بن حجاز وبنو جرم وكانت مساكنهم بلاد غزة والداروم والخليل. ينتشرون في أراض تلي الساحل إلى الجبل وكان أميرهم فضل بن

(٥١): ابن تغري بردي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٠ / ٣٠٩ / ٣١٧

(٥٢): القلقشندي: صبح الاعشى ٤ / ٢٠٣، ٧ / ١٨٤ وما بعدها.

Demombynes La Syrie lepoque des Momelouks: 184

(٥٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤ / ٢٠٦، أبو شامة: الذيل على الروضتين ٢٠٧

(٥٤): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٦٥

حجي . وعلي بن فضل وبنو ثعلبة من طي ومساكنهم مصر إلى الخروبة وزبير ومساكنهم بالشام ، قسم منهم بصلخد ، وقسم بغوطة دمشق ، وثالث في حوران ، وكان أميرهم نوفل^(٥٥) . وعرب البحيرة وكان يتزعمهم محمد بن أبي سليمان في الوجه البحري^(٥٦) وعرب الوجه القبلي وكان يتزعمهم ناصر الدين عمر بن فضل وسمره بن مالك^(٥٧)

٢ - المواطنون :

كان المواطنون غالبا ما يشاركون في الدفاع عن البلاد إذا ما تعرضت لخطر الاحتلال وكانوا يجدون في الممالك قوة عسكرية أنقذتهم من هلاك محقق وتدمير وشيك الوقوع من قبل الجيش المغولي الذي توجه شطر الشام ومصر بغية احتلالها وإخضاعها لسيطرتها وحكمه . ولم يشأ المواطنون إلا الاشتراك مع هذا الجيش الذي نذر نفسه للدفاع عن أرض مصر مشاركة فعالة في معركة عين جالوت ، فالتحق في الجيش العدد الكبير من المصريين ، ثم مالبث أن انضم إليه عدد كبير من المواطنين في أرض الشام على طريق التحرك إلى هذه المعركة لكنهم كانوا دون غيرهم تأهيلا وتدريبًا وتسليحا ، إلا أن معنوياتهم كبيرة ، ولقاءهم لعدوهم أهون عليهم من الذل في عقرب دارهم وبعد الانتصار في هذه المعركة شكل منهم فرقة كانت تدخل الحروب مع الممالك وتقاتل معهم وقد تنامت هذه القوات الشعبية وازداد حجمها^(٥٨)

لقد أطلق على بعض المواطنين فيما بعد « الزعر » و « العوام »^(٥٩) من هذه التسميات يتبين استهزاء واستهتار الممالك بالمواطنين الذين يعملون في قطاعات مختلفة من الأعمال الحرة ، وظلت أعمالهم مقتصرة على المهن والصناعات التي تحتاجها القوات المسلحة ، لاشك أن الدور الرئيسي ظل مقتصرًا على الممالك على الرغم من ضم المغول والكراد والتركمان والعرب في وحدات القتال^(٦٠) كان هؤلاء المواطنون يعبرون عن سخطهم للفروق والطبقية بالقتل والنهب

(٥٥) : القلقشندي : صبح الاعشى ٢١٣/٤

(٥٦) : القلقشندي : صبح الاعشى ١٦١/٧

(٥٧) : القلقشندي : صبح الاعشى ١٦٢/٧ ، سليم - عصر سلاطين الممالك ٢٤٩/٢

(٥٨) : ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٥ و ١٠٦

(٥٩) : السخاوي : الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ٣٤/٢ ، ٤١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، العريضي : الممالك ٩٨

(٦٠) : سليم : عصر سلاطين الممالك ٢٧١/٢

والسلب^(٦١) وكانت هذه الفئة تقف أمام ظلم السلطان والوالي والأمراء فيرجمونهم بالحجارة، ويقفون أمام المرء، أو الاسطبل ويشددون عليهم الحصار ويطالبون بعزلهم وتنحيتهم حتى إذا تضايق أحدهم عمد إلى جمع ماله كخاويته، فاستوقف عدد من المواطنين، وضربهم بالمقارع، فمنهم من يودع السجن، ومنهم من يقتل ويشتد حرب الشوارع والبيوت، لكن المعركة غير متكافئة، فالمواطن لا يملك من السلاح إلا القليل، أما الجنود فهم مسلحون بالأسلحة المتنوعة وكانت المظاهرات تعم جميع المواطنين إذ يتمردون على الملوك فكان يخصص لهم في بعض الأحيان قوة كبيرة من الجيش المملوكي لإخماد ثورتهم^(٦٢)

٣ - المشايخ:

كان لهم دور كبير، ونفوذ قوي في دولة المماليك، كما كان لهم نفس الدور والنفوذ في الدولة الأيوبية من قبل. فلقد جمع صلاح الدين الأيوبي المشيخة في شخص واحد، كما جمع الطرق الصوفية بشخص واحد يتولاها من خيار العلماء علما ومعرفا، واقتضى أثره المملوكون إذ ولوا عليها محمد شمس الدين البكري وذريته من بعده^(٦٣) وكانت مهمتهم مايلي

- الحث على الجهاد:

حديث المشايخ أوقع في نفوس الجند من القائد أو الخليفة نفسه^(٦٤) وكان الشيخ الخطيب أصيل الدين الصوفي يحض المقاتلين ويشجعهم ويزيد من معنوياتهم قبل معركة عين جالوت وأثناءها وبعدها، وقد حضر مع الملك المظفر قطز إلى دمشق وخطب بجامع بني أمية الكبير ثم عاد إلى مصر^(٦٥)

- الإشراف التام على التوعية والتوجيه المعنوي:

ذلك عن طريق احتكاكهم المباشر مع الشعب والمواطنين في الزوايا والمدارس والمساجد، والتوجيه سلاح أقوى من سلاح المدفع والبندقية^(٦٦) وكانت حلقاتهم تضم مئات المتعلمين في

(٦١): الصير في: نزعة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٢٠٣/١، ٢٠٩

(٦٢): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ١٧٤/١/٣، ٣١٤، ٣٨٦، ٢١٣، ٦٧٦

(٦٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٢/٤، ١٩٣، زيدان: التمدن الاسلامي ٢٢٠/١

(٦٤): زيادة: دمشق في عصر المماليك ٢٠٠

(٦٥): الصفدي: الوافي بالوفيات ٣/٢/٢، أبو شامة: الذيل على الروضتين ٢٠٩

(٦٦): حمزة: الحركة الفكرية في مصر ٦٨

القرآن والحديث واللغة والتاريخ والفقه ، وبخاصة فيما يتعلق بأمور الجهاد والاحكام الناطمة
وتقديم الروح والمادة عن حب وتسليم^(٦٧)
- النفوذ القوي :

حيث قضوا في الناس واستبينوا في بعض الولايات وعهد إليهم النظر في الأوقاف والمدارس
والمستشفيات كالقاضي شمس الدين بن خلكان الأربلي الذي تسلم نيابة دمشق سنة ٦٥٩ -
١٢٦١ ، وكان كالحاكم المطلق يتصرف كيف يشاء^(٦٨) وكالشيخ ابن تيمية الذي ظهر تأثيره على
السلطان والامراء والقادة العسكريين وكالشيخ أحمد البدوي الذي كان له نفوذ كبير وتأثير على
السلاطين فكان الظاهر بيبرس أحد الذين كانوا يقبلون يديه وقدميه ، ويطلبون رضاه^(٦٩)
وكانوا يصحبون السلطان في سلمه وحره ، وفي حله وترحاله كالشيخ خضر بن أبي بكر الكردي
الذي كان مرافقاً ومصاحباً للسلطان الظاهر بيبرس إذ كان يزيد من معنوته وبشره بفتح
قريب ، وينبئه عن نتائج معاركه في حصار أرسوف وحصن الأكراد^(٧٠) وكالشيخ سليمان ابن أبي
العز الملقب صدر الدين الحنفي الذي كان يرافق بيبرس أيضاً في حروبه وفتوحاته وله منزلة عالية
ومكانة رفيعة عنده^(٧١) كما أن هذا السلطان أخذ برأي العلماء لجمع المال للتحضير للحرب
وأشهدهم على ذلك^(٧٢) . وما أكثر المشايخ الذين عاشوا في تلك الحقبة الزمنية قبيل وبعد معركة
عين جالوت ، والذين كان لهم الأثر الكبير في الثقافة الدينية وفي التربية الاخلاقية ، وفي الحياة
الاجتماعية وفي الامور العسكرية ، مما جعل الشباب والكهول يتسابقون إلى الموت وإلى نيل
الشهادة ، وتفرق المشايخ إلى أربعة
مذاهب الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي^(٧٣) ولكل مذهب مؤيديه وأنصاره حتى غدت

(٦٧) : كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ٢٩٢/٢

(٦٨) : أبو شامة : الذيل على الروضتين ٢١٥ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٥/٧

(٦٩) : دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الأول

(٧٠) : الكتبي فوات الوفيات : ٢٩٨/١ ، ومابعدا ، ابن الفرات : تاريخه ١٠٢/٧ ومابعدا

(٧١) : ابن الفرات : تاريخه ١١٩/٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦١/٧

ومابعدا ، ابن العباد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٥١/٥

(٧٢) : كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ٢٩٢/٢

(٧٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢٣/٧ ، ١٢٨

الدولة المملوكية وكأنها قبس من دين، أو شعلة من مذهب، أو عنوان ثقافة دينية واسعة. ومن أشهر رجال الدين في ذلك العصر علاء الدين المنجا وعماد الدين الحارستاني وشهاب الدين أبي شامة وعبي الدين النووي وابن كثير وابن قدامة وبهاء الدين المظفر وابن تيمية وغيرهم^(٧٤)

- القوام القتالي للجيش المغولي :

كان القوام متجانساً وأغلب الجيش من المغول الذين هم من أجناس ماوراء النهر، ولذا فإن أوصافهم تنطبق على الممالك الذين هم من أصل تركي. عريضة وجوههم، واسعة صدورهم، بعيدون مابين المنكبين، كاشحة بطونهم، خفيفة أعجازهم، صغيرة أطرافهم، سمر اللون، زرق العيون، أوزانهم خفيفة، قامتهم منتصبة، وحركتهم نشيطة لا يثقلهم لحم، ولا يخالطهم شحم، تدل تعابير وتقاسيم وجوههم وأجسامهم على الجدة والحيوية والنشاط، يمارسون رياضة الصيد ويألفون المصاعب فقد اتصفوا بالبأس والشدة والقوة والعنف حتى الواحد منهم ليعد بمئة من غيرهم^(٧٥)

عاش المغول عيشة الحرمان، وابتعدوا عن الترف، واعتادوا ركوب المخاطر، والضرب في جنبات الأرض، واقتحام الشدائد والأهوال، في كلامهم حدة، وفي تعابيرهم قوة، وفي أجسامهم صلابة، وفي أعينهم نظرات ثاقبة، وفي أصواتهم جهره وقوة^(٧٦)

لقد اطلقت المصادر العربية أسماء عديدة على شعوب ماوراء النهر منها التتار والمغول الذين اشتهروا بفتوحاتهم وشدتهم. وكذلك الغز والبجناق والخزر والقبجاق، فهؤلاء كلهم ينتمون إلى أصل واحد، إلا أنهم تفرقوا في الأرض وسكنوا في مناطق عرفوا بها أو عرفوا بالقبائل التي

(٧٤): النعمي: الدراسات في تاريخ المدارس: ١٧/١ - ٣٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢٣/٧، ومابعدا. حمزة: الحركة الفكرية في مصر ١٥٤

(٧٥): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٠/٤، ٤٥١

البغدادى: الافادة والاعتبار ١٢٦

العزاوي: تاريخ العراق ٤٧/١ ومابعدا.

(٧٦): الرمزي: عن تلقى الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قران وبلغار وملوك التتار ٢٦/١، ٢٧، البغدادى:

الافادة والاعتبار ١٢٦

انتموا إليها^(٧٧).

يقتنون الجياد المجربة والخيول الأصيلة، فيدربونها على أعمالهم القتالية، وعلى السرعة والسباق فلا يصح عندهم أن تسبق خيول غيرهم خيولهم وهم بهذه الصفة يمتلكون السرعة في القتال، والخفة في التنقل في ميدان المعركة، والمناورة بكل الاتجاهات^(٧٨)

يتعلم المغولي جميع المهن التي يحتاجها المقاتل، فهو فارس قبل كل شيء يجيد الفروسية ويتقنها، ويعمل كل التدريبات التي تؤهله للارتقاء إلى أحسن فارس. وهو سايس يعلم طبيعة الدابة التي يركبها فيعلمها فتطيعه في مهماته، وهو يطارىغير الحدود بنفسه، ويعتني بالقوائم والحافر، وهو حداد إن تعطل شيء في عدته الحربية فهو يصلحها ويصونها ويستثمرها خير استثمار، ويشحذ سيفه ويحافظ على درعه، وهو راع يرعى الخيل والبقر^(٧٩).

إذن لا يحتاج إلى غيره ولا يتأخر عن زملائه وهذه الصفة تعطيه أيضاً السرعة في الأعمال الحربية والاستمرار في القتال، فلا يتوقف أبداً^(٨٠)

ليس للمغول عقيدة عرفوا بها منذ القديم وإنما كانوا شعوبين بعيدين عن الدين، مبالغى الهوى، واتباع ماترين لهم نفوسهم^(٨١)

ترافقهم نساؤهم في الحروب وفي الاسفار، وتقاتل إذا اضطرت كالرجال، وهي في شجاعتها لاتقل عن الابطال، وفي رشاقته عن الفرسان، وفي الخدمة والادارة عن الاختصاصيين، فهي تعتني بولدها كما تعتني بقوسها وسلاحها^(٨٢)

يجيد المغولي من سلاحه الرمي بالنشاب إذ يصنعه بنفسه ويتدرب عليه، حتى لا يباريه أي جندي من غيره من الجيوش المعاصرة فهو قد اتقن الصنعة والتدريب والصيانة والاستخدام^(٨٣)

(٧٧): الرمزي: من تلفيق الاخبار وتلفيق الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التار ٣٦/١، أسعد بولو: ١٢

(٧٨ و٧٩): أسعد باركو بولو ١١

(٨٠): الرمزي: من تلفيق الاخبار وتلفيق الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التار ٣٦/١، البغدادي: الافادة

والاعتبار ١٢٦

(٨١): الرمزي: من تلفيق الاخبار وتلفيق الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التار ٣٩/١

(٨٢): البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٦

(٨٣): البغدادي: المصدر نفسه ١٢٦

يعزى انتصار الجيش المغولي قبل معركة عين جالوت إلى حسن القيادة والحزم^(٨٤) وإلى استخدام الخدعة والتورية^(٨٥) وإلى بث التفرقة والفوضى في صفوف أعدائه^(٨٦) وإلى بطشه وشدته في القتال^(٨٧)، وإلى امتهان الجندي حتى لتكاد أن تكون ملتصقة به، وإلى حسن تدريبه المتواصل على حسب القاعدة: «الحرب بالحرب»^(٨٨) وإلى تجزئ أعدوه والانفراد بالواحد بعد الآخر ليسهل الانتصار عليه، وإلى التعود على شظف العيش وحياة الحروب القاسية^(٨٩) وإلى الانضباط القوي^(٩٠) الذي إن حدث خلل فيه من قبل عسكري مهما كانت رتبته عوقب بالموت أو بالعذاب الشديد، ولو كان من المقرين أو من أصحاب المناصب، وإلى سمعته التي ملأت الدنيا خوفاً ورعباً^(٩١)، وإلى شعوره بالتفوق والانتصار في المعارك التي يخوضوها^(٩٢) وإلى اللياقة البدنية والقوة الجسدية التي يتمتع بها الجندي المغولي^(٩٣)، وإلى إغراءات الحصول على الغنائم والسبايا والاموال الكثيرة التي كان يحصل عليها بعد انتصاراته وقهره للشعوب المغلوبة على أمرها، إذ كان يقاتل ليحني من وراء قتاله ثروة طائلة وملكا كبيرا^(٩٤)، وإلى تحقيق رغباته وطموحاته في التوسع والفتوحات وبسط هيمنته على العالم^(٩٥)، وبالحرب النفسية التي يشنها على أعدوه قبل التلاقي معه في ساحات القتال، فهو يرسل الكتب والتهديدات^(٩٦)، ويقطع

(٨٤): الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ١٧٢/٣ وما بعدها

(٨٥): الصير في: نزهة النفوس ٨٣/٢

(٨٦): الصير في: المصدر نفسه ٨٥/٢

(٨٧): أسعد بولو ١١

(٨٨): أسعد: المرجع نفسه ١٣

(٨٩): أسعد: المرجع نفسه ١١ وما بعدها ٧٣

(٩٠): أسعد: المرجع نفسه ١١

(٩١): أسعد بولو ١١

Orientalia Vol. IV, 361,362

(٩٢): أسعد المرجع نفسه ١١ وما بعدها

(٩٣): البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٦

(٩٤): الصير في: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٩١/٢، كرد علي: خطط الشام ١٦٧

(٩٥): عبد اللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٧

(٩٦): كرد علي: خطط الشام ١٦٦، العزاوي ١/٥٥١

الاشجار ويغور الأنهار ويكثر من السفك والتمثيل^(٩٧) ويعمل عملاً يأباه الضمير الإنساني وتنفر منه الطبائع البشرية، إذ يقدم على بقر بطون النساء وقطع الأيدي والأرجل، وقتل الأولاد الصغار، لا يردده قانون ولا يقف أمامه نظام أو حرمة أخلاقية أو أدبية.

لقد ضم الجيش المغولي بالإضافة إلى المغول بعض المماليك الذين هربوا من مصر حسداً وخوفاً من الملك المعز آيبك لما تسلم السلطة برئاسة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحي النجمي، والتجأوا إلى الملك الناصر يوسف وزينوا له احتلال مصر، فلم يكثر بهم، فالتجأوا إلى المغيث صاحب الكرك، فزينوا له قتال الملك الناصر، والتقى الطرفان في الغور بجانب أرمحا، وجرت معركة بينهما أسفرت عن انهزام المغيث مع المماليك الهاربين^(٩٨) فاتفق الناصر والمغيث على أن يستلم الناصر المماليك فاستلمهم ووزعهم على الجيش واعتقلهم في المناطق العسكرية^(٩٩)، ولما اجتاحت القوات المغولية أرض حلب سنة ٦٥٨/١٢٦٠ قبل معركة عين جالوت أحسنت إلى الأمير شمس الدين سنقر والمماليك الهاربين معه، ونظمتهم في قواتها، وقاتلوا معها، لكن قتالهم كان غير جدي، وكانوا يسربون الأخبار إلى قادة الجيش المملوكي وذلك للعلاقة الطيبة التي كانت بين الأمير سنقر قائد المماليك في الجيش المغولي وبين رئيس الأركان، وقائد الطليعة في الجيش المملوكي الظاهر بيبرس. وهذا ما يبرر إكرام الأمير سنقر من قبل القادة المماليك بعد نجاحهم في معركة عين جالوت^(١٠٠)

وضم الجيش المغولي - بالإضافة إلى المماليك - بعض الجنود الذين كانوا من شعوب وأمم كثيرة ممن استولى المغول على بلادهم وأخضعوها لسيطرتهم في أوروبا وآسيا. إذ انخرطوا في صفوف هذا الجيش وقاتلوا معه، ولا يدخل الجندي الشعبي في القوات المسلحة المغولية إلا بعد تجربته وفحصه. وبعد التأكد من صفاته العسكرية والمهنية ومستوى تأهيله، وفي معركة عين

(٩٧): Rashid Al-Din, The Success or S. of Genghis khan 56

(٩٨): الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٩٢/٢ وما بعدها، كرد علي: خطط الشام ١٦٧،

١٧١ وما بعدها

الغزالي: تاريخ العراق ١٠٧/١ وما بعدها

(٩٩): ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ٩٨

(١٠٠): ابن الصقاعي: المصدر نفسه ٨٦، ١٦٧

(١٠١): ابن الصقاعي: المصدر نفسه ٨٥، ٨٦

جالوت كان أكثر هؤلاء الجند المختلطين من الكرج والارمن^(١٠٢) وكان من حلفاء المغول أيضا الملك السعيد صاحب الصببية ومن معه^(١٠٣) وكذلك كان لهم أعوان في الداخل في دمشق وغيرها^(١٠٤)

ويعود السبب في دخول هؤلاء جميعا مع المغول هو الخوف الشديد لبعضهم كما حصل للملك الظاهر أخو الملك الناصر إذ أرسل من قبل كتبغا في مجموعة من الجند لتخريب قلعة صرخد^(١٠٥) والطمع في الاستيلاء على البلاد كما حدث للملك السعيد الذي توهم إنه سيملك الشام بعد الملك الناصر بعد أن ملكه المغول قلعة البيرة وبانياس وقلعة الصببية^(١٠٦) والحدد والحسد من قبل بعض الفئات المتحالفة مع المغول مثل الأمير سنقر ومجموعة الذين كانوا على عداء مع قطز^(١٠٧) والخلافات المستحكمة على السلطة بين الأيوبيين والمماليك^(١٠٨).

كما أن المسيحيين النعميين وقسم من الصليبيين والافرنج وسكان جرمانيا الشمالية كانوا مع المغول أيضاً^(١٠٩)

وقد يتساءل الباحث التاريخي أو المنظر العسكري عن حقيقة هذا الجيش الذي أنزل العقاب بخصمه. وتغلب على الجيش الذي له ماض قتالي وخبرة طويلة. في الحقيقة أن سر الانتصار يكمن في الأمور التالية:

(١) - الخلافات الكبيرة بين قيادات الجيش المغولي:

مأن انتصر الجيش المغولي على الجيش العربي في العراق حتى قفل راجعا إلى سورية عن طريق الشمال في حلب. وهنا لا يزال هذا الجيش في عنفوان نشاطه وأوج انتصاراته، ومن هنا

(١٠٢): أشار سمباط (أخو الملك الارمني هيتوم) في تاريخه ط. باريس ١٩٨٠ إلى وجود عدد كبير من الارمن في جيش المغول في عين جالوت ثم إلى التجاء المنهزمين إلى أرمينية ص ١٠٦ - ١٠٧

العربي: المغول ٢٥٩ وقد أشار فيه كذلك في كتابه: المسيحيون السريان في عهد المغول ص ٢٦

(١٠٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧: ٨٠، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ١٠٠

(١٠٤): ابن تغري بردي: المصدر نفسه القاهرة ٧/ ٨٠

(١٠٥): ابن العميد: أخبار الأيوبيين ١٧٥

(١٠٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/ ٨٠

(١٠٧): ابن الوردي: تاريخه ٢/ ٢٨٠، عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ١٦٦

(١٠٨): دائرة المعارف الاسلامية، ٤/ ٣٦٤، سبيكة: مملكة الفونج ١٤

أيضاً بدأ العد التنازلي بسبب الخلافات المستحكمة في قياداته، هولاكو قائد الجيش في الشرق الأوسط تحرك نحو بلاده عندما سمع بهذه الخلافات التي ستؤثر على زعامته وسلطته، وقاتل هولاكو أقاربه وانقسم الجيش. وسرى المرض في جسمه. وأثر ذلك كله على قوته وعلى سيره الحثيث في القتال وانتقلت تلك العدوى إلى صفوف المقاتلين، وحرّموا من القيادة الموحدة والمركزة، وأصيب الجيش بالضعف والجمود وانقسم إلى كتل وشيع تقاتل نفسها^(١١٠)

٢) - الجيش المغولي أقل عدداً من الجيش المملوكي :

تحرك معظم الجيش المغولي إلى بلاد فارس، ولم يبق في سورية سوى عدد قليل يقدر بفرقة أي بحدود ١٥٠ / ألف مقاتل، وهذا العدد يبلغ ثلث عدد الجيش المملوكي^(١١١) ومن الطبيعي أن يكون للعدد دوراً كبيراً في القتال إذا تساوت التقنية والأسلحة المشتركة في القتال، وقد أبدى قائد الجيش المغولي مخاوفه من هذه القلة ولكنه وجد نفسه مرغماً على الدخول في القتال المفروض عليه^(١١٢)

٣) - الجيش المغولي يقاتل بعيداً عن قواعده :

انفصل هذا الجيش عن كتلة الجيش الرئيسية التي تحركت مع هولاكو وبقي لوحده دون أن يكون له احتياط قوي، أو قواعد قريبة ليستطيع أن يطلب المدد في حالة حاجته إلى المزيد من المقاتلين. خطوط إمداده بعيدة، ومع بعدها فإنه إذا طلب الإمداد فإن قيادة الجيش المغولي المركزية لا تستطيع إمداده لانشغاله بالقتال الداخلي ولو أتيح إرسال قوة لانقاذ هذا الجيش، فإن هذه القوة ستأخر في الوصول إلى ساحة المعركة لبعد المسافة ولقرب بدء المعركة التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى، وبالإضافة إلى ذلك فإن قادة الجيش المملوكي يسعون للتعجيل في هذه المعركة بعدما أدركوا تماماً أن السرعة لصالحهم.

(١٠٩ و ١١٠): انظر كتاب (المسيحيون السريان في عهد المغول، خانات الفرس، من القرن الثالث عشر - القرن الرابع عشر) لوفان ١٩٧٥ ل. ج. م. فيه.

(١١١): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٠، الشهابي: تاريخه ٤٣٨، ستيفن: تاريخ الصليبيين ٣

(١١٢): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٦٠/١

وبهذا فإن الجيش المغولي بهذه الظروف بات يقاتل بشكل منعزل غير ضامن نتائج المعركة، وبشكل محاصر، مما أثر على كفاءته القتالية ومعنوياته

(٤) - تغيير القيادات :

من المفضل كقاعدة - أن يبقى القائد الذي كان قبل القتال يمارس لقيادته أثناء القتال، ذلك لأن المقاتلين اعتادوا على هذه الممارسة، وكذلك فإن القائد عرف كل مقاتل فهو يضعه في المكان المناسب ويسند إليه المهام التي تلائمه، فقد تغير القائد العام المغولي وغادر البلاد، وبقي كتبغا الذي تسلم قيادة هذا الجيش القليل في سورية ولم يكن قد تعرف على المقاتلين، وإن كان معروفاً عند بعضهم، وكذلك فإن بيد قائد الطليعة الذي غير قيادته أيضاً، وضاع القادة والمقاتلون معا بهذه التغييرات لاسيما عندما اعتقد الجميع أن هولاكو قد رحل وتغير في الوقت الذي هم بأمس الحاجة إلى توجيهاته وقيادته البارعة^(١١٣)

(٥) - العقيدة

لا يحمل الجيش المغولي عقيدة، وهي التي تبعث في المقاتل الحيوية والنشاط والصبر وتقديم المال والنفس، وتدفع اليأس والقنوط، وتعامل الأعداء بالشدة والقوة، والاخوة والرفاقية والاصحاب باللين والسهولة والتطاوع والرحمة، من يحمل العقيدة يحمل القوة والنصر، ومن ليس له عقيدة فلا يقوى على القتال والاستمرار فيه، إن الجيش المغولي يقاتل لكي يقهر الشعوب ويتفوق عليها وليتوسع وليسيطر هيمنته على العالم وليحصل على الثروة والمال^(١١٤) ولهذا فإن الجيش اصطدم بواقع مر في معركة عين جالوت، ورأى أنه قد أحيط به وضيق عليه فاستسلم للقتل والمطاردة^(١١٥)

تفرق المغول في أرجاء الأرض بعد المعركة ولم يستطيعوا لم شعثهم وجمع قوتهم التي كانوا عليها

(١١٣): ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٥٣، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ٢٨٦

(١١٤): الصبري: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٩١/٢، البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٧، كرد علي: خطط الشام ١٦٧

(١١٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٩/٧، ٨٢، الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والاخبار ٢٩/١٠، مشرف حلب الشهباء ٢٨١

قبل المعركة، فقد اختلف هولاء كومع أخيه الأكبر ومع القادة الآخرين، وانشق الجيش إلى جيوش عديدة يتبع كل واحد الأمير^(١١٦) وحاول هذا الجيش عبثاً أن يستعيد قوته وسمعته لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً وحاول عدة مرات أن يعيد اعتباره ويمسك بزمام المبادرة، لكن الجيش المملوكي ظهر وكأنه أقوى وأشد شكيمة وقتالاً من خصمه إذ لم يستطع هذا الجيش رغم جهده أن ينتصر على الجيش المملوكي فقد هزم في أراضي حمص وفي مواقع عديدة وعلى الفرات وفي أرض الشام، وتنازل الهزائم والانكسارات والخسائر^(١١٧) وكان كلما هزته العواصف وتقابل مع الجيش المملوكي، ارتفعت سمعة الأخير القتالية وظهر في العالم كأنه الجيش الذي لا يقهر وهذه السمعة أتاحت له فيما بعد أن يتصدى لجميع مناورات المغوليين والصليبيين والأرمن.

واكب هذا الظهور وهذه القوة نشاط بعض القادة المماليك الذين كانوا على جانب كبير من النبوغ الاستراتيجي، ومن الحس القتالي ومن الخبرة الحربية ومن التنظيم الإداري كالظاهر بيبرس^(١١٨) وتطوير للأسلحة والاعتدة القتالية^(١١٩) وفتوحات كبيرة كان معظمها في أراضي فلسطين^(١٢٠) وتدريبات مختلفة شملت السيف والرمح والرمي واللياقة البدنية وغيرها^(١٢١). قد يكون من السهل الحصول على النصر، ولكن الصعوبة كل الصعوبة في المحافظة على هذا الانتصار، إن الجيش المملوكي بعدما ظهر كأكثر قوة ضاربة في العالم، ظل محافظاً على هذه

(١١٦): الهمداني: جامع التواريخ ٣٣٢/١/٢ وما بعدها

(١١٧): ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٣٢٤/٤، الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي من الولاة والسلاطين ١٢٧، ابن الفرات تاريخه ٨٢/٧، الكتبي: فوات الوفيات ١٦٢/١ وما بعدها، الصفدي:

امراء دمشق في الإسلام ١٩

(١١٩): مبارك: الخطط التوفيقية ٨١/١، ٨٢،

عمون: تاريخ مصر ١٩٧

(١٢٠): ابن يحمى: تاريخ بيروت ٢٢

الكتبي: فوات الوفيات ١٦٦/١

(١٢١): البلقيني: مخطوطة قطر السيل في أمر الخيل ١٤٤ وما بعدها، ناصر الدين: مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح ٤١، الذهبي: مخطوطة غاية المقصود في العلم والعمل بالنود ١٦/٢، الأشرقي: مخطوطة رمي الشباب ٥ وما بعدها، الزردكاش: الأنيق في المناجيق ٤١ وما بعدها

القوة وهذه الانتصارات زمتا طويلا لم يتح لغيره من الجيوش أن يحافظ عليها، فقد كان في جاهزية قتالية دائمة وكان على علاقة طيبة مع دول العالم التي تؤمن له هذه القوة وبخاصة مع القبيلة الذهبية، وأقام التحالفات مع الدول المجاورة وهادن الصليبيين لفترة محدودة وعمل كل ما يوسع للمحافظة على هذا التفوق وهذه القدرة العسكرية (١٢٢)

(١٢٢): الرمزي: تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٦٩/٢/١
ويسلر: الحضارة العربية ٢٦٩

الفصل الرابع

قادة الجيش المملوكي والمغولي وأركانها والصفات
القيادية
للقادة والأركان

لكل جيش قادة وأركان يتوقف عليهم نجاح الجيش أو إخفاقه، ولهم الدور الكبير في الانتصار على المستويين التكتيكي والاستراتيجي، وإن كان التدريب والتسليح والتنظيم يحتل حيزاً كبيراً في الحروب وفي نشأتها، إلا أن القيادة تبقى الموجه الأساسي والعقل المدبر لبناء الجيش وتحديثه على أسس علمية متطورة، وفن حربي إبداعي، فخالد بن الوليد رمز انتصارات العرب، وصلاح الدين الأيوبي رمز انتصارات الجيش الأيوبي. ولقد برز قادة وأركان في الحربين العالميتين كان لهم دور كبير في المعارك وفي انقاذ بلادهم من الانهيار السياسي والعسكري، ولعل من المناسب أن نذكر قادة ورجال الجيشين المتقابلين في معركة عين جالوت.

أولاً - قادة وأركان الجيش المملوكي

- الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٨/ ١٢٦٠):

مملوك من ممالك الملك أيك، وهو - كما يرجح - من أصل خوارزمي^(١) وقد شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتى له خبرة في الحروب. تسلق إلى السلطة بعد قتل المعز، كان منذ صغره يطمح في اعتلاء الملك والسلطة منذ أن كان خشداً شياً للهيजाوي، ومنذ أن كان مملوكاً لتاجر في القصاع بناحية دمشق، وكان يتوقع أن يتولى يوماً ما سلطان الأمة، وأن يفعل الخيرات، وكثير من المبرات ويقا تل المغول ويهزمهم، ويقضي على فلولهم ويكسر عنجهيتهم وهو بهذا كان مهياً نفسياً منذ نعومة أظفاره في أن يكون قائداً فذاً، يشار إليه بالبنان، ويكون صاحب شأن في دنيا مصر والشام وهذا الطموح جعله يستعد ويعمل كل مامن شأنه الوصول إلى هذا المنصب الكبير مهما كلف ذلك من تضحيات، ومهما بذل من خدمات وكان في هذا مصمماً وواضعا نصب عينيه تحقيق هذه الاهداف الكبيرة التي لا يرقى إليها إلا الذين كانوا على جانب كبير من علو الهممة ومقومات القيادة^(٢) وكان يثور لكرامته ويتأسى بأخلاق الملوك ويتودد إلى أقربائه ويتأثر

(١): أحمد اليونيني البعلبكي: ذيل مرآة الزمان: ج ١ ص ٣٤٩ - ٣٧٤ - ٣٨٠ - ٣٨٤

زامبارو: معجم الانساب ٥٢

(٢): ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٢٩٣، ٢٩٤

بهم ويعتز بعقيدته الاسلامية ويفاخر بها وقد ظهرت هذه الصفة عندما لطمه معلمه في دمشق (القصاع)^(٣) وكان يحمل الضغينة والحقد على المغول الذين أذاقوا خاله خوارزم شاه ومن معه شرا، ووطنوا بلادهم، وساموهم سوء العذاب^(٤) وهذا مايسوغ ويفسر اندفاعه واستجابته للامحدودة عندما أقدم المغول فاجتاحوا البلاد الشامية وتوجهوا نحو مصر بغية القضاء على دولة المماليك التي لاتزال في بدء تطورها^(٥)، له من الصفات الجسمية ما يؤهل له لأن يكون قائداً فهو قوي البنية. مستدير الوجه، عريض الكفين، ممتلىء الجسم، أشقر، كث اللحية^(٦)

كان من المعلمين في الفروسية، والحاذقين في استخدام الرمح، وله طريقة عرف بها وهي الطعن بالرمح، فإذا أتاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثلثه حتى إذا كان الرمح بين كتفي قطر أبطله وعرز رمح في صدره لاحالة^(٧)

خدم عند السلاطين الايوبيين والمماليك بكل إخلاص وقد اشترك في قتل الامير فارس الدين اقطاعي (الجمدار) الذي ثار على الملك المعز وأراد اغتصاب السلطة في سنة ١٢٥٢/٦٥٤^(٨) وكذلك فإنه قبض على الأتابك علم الدين سنجر الحلبي في سنة ١٢٥٧/٦٥٥ وأودعه سجن القلعة في القاهرة عندما أراد أن يزيع السلطان علي بن الملك عز الدين أيك^(٩) كان حريصا على الشرعية في البلاد ولهذا فإنه كان يدافع عنها كلما اقتضت الضرورة لذلك،

(٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٨٤/٧، ٨٥.

اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٦٨/١.

(٤): الكتي: فوات الوفيات ٢٦٧/٢.

(٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٨٥/٧، ٨٦.

(٦): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٩٤/٥.

الذهبي: دول الإسلام ١٢٤/٢.

(٧): الرماح: مخطوطة الفروسية برسم الجهاد ١٧، ١٨.

(٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١١/٧، ١٢، ٣٠، ٣٣، اليونيني: ذيل مرآة

الزمان ٥٩/١.

(٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤١/٧، ومابعدهما، اليونيني: ذيل مرآة الزمان

وقد تعرض لمخاطر كثيرة كادت أن تؤدي بحياته قبل أن يستلم السلطنة^(١٠). كانت تظهر بعض الخلافات بين قطز والامراء، أوبينه وبين السلاطين مثل السلطان المنصور علي بن عز الدين أيلك، لكن هذه الخلافات لاتصل إلى حد يمكن أن يفكر فيه قطز بقتل ملكه أو الاستبداد بالسلطة أو تخطيطه قواعد التسلسل العسكري والانضباط^(١١) فهو حريص جداً على التمسك بما يضمن استمرار الحكم دون التعرض للفتن.

لما هرب بعض امراء البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك وتجمعوا هناك وفيهم بيبرس البندقداري. وأرادوا الزحف بمن معهم على مصر، تصدى لهم قطز في سنة ٦٥٥/١٢٥٧ وأوقع فيهم القتل، وانتصر عليهم، وهرب بيبرس والمغيث ومن معهما، وارتدوا على أذارهم^(١٢) لاشك أن هذا العمل يدل على انضباط قطز وتحليه بالروح القيادية، وصدق انتماؤه وتخطيطه للعقبات والصعاب.

على الرغم من شدة الخلافات التي وقعت بين قطز وبيبرس، وبالرغم من الحروب التي جرت بينهما، وبالرغم من أن بيبرس كان يتحين الفرص للانقضاض على الملك، وقطر يدافع عن الملك، فإن هذا الأخير لما أحس بخطر هولاكو وزحفه نحو دمشق، وأن بيبرس طلب المَعذرة والسماح له بدخول البلاد المصرية، رحب به، وأكرمه وأنزله منزلة تليق به^(١٣).

لما داهم الخطر الأرض الشامية والمصرية، وتحرك المغول بجيوشهم لكي يقضوا على المماليك اتخذ قطز آنئذ عدة إجراءات دفاعية منها الترحيب بالهاريين من المماليك، وتناسيه الضغائن والاحقاد والخلافات التي كانت بينه وبينهم^(١٤) وعزل الملك المنصور علي لصغر سنه وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ووحدة، وقيادة قادرة على محاربة المغول وذلك في سنة

(١٠): الصفدي: الوافي بالوفيات ٤٨٤/٩

(١١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤٣/٧، ٤٤

(١٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤٥/٧، ٤٦

ابن الوردي: تاريخه ٢/٢٨٠، عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ١٦٦

(١٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥٤/٧، ٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب في

أخبار بني أيوب، ٣٦٤/٢، ابن عبد الظاهر: تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، عاشور: مصر

والشام في عصر الايوبيين والمماليك ١٦٨

(١٤): بيشوف: حلب الشهباء ٨٠

١٢٥٩/٦٥٧^(١٥) وتحضير الامكانيات، وحشد الطاقات البشرية والاقتصادية^(١٦) والتحالف مع الملك الناصر صاحب الشام، وتوحيد القوتين ليكون الجيش أقوى في مواجهة أعدائه^(١٧). بعد أن انتصر قطز في هذه المعركة، ضرب أعناق معارضيه، والذين كانوا قد انضموا إلى المغول ومنهم الملك السعيد صاحب الصببية (قلعة بلدة بانياس الجولان) الذي قاتل مع كتبغا القائد العام للجيش المغولي في بلاد الشام^(١٨).

لقد كان سياسيا استراتيجيا مخططا أكثر منه مقاتلا إذ استطاع في مدة بسيطة أن يسوس بلاد الشام، وأن يحسن إلى الشعب، ويقدم له الامن والسلامة والاستقرار، وأن يهيئ له سبل العيش الكريم، وأن ينظم الامور الادارية، ويعين الحكام الاداريين للمدن التي احتلها واستردها من التتار^(١٩) فأرسل إلى دمشق علم الدين سنجر الحلبي، وإلى قلعتها عز الدين الزراد، وأمر بترميم القلعة التي خربها المغول، ثم توجه إلى مصر لإعادة بناء الدولة الجديدة^(٢٠) هو بطل معركة عين جالوت، إذ استطاع أن ينتصر على المغول، ويقتل قائدهم. وبعد انتصاره حيك له المؤامرات لقتله من قبل الملك الظاهر بيبرس حين أغرى هذا الأخير بعض الامراء لاغتياله بعد معركة عين جالوت مباشرة، لكن الامير جمال الدين العزيزي المتوفي ١٢٦٤/٦٦٦، رفض ذلك الاغراء^(٢١) وكرر بيبرس محاولته وقتله وهو عائد إلى مصر^(٢٢)

(١٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥٥/٧، عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ١٦٧
(١٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٢/٧، ٧٣، ٧٧، الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٥

(١٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٣/٧
(١٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٨٠/٧، أبوشامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع ٢٠٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠٠/١٢
(١٩): الكتبي: فوات الوفيات ٢/٢٦٨، أبوشامة الذيل على الروضتين ٢١٠
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٣/٧ وما بعدها، عمون: تاريخ مصر ١٩٦
(٢٠): ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان: ١٢٨، ١٣٤، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٨٣/٧

(٢١): الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/٤٨٤
(٢٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٤/٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/٤٨٤
١٢٦

إن ما يميز به هذا السلطان هو الإيمان الكبير، الذي لا يرقى إليه ريب ولا شك، والفترة السليمة التي جبل عليها وتربى في ظلها، والعيشة الضنكى التي أهلته للصبر والوقوف أمام الشدائد، وتقلبه في البلاد، والحرمان الذي قاساه في صغره، إن المناخ الذي نمت فيه عقيدته كان مناخا ملائما، رسخ أيمانه، وهذب نفسه، وأصلح باله، وقوى من عزيمة الجهاد، ومن الاستهان بالموت، ومن الاقدام والعزيمة على قتال المغول، ومن الوثوق الكامل بالنصر عليهم^(٢٣)

دلت حروب قطز التي خاضها مع الأيوبيين وضد الأمراء الهاربين إلى الكرك، وضد الأمراء الذين حاولوا اغتصاب السلطة، وفي معركة عين جالوت^(٢٤) على أنه قائد حربي استراتيجي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وهو الذي أجاد فن القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك، وكان صاحب قرار تميز بالدقة والوضوح والنظر الثاقب، وجلاء الهدف وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول وهو حازم وقت الشدة، ومصمم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه ومتفهم لقدرة عدوه، ومقدر لقوة الصديق، وكان لكل شيء حسابه ويدقق المعلومات ويحافظ على مرؤوسيه، ويستميلهم بأسلوبه الجذاب، ويتعاون مع أركانه ويعطيهم الثقة، ويمنحهم المساعدة والعطاء، إلا أن خبرته بالرجال كانت ضعيفة مما كان لهذه الظاهرة أثرها السيئ في مجرى حياته، إذا أقدم بيبرس على قتله دون أن يتخذ الحذر والحيلة، وهو يعلم أنه لا يؤمن جانبه، فقد أعطاه الأمان ولم يحذره، وقد منحه الثقة ولم يراقب تصرفاته المشبوهة تجاهه، وكان منظما قاد الكتلة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت، فنظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط لكل جناح قائدا شجاعا، ونسق الصفوف إلى عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالاحاطة، والميسرة بالالتفاف والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرس المتحرك على الاجناب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو مما جعله يتمكن من عدوه، ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة الميتة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول^(٢٥)

(٢٣): البيهقي: ذيل مرآة الزمان ٣٨٠/١ وما بعدها ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢٩٣/٥

(٢٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٧، ٣٠، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٧٦، ٨٧

(٢٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٢/٧ وما بعدها.

لقد حدد قطز قواعد وأسس الشؤون الادارية في الجيش المملوكي ، إذ استطاع أن ينظمها ويحدد خطوطها العريضة بخاصة فيما يتعلق بحركيتها وخفتها ، وقد ظهر ذلك جليا عندما حدد لصاحب حماة كيفية ونوع الامداد ، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة لايقله الطعام الكثير المتنوع ، فأمر بوضع قطعة من اللحم في مخلاة عسكرية^(٢٦) وما يشار إليه أن قطز كان متدينا عفيفا ، صاحب تقوى ووزع وهذه الصفة اكسبته الشجاعة والاقدام في الحروب ، وجعله يستبسل ويقدم روحه رخصية ، ويستهن بالموت ، وبخاصة عندما قتل حصانه واستمر في القتال دون جواد ، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية وعقيدة^(٢٧)

- الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (ت ٦٧٦ - ١٢٧٧)

مملوك انتقل إلى عدة تجار عن طريق الشراء^(٢٨) خدم في الدولة الايوبية لدى الملك الناصر يوسف ، كان في معركة عين جالوت رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطليعة^(٢٩) طارد بيدرا قائد طليعة الجيش المغولي إلى أرض فامية^(٣٠) ظهرت عليه النجابة والفتنة في سن مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكا^(٣١) وقربه وقدمه الملك الصالح على الجمдарية الذين كانوا عنده وحضر معه معركة دمياط وأبلى فيها بلاء حسنا ، ظهرت عبقرية العسكرية وشجاعته الفائقة^(٣٢).

(٢٦) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٨٧/٧

(٢٧) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦

الهمداني : جامع التواريخ ٣١٣/١/٢

(٢٨) : الشوقاوي : تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٧

دائرة المعارف الاسلامية : ٣٦٣/٤ ، حتي : تاريخ العرب ٧٦٦

(٢٩) : دائرة المعارف الاسلامية : ٣٦٣

(٣٠) : ابن الصقاعي : تالي وفيات الاعيان ٥٠

(٣١) : دائرة المعارف الاسلامية : ٣٦٣/٤

(٣٢) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٩٦/٧ ، سرور : الظاهر بيبرس ٢٨

عطية : القاموس الاسلامي ٤٠١/١

لا يزال الكره يملأ قلبه والحقد الكبير على المغول الذين أهانوه وأسروه عندما كان عمره أربعة عشر عاماً، وبيعوه فشره التجار إلى أن وصل إلى البندقداري الذي سمي الظاهر باسمه، ثم انتقل إلى الملك الصالح، هذه الفترة رسخت في ذهنه العذاب الذي لقيه، والاهانات التي آتته والتي كانت بسبب الحروب التي كان يشنها المغول في أنحاء العالم^(٣٣)

حاول بيبرس عدة مرات قبل معركة عين جالوت أن يكون له شأن كبير في مصر، وقد عمل عدة محاولات مع بعض زملائه الأمراء للاعتداء على المناصب الرفيعة بالقوة والمراوغة، إلا أن محاولاته لم تنجح ورحل عن مصر في ضيافة الملك الناصر صاحب الشام فأكرمه، ثم رحل إلى الملك المغيث صاحب الكرك فحاول إغرائه لاحتلال مصر فلم يوافق الملك المغيث إلى أن أقدم قبيل المعركة، وكان له ما أراد^(٣٤)

بيبرس خامس خمسة ممالك من الممالك البحرية وهو من أصل قبجاقي. وقد تسلم الملك بعد قطز مباشرة^(٣٥) وعمل إصلاحات واسعة على جميع المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية^(٣٦)

لقد اشترك في قتل توران شاه قبل أن يقتل قطز بعشر سنوات، ولعل كان من عادته قتل السلاطين والملوك وبنفس الطريقة قتل الاثنين إذ هوى على توران شاه بسيفه عندما أقيم السباط فقطع أصابعه^(٣٧) ولما رأى الأمراء المتآمرون معه ذلك الفعل اتبعوا توران بضربات من سيوفهم، ففر إلى النيل والتجأ إلى برج من الخشب فتعقبوه وقتلوه. وبنفس الأسلوب قتل قطز، وهذه الأساليب دخل بيبرس الملك من مصراعيه بعد أن قضى على حكم توران شاه وقطر^(٣٨).

(٣٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩٦/٧

(٣٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٩٧/٧

(٣٥): زامباور: معجم الانساب ١٦٢، ١٦٦

(٣٦): ريسلر: الحضارة العربية ٢٥٠، ٢٦٩، شوبلر: العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٧٧، دائرة المعارف

الاسلامية ٣٦٤/٤، سبيكة: مملكة الفونج: ١٤، حتي: تاريخ العرب ٧٦٧

(٣٧): بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٦٥

(٣٨): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٢٨٤/١، الصفدي: الوافي بالوفيات ٤٨٤/٩، سرور:

الظاهر بيبرس ٣٦

كان من أبطال معركة المنصورة التي كانت من المعارك الحاسمة بين الصليبيين والايوبيين والتي انتصر فيها الجيش الايوبي الذي كان في أكثره من المماليك ورأى بنفسه أنه يمكن الانتصار على هؤلاء وغيرهم وأنه بإمكان المماليك - لو نظموا ودرّبوا - أن ينتصروا على كل طامع وغاصب^(٣٩).

هو طويل القامة متناسق الاعضاء، يرى أثر بياض في عينيه، يشعر بنقص من هذا العيب، أزرق العينين^(٤٠) جهوري الصوت، في مشيته قوة، وفي منظره رعب وهيبة، له عزيمة الرجال وقوة الابطال^(٤١)

يتحمل التعب وينفذ في الاسفار ويجوب الاراضي . ويجهد في الحرب، وله خبرة في أنواع القتال والمطاردة، ويصمد أمام الأعداء، وتراه وكأنه ليث جمع قوته لاصطياد فريسته، لاثّره الشدائد والصعاب، التزم صفة الحرب وآثرها على كل ماعداها، وقد اختص بحصار القلاع والحصون^(٤٢) فكان يقطع الماء على المحاصرين، ويتعد عن مرماهم، ويشدد عليهم في هجومه، ويضطرهم إلى الخروج من القعدة . وكان يشارك جنوده في العمل ويعلمهم طرق ومبادئ الحصار، وقد أذاق التار والصليبيين مر الشدة والبأساء في حروبه، كما ركز على الاغارة التي كان ينتقي لها الرجال الاقوياء، وحارب هنا وهناك في أرض الروم وفي أرض مصر والشام، وفي مياه الفرات ومياه البحر الأبيض المتوسط ومما يلفت النظر من الناحية العسكرية أنه كان قدوة لجنوده، يقتحم الصعاب أمامهم، ويشق الصفوف في مقدمتهم ويزج نفسه في أتون المعركة ويلقي نفسه بكل شجاعة^(٤٣)

فتح الظاهر بيبرس مدنا كثيرة أهمها تلك المدن الفلسطينية التي كانت منها ساحلية محصنة، مثل يافا وأرسوف وقيسارية وأنطاكية، ومنها داخلية مثل طبرية وصفد والقرين^(٤٤) وقد اتبع في

(٣٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣١٩، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١/٣٠٩، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢/٣٦٨، سرور: الظاهر بيبرس ٣٥

(٤٠): Lane - Poole, A. History of Egypt in the Middle Ages: 9/262, 263. (٤١)

(٤١): ابن الفرات: تاريخه ٥/٧

(٤٢): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/٣٥٠

(٤٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٨٣، ١٧٧، الكتبي: فوات الوفيات ١/٢٦٢ ومابعداها،

الصفدي: إمراء دمشق في الاسلام ١٩. ابن الفرات: تاريخه ٧/٨٢

(٤٤): ابن يحيى: تاريخ بيروت ٢

فتحتها خطة الجيوش المتلاقية، وحاصرها من جميع جهاتها البرية، ووجه عليها الاسلحة البرية والبعيدة المدى كالمجانيق والسهام^(٤٥). للقلاع والمناطق المحصنة صفات معينة، لا يمكن احتلالها بسهولة، إذ تتألف القلعة من عدة طباق تضد بعضه فوق بعض ومن أسوار سميكة، ومن قواعد وضعت فيها القضبان الحديدية وشبكت بالرصاص ومن أهمها حصون مرقية والاكراد وعكا وحصون الاسماعيلية التي من أهمها مصياف والقدموس^(٤٦)، وكان الظاهري يبرس يستخدم بفتحها الحروب النفسية، ويأتيهم من الاماكن التي لا يتوقعونها كالسرايب والممرات المخفية والمستورة التي لا يطلع عليها أحد، فإن ظهرها قاتلهم بجند قد تمرسوا على القتال واتخذوا الانقضاض في مثل هذه الحالة وسيلة للوصول إلى أبواب القلعة حتى إذا فتحوها تدافع الجند بأفواج متتالية بصورة يصعب على المدافعين أن يردوا تلك الهجمات القوية وبذلك يتم احتلالها^(٤٧) وقد امتدت فتوحاته إلى البلاد الارمنية وبلاد النوبة والبجة وغيرها^(٤٨).

قاتل على جميع الجهات، ففي الخارج واجه الارمن بكل جد وحزم وتغلب على القوات الصليبية، ودحرها في أغلب المعارك وقضى على أهم مواقعها الساحلية، وانتصر على الجيش المغولي في عدة مواقع، ولم يتجرأ هؤلاء أن يتقربوا من حدوده، أو يمسوه بأذى، ووقع في نفوسهم الخوف والضعف وفي الداخل قاتل أيضا على عدة جبهات فقد تمكن من الحشيشية في وسط سورية^(٤٩) وأخذ الثورات المتتالية التي كان يقوم بها النوبة في جنوب مصر، وقضى على الفتن الداخلية، وتخلص من الامراء الايوبيين الذين كانوا يشكلون حجرة عثرة في طريق السيطرة على البلاد، وأوقف المد الشيعي الذي كان يتحفز منذ عهد الدولة الايوبية من أن يمسك بالحكم ويستعيده^(٥٠).

(٤٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ وما بعدها، الكتبي: فوات الوفيات ١/١٦٦، الصفدي: الوافي بالوفيات: ٣٣٨/١٠

(٤٦): القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ١٩٩

(٤٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ وما بعدها

(٤٨): ابن الفرات: تاريخه ٤٦/٧، وما بعدها، الجبرتي: عجائب الاثار في التراجم والاخبار ٣٠/١ وما بعدها

(٤٩): حتي: تاريخ العرب ٧٦٦، شبولر: العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٧٧، دائرة المعارف الاسلامية:

٣٦٤/٤

(٥٠): دائرة المعارف الاسلامية: ٣٦٤/٤، ٣٦٥، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٦٦، ٣٦٧،

شبيكة: مملكة الفرنج ١٤، الاسكندري: تاريخ مصر ٢٣٧
١٣١

لقد عقد عدة تحالفات لكي يضمن التفوق على اعدائه واحدا بعد الآخر، فتحالف مع المغول والاوروبيين مثل بطريك القسطنطينية، وشارل ده أنجوم ملك صقلية، وجايمس ملك أراغون^(٥١) مما يدل على اتساع أفقه الاستراتيجي وبعد نظره وتركيزه على منع الطامعين من الفرس، ومنعهم من التفكير في الاعتداء عليه.

اعتنى بالاستطلاع والاستخبارات وبتحسين العيون في الداخل والخارج وكان يجب أن تأتيه الاخبار الحقيقية عن نوابه وقواده ومرؤسيه فإذا أتاه خبر قاطعه، وإذا أتته معلومات تؤكد منها، فهو في صورة الموقف بصورة دائمة، وعلى علم تام بتحركات أعدائه التكتيكية والاستراتيجية إذ يستطيع أن يعلم تحرك الجيوش الترتية بمجرد خروجها من بلادها، ويستطيع أن يعلم خطأ قاده بمجرد ارتكابهم اموراً غير صحيحة^(٥٢).

طور السلاح الهندسي وجدد عمارة القلاع، الجزيرة، القابون، دمشق، صرخد، حصص، الصبية، الشقيف، الشامية، السويس، وقلاع الاسماعيلية في مصر وبعلمك الاكراد وغيرها، وبنى الجسور القبلوية، الاعظم، وجسر دامية بالغور وغيرها، وأنشأ القناطر المظلة على الميدان، الساع والمشرقة على بحراين منجى، والخلجان التي منها خليج القاهرة وخليج الاسكندرية، وعلى مدينة السرج وست عشرة قنطرة التي يعبر منها على دمياط، وأقام الطباق لسكن الممالك وحفر البحار الأشموم، والصمصام، السردوس والكافوري وكذلك أقام الترع الكثيرة^(٥٣).

ازداد حجم الجيش في زمنه إلى أربعة أضعاف مما كان عليه، فبلغ أربعين ألف فارس، وزاد في تسليحه وعتاده وطور تلك الأسلحة والمعدات وأنشأ تشكيلات جديدة^(٥٤) وكان يملك أربعة آلاف مملوك^(٥٥).

(٥١): حتي: تاريخ العرب ٧٦٧، دائرة المعارف الاسلامية: ٣٦٥/٤، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٦٧

Lane - poole, A History of Egypt in the Middle Ages 9/265,266,270

(٥٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٨٢/٧، ابن الفرات: تاريخه ٥/٧

(٥٣): ابن الفرات تاريخه: ٨٢/٧، ٨٣، الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٣٦/١٠

الكتبي: فوات الوفيات ١٦٧/١ وما بعدها.

(٥٤): الكتبي: فوات الوفيات ١٦٩/١

(٥٥): الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٣٨/١٠، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٧٩/٧،

اعتمد الملك الظاهر في حروبه على المدفعية (المنجنيق) وقد استخدمه استخداماً واسعاً وعني به وفضله على كثير من الأسلحة في فتح الحصون والقلاع^(٥٦) كما اعتمد من بعد نابليون بونابرت على هذا السلاح.

اعتنى بالسلاح البحري تنظيمياً وتسليحاً وتصنيعاً، وقوى الاسطول وضم إليه الرجال المتخصصين. وأوصى بتدريبهم، كما اعار أهمية لصناعة السفن والشواني، وجلب المواد الأولية والاختشاب من الداخل والخارج حتى أصبح الاسطول قوة يحسب حسابه، إلا أنه بعد وفاته دب إليه الوهن وضعف لقلة الاهتمام به^(٥٧) كما اهتم بالرمي اهتماماً كبيراً إذ اتخذ خارج القاهرة ميداناً لرمي الشباب أطلق عليه «الميدان الأخضر» وأطلق على آخر «الميدان الاسود» وهناك «ميدان القبق» الذي كان التدريب فيه مستمرا كل يوم للامراء والقادة والجنود يشهده السلطان ويشارك العسكريين ويحرض ويشجع المتفوقين^(٥٨) واهتم بسباق الخيل ورياضة الصولجان^(٥٩). يبرس أول من أحيا الخلافة، بعد أن اندثرت وضاعت بعد غزو المغول لمدينة بغداد، وقد نقل الخلافة من بغداد إلى مصر وهذه المسحة الدينية والقانونية والخلعة والتفويض بالقيادة قوى مركزه العسكري والسياسي، وأصبح يخطب على المنابر مقرّوناً باسم الخليفة.

هو الذي أوجد الرتب والوظائف العسكرية في الجيش المملوكي وقسمها ووصفها ورتبها، وأعاد تنظيمها على أساس من الكفاءة والعلم فهناك «الدوادار» و«أمير مجلس» و«الحاجب» و«أمير آخور» و«الجمدار» و«أمير شكار» وغيرها من الوظائف التي حدد لصاحبها العلم الذي يعمل به والاجراءات التي يتخذها، والجوانب العسكرية التي تقع على كاهله فوظيفة «رأس النوبة» استحدثت واقتبست من النظام التتاري ويسمونها «يسنول» وكذلك وظيفة «أمير آخور». يسمونها «أقاطاشي» وغيرها والغالب في الوظائف على أنها غير عربية وتعود في أصلها إلى التركية والفارسية أو التتية، وهي في معظمها مركبة وتدل على معنى معين^(٦٠).

(٥٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٥٢/٧ وما بعدها ١٥٥

(٥٧): مبارك: الخطط التوفيقية ٨١/١، ٨٢، عمون: تاريخ مصر ١٩٧

العبادي: تاريخ البحرية الاسلامية ٢٩٦

(٥٨): مبارك: الخطط التوفيقية ٨٢/١، ابن الفرات: تاريخه ٦/٧ وما بعدها

(٥٩): Lane - Poole, A. History of the crusades, Vol. III The Kingdom of Acre Book 3/ chapter 3/34

(٦٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٨٣/٧ وما بعدها، السيوطي: حسن المحاضرة

لقد أعار أهمية كبرى للبريد وللحمام الزاجل وللمحطات والطرق ولوسائل النقل والقائمين عليها وذلك لوصول الاخبار بسرعة. ولربط البلاد بعضها ببعض، وكان لاجداث البريد قفزة نوعية في عالم النقل والمراسلات العربية على مستوى الجيوش المملوكية^(٦١).

لتقوية جيشه والتفوق على خصمه، أسكن التتر في اللوق، وبني لهم الدور، وأحسن وفادتهم فقدم عليه منهم أكثر من ألف شخص في بادئ الامر ثم تكاثروا فيما بعد، وذلك للاكرام والعطاءات التي من السلطان بها عليهم^(٦٢).

للظاهر بيبرس سمعة قيادية ومهابة في الداخل والخارج ورعب يسيطر على أعدائه وحرب نفسية يشنها على من وقف أمامه^(٦٣) وقد أكسبته هذه السمعة هروب عدوه أمامه قبل أن يلتقي به، ووقف كثير من الحملات والغارات التي كانت ستشن على بلاده، والابتعاد والخوف من التعرض له أولرسله أول للمواطنين من بلاده، ومحاولة التقرب منه بالخدمات التي يقدمها أولئك الذين دعوا إلى السلم والسلام معه وهو بهذا فقد حقن دماء كثيرة وفتح بلادا واسعة دون خسارة كبيرة من القتلى والاسرى^(٦٤).

مع شجاعة بيبرس وسمعته القتالية فقد كان يخشى الشجعان من بني جنسه ويتوجس منهم شرا ويتر بص بهم الدوائر ومن عاداته أنه إذا سمع ببطل أو اشتهر عنده من الامراء أو الضباط بميزة قتالية كان يسعى إلى تصريفه والقضاء عليه^(٦٥) ويتحين الفرص للتخلص منه بأي ثمن كما فعل بقائد طليعته الأمير عز الدين فحبسه، وكما دس السم للملك القاهر بهاء الدين الذي نجا منه ووقع هوفيه وكانت هذه الحادثة سبب وفاته، كما أبعد الشيخ محي الدين النووي عن

(٦١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٨٦/٧

حتى: تاريخ العرب ٧٦٧

Lane - Poole, A. History of Egypt in the Middle Ages; 9/246

(٦٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٩٠/٧، مبارك: الخطط التوفيقية:

٨٤/١، ٨٥، عمون: تاريخ مصر ١٩٧، العبادي: تاريخ البحرية الاسلامية ٢٩٦

(٦٣): الجبرتي: عجائب الاثار في التراجم والاخبار ٣٠/١

(٦٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٨١/٧، ١٨٢، دائرة المعارف الاسلامية: ٣٦٤/٤

(٦٥): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٧٨/٧، القوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة

دمشق لما تجرأ عليه في القول وخالفه^(٦٦) ولعل الظاهر بيبرس لا يريد من أي كان أن يتصف بصفات الرجولة إلا هو. ولا يريد لاحد أن يعلوه، فهو كل شيء وماعداه فهم دونه، ولم يكن قتل فطر إلا للعجب الذي في نفسه، والحسد الذي في طريقه.

دلت فتوحاته الواسعة، وحروبه الكثيرة، ونشاطه الذي لا يفتقر وتحركه الذي لا يهدأ وتنظيمه وفي حصاره القلاع والحصون واهتمامه الكبير بالخدمة الطبية والمستشفيات الاختصاصية، وبناء الجسور والقناطر ورعايته للتدريب وللأعمال القروسية والرمي، وللتمارين والبيانات الفردية والجماعية، على أن بيبرس قائد استراتيجي كبير، ومنظم دولي وعلى مستوى عال من الفهم والادراك سياسي بارع مثله كمثّل فنان بدأ برسم صورة ثم أكملها فيما بعد^(٦٧).

وبما ساعد على الانتصار في حروبه:

١ - الثقافة العسكرية التي كان يتمتع بها^(٦٨)، إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب، وكان يشجع ويحث العسكريين التركيز على هذه الدراسة، وبنفس الوقت كان يحب الاساتذة وخبراء الحرب ويميل إليهم ويكرمهم ويهيء لهم الجوامع الملائم للتدريس وإعطاء المزيد من المعلومات التاريخية العسكرية، وكان يقول «سماع التاريخ أعظم من التجارب»^(٦٩)، يضاف إلى ذلك ازدهار الثقافة وكثرة المثقفين والمؤلفين الذين كانوا من المهاليك أنفسهم ومن المعاصرين لتلك الحروب والمواقع.

٢ - التدريب العسكري المتواصل.

٣ - الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الامور المتعلقة بالسياسية أو الحرب

٤ - الصفات القيادية والشخصية التي كان يتمتع بها.

٥ - الحذر والحيلة لكل الأمور، واتخاذ المناسب حيال كل حدث أو اعتداء.

٦ - الخبرة الطويلة والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاها في الحروب الحقيقية.

(٦٦): ابن الفرات: تاريخه ٧/٧٠، ٨٦، ١٠٩

(٦٧): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٢، ابن عبد الظاهر: تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٣٦٥، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٦٦، الشيال: تاريخ مصر الاسلامية ٢٠٥/٢

(٦٨): العسلي: المظفر قطز ومعركة جالوت ١٤٤

(٦٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/١٨٢، عمون تاريخ مصر ١٩٧

كان الظاهر بيبرس ضارباً في مجاهل الارض جمع السياسة والحرب وكان بارعا في هذه وتلك مما اتيج له تثبيت ملكه وتعزيز سلطته وتخويف أعدائه^(٧٠) ولقد اعتبر عصره من العصور الذهبية في الاسلام كما اعتبر بطلاً ومحرراً^(٧١).

- الامير فارس الدين أقطاي المستعرب (ت ١٢٧٤/٦٧٣)

كان أتابك العساكر أثناء معركة عين جالوت^(٧٢) وله خبرة في هذا العمل لخدمته الطويلة في هذه الوظيفة التي تولاه في أيام المنصورية، وبقي فيها حتى رفعه الملك قطز^(٧٣) واستمر بها حتى عهد الملك الظاهر وحتى وفاته^(٧٤) وهو أول من حلف للملك بيبرس وبإيعه، فتبعه بقية الامراء وكان رجلاً مقداماً شجاعاً وذا معرفة في الحروب، وكان قطز يعول عليه كثير أما بيبرس فقد ضايقه، بعد أن عين معه بدر الدين بيلك الخزندار فتعلم منه الكثير حتى استغنى عنه^(٧٥)، ومن صفاته أنه كان هادئاً ورعاً، محباً للخير، مقرباً إلى الملك قطز، ومحبوباً من قبل مرؤوسيه^(٧٦) لكنه ظل محافظاً على وظيفته الكبيرة في عهد الظاهر بيبرس، وذلك للخدمة التي قدمها لبيبرس عندما سهل له إعتلاء السلطة^(٧٧).

- سنجر الحلبي (ت ١٢٩٣/٦٩٢)

كان أتابك العساكر في زمن الملك المنصور علي بن أيك سنة ١٢٥٧/٦٥٥^(٧٨) وكان نائب الملك المظفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت^(٧٩) لما جاءه خبر مقتل قطز واستلام

(٧٠): المقرئزي: الخطط: ٦٢٢/٢/١، بروكلمان: الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ٢٤٣، ٢٤٤

(٧١): بروكلمان: الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ٢٤٤

(٧٢): ابن كثير: البداية والنهاية ٢٢١/١٣

(٧٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٨/٧

(٧٤): الصقاعي: وفيات الاعيان ١٠، ١١، ٥٥

(٧٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٢٤٢/٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ٣١٨/٩، ابن الفرات تاريخه

٣٩/٧

(٧٦): ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ١٠

(٧٧): ابن الفرات: تاريخه ٣٩/٧

(٧٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤١/٧

(٧٩): الصفدي: امراء دمشق في الاسلام ٣٩، أبو شامة: الذيل على الروضتين ٢١٠

الملك الظاهر ومبايعته هرب إلى بعلبك وضيق عليه ثم أُلقي القبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه^(٨٠)، وكان على درجة كبيرة من البطولة والشجاعة وقد أبلى بلاء حسنا في المعركة الفاصلة^(٨١).

- أقسقر الأمير شمس الدين الفارقاني (ت ١٢٧٧/٦٧٦)

كان من أركان بيبرس، وقد عرف بالشجاعة والبأس والشخصية العسكرية القوية، وقوة الجسم وحسن التصرف، وكانت له جولات في حروبه وصولات في ضروبه، إذ لا يخاف الموت ولا يخشى المصاعب كان محفوفاً بالانتصارات ومقدماً في المعارك، عينه الملك الظاهر قائداً للجيش وناب عنه في غيبته^(٨٢).

- إيفان بن عبد الله الركني (ت ١٢٧٦/٦٧٥)

لقب بعز الدين وعرف بسم الموت، واشتهر بالشجاعة والحنكة والفروسية والمكانة المحترمة، كان يندب في مقدمة الجيوش (الطليلة) وكان من أركان الملك الظاهر، وهو مقدم ألف، وقد عهد إليه بقيادة الجيش في المهمات الصعبة التي يريدها السلطان وقد خاف بيبرس على نفسه من هذا الأمير فحبسه في سجن القلعة وبقي في السجن حتى مات^(٨٣)

- آقوش الشمسي الأمير جمال الدين (١٢٨٠/٦٧٩)

كان جندياً قوياً، وأميراً موصوفاً بالشجاعة والاقدام، والجرأة في التنفيذ، وقد كان خشداً شياً عند الأمير بدر الدين البيسري، كما خدم عند غيره، وقد ظهرت عليه تطلعات للارتقاء إلى المناصب العالية، حتى إذا كانت معركة عين جالوت، تسلل من وحدته العسكرية، وقصد مقر قيادة المغول، حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى من القائد العام للجيش المغولي انقضض عليه فأصابه وطرحه أرضاً وأسير كتبغا، ولما رأى الجيش المغولي وقد أسير قائده خارت قواه وضعفت معنوياته وبهذا فقد حقق آقوش نصراً لجيشه بل كان منعطفاً تاريخياً ثم ولي فيها بعد نيابة حلب

(٨٠): ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٣٣٤

(٨١): الصفدي: الوافي في الوفيات ١٥/٤٧٣

(٨٢): الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/٣١٠

(٨٣): ابن الفرات: تاريخه ٧/٧٠، الصفدي: امراء دمشق في الاسلام ١٥

(٨٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٩

وبقي فيها حتى توفي^(٨٤).

ثانياً: قادة وأركان الجيش المغولي

- هولاكوبن تولى خان بن جنكيز خان (ت ١٢٦٤/٦٦٦)

تولى القيادة بعد موت أبيه، له سبعة عشر ولداً، دانت له بلاد كثيرة، وأراضي واسعة وأقوام مختلفة^(٨٥) قبل معركة عين جالوت وفي سنة ١٢٥٨/٦٥٦ استطاع هولاكوب (قائد الجيش المغولي) أن يستولي على بغداد، ويفرق أهلها وعسكرها في مياه دجلة بعد أن حاصروهم عدة أيام حتى استسلموا، وقتل الخليفة المستعصم الذي كان ضعيفاً مهملاً لأمر الجيش عابثاً بمقدرات البلاد^(٨٦)، ونهب وسلب وقضى على العلم والتراث والحضارة^(٨٧)، وقد بلغ عدد القتلى ثمانمائة ألف أويغيدون^(٨٨)، له أركان يساعدونه في حروبه وفتوحاته منهم كتبغا وابنه أشموط وبايجونين، على أن كتبغا كان يعتمد عليه في المهمات وفي المهام الخطيرة لما يتميز به من حسن حربي، وقدرة فائقة على قيادة القوات وكان هولاكوب مصاباً بالصرع ومات بهذا المرض^(٨٩)، وكان له دور كبير في معركة عين جالوت إذ مهد لها بعد أن احتل بغداد ووصل حلب، وعمل الترتيبات اللازمة لمواصلة القتال والزحف نحو دمشق ومصر، وعين رئيس أركانه كتبغا ليكون قائداً للجيش الذي قدر له دخول هذه المعركة^(٩٠).

كان هولاكوب^(٩١) شجاعاً. إذا دخل المعركة لم يخشى بأسها، وإذا قارع الأبطال فإنه يصمد أمامهم وإذا بطش بطش كجبار في الأرض، وكانت قيادته حازمة لا يترجع عن أمره إذا صدر

(٨٥): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٤٧/٧، ٢٢٠. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣١٦/٥

(٨٦): ابن القاسم: غاية الأمان: ٤٤٦/١، السيد: مفتوح ١٣٠ - Lewis, The Arabs in History, 9/153

(٨٧): ابن الوردي: تاريخه ٢٨٣/٣. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢٧١/٥

لوبيون: حضارة العرب ١٧٨، السيد: مفتاح الذهب ١٣٠

(٨٨): ابن تغري: النجوم الزاهرة ٤٩/٧، ٥٠، ٥١. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢٧١/٥

(٨٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٢٠/٧

(٩٠): الهمداني: جامع التواريخ ٣/١/٣٠٩، ٣١٠: العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ١٦٣

(٩١): هو مؤسس الدولة المنغولية في بلاد فارس سمى نفسه ب: الخان الكبير، دانت له أغلب القصور قوة دون أن يلقي مقاومة، وفي العراق هزم جيش الخليفة، إلا أنه فشل في غزو سوريا انظر:

ولا عن قراره إذا قرر ولا عن هدفه إذا وضع نصب عينيه تحقيقه وكان سفاكا للانفس ، وسفاحا للدم ، وهو كأسلافه في الفتك وسياسية الارض المحروقة^(٩١)

كان منظما ومخططا للقتال ، وذا هدف بعيد في التفكير الاستراتيجي وقائدا فذا على المستوى التكتيكي ، فلقد حفر خندقا حول بغداد ، وأقام له سترة وأبوابا وأمكنة لاسلحة الرمي ، وبخاصة الاسلحة المدفعية كالمنجنيق والعرادات ، وبدأ يرمي بأسلحته تلك المناطق المحصنة والاستراتيجية والتي يؤثر تدميرها على زعزعة الدفاع وبعثرة القوى والجهود وبقي مستمرا دون انقطاع في رماياته وتقدمه مما اضطر الخليفة إلى طلب الصلح ودخل بغداد ، ووصل وحقق كل أهدافه القتالية^(٩٢) .

كان هولاكو حفيد الجنكيز خان وهو وجد ايلخانات فارس والعراق ، وقد اختلف بنوه من بعده ، وقتل بعضهم بعضا ، كما اعتنق بعضهم الاسلام مثل غازان محمود ، والبوذية مثل أرغون^(٩٣) ، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الخلاف وهذا التباين في العقائد إلى ضعف الاستراتيجية ، وإلى فوضى في التخطيط العملي ، كان جمهوري الصوت ، مملوء الجسم ، ضخم القامة مملوء الهامة ، مبسوط الوجه عريضه ، غائر العينين ، أفطس الانف طويل الشاربين تنابه الملوك ونحشاه العظماء وترتعد منه قلوب الشجعان^(٩٤)

اضطهد هلاكو العرب المسلمين في كل البلاد العربية التي احتلها وظهر هذا الاضطهاد واضحا في دمشق عندما أذاق أهلها من المسلمين العذاب ، وبالمقابل فإنه كان يعطف على النصارى ويسمح لهم بإقامة الكنائس وإعلان الشعائر الدينية^(٩٥) ولعل هذا العطف كان من تأثير امرأته (دوقوز خاتون) التي كانت نصرانية وكان لها حظوة كبيرة واحترام زائد من بين نساء

(٩٢) : القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ٢٨٦ ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ٣٥٣

(٩٣) : ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ٣٥٩ ، ٣٦٢

(٩٤) : زامباور : معجم الانساب ٣٥٩ ، ٣٦٢

(٩٥) : عن رواية صارم الدين ، أزيك بن عبد الله الاشرفى ، نقلها الدكتور أحمد مختار العبادى في كتابه : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، الرمزى : من تلقى الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قران وبلغار وملوك التتار ٢٢/١ .

هولاكو العديديات، وهذه العلاقة الطيبة بينها وبين زوجها، جعلها تتصرف في الأمور السياسية مما كان له رد فعل كبير في التودد إلى الصليبيين الذين كانوا يحكمون في فلسطين وبخاصة على الساحل (٩٧) وكذلك في بقية المناطق من بلاد الشام.

- كتبغا نوين (ت ٦٥٨/ ١٢٦٠)

رئيس أركان الجيش المغولي، وقائد أحد الجيوش التي استولت على بلاد واسعة (٩٨)، وقائد التشكيل من الجيش الذي احتل بغداد وشارك في مجازرها، وفي اجتياح حلب، وفي التقدم نحو دمشق، وهو قائد الجيش المغولي في معركة عين جالوت، الذي عهد إليه القيام باحتلال ما تبقى من بلاد الشام، ثم المتابعة نحو الأراضي المصرية، كلفه هولاكو بهذه المهمة الخطيرة، وتركه ليلتحق ببلاد فارس مع الكتلة الرئيسية للجيش، وبقي مع كتبغا تشكيل يقدر بعشرة آلاف جندي، لقد وقع الاختيار على هذا القائد لما له من صفات قيادية، ولثقة التي أولاها إياه هولاكو وقد اشتهر بالفراسة وحسن التصرف في جميع الأعمال المنوطة به (٩٩) وبفتح القلاع والحصون المنيع (١٠٠) وقد قتل في هذه المعركة على يد أقوش الشمسي (١٠١).

بعدما استولى الجيش المغولي على بلاد الشام كلف هذا القائد بتولية مسؤولية هذه البلاد وإدارتها فمن الوجهة العسكرية قسم الأراضي المحتلة إلى مناطق عسكرية، وعين لها القادة المؤثوقين، ومن الوجهة السياسية استعان بالعملاء من هذه البلاد بمعاونته في إدارتها، ثم اتخذ الاجراءات الكفيلة للتحالف مع الفرنج وكان يدرك أهمية هذا التحالف للقيام فيما بعد ضد الجيش المملوكي والدولة المملوكية الجديدة التي اعتبرت رمزا للانقاذ من بطش المغول وسيطرتهم، وإذا ما تحقق له تدمير الجيش المملوكي فإنه في الافضلية الثانية سيدمر الجيش

(٩٧): أبوشامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع ٢٠٨، الهمداني: جامع التواريخ ٢٢٠/ ١/ ٢، ومابعدا، خطط الشام: ١٠٨/ ٢، الغزوي: تاريخ العراق ٢٥٢/ ١، ٢٥٣، الدوميلي: العلم عند العرب: ٢٩١، وكانت زوجة هولاكو تميل إلى السكان المسيحيين، ملحقة الغدر بالمسلمين انظر:

Encyclopedie de L'Islam - Publie Avesle Concours Des Principaux Orientalistes - Tom II - 353

(٩٨): الهمداني: جامع التواريخ ٢٤٣/ ١/ ٣، ومابعدا ٣١٤

(٩٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٩١/ ٧

(١٠٠): الهمطاني: جامع التواريخ ٢٤٣/ ١/ ٢

(١٠١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٩٣/ ٧

الصليبي وبذلك يقضي على عدوه بالتالي جزءا فجزءا، ولكنه لم تتح له الظروف المواتية فانهزم جيشه في معركة عين جالوت، وابتعد الفرنج عن التحالف وابتأوا يتقربون من الدولة المملوكية ويظهرون الود والتأييد^(١٠٢).

- اشموط بن هولاكو:

هو الابن الثالث لهولاكو^(١٠٣) واحد قادة التشكيلات المغولية، والذي كان مع أبيه أثناء الاجتياح، والذي كلف بعد احتلال بغداد أن يتوجه إلى حلب، ويقطع الفرات ويصل بجيشه إلى نهر الجوزة وتل باشر مار بالمسلمية ثم جيلان والحاري^(١٠٤)، وهولاكو ولد آخر يدعى أبغا الذي كان أيضاً من القادة المشهورين، وقد هزم أمام ابن أخي بركة خان الذي كان على خلاف مع بني جنسه^(١٠٥) وهو نفسه الذي تحرك للثأر من المهالك في سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ في أعقاب معركة عين جالوت على أثر هزيمة المغول فيها، فوصل حلب، ولكنه فر عندما علم بتحرك الملك الظاهر بيبرس إليه^(١٠٦).

- بايجونين:

كان قائدا مشهورا بالشجاعة والبطش وكان موضع ثقة هولاكو إذ كان يرسله في حملات كبيرة، ومهمات صعبة إلى إيران، وبلاد الروم^(١٠٧) وكان رئيس أركان الجيش المغولي الذي كان يتقدم جيش هولاكو عند زحفه على بغداد^(١٠٨)، تقدم بجيشه نحو العاصمة العراقية وقبل

(١٠٢): العريبي: المغول ٣٥٤

Runciman; A History of The Crusades Vol. III The Kingdom of Acre Book 3/chapter 4/317.

(١٠٣): الهمذاني: جامع التواريخ ٢٢٥/١/٢

(١٠٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٤/٧

ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٨٨/٥

الشهابي: تاريخه ٤٣٢، ٤٣٦

(١٠٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٤/٧

(١٠٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٤/٧

(١٠٧): الهمذاني: جامع التواريخ ٢٣٣/١/٢ وما بعدها ٢٣٥

(١٠٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٤/٧

القوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٢٠، ٣٢٣

مرحلتين من الوصول إليها استطاع أن يجرب حيلته وخداعه الحربي جيش بغداد خارج المدينة، فلما وقع الجيش العراقي في الفخ أطبق عليه بايجونين من الميمنة والمبسرة وابتلعه كما تبتلع الحية فريستها بأسلوبى الالتفاف والاحاطة، وهما الاسلوبان اللذان كان يستخدمهما الجيش المغولي في قتاله ومن ميزاتها استدارج العدو حتى يصل إلى الارض التي يمكن أن يكون فيها، حيث يحاط به من الامام والمجنبات والخلف^(١٠٩).

تقدم رئيس الاركان هذا بعد أن قضى على الكثرة الكثيرة من الجيش وحاصر بغداد بخطة عسكرية طبق فيها مبدأ الحصار من جميع الجهات ولم يدخلها إلا بعد التأكد من نفاذ التموين والتكديس من المؤن والذخائر، وبعد سيطرة رعب خيم على سكان بغداد الهاربين إليها منذ الواقعة الكبرى^(١١٠).

خلال الحصار حفر خندقاً وسوراً لثلا يقع تحت هجوم مضاد، يتوقع أن يشنه سكان بغداد والعسكريون وكذلك فإنه يستفيد منه في المراقبة وفي حماية جنوده المتشربين كطوق يحيط بالمدينة^(١١١).

بعد هذه العمليات المتتابعة من الحرب المادية والنفسية، خرج الخليفة يتلمس الصلح، ويطلب حقن دماء هذه المدينة، لكن هولاكو القائد العام للجيش المغولي أمر بقتل الخليفة ويطش بالمدينة، ونزل إليها فدمرها وأحرقها وسبى أهلها، وقتل أكثر من فيها وأحرق الكتب^(١١٢).

- بيدرا:

حفيد هولاكو قائد مغولي، كان قائد الطليعة التي وصلت إلى غزة، والذي أرسل تقريراً إلى قائد الجيش كتباً يخبره فيه عن قوة الجيش المملوكي وأسلحته ونيته للقتال وقادته، والذي تراجع تحت ضغط الجيش المملوكي من غزة إلى عين جالوت بالرغم من صدور الأمر إليه من قائد جيشه (كتبغا) بالثبات في مكانه حتى وصول القوة الرئيسية من الجيش المغولي إليه، لكنه لم يستطع

(١٠٩): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٤٩/٧

(١١٠): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٤٩/٧

(١١١): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٤٩/٧

(١١٢): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٥٠/٧ وما بعدها.

الثبات بسبب قوة اندفاع الجيش المملوكي وأثر الانسحاب إلى مناطق نائية في الشمال مما سمح للجيش المملوكي أن يتقدم بسرعة ويسبق خصمه في احتلال المواقع المناسبة، وينفس الوقت فإن الجيش المغولي لم يستطع أن يرسل طليعة أخرى للسرعة التي كان عليها خصمه، وللارتباك الذي حصل نتيجة الانسحاب الاضطراري، حينئذ استطاع الجيش المملوكي أن يستغل هذه الظروف - وهذا الوقت بالذات - أن ينفذ إلى الساحل وأن يغيب عن أعين الرصاد^(١١٣).

لقد قاد بيدرا الجيش المغولي المشتت بعد إعادة تجميعه بعد معركة عين جالوت، وهاجم باتجاه المحور الشمالي إلى حلب حماة حمص ولكنه فشل في هجومه هذا، ومنى بهزيمة نكراء في سنة ١٢٦١/٦٥٩ على يد الجيش المملوكي الذي أظهر من الشجاعة والتصميم، والخفة والمناورة^(١١٤).

إذا استعرضنا القادة والاركان في الجيشين المملوكي والمغولي، لوجدنا الصفات القيادية متشابهة، وإن اختلفت بعض منها، فإنهم جميعاً يتصفون ببعد النظر، والحس الحربي، ولهم تجربة وخبرة في قيادة الجيوش والتشكيلات المقاتلة، وإن كان قادة الجيش المغولي أعمق خبرة وتجربة، يقابله في الجيش المملوكي التدريب المتواصل على الاعمال الحربية ويتحملون جميعاً الاعباء الجسام، والمسؤوليات الكبيرة، ويصبرون في الشدة والبأس، ويقدمون حين يدعون إلى الحرب ولا يخافون إن اعترضتهم المخاوف.

لدى قادة الجيش المملوكي صفتان مهمتان في الحرب هما التصميم والتركيز، فلقد كان هؤلاء مصممين على النصر مهما كلف ذلك من ثمن سيبا وأنهم يدركون نتائج الفشل في هذه المعركة التي - وإن كان تصميمهم فاتراً - فسوف يلقون الموت والعذاب ولا تقوم لهم قائمة بعد الآن.

وأما التركيز فكان يظهر في دراسته المخطط القتالي بكل حذر وحيلة، ويدركون تماماً الخطوات التي تسبق المعركة الفاصلة فهم قد طاردوا بيدرا، وأخفوا عن القادة المغوليين كل تحركاتهم وركزوا جهدهم الرئيسي في الاسباب الموصلة إلى النصر، في حين أن قادة الجيش

(١١٣): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢ العربي - المغول ٢٥٨

Runciman; A History of The Crusades Vol, III The Kingdom of Acre Book 3/chapter 4/317.

(١١٤): الذهبي: دول الاسلام ١٢٥/٢

المغولي كانوا معجبين بأنفسهم قد غرهم الانتصار السابق في دول مختلفة وكان التراخي يبدو على تحركاتهم في مسرح العمليات وعلى ملاقاتهم أثناء المعركة وفي مطاردة فلولهم المهزومة بعد المعركة^(١١٥).

وإذا كانت المظاهر الجسمية تدل على القائد والقيادة فإن قادة الجيشين كانوا من أصل متشابه إلا أنهم يختلفون في بعضها، فإذا دققنا في الصفات التي مرت نرى المغول يتميزون بكبر هاماتهم، ورشاقة أجسامهم، مما أعطاهم خفة وحركة في ميدان المعركة، أما القادة المملوكيون فإنهم يتميزون بطول أجسامهم وعرض المنكبين وكما هو معلوم فإن للصفات الجسمية كالشعر والانف والاذن والعين والأعضاء دلائل تشير إلى الرجل القوي والشجاع، وإلى القائد الذي يتميز بقيادته^(١١٦)، فهم جميعا متشابهون يوازن بعضهم بعضا من هذه الناحية.

(١١٥): الاسحاقى: أخبار الأول فيمن تصرق في مصر من أرباب الدول ١٣٢

(١١٦): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية: ١٠٩ - ١١٢

الفصل الخامس

التنظيم والتوجيه المعنوي

وهو الرجل المحدود الذي فتح بلادا كثيرة، ودخل مواقع حربية متعددة^(٣)، والاتابك معناه أيضا الرجل الذي يربي أولاد الملوك^(٤)، وهذا اللفظ أيضا استخدمته الدولة الرسولية في اليمن التي كانت معاصرة للدولة المملوكية^(٥)، ومن تولوا هذه الوظيفة الظاهر بيبرس، وفارس الدين أقطاي المستعرب في معركة عين جالوت^(٦)، وقد اشتهر من الاتابكة يلغا وكان تحت امرته ثلاثة آلاف وخمسمائة مملوك^(٧)، وإينال اليوسفي في أيام السلطان حاجي^(٨) بيده الأمور العسكرية، يتصرف في الجيش، ويعيد تنظيمه، وينقله من مكان لآخر، وعادة مايوكل اليه أمر البلاد بعد موت السلطان، او بعد خلعه، أو حين تولي السلاطين الصغار الملك^(٩).

أمير سلاح:

يكون من أمراء المئة وهو مقدم (السلاحدارية)، وظيفته تولي أمور السلاح الخاص بالسلطان أو الأمير، والمسؤول عن المستودعات الخاصة بالسلاح وحفظه وصيانتة، وعن العاملين، وعن نقل السلاح وتأمينه الى السلطان عن طريق الشراء أو التصنيع^(١٠)، وكان أمير سلاح اينال اليحياوي الظاهري الملقب (الاشقر)^(١١)، وهذه التسمية اتخذها الأيوبيون من قبل، وتدل على نفس المعنى^(١٢)، وهو ما يعبر عنه في الوقت الحاضر مدير ادارة الاسلحة والذخائر.

(٣): ابن خلدون: تاريخه ٢٢٧/٥ وما بعدها.

(٤): ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٧.

(٥): الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ٢/١٠٤، ٢، ٨٨٤٤، ١٠٤، ١٦٨.

(٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٨، ٩٠، ٣١٨.

(٧): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ١١٣.

(٨): ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/٤٣٣.

(٩): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٦٥٦، ٦٥٨.

(١٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٥/٤٥٦، الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ١/٣٧،

زكي: السلاح في الاسلام: ١١. Coudefroy Demombynes La Syrie a l'epoque des Mamlouks 3157.

(١١): السخاوي: الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع ٢/٢٣٠.

(١٢): أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١١٤/٢٦٦، الداوداري: الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٩/٣٩،

أمير مجلس :

يختص بمجلس السلطان أو الأمير وترتيبه وحراسته والمحافظة عليه^(١٣)، وهو المسؤول عن الأطباء، والشؤون الطبية والأدوية، وكل ما يتعلق بأمور العلاج. أمير دودار الكبير^(١٤) :

وظيفته حمل دواة السلطان أو الأمير، وعمل كل ما يتعلق بها ويرتبط من أعمال^(١٥)، وتبليغ الرسائل الصادرة عن السلطان والامور العامة، وتقديم البريد، والمشاور في أمر من يحضر الى الباب، واخذ العلامة من السلطان في كل المكاتبات التي تصدر عنه، وقد يكون «الدوادار» نائباً في إحدى النيابات، أو حاجب الحجاب، وقد يطلق عليه الدوادار الكبير^(١٦)، وقد يأخذ ارقاباً، أو يتولى وظائف كنائب نيابة أو كوالي^(١٧)، كما استخدم الايوبيون من قبل هذا اللفظ^(١٨). أمير آخور الكبير^(١٩) :

يضاف «الكبير» في مصر وفي النيابات الرئيسية مثل دمشق وحلب^(٢٠)، وظيفته تأمين كل ما يلزم لشؤون الخيل والابل ونحوها من مأوى «اسطبلات وعلف، وتنظيم الخدمة الطبية،

(١٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٥/٥، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٣/٢.

(١٤): الدوادار لفظ عربي فارسي مركب من الدواة وهو ما يكتب منها، ودار ومعناها ممسك، ويكون ممسك الدواة.

(١٥): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦٢/٥، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٠/٢،

١٣٤، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٩٥.

(١٦): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٤.

(١٧): ابن طولون: مفاهمة الخلان في حوادث الزمان ٧٨/١، ٨٣، ١٦٤، ١٦٦، ٨١/٢، ابن تغري

بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥٥/١٢، ٧٨، ١٢٩، ١٦٣، ١٨٩، ٢١٢، ٢٩٠، السيوطي:

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٤/٢.

(١٨): الدواداري: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ٢٧٣/٧.

(١٩): هو لفظ بمجمله عربي فارسي مركب من أمير، وخور معناه الملعف فيكون أمير الملعف أو المذود.

(٢٠): ابن طولون: مفاهمة الخلان في حوادث الزمان ٤٢/١، ٩٥.

يشغل هذه الوظيفة، إنما هو من أقرب المقرين إلى الملك ويده كل شيء فيما يتعلق بتصرف الأمور^(٣٤)، وله وظائف منها مرافقة السلطان في المراكب والاحتفالات والفصل في الدعاوي، وكذلك تلك التي لاتعرض على الديوان، والحكم بكل صغيرة وكبيرة، وإنصاف الامراء والجنود أما مباشرة من قبله، أو عن طريق السلطان أو النائب، وتقديم أو رد من يشاء من الجنود وغيرهم^(٣٥).

يطلق على أكبر الحجة (صاحب الحجاب) أو (أمير حاجب الحجاب)^(٣٦)، وهولي في المرتبة نائب السلطان^(٣٧)، الذي اتسعت صلاحياته، وتجاوز الذين يتولونها مهامهم المحددة، إذ صاروا ينظمون في أمور الناس بالإضافة إلى العسكريين لابتزاز أموالهم، فيتحكمون فيمن يشاؤون بالضرب وأخذ المال، فلا يتعرض لهم أحد، ولا يباينهم القضاة الشرعيون الذين كان من اختصاصهم النظر في هذه المواضيع التي استبد بها الحجاب وأميرهم^(٣٨)، ومضت فترة على هذا الوظيفة كان الأمير فيها كنائب السلطنة تماما، يحكم بين الناس وتعرضت لد وجزر، إلى أن استمرت في صلاحياتها الواسعة ونفوذها بين العسكريين والمدنيين على السواء^(٣٩).
أمير خازن دار الكبير^(٤٠).

وظيفة هذا الأمير حفظ الاموال بعد استلامها من الجهات المختصة وتوزيعها تبعا لاوامر السلطان أو الأمير^(٤١) ويقود عدد من الخازنات على مختلف الدرجات^(٤٢) ويمثل في الوقت

(٣٤): ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ١٨٥/٧

(٣٥): ابن خلدون: تاريخه ٢٠٢/١

(٣٦): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ١١٤

الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تاريخ الزمان ٤٧/١ Lane-Poole A History of Egypt in

(٣٧): الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تاريخ الزمان ٤٧/١ the Middle Ages 5/1557 156

(٣٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦٠/٣، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣١/٢

(٣٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦٤/٣

(٤٠): لفظ عربي فارسي مركب من أمير وهي عربية، وخزانة أي مستودع أو خزانة المال، ودار وهي فارسية ومعناها ممسك فيكون المعنى ممسك الخزانة

(٤١): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦٢/٥، ستنجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٩٥ - ٦٩١

Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages 5/1557 156

(٤٢): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/١/٣٥، ٨٤، ٥٨٤/٢/٣، ١١٠٥/٣/٣

الحاضر مدير الادارة المالية مع توسيع الصلاحيات في ذلك، والتخصيص في هذا الوقت.
أمير جاندار^(٤٣)

وظيفته استئذان الامراء في أيام العرض، وعند الجلوس بدار العدل والمسؤول عن باب السلطان وحاشيته، وتقديم البريد، وتنفيذ عقوبة القتل للامراء الذين يرتكبون جرما، والذين قرر السلطان إعدامهم والاحتفاء بالسلطان في حال قدومه من السفر، والسجن^(٤٤) «الزردخاناه» والذين يحملون «الغاشية» بين يدي السلطان «الركبدارية» والمرؤوسين من الجندارية» وعن المعتقلين وغيرهم^(٤٥).

هناك بعض الامراء الذين تقل أهميتهم وربتهم عن الذين سبق الكلام عنهم، وهم الذين لا يشترط أن يكون تحت أمرتهم بعض العسكريين مثل «أمير شكار»^(٤٦) وظيفته تأمين جميع أمور الصيد وما يتعلق بها وهو يساعد الملك في الصيد، ويرافقه في رحلاته^(٤٧).

و«أمير طبر»^(٤٨) وظيفته مرافقة السلطان أو الأمير، والاشراف على العناصر (الطبردارية) وتأمين ما يلزم لهم^(٤٩) و«أمير علم» وهو الذي يتولى أمور الاعلام والرايات وما يتعلق بها، وأمور (الطبلخاناه) وما في حكمها^(٥٠) و«أمير المنزل» المسؤول عن حراسة المنازل والبيوت للسلطان

(٤٣): لفظ عربي فارسي مركب من ثلاث كلمات الأولى أمير؛ والثانية جان ومعناها الروح والثالثة دار فيكون المعنى بالكامل «الامير المسك بالروح».

(٤٤): الفلقشندي؛ صبح الاعشى ٤٦١/٥، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٠/٢، الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٣٥/١، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٣٥٣، التوتنجي: المعجم الذهبي ١٩٩.

(٤٥): المقريزي: الخطط ٦٤/٣. ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٠/٤، أبو شامة: كتاب الروضتين ٢٤٦/١.

(٤٦): لفظ عربي فارسي مركب من أمير وشكار معناها الصيد فيكون المعنى بالكامل أمير الصيد.

(٤٧): الفلقشندي: صبح الاعشى ٤٦١/٥، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٧٥١.

(٤٨): وهو لفظ عربي فارسي مركب من أمير وطبر هو الفأس.

(٤٩): الفلقشندي: صبح الاعشى ٤٦٢/٥، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٨٨.

(٥٠): الفلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٦/٥، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المالك وبيان الطرق

والمسالك ١١٥

أثناء القتال فقط^(٦٦).

أمير خمسين :

هو تنظيم استثنائي ، يلجأ إليه في بعض الاحيان وعندما تدعو الضرورة ، وعندما يراد زيادة بعض الامراء بعشرة فوارس أو بعشرين^(٦٧)

أمير ثمانين فارسا :

لا توجد هذه الوظيفة وهذا العدد إلا في سلاح الفرسان^(٦٨) وهي جماعة من الخيل تدعى المقنب ، أو المنسر^(٦٩)

أمير مئة :

يقابله اليوم قائد سرية^(٧٠)

أمير ألف :

وهو أعلى تشكيل في القوات المسلحة المملوكية ، يقود هذا الامير ألفا من المقاتلين وعادة ما يكون من الامراء ومن الرتب العالية ، ومن المقرين إلى السلطة^(٧١).

أمير مئة مقدم ألف :

هذه تسمية تركية ، تدل على أن الامير له مئة مملوك يقومون بخدمته ، وقد يزداد هذا العدد إلى عشرة أو عشرين فوق المائة ، وقد يصل إلى الثلاثمائة وهذا نادر^(٧٢) ولهذا القائد بنفس الوقت ألف من أجناد الحلقة يقودهم أثناء الحروب ، ويقابل اليوم قائد لواء ، ورتبة المقدم هذه أعلى

(٦٦) : المقريري : الخطط ٥٣/٥٢/٣

(٦٧) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٨٩/١٢ ، ١٧٧ ، المقريري : الخطط ٥٢/٣

(٦٨) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٦/٨ ، ١٧٧/١٢ ، ١٧٨

(٦٩) : السكيت : مختصر تهذيب الالفاظ ٨٧ ، ابن سيده : المخصص ٢٠٠/٦

(٧٠) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧٩/٩ ، ٢٣/١٠ ، ٩/١٢ ، ١٢٦

(٧١) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧١/١٢ ، ٨٩ ، ١٤٢ ، ١٨٨ ، ٢٧٦

ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ٣٥/١

ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢٤٥/٣

(٧٢) : المقريري : السلوك لمعرفة دول الملوك ٩/١/١ ، ٢٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور

٣٨٥/٣

الرتب في الجيش المملوكي، كما كانت من قبل في الجيش السلجوقي والجيوش التي تلت^(٧٣)، والمقدم حسب اختصاصه وانتمائه قد يكون مقدم المالك السلطانية، أو مقدم العساكر المجردة^(٧٤) أو مقدم الجيش أو الاسطبل أو الرفرف أو البريدية، أو الطبلخانة، أو الحلقة، أو الوالي، وهناك مقدم الجبلية، ومقدم التركمان^(٧٥)، وللمقدم هذا نائب ينوب عنه في حال غيابه أو قتله في المعركة^(٧٦)، وقد يكون العسكر فوق كل المقدمين إذ يمكن أن يكون رئيس تجريديه، أو رئيس مجموعة قتالية، أو قائد جيش ميداني^(٧٧)، وهناك وحتى على مستوى البحرية كان يطلق على القائد مقدم البحرية الذي كان يقود السلاح البحري بكامله^(٧٨)، وبهذا فإن المقدم قد يقود أربعين، أو يقود الفا، أو أكثر، وذلك حسب وظيفته إن كان مقدم طبلخانة، أو مقدم العساكر، أو مقدم البحرية، ويقوم بخدمة كل أمير عدد من المالك حسب رتبته ووظيفته فإن كان أمير عشرة، فإنه يقوم بخدمته عشرة ممالك، وإن كان أكثر من ذلك فإنه يقوم بخدمته حسب العدد المخصص له، أما المقدمون فيقوم بخدمتهم مائة مملوك، ويتبع له أيضا جوقة موسيقية مؤلفة من ثمانية أحمال طبلخانة وطبلين وزمرين وأربعة انقرة^(٧٩).

هؤلاء الأمراء يقودون تشكيلات مختلفة في الحجم تبتدىء من:

(٧٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/٢٣، ٢٥٩، ١٢، ٥، ٦٢، ٧٨

(٧٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/١٠٧، ١١٥، ١٣٧، ٣٣١

(٧٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/١٢٦، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٥٠، ٣٠٥

القلقشندي: صبح الاعشى ٥/٤٦٨

(٧٦): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣/٦٨

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/١٠٥، ١٢/٢٥٠، ٣٥٠

(٧٧): الحلبي: تحفة الظرف في مناقب الملوك والخلف ٧٥٦

(٧٨): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٣

(٧٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٧١، ٩٤، ١٠٤، ١٤٢

المقرئزي: الخطط ٣/٥٢

ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ١/٣٥

ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/٣٨٥

(٨٠):

والتجهيزات اللازمة للقيام بالأعمال القتالية^(٩٢).

- حجم الجيش :

كان في عهد الملك الظاهر أربعين ألفا^(٩٣)، وبلغ عدد المماليك اثني عشر ألفا^(٩٤) وبلغ الجيش الناصري عندما فتح القاهرة وتغلب على الملك الظاهر برقوق ستين ألفا^(٩٥)، وفي زمن الملك المنصور قلاوون سبعة آلاف والأشرف خليل ابن الملك قلاوون اثني عشر ألفا، والناصر محمد بن قلاوون أربعة وعشرين ألفا والظاهر برقوق ثمانية آلاف والملوك الذين أتوا من بعده خمسة آلاف جندي^(٩٦) وبلغ حجم الجيش المركزي أربعة وعشرين ألفا من أجناد الحلقة وعشرة آلاف من المماليك السلطانية، وثمانية آلاف من عماليك الأمراء^(٩٧).

(٩٢): المقرئزي: الخطط ٥٢/٣

(٩٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٩٦/٧

(٩٤): مبارك: الخطط التوفيقية ٩٨/١

(٩٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٨٧/١١

(٩٦): المقرئزي: الخطط ١٧٤/١ وما بعدها

(٩٧): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٤

حجم الحيوش الاقليمية

الجيش	أمير كبير نائب	حاجب الحجاب	مقدم الف	أمير طيلخا	أمير ٢٠	أمير ١٠	أمير ٥	كاتب سر	ناظر الجيش	استاذان العالية
دمشق	١	١	١	٢٠		٦٠		١	١	١
حلب	١	١	١	١٠		٢٠		١	١	١
طرابلس	١	١	١	١٠		٣٠	١	١	-	١
حماة	١	١	١	٥		٢٠	١	١	-	١
صفد	١	١	١	٣		٢٠	١	١	-	١
الاسكندرية	١	١	١	-	١٢ مقدم لكل مقدم ٣٠ جندي			١	١	-
الكرك	-	-	-	-				١	١	-
غزة	١	١	١ (٩٩)	-		١٠		١	١	-
فلسطين	١	١	١	٨		٣٠		١	١	-

٩٨ الكرك : يتولاها أتابك العساكر ويقوم مقام نائب السلطان في كل وظائفه انظر ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٣٢ .

وكانت هذه المملكة قليلة الاهمية بالنسبة للممالك الاخرى ، فيما يتعلق بالامور العسكرية انظر

البخيت : مملكة الكرك ١٢٣ .

ناظر خاص	وزير	نائب قلعة	كاشف	نقيب الجيش	حجاب جنود حلقة	المعماليك	الاتابك	مقدم بريد	شاد بحر	نشماد سلاح
١	١	١	٢	١	٧	٢٠٠٠	٣٠٠٠	١		
١	١	١	١	١	٥	٦٠٠٠	١٥٠٠	١		
١	١	١	١	١	٤	٤٠٠٠	٦٠٠	١	١	
١	١	١	١	١	٤	٤٠٠٠	٦٠٠	١		
١	١	١	١	١	٤	١٠٠٠	١٠٠٠	٢		
١	-	١	-	١	٣	٣٦٠	-	-	١	١
-	-	١	١	-	٢	١٥٠	-	(٩٨)		
١	١	١	١	١	-	١٠٠٠	-	-		
١	-	١	-	١	-	١٠٠٠	-	-		

٩٩ غزة: مقدم العسكر هو الذي يتولى شؤون العسكر في غزة، ويقوم مقام العساكر: انظر ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٣٤.

كان عدد الجيوش الاقليمية غير متساو فهو في دمشق معظمه (١٠٠) وفي الكرك اقله، ويأتي جيش حلب في المرتبة الثانية بعد جيش دمشق (١٠١)، وما يذكره المؤرخون أنه كان في حلب ثلاثة أمراء برتبة مقدم ألف وثلاثون أميراً برتبة (طبلخاناة) وعشرون ضابطاً آخر وقائد القلعة الذي كان مستقلاً (١٠٢)، ولكل جيش إقليمي جهازه الخاص به وإمراؤه ومقدموه، كما أنه يلاحظ أن لكل جيش بحارته وجهازه الخاص، فهو يمتاز بمواكبه واستعراضاته وتراتيبه وبمراكبه البحرية. ليس العدد واحداً في كل زمان ومكان، فهو يتغير تبعاً للمهام المكلف بها، ولفكرة السلطان القضائية بإعادة تنظيم هذا الجيش بما يتناسب مع الامكانيات والظروف الراهنة، ففي هذا الجدول بلغ عدد الجيوش الاقليمية حوالي ٣٥٠٠ ألف أو أكثر، بما في ذلك المماليك الذين كانوا يشكلون نسبة قليلة من تعداد الجيش العام (١٠٣).

يمكن للجيش الاقليمي أن يدخل المعركة لوحده، وذلك لوجود الصنوف المختلفة من الاسلحة المتوفرة فيه في ذلك العصر، وهو بهذا يعتبر قوة مشتركة لا يحتاج إلا إلى دعم بحري حين يدخل معركة بحرية، وإلى دعم بري حين يكون عدوه أكثر منه عدة وعدداً. هناك جيوش اقليمية غفل عن ذكرها ابن شاهين الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك كجيوش حمص والقدس وما إلى ذلك، في حين أنها اشتركت في القتال مع الجيوش الاقليمية الاخرى، وصدت بعض غزوات الاعداء، كما أنها كانت تسكن في قلاع الولايات، ولها الامراء المعينون لقيادتها (١٠٤).

(١٠٠): القلقشندي: صبح الاعشى ١٨٢/٤

(١٠١): القلقشندي: صبح الاعشى ٢١٦/٤

(١٠٢): Rey- Les Colonies Franques De Syrie Aux XII Ne Siecles Pages : 143.

(١٠٣): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٤ وما بعدها ١٣١ وما بعدها.

(١٠٤): الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢٧١/٢، ٢٩٣

المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٤٦/٤

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ١/١٥٠ وما بعدها

حجم الجيوش الاحتياطية:

هذه الجيوش تبعاً عند اللزوم وهي قد توجد في كل ولاية، ويسارس الرجال فيها أعباءهم المعتادة أثناء السلم وفترات الهدوء في البلاد، وهي تنتسب إلى فئات مختلفة من المواطنين منها: العرب البدو الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة منها الطوائف التركمانية ومنها العشائر الكردية، ومنها المصريون سكان البلاد الذين يسكنون في بلادهم ومناطقهم وأراضيهم لكل فئة من هذه الفئات جيشها الذي تعدّه بما يلزم من وسائل القتال، ومن الاعتدة الحربية التي تفرض عليهم من قبل الولاة والأمراء، لهذه الجيوش تقسيماتها ووظائفها العسكرية كما في الجيش النظامي تماماً، ولها دور كبير في الحروب وبخاصة في الدفاع والحروب المحلية^(١٠٥)

لقد بلغ حجم جيش القبائل العربية ٩١ ألف مقاتل^(١٠٦)، وكان مؤلفاً من عدة قبائل، ويختلف حجم كل قبيلة وذلك تبعاً للامكانيات الاقتصادية المتوفرة، وللمهام المكلفة بها، ولعددها، وكان حجم قبيلة «قبائل» آل فضل وعرب الحجاز وعرب هواه يفوق عدد القبائل الأخرى إذ بلغ الجيش ٢٤ ألف مقاتل، ثم يأتي في الدرجة الثانية عرب الحجاز والعراق إذ بلغ ٢٠٠٠ مقاتل ثم يأتي بعد ذلك الأعراب الأخرى مثل يللمم والجزيرة ومترك والجرم وجدام والعائد ومحارب وفزاره وغيرهم إذ بلغ جيش كل قبيلة من هؤلاء ألف مقاتل^(١٠٧).

ولقد بلغ حجم جيش التركمان ١٨٠ ألف مقاتل^(١٠٨) وكان منتشراً، ومقسماً في الطوائف التركمانية التي كانت تسكن حول غرة إلى ديار بكر، وكان أشهر هذه الطوائف الأوزاية وبكرلو والبازاتية والمرعشكولار والأراكية والخرنبدليه وغيرها يشكلون جميعاً هذا الجيش الكبير الذي فيه من الأمراء خمسة وثلاثون، وكان كل أمير يقود ألفاً من المقاتلين، ولهم شدة وبأس في القتال. أما جيش الأكراد فقد بلغ ٢٠ ألف مقاتل، وأما المواطنون فكانوا يشكلون ٦٦ ألف مقاتل^(١٠٩)، إن هذه الجيوش كانت تشكل قوة كبيرة، ورفداً كبيراً للجيش النظامي ولقد كان

(١٠٥): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٥، ١٣٦

(١٠٦): ابن شاهين الظاهري: المصدر نفسه ١٠٥، ابن خلدون: تاريخه ٤٣٦/٥ ومابعدها

(١٠٧): ابن شاهين الظاهري: المصدر نفسه ١٠٥ ومابعدها

(١٠٨): ابن شاهين الظاهري: المصدر نفسه ١٠٥

(١٠٩): ابن شاهين الظاهري: المصدر نفسه ١٠٥

لها دورها التاريخي والبطولي في معركة عين جالوت، صحيح أن هذا العدد الكبير لم يشترك في القتال في تلك المعركة، إلا أن معظم القبائل شاركت بأعداد ساهمت في نجاح المعركة، وفي صنع النصر.

حجم الجيش في معركة عين جالوت:

لقد اشترك في هذه المعركة القيادات العسكرية والمؤسسات القيادية المملوكية، والتشكيلات المقاتلة النظامية، والجيش المركزي، والجيش الاقليمية، ولاسيما الجيوش المصرية والحمصية والدمشقية، والجيوش الاحتياطية بما فيها القبائل العربية والتركمان والاكراد. لكن هذه الجيوش لم تعبأ تعبئة كاملة في أعدادها الكبيرة التي مرت معنا لعدة أسباب أهمها: الخوف الشديد من الجيش المغولي الذي أدخل الرعب في قلوب العالم، ولأن هذه المعركة هي أول معركة يخوضها الجيش المملوكي الذي لم تختبر قدرته القتالية بعد، ولأن الوقت كان غير كاف لحشد العدد الكبير من هذه القوات، وما أن جاء النذير من قبل قادة الجيش المغولي، حتى أعلن قطز التحضير لهذه المعركة، وتحرك الجيش النظامي من مصر باتجاه بلاد الشام وصارت تنضم القبائل والجيوش الاقليمية والاحتياطية والسكان المحليين، ممن كان لديهم السلاح والقدرة على القتال.

قدر المؤرخون في ذلك العصر أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود ٤٠ ألف مقاتل^(١١٠) في حين قدره آخرون في حدود ٩٠ ألف مقاتل^(١١١) وفي تقديري أن حجم هذا الجيش كان بين الرقمين أي في حدود ٧٠ ألف مقاتل ذلك أن الجيش بعد المعركة مباشرة وبعد استلام الظاهر بيبرس كان في حدود ٤٠ ألف مقاتل^(١١٢) وقد انضم إليه الاحتياط، والقبائل العربية وغيرها، مما انتهى إلى هذا العدد^(١١٣)، وإن عدد الفرسان كان قليلا وفي حدود ١٠ آلاف فارس وأغلبهم من المالك وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة^(١١٤).

(١١٠): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٥/١

(١١١): Henri Laüst Les Gouverneurs de Damas Sous Les Mamlouks et Les Premiers Attomans 4.

(١١٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٩٧/٧

(١١٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٢٠٣/٤ وما بعدها ٢٠٩

(١١٤): الكتبي: فوات الوفيات ١٦٩/١

- حجم الجيش المغولي في معركة عين جالوت :

قدر عدد الجيش المغولي عندما اجتاح بغداد في حدود ٤٠ ألف مقاتل^(١١٥) في حين قدره آخرون بأقل من ذلك^(١١٦)، وفي الحقيقة أن الجيش المغولي كان قبيل المعركة الفاصلة في ١٥ ألف مقاتل، وذلك أن القوة الرئيسية من هذا الجيش تحركت باتجاه فارس مع هولاكو، وتوزعت بعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وانتهاء بالشام والجيش الذي سيقا تل في معركة عين جالوت هو القسم الذي بقي مع كتبغا حاكم الشام^(١١٧).

وكان في اعتقاد القادة المغول إن هذا العدو قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما إن له الخبرة في الحروب وسبق أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها^(١١٨). وما يؤكد على أن هذا الجيش كان في حدود ١٥٠٠٠ هو:

- تقدير هولاكو الخاطيء في مهمات الجيش المتبقي بعد انسحاب الكتلة الرئيسية إلى فارس، فهو كان لا يتوقع أن تحدث هذه المعركة وإنما كانت المهمات في نظره تثبيت وضع الاحتلال، الذي لا يحتاج إلى جيش كبير، ورد أوقع المقاومة الداخلية التي تنشأ من داخل البلاد المحتلة^(١١٩).
- تأكيد أغلب المصادر على تثبيت هذا العدد^(١٢٠) مثل جامع التواريخ وتاريخ مختصر الدول، وتاريخ الشهابي، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الزمان.

(١١٥): ابن العربي: تاريخ مختصر الدول ٢٧٩

(١١٦): الاسحقاني: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٣٢

(١١٧): الهمداني: جامع التواريخ ٣٠٨/١/٢، ٣٠٩

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٠/٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠٠/١٢

العريضي: المغول ٢٥٧، أبو الفرج بن العربي: تاريخ الزمان ٣١٦، ٣١٧

(١١٨): الهمداني: جامع التواريخ ٣٠٩/١/٢، ٣١٠

(١١٩): الهمداني: جامع التواريخ ٣٠٩/١/٢، ٣١٠

الشهابي: تاريخه ٤٣٩

العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ١٦٣

(١٢٠): الهمداني: جامع التواريخ ٣٠٨/١/٢، ٣٠٩، ابن العربي: تاريخ مختصر الدول ٢٨٠، وفي كتاب

تاريخ الصليبيين لمؤلفه الشهابي: تاريخه ٤٣٨، أبو الفرج ابن العربي: تاريخ الزمان ٣١٦، ٣١٧

- إن كتبغا القائد المغولي هو نفسه الذي لمح بعدد جيشه القليل حين طلب المدد من هولوكو، وقد أشار عليه في ذلك بعض أركانه فتردد وأثر أن يدخل في هذا العدد بالرغم من قلته (١٢١).
- إن كتبغا نوبن هو من كبار الضباط الذين يقودون تشكيلا يبلغ تعداده عشرة آلاف، وكذلك فإن (نوبن) المضافة إلى اسمه تعني عشرة آلاف (١٢٢).

٣- الوظائف والرتب الاختصاصية والإدارية في الجيش المملوكي:

الضباط في الدولة الفاطمية ثلاث فئات، فال فئة الأولى هم الامراء المطوقون بالطوق الذهبي، ويقابلهم في الجيش المملوكي متقدموا الالفوف (١٢٣) وفي الوقت الحاضر الضباط والامراء، أما الفئة الثانية فهم أصحاب القصب الفضة، ويحملونها في أيديهم، ويقابله في الجيش المملوكي أمراء الطبلخانات (١٢٤)، وفي الوقت الحاضر الضباط القادة، أما الفئة الثالثة فهم أدوان الامراء ويقابلهم في الجيش المملوكي مقدموا الجند وأمرء العشرات والخمسات (١٢٥) وفي الوقت الحاضر الضباط الأعوان.

- وظائف ديوان الجيش :

لصاحبه وظيفة عالية ومرتبة كبيرة، كما كان من قبل في زمن الدولة الفاطمية والأيوبيه (١٢٦) ومن مهمته استعراض العسكر وحيولهم وله حجاب وموظفون، يرأس هذا الديوان ناظر الجيش، يساعده في ذلك نقيب الجيش وصاحب الديوان، وللديوان كتبة ومكان الديوان في القلعة (١٢٧)، وينقسم إلى قسمين ديوان الجيش المصري، وديوان الجيش الشامي، ويتبع

(١٢١): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/٣٦٠

(١٢٢): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٢٦

(١٢٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٣/٤٨٠، ٤/١٤، ٧/١٥٨

(١٢٤): القلقشندي: صبح الاعشى ٣/٤٨٠، ٤/١٥، ٧/١٥٩

(١٢٥): القلقشندي: صبح الاعشى ٣/٤٨٠، ٤/١٥، ٧/١٥٩

(١٢٦): ابن الفرات: تاريخه ١/١٤٣، القلقشندي: صبح الاعشى ٣/٤٩٢

متز: الحضارة الاسلامية ١/١٣٠

(١٢٧): ابن بجي: تاريخ بيروت ٢٢٠، القلقشندي: صبح الاعشى ٣/٤٩٢

متز: الحضارة الاسلامية ١/١٣٠

لصاحب الديوان النائب ناظر الجيش أو مستوفي الجيش ومستوفي قطاع العرب، ومستوفي الرزق^(١٢٨)، ولكل واحد مهامه المحددة في النظام مثل مستوفي الجيش الذي يجلس بين يدي السلطان وله مقام خاص عنده، وله حاجب وخازنان ونقباء الأجناد ولكل واحد أيضا منهم عمله المكلف به ومهمته النظر في أمور الجند فيما يتعلق بمهامهم وخيلهم وحياتهم وموتهم وصحتهم وما إلى ذلك^(١٢٩).

قيل عن الديوان بأنه عربي، وقيل فارسي وفي الحالتين فإنه يدل على المرجع الذي تؤول إليه الأمور والقضايا، ويعمل فيه الكتبة المتميزون بالخدمة والدقة والاطلاع، وأول ديوان للجيش كان في زمن عمر بن الخطاب^(١٣٠) وقد تبدل اسم الديوان بكاتب السرفي أيام المنصور قلاوون ولكن وظيفة ناظره بقيت على ما هي عليه منذ تأسيس الدولة المملوكية وحتى زوالها، فهو يعين ويرفع ويفض الكتب الواردة، ويرد عليها بما يتناسب مع الذي يوجه إليه ويدققه قبل صدوره، ويؤمن تسييره بالبريد، وينظر في أبراج الحمام وأمور الغداوية، والعيون والجواسيس ويعتني بأمور المراسلين الذين يحملون الكتب، وينظر في الأمور العامة التي تعود بالنفع على الجيش^(١٣١) كما وينظر في كل ما يتعلق بحجمه وتنظيمه.

- نقيب الجيش :

رتبة لها أهميتها ووظيفة لها قدرها، وهو رئيس الحرس السلطاني يمشي وينظم العرض والاستعراض العسكري في كل المناسبات، وهو الذي يتولى إحضار أو ترسيم أو استعجال الأمير أو الجندي إذا طلب منه من قبل السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب، وإليه يتبع باقي الموظفين، هذا في بدء إحداث هذه الوظيفة، أما فيما بعد فقد تدنت قيمتها، وغدت كأنها وظيفة

(١٢٨): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٣ ومابعداها، زكي: الجيش

المصري في العصر الاسلامي ٦

(١٢٩): المقرئ: الخطوط ٤٠١/١

(١٣٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٨٩/٣ ومابعداها

(١٣١): ابن مماتي: قوانين الدواوين ٧

ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٩

القلقشندي: صبح الاعشى ١١٠/١

موجهة ضد الشعب، وذلك لما يتصف رئيسها وموظفوها من ترويع للمواطنين وأخذ أموالهم عند إحضارهم إلى السلطات المسؤولة (١٣٢).

- طبلخاناه: (١٣٣)

كانت تحت القلعة وتحتوي على عدد من الآلات الموسيقية كالطبول والأبواق والمزامير وغيرها (١٣٤)، يتولى هذه المؤسسة الموسيقية أمير من أمراء العشرات مهمته الاشراف على شؤونها، وتدريب أفرادها والاعلان عن كل مضرب بايقاع (١٣٥)، كما في رفع وتنزيل العلم في الوقت الحاضر. وقد تولى هذه الوظيفة أمراء كثير ون ولم ملاكهم الخاص من الاختصاصيين الموسيقيين (١٣٦)، وكان هؤلاء الأمراء يتولون الوظائف الخاصة المحددة لهم مثل: «الدوادار» الثاني. و «الرزدكاش» وأمير «شكا» وغيرها (١٣٧).

كان للسلطان موسيقى. وكذلك للامراء قادة التشكيلات، تستخدم هذه الموسيقى في العرض والاستعراض، وفي الاحتفالات وفي الاعلان عن الحرب، كما كانت ترافق الجيش في الحملات القتالية، وفي التحرك والمسير إلى وجهات عديدة، وفي الدعوة إلى الاجتماعات الطارئة والاستنفار، وكان لها دور كبير في إرهاب العدو في القتال، وإعادة تجميع القوات بغية تلقي مهام جديدة، وفي تقوية المعنويات والتحريض على القتال، وكان ملاك الموسيقى في الجيش المملوكي ٤٠ من «الكوسات» (١٣٨) طبول صغار و١ طبل كبير يطلق عليه الهول و٤ زمرور

(١٣٢): القلقشندي: صبح الاعشى ١٩٠/٤، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣١/٢،

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٢٠٢/٢

(١٣٣): لفظ عربي فارسي مركب من طبل وخاناه وتعني بيت الموسيقى.

(١٣٤): القلقشندي: صبح الاعشى ١٢٨/٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤١/١٠

(١٣٥): القلقشندي: صبح الاعشى ١٣/٤، ١٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٣/١٠

(١٣٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٤/٨، ابن شاهين الظاهري: المصدر نفسه ١٢٥/١١٣

(١٣٧): ابن شاهين: المصدر نفسه ١١٤

(١٣٨): الكوس: الطبل الكبير. وقيل: هي الصنوجات من نحاس تشبه الترس. يمرر احدهما على الآخر بايقاع وكانت تدق ببعضها وأصل معناها الصدمة، وكاس وكاسة وكوس لغات بالفارسية وكانت قد استعملت هذا اللفظ الدولة الايوبية التي سبقت الدولة المملوكية، وظلت هذه الكلمة تأخذ نفس معناها السابق. انظر التونجي: المعجم الذهبي ٤٨٤، الكداني: الالفاظ الفارسية المعربة ١٤٠، الحجازي: النجوم الزاهرة في

حلى حضرة القاهرة ١٢٦

٢٠٠ نغير «بوق» ويتبع لكل أمير ثلاثة أحمال طبلخاناه ونغيران ثم صار يتبع له بعد ذلك طبلان وبوقان فقط^(١٣٩)، لقد دقت الموسيقى أثناء معركة عين جالوت، وصدحت بين تلال وجبال ووديان فلسطين وفي سهل مرج ابن عامر وفي عين جالوت. لكل فئة من المتحاربين موسيقى لها إيقاع خاص بها، وكان الاعتقاد في المعارك وفي هذه المعركة بالذات التكثير من (الطبلخانات) لارهاب الجانب الآخر ورفع الروح المعنوية وشحذ الهمم والنفوس^(١٤٠) وقد اعتاد كل من الجيشين المملوكي والمغولي على استخدام الموسيقى واصطحبها في الحروب وكان للجيش المملوكي الملاك الذي خصص له، أما الجيش المغولي فقد كان معه ثلاثمائة طبال يطبلون بوقت واحد ونغم واحد، وكان صوت الطبول يطغى على كل صوت ولكن صوتها اختفى وضاع أمام صوت جلجلة السلاح وحوافر الخيل^(١٤١)، ولم يلبث أن انتهى تماما عندما هرب الطبالون وقتل أغلب الموسيقين.

- الاستادار «الاستدار»^(١٤٢)

وظيفته قبض مال السلطان والتصرف به على وجوهه المحددة من قبل السلطان، والمسؤول عن المطابخ والعاملين بها، والساعي إلى مايلزم السلطان في الاسفار والحملات، وفيما بعد صار يتصرف بالامور كوزير، وله نفوذ في كل أمور المملكة والجيش^(١٤٣)، وهو هذه الوظيفة له علاقة بالامداد والتموين في العمليات الحربية، وقد أضيفت هذه الكلمة إلى عدد من الوظائف تدل

(١٣٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٤/٨، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ١٤١، ابن حجر

العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٩٥/٩١/٣

القلقشندي: صبح الاعشى ١٢٨/٢، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

١٢٥/١١٣

(١٤٠): الناصري: مخطوطة الخيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢١٢

(١٤١): الشهابي: تاريخه ٤٣٩

(١٤٢): لفظ فارسي مركب من (استد) ومعناها الاخذ و(دار) معناها المسك

(١٤٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٥٤٧/٥، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٠/٢،

ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ٤٦/١، ١٠٨، ١٧٣

عطية: القاموس الاسلامي ٨٣/١

عليها مثل : أستاذار الصلبة والذخيرة والمالية^(١٤٦)، ويتبع لهذا الأمير عدة مستودعات ثوبية مختلفة تحفظ فيها الوسائط المادية لمدة سنة^(١٤٧)، وتوزع وتصرف بمعرفة القائد الأعلى (السلطان).

- المهندار^(١٤٨):

وظيفته استقبال الضيوف من رسل الملوك أو العربان القادمين إلى السلطان وتأمين ضيافتهم وإكرامهم وتقديم مايلزمهم^(١٤٩)، وهي وظيفة موجودة من قبل^(١٥٠)، وكأنها وظيفة تشبه المراسم والعلاقات العامة في الجيش في الوقت الحاضر.

- الجاشنكير^(١٥١):

وظيفته ذوق المأكول والمشروب قبل أن يقدم إلى السلطان أو الأمير للتأكد من أنه خال من جميع أنواع السموم ونحوه^(١٥٢).

- الأوجاقي:

وظيفته التحضير لركوب الخيل في النفر إلى الحرب والمواكب والرياضة والتدريب^(١٥٣)، وهو

(١٤٤): ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢/١٤، ٩٨، ١٢١، ١٧٨، ١٧٩

ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٦

(١٤٥): ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٨/٢٤٣

(١٤٦): المهندار: لفظ فارسي مركب من (مهمن) ومعناها الضيف و(دار) ومعناها ممسك فيكون المعنى ممسك

الضيف، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ٥/٤٥٩

(١٤٧): السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/١٣٠، ستينجاس : المعجم الفارسي

الانكليزي ١٣٥٦

Coudefroy Demombynes La Syrie a l'epaue des Mamlouks 3/63

(١٤٨): الدواداري : الدر المطلوب بأخبار بني أيوب ٧/٣٧٣، ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

٤/٦٢٦، القلقشندي : صبح الاعشى ٤/١٨٧

(١٤٩): الجاشنكير : لفظ فارسي مركب من الجاشنا ومعناه الذوق وكير ومعناه متعاطي فيكون المعنى الاجمالي

الرجل الذي يذوق انظر القلقشندي : صبح الاعشى ٥/٤٦٠، عطية : القاموس الاسلامي ١/٥٥٦

(١٥٠): ستينجاس : المعجم الفارسي الانكليزي ٣٨٦، التونجي : المعجم الذهبي ٢١٢

(١٥١): القلقشندي : صبح الاعشى ٥/٥٥٤ Dozy: Suppl. aux Die Arubes. 11. p.43

الذي يقوم بحراسة الاسير إذ يركب على فرس وييده خنجر مسلول وقد يردف أيضا خلف المعتقل من الافراد ومن الامراء أو المساجين حتى يصل به إلى المقر^(١٥٢)

- المشرف :

وهو الذي يقوم بالاشراف على صحة الطبخ ونظافته^(١٥٣).

- والساقى :

وظيفته سقي المشروب، ووضع الطعام ورفعته وتقطيع اللحم وكان رئيسهم يدعى (شاد الشراب خاناه)^(١٥٤).

- الجوكاندار^(١٥٥)

وظيفته حمل الجوكان للسلطان للعب بالكرة.

- السنجقدار^(١٥٦)

وظيفته حمل السنجق خلف السلطان.

- المرقدار :

وظيفته الخدمة في المطبخ وتأمين الطعام وحفظه وتقديمه^(١٥٧)

- البشمقدار^(١٥٨)

ويكلف بحمل نعل السلطان أو الامير.

(١٥٢): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٩٨/١، ٣٢٤/٧/٣

(١٥٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٥٤٤/٥

(١٥٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٨/١١، القلقشندي: صبح الاعشى ٥٤٤/٥

(١٥٥): الجوكاندار: لفظ فارسي مركب من «جوكان» وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويقال له:

الصولجان أيضا ومن «دار» ومعناه ممسك. انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٥٨/٥

Dozy: Suppl. aux Dic. Arabes 11.p.235

(١٥٦): لفظ تركي فارسي مركب من (سنجق) ومعناه الرمح و(دار) معناه الممسك فيكون المعنى ممسك

الرمح انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٥٨/٥. ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٩٥، تونجي:

المعجم الذهبي ٣٥٢

(١٥٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٤/٩، القلقشندي: صبح الاعشى: ٥٧٠/٥

(١٥٨): لفظ تركي فارسي مركب من «بشمق» ومعناه النعل و«دار» ومعناه ممسك النعل انظر القلقشندي: صبح

الاعشى ٥٩٩/٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦١/١٠ Dozy: Suppl. aux Dic. Arabes 11.p.91

- الجمدار^(١٥٩)

وظيفته الباس السلطان أو الامير ثيابه.

- وشاد السلاح:

وهو الذي يتولى شؤون السلاح^(١٦٠)

- والركبدار^(١٦١) والمهتار

وهو الرجل الذي يعمل في البيوت ويقوم بجيـمـع الخـدـمـات فيطـلـق عـلـيـه مـهـتـار الشـراب خـانـاه،

ومهتار الطست خاناه^(١٦٢)

- الرختوان^(١٦٣)

وهناك وظائف كثيرة أغلبها إدارية وأغلب رجالها يعملون في البيوت وفي خدمة الضباط، وبعضهم يعملون في التسليح، وفي الأموال وفي الامداد والتموين، وفي أمور الخيل والاصطبلات والمشافي، وفي المستودعات وشؤون الخزن فيها، وحفظ المواد بداخلها وإذا شئتنا مزيد من معرفة الوظائف والرتب المتنوعة والمتعددة يستحسن الرجوع إلى ابن تغري في مؤلفاته التي من أهمها النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، والمنهل الصافي. والقلقشندي: الذي جمع هذه الوظائف ورتبها وصفها في كتابه صبح الاعشى. والسيوطي في كتابه حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة الذي عرف هذه الوظائف وحددها، وابن إياس في كتابه بدائع الزهور في

(١٥٩): الجمدار: لفظ فارسي مركب من «جاما» ومعناه الثوب ودار ومعناه المسك فيكون المعنى ممسك الثوب

انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٩/٥

ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي: ٣٨٧، ٤٩٥، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٠٢/٢/١،

التونجي: المعجم الذهبي ١٩٨

(١٦٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/١٨٩

(١٦١): الركبدار «الركابدار» وجمعه الركبدارية وهم الرجال المكلفون بحمل الفاشية بين يدي السلطان أثناء

الموكب والاحتفالات انظر القلقشندي: صبح الاعشى ١٢/٧/٤

(١٦٢): المهتار: لفظ فارسي مركب من (مه) وهو الكبير وتار بمعنى أفعّل التفضيل انظر القلقشندي: صبح

الاعشى ٤٧٠/٥. ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٢٧، ١٨٥٠

(١٦٣): الدختوان: لفظ فارسي يعني الرجل الذي يتولى أوتعاطي القماش. انظر القلقشندي: صبح الاعشى

٤٧١/٥، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٥٧٢

وقائع الدهور، وابن شاهين الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وهناك المعاجم العديدة العربية منها والأجنبية ذكرت هذه الوظائف وعرفت بها وعدد مهامها ووظائفها أهمها القاموس الذهبي للتونجي، والقاموس الاسلامي لعطية، والمعجم الفارسي الانكليزي ل سينتجاس ومعجم دوزي، على أن المصادر الاخرى لا تخلو من ذكر هذه الوظائف وتعريفها.

٤ - الوظائف والرتب العسكرية في الجيش المغولي

قد تشابه الوظائف والرتب هذه مع وظائف ورتب الجيش المملوكي وقد تختلف في بعض الاحيان، إن التنظيم العشري في كلا الجيشين، إلا أن أكبر تشكيل في الجيش المملوكي هو ألف، بينما في الجيش المغولي عشرة آلاف، عند استلام الدولة المملوكية لزام الحكم في الديار المصرية أحب سلاطينها وبخاصة الملك الظاهر بيبرس أن يقلد غيره من الحكام فقلد الطريقة التترية في الوظائف والتسميات وأحدث الرتب والوظائف الكثيرة مثل أمير سلاح وأمير آخور وحاجب الحجاب، وغير ذلك من الوظائف التي نراها مشبوهة في هيكل الجيش وتنظيمه، وتعاقب السلاطين فمنهم من جدد ومنهم من ألغى ومنهم من استبدل، على أنه كانت الوظائف هي كما ألفوها منذ تأسيس دولتهم^(١٦٤).

كما يلاحظ أن النظام القيادي في الجيش المغولي هو نظام عشري، إذ يتولى القائد منهم عشر وحدات عسكرية دونه، فأمر عشرة جنود، أما أمير المئة فعنده عشر عشرات، وأمير ألف عنده عشر مئات، وأمير عشرة آلاف عنده عشرة ألوف. وهكذا تدرج القيادة من عشرة إلى عشرة آلاف أصغر وحدة وأكبر تشكيل^(١٦٥)، أما القائد العام للجيش فهو أمير الامراء كما كان قتلوشاه عند غازان وجويان عند خدانبدا، وكما كان كتبغا في معركة عين جالوت^(١٦٦)

- أمير عشرة: هو قائد جماعة، وهو أول قائد وحدة عسكرية صغيرة^(١٦٧)

(١٦٤): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٣/٢

(١٦٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦٨/٧، القلقشندي: صبح الاعشى ٤٢٣/٤

(١٦٦): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٢٣/٤، المقرئ: السلوك لمعرفة الملوك ١٧/٢/١

(١٦٧): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٢٣/٤، ابن الفرات: تاريخه ٢١١/١/٥

- أمير مئة: هو قائد فصيلة وفيها عشر عشرات من الجنود مع كل عشرة أمير، أو هو قائد سرية قتالية^(١٦٨)

- أمير ألف: هو قائد لواء. الذي يعادل أكبر تشكيل نظامي في الجيش المملوكي^(١٦٩)
- أمير عشرة آلاف: وهذا تشكيل غير موجود في الجيش المملوكي في هيكل النظام إنما يقابله تجريده التي هي تشكيل عند الحاجة، يدعى قائد هذا التشكيل في الجيش المغولي «أمير تومان» و «تومان» اصطلاح فعلي يدل على العدد عشرة آلاف، ثم تطور فاتخذ معنى الفرقة التي تتألف من هذا العدد^(١٧٠).

يتألف الجيش المغولي من عشرين تومان أو ثلاثين، إلى ثلاثمائة فيما بعد^(١٧١) ففي سنة ١٢٩٩/٦٩٨ قاد غازان القائد المغولي تشكيلا تعبونيا كبير ا تعداده مائة ألف. وعبر به نهر الفرات ليلتقي بالجيش المملوكي عند سلمية، و «قطلو شاه» كان يقود جيشا من المغول قوته مائة ألف مقاتل^(١٧٢)

ثانياً: القضاء العسكري والانضباط:

إدارة القضاء العسكري مكانها في دار العدل أو ما يسمى اليوم (القصر العدلي) وإن كان مكانها في بعض الاحيان في القصور السلطانية كان السلطان هو رئيس القضاء وهو الذي يفصل في الدعاوي المدنية والعسكرية، ويخصص لها يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع، وهو الذي يعين القضاة^(١٧٣)، تتألف هيئة المحكمة من السلطان رئيسا وعلى يمينه قضاة المذاهب الاربعة الشافعي فالحنفي فالمالكي فالحنبلي ثم الوكيل عن بيت ثم الناظر في الحسبة، وعلى يساره كاتب

(١٦٨): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٢٣، ابن الفرات: تاريخه ١/١/٥٢١١

(١٦٩): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٢٣، ابن الفرات: تاريخه ١/١/٥٢١١

(١٧٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٢٣، عطية: القاموس الاسلامي ١/٥١٥/٥١٦

(١٧١): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٢٤/٤٢٥

(١٧٢): كرد علي: خطط الشام ١٣٤، زقله: المالك في مصر ٤٦

الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢، ٣، ٤

(١٧٣): زيادة: دمشق في عصر المالك ٦٤

السر، وأمامه ناظر الجيش وكتاب الضبط^(١٧٤)، أما الوزير فيجلس بين السلطان وكتاب السر إن كان من أصحاب الأقلام، وإن لم يكن وقف مع بقية الموظفين، ويقف خلف السلطان بعض الامراء وهم المقربون ويكونون في الصف الأول ثم إمرء المشورة في الصف الثاني خلف الخاصية ثم يأتي الصف الثالث من بقية الأمراء وأما الصف الرابع فهو من الحجاب والمدعين وأصحاب الحقوق، وقد يتبدل الفصل أو جلوس هيئة المحكمة بتبدل الملوك، إذ يجلس القضاة مثلاً عن يمينه ويساره، فالشافعي على اليمين ثم المالكي، ثم قاضي العسكر ثم المحتسب وعلى اليسار الحنفي والحنبلي، وكذلك في النيابة حيث يقوم نائب السلطنة بهذا التقليد^(١٧٥).

كان القاضي العسكري يحضر مع القضاة الأربعة بدار العدل، وله مكان خاص يجلس به، ويسافر مع السلطان في حروبه^(١٧٦). وكان يسمع إلى كل خصم على حده في غياب الخصم الآخر، كما كان يستمع إلى الشهود على انفراد، وكانت المحاكمة تطول عدة أيام، حتى إذا انتهى من الوقائع والشهود أصدر حكمه في القضية^(١٧٧)، وكان القضاة، ورؤساء هيئات المحاكم والسلطان والامراء يقسمون يمين الولاء والاخلاص أمام حشد كبير من القضاة والامراء^(١٧٨).

ومن المرجح أن محاكمة كتبغا تمت على هذا النحو وكان السلطان قطز القائد الأعلى للجيش هو الذي تولى رئاسة المحكمة، وقد حضر الامراء والقضاة وتمت المراسيم المعتادة، وجيء بكتبغا إلى أمام المحكمة التي انعقدت لتحاكمه على أنه مجرم حرب، ارتكب أعمالاً وحشية ضد الإنسانية وضد البشرية سفك الدماء البريئة، وقتل الأبرياء، وحطم التراث العلمي، وقضى على حضارات برمتها، وهدم البيوت وأماكن العبادة، وروع النساء والشيوخ ويتم الأطفال. جوبه كتبغا بكل هذه الحقائق فأقرها، ولكنه كان يأنف من هذه المحاكمة، ويزدري الأشخاص

(١٧٤): القلقشندي: صبح الاعشى ١٩٢/٤

(١٧٥): المقرئزي: الخطط ٣٩/٣ ومابعداها، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٢٧/٢،

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ١٤٧/١ ومابعداها

(١٧٦): سرور: الظاهر ببيرس وحضارة مصر في عصره ١٤٠

(١٧٧): المقرئزي: السلوك لمعرفة الملوك ٦١٢/٣/٢

(١٧٨): ابن تغري بردي؛ النجوم الزاهرة ١٠/٢٥٤، ٣٠٢

الذين يحاكمونه، ويهدد بجيش المغول وهولاكو إن قتل، ويحذر رئيس المحكمة من وبال هذه العاقبة، ويفاخر برجلته وشجاعته. ويعتز بقائده الذي يتمنى أن يكون له عبداً وخادماً أميناً، واعترافاً منه بمجازره فقد طلب تنفيذ الحكم عليه سريعاً، وكان الحكم عليه بفصل رأسه عن جسده (١٧٩).

وبعد أن أعدم ثارت ثائرة هولاكو، فأرسل جيوشاً متتالية في أزمنة مختلفة للانتقام، لكنها باءت بالفشل، وردت على أعقابها خاسرة ذليلة ولم تتح له الفرصة الكافية للخلافات التي حصلت في بلاده، وبسبب وفاة بعض الأمراء الذين كان يعتمد عليهم في الحروب (١٨٠). لقد أبدل المهاليك القوانين المستوحاة من الشريعة الإسلامية بقوانين المغل التي وضعها جنكيزخان (الياسة) ثم حرفوها إلى (سياسة) وبذلك فقدوا أمور العدل والقضاء، وكان ذلك سبباً في انهيار دولتهم وذهاب ريحهم (١٨١).

وكان من العقوبات السجن، وكان يسجن الشخص أو العسكري في حال ارتكابه جريمة يعاقب عليها القانون سواء مصدرها وظيفياً أو سياسياً، وقد انتشرت السجون في أماكن مختلفة من البلاد، واختص قسم منها بالعسكريين والأمراء، واختص القسم الآخر بالجرائم العادية أو السياسية وأغلب السجناء كانوا يسجنون في القلاع مثل قلعة الكرك، وبانياس «الصبيبة» وقلعة دمشق (١٨٢)، وفي الجب الذي كان داخل قلعة الجبل الذي كان مظلماً يكثر فيه الجرذان والحشرات، وتنبعث منه رائحة كريهة. وفيه رطوبة، يحبس فيه الأمراء والمقدمون (١٨٣)، والبرج الذي يزج فيه الأمراء أيضاً (١٨٤) خزانته التي كان يسجن فيها من كان محكوماً بالقتل أو قطع

(١٧٩): الهمذاني: جامع التواريخ ٣١٣، ٣١٠/١/٢، تاريخه ٢١٤/١/٢ وما بعدها.

(١٨٠): متر: الحضارة الإسلامية ١٨٦/٢ وما بعدها

(١٨١): مبارك: الخطط التوفيقية ١٣٧/١

(١٨٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦٨/١٠، ١٢/١٠٠

(١٨٣): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٠٢/٢/١

(١٨٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٣/١٠

اليد^(١٨٥) و«الزردخاناه» الذي خصص للأمراء وأرباب الوظائف وقادة الجند^(١٨٦)، وحبس الصيار الذي يحبس فيه الولاة، وخزانة البنود في القاهرة، وكانت خزانة لصنع السلاح ثم انقلبت فيما بعد إلى سجن للأمراء والأعيان، وسجن المعونة في القاهرة وكان معدا لسجن الاشخاص الذين ارتكبوا الجرائم الكبيرة وقطع الطرق وهو ضيق لاتكاد تتسع الحجرة منه إلى شخص واحد، تنبعث منه رائحة كريهة، والمقشرة بالقاهرة بجانب باب الفتوح وهو سجن ضيق غير صحي يسجن فيه من كان مدانا بجرائم شائنة^(١٨٧)، وكان السجين يلبس لباسا خاصا مميزا، هو عبارة عن قميص واسع الكمين طويلهما، قصيرا، مسدود الصدر، وهو كالقباء في شكله ويضرب بخيط الحرير، ويزر بأزرار، ويلبس فوق الثياب، ويغلب على لونه البياض، وكانوا يطلقون عليه «الملوطة»^(١٨٨).

لاشك أن قوة الجيش في انضباطه، وتقل العقوبات وتتنى خطوط بياناتها فيما إذا حافظ الجندي على النظام والطاعة، والتزم بتنفيذ الاوامر المعطاة له، ويفضل دائما الانضباط الطوعي عن الانضباط القسري، فالاول كان يتحلى به الجيش المملوكي، والثاني كان يتصف به الجيش المغولي.

لقد كان الجيش المملوكي عقائديا، مقتنعا بعدالة قضيته، مستجيبا للنداء الذاتي النابع من صميم قلبه، مدركا لعظم المسؤولية التي حملها منذ تأسيسه، قادرا على مجابهة الاخطار التي تحيط به، مبدعا في تنفيذه الاوامر المعطاة له، واضعا نصب عينيه تحقيق الهدف الذي يصبوا إليه، واثقا من رؤوسائه، مؤمنا بالله ورسوله وهذا مايجتم عليه الانصياع للاوامر المعطاة له، موحدا المفاهيم القتالية التي تتعلق بفرضية الجهاد ومقابلة الاعداء صفا واحدا دون تأخير أو تردد، توجه هذا الجيش للمقاء عدوه في معركة عين جالوت وهو موقن بالنصر منسجم في قياداته

(١٨٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/١٦، ٢٨، ٢٩

(١٨٦): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٣٠٦

الصبر في: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٢/١٦٤

(١٨٧): المقرئزي: الخطط ٢/١٨٨

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٠/٢٨

(١٨٨): الملوطة: كلمة يونانية (Menout) انظر رحلة ابن بطوطة ٣٨٨. الزبيدي: تاج العروس ٥/٢٨

ومروء سبيه (١٨٩)

أما الجيش المغولي فقد كان عسكره أصحاب بأس وقوة ومنعة ورجال حرب وتدمير، وأبطال الصحارى والجبال، وأهل ثبات وتصميم، فكانا أول الجنود في العالم بالانضباط والطاعة لرؤسائهم (١٩٠)، وبمجرد سماعهم أمر رئيسهم كانوا ينفذونه ولو أدى هذا التنفيذ إلى قتلهم أو تعذيبهم (١٩١). وما زاد في انضباطهم تلك القوانين القاسية والصارمة التي تجعل الجندي يلتزم بالطاعة. فإن عصى فإنه عليه الجزاء الأدنى، فلا رحمة ولا شفقة أبدا، إن كتاب (إلياسا الكبير) شرح معاني الانضباط والعقوبات المترتبة على المخالفات المرتكبة والمحددة في هذه النصوص والفصول (١٩٢)، إن من شذ عنها أو انحرف فيستعرض إلى عقوبات رادعة حتى ولو كان قائدا كبيرا. فقد حاكم هولاكو قائده جيشه الكبير بانجوين بالرغم من الانتصارات التي حققها في بلاد الروم بسبب عدم تمكنه من اتمام فتحها والوصول إلى بغداد في الوقت المحدد، فجاءه طائعا منقادا لأوامره وقال: «فأنا بكل ما يأمر به عبد مطيع ومنفذ لأوامره» (١٩٣).

ليست القوة والشدة في الانضباط قوة، كما أن التساهل يسيء ويصرف العسكريين عن مهامهم الأساسية. فالتشدد يعطي مفعولا سلبيا يذهب بالجنود والمرؤ وسين إلى كره رئيسهم والانتقام والتخلص منه. وهكذا كان بعض قادة الجيش المغولي والمملوكي إذا كان أتباعك العساكر يشد ويضيق على مروء سبيه، ومحاسبهم على هفواتهم أشد وأقسى من نوع الجرم المرتكب مما سبب في كرهه والتأمر عليه وقتله في بعض الأحيان (١٩٤).

إن خرق الانضباط يعد كارثة تحل بالجيش، فلقد انتصر الجيش المملوكي بفضل انضباطه في معركة عين جالوت، ولكن مالبث أن نسي الانضباط وتفشت فيه الفوضى وعدم إطاعة

(١٨٩): ابن صاعد: طبقات الامم ٨، القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٥٨٨

الرمزي: من تليفق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ١/٣٥، المزايي: تاريخ العراق ٥١/١

(١٩٠): أسعد: بولبول ١١

(١٩١): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٣١٣، ٥٠

(١٩٢): القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول ٢٨٤

(١٩٣): الهمداني: جامع التواريخ ٢/٢٦١

(١٩٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٣٦

المرؤوس لرئيسه. وتطاوله عليه في بعض الاحيان، والضغط عليه، حتى لا يجد القائد مفرا من مسايرة مرؤوسيه على حساب الانضباط^(١٩٥)، فكثير الترفيع على غير الاسس المحددة، ويرقى الجندي إلى قائد، وغدا الاجير اميرا^(١٩٦)، مما سبب في كثرة الاختلافات والاقتتال بين المماليك أنفسهم وانقسموا إلى فرق وأحزاب، وهمت كل فرقة أو تشكيل برئيسهم وقائدهم، فانتشر النهب والسلب والهرب من الجيش^(١٩٧).

ثالثا: المراسم والعلاقات العامة

هي الاجراءات التي تقام للسلطان أو للامراء أو لقادة الجند احتفاء بهم. والمراسم التي تقام لضيوف المملكة. والتشريعات التي تقدم لاصحاب الوظائف والرتب العسكرية، والمظاهر التقليدية عند اللقاء في المعارك القتالية. وعند العرض والاستعراض^(١٩٨).

- مراسم تولية السلطان وخلعه:

في اجتماع يضم الخليفة والقضاة والأعيان يقوم الخليفة بالقاء (خلعة السلطنة) السوداء^(١٩٩)، ثم يقوم الامراء بالخلف له^(٢٠٠). ويتم خلع السلطان وعزله من قبل الامراء^(٢٠١). وفي بعض الأحيان يتفق الامراء على سلطنة ملك، ثم يحضرون الخليفة لكي يفيض عليه الخلعة، ثم تأخذ شكلها القانوني بحضور القضاة^(٢٠٢)، وأحيانا أخرى يقوم أحد الامراء المتنفذين مثل «أتابك العساكر» فيخلع سلطانا وينصب آخر. وينقسم الامراء فريق مع السلطان المخلوع،

(١٩٥): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٦/٣، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٥٩

(١٩٦): ابن إياس: المصدر نفسه ٢٦٣/٣ وما بعدها

(١٩٧): ابن إياس: المصدر نفسه ٣٢٣/٣، ٣٦٣، ٣٧٥، ١٧/٤

القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ٢٠١

(١٩٨): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٤١/١، هندي: الجيش العربي في عصر الفتوحات ٤٩،

هل: الحصار العربية ٨٥

(١٩٩): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١٢/٢

(٢٠٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/١١

(٢٠١): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٦/١١

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢١، ٤٣٥، ٦٥٤

(٢٠٢): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٢٤/١١

وأخر مع السلطان الصاعد (٢٠٣).

وفي أمور استثنائية قد يخلع الملك نفسه للضجر الذي يصيبه، وللشدة التي يتلقاها وللضغوط الكثيرة من خاصيته ومماليكه (٢٠٤)، وبعد هذا يقوم الأمراء بالسير أمام السلطان الصاعد حتى يصلوا به إلى قصر السلطنة «الايوان» فيجلس على كرسي الملك، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه ويحلفون (٢٠٥)، ترى كيف استلم قطز السلطنة وهل أجريت له هذه المراسم؟ فلقد كان قائد معركة عين جالوت مملوكا، وتدرج في معارج الوظائف حتى وصل إلى «أتابك» وقبيل المعركة عزل السلطان الصغير المنصور علي ونصب نفسه ملكا، ثم أجريت له المراسم المعتادة، واستلم الحكم وقاد الجيش في أشرس معركة مع المغول (٢٠٦)، وما يشار إليه أن الخليفة لم يكن بعد قد حضر إلى مصر، أي أن الاجتماع كان خال من الخليفة، وماعدا ذلك فإن المراسم كانت كاملة عند تنصيبه، ذلك أن هذه التقاليد ورثها المماليك من الأيوبيين واستمروا في أدائها (٢٠٧).

إذا سار السلطان إلى الحرب أو إلى الميدان أو إلى حفل أو عيد، أو إلى صلاة جمعة، أو إلى صيد، أو ركب إلى الربدانية، أو لعب الكرة، أو كسر النيل أو دوران المحمل، أو دخل القاهرة، أو مدينة من المدن، أو جاء من سفر، اتخذ من الزينة أحلاها، ومن الخيل جنائبها، ومن العتاد المزركش المذهب أجوده، ومن الحرير أزهاره وأنفعه، يغلب عليه اللون الأصفر، ومن الأديم المزركش أقواه، ومن الكوفيات المذهبة أحسنها، يسير السلطان في وسط الموكب على فرسه المزينة بأحسن زينة، يحف به الأمراء وأصحاب الوظائف والحرس (٢٠٨)، يسير أمام فرسه فارسين على حصانين يشبهان في زيتهما الفرس الذي يركبه السلطان وهما احتياطيان معدان

(٢٠٣): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٣٧/١١

(٢٠٤): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٣٤

(٢٠٥): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ١١/١٤٩، ٢٠٧

(٢٠٦): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٥٥/٧

عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ١٦٧

ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر ٢٩٧/٢

(٢٠٧): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٩٧/٢/١

(٢٠٨): ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ١٥/٢

لركوبه . وأمامه حامل السرج وعلى رأسه «العصانة» ومن حوله وأمامه «الطبردارية» (٢٠٩) مشاة يحملون الاطبار، وهؤلاء مقدم مسؤول عنهم (٢١٠) . وأمام السلطان فارس يلعب بشبابة، ومن خلفه الجنائب (٢١١)، وفي نهاية الموكب يقوم بتوزيع الهدايا والخلع على الامراء، من الاقبية المطرزة والمزركشة والصوفية وغيرها، كل حسب رتبته ووظيفته، كما يرافق السلطان (القائد الاعلى للجيش)، النقارات (الكوسات) يحملها عشرون بغلا على كل بغل ثلاث، لها صوت جميل ناعم، وتسير اثنين اثنين بصف منتظم جميل (٢١٢)، كما ترافقه الصناصم والدبابيس ولتوت الحدي، وستائة حربة، وثلاثمائة درقة يحملها ثلاثمائة عبد سود كل عبد يحمل حربتين ودرقة واحدة، وستون رمحا بطول سبعة ذراع يحملها جنود يطلق عليهم (السريية) يقتلونهم بأيديهم اليمنى، ومائة درقة أخرى غير التي ذكرت وهي أخف من الاولى، ومائة سيف يحملها مائة رجل راجلين بيد كل واحد درقة وسيف، وعشرة سيوف يقال لها: «سيوف الدم» وتكون في مؤخرة الموكب، ومهمتهم ضرب أعناق من يأمر الخليفة بضربه، أما الاسلحة المرافقة للامراء وأصحاب الوظائف فتكون كثيرة وتسير مع الموكب كلها (٢١٣).

- المرافقة والحراسة :

كان يرافق الملك، أو الأمير، أوقائد التشكيل في القوات المسلحة المملوكية كثير من الممالك مهمتهم مرافقة السلطان أو القائد وحمايته وحراسته وخدمته، ويكون عددهم تبعا لوظيفة ورتبة المرافق (٢١٤)، ومن الذين يمكن تصنيفهم مع هذه الفئة الذين يحملون نعل السلطان أو الأمير

(٢٠٩): الطبردارية: جماعة من الأكراد من ذوي الاقطاعات والامرة، يحملون الفؤوس أمام السلطان عند ركوبه في المراسيم. انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٨/٥، ٤٦٢، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٢٨/٣، ابن الفرات: تاريخه ٢٩٥/٢/٩، المقرئ: الخطط ٢٥/٣

(٢١٠): تسير شفيق: تاريخي سلاطين الممالك ١٨٩

(٢١١): المقرئ: الخطط ٢٤/٣ وما بعدها

Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages: 9/248,249.

(٢١٢): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٥/٣

(٢١٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٤/٣

(٢١٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢/٤، ٨٩٦٣، ١٧٧، ٢٣٦

المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٣/١/١

ويطلق عليهم «البشمقدار»^(٢١٥) كما يقوم بخدمة هؤلاء «البازدار»^(٢١٦)، وخادم الطير وهو الذي يقوم بتأدية جميع خدمات الطيور من طعام وسكن ومعالجة طبية وغير ذلك^(٢١٧) والطلب (الاطلاب) وهو الحرس الخاص الذي يشكل مع زملائه مجموعة عسكرية تبلغ مائتي فارس وهذا اللفظ كردي استخدم في أيام الدولة الأيوبية، وجاء معناه أيضا الفوج الذي يبلغ تعدادة مئة من المقاتلين^(٢١٨)، وخاصة السلطان أو الأمير وحاشيتهما المقربين إليه وهم الذين يتولون الأعمال الهامة والخاصة في البيت وخارج البيت^(٢١٩) - التشریفات الملكية والمراسم:

عندما يقدم إلى البلاد رجل كبير، أو سلطان عظيم، أو أمير معروف من خارج المملكة كانت تقام له الحفلات في دار الضيافة «الايوان» وتصرف عليه الاموال الكثيرة، وتغدق عليه الهدايا الكبيرة، ويقدم له الطعام الفاخر والشراب اللذيذ، ويقصد به أمكنة جميلة للاطلاع عليها، والتفرج على عمرانها وطبيعتها^(٢٢٠)، يقام له عرض عسكري واستعراض عند قدوم الضيف وعند توديعه مكان قوام هذا العرض من «الاطلاب» الذين نظمهم الملك في أحلى تشكيلة عرضية، وألبسهم أفخر اللباس، وقدم حرسه «أطلابه» على بقية الحرس فجعلهم في المقدمة، ثم حرس الامراء ميمنة وميسرة وقلبا وجناح أيمن وجناح أيسر، ثم أعقب بعضهم بعضا في رتل منسق، ثم أمر الموسيقى فدقت طبولها، وأرسلت مزاميرها، ثم ابتدأ عرض

(٢١٥): البشمقدار: لفظ تركي فارسي مركب من «بشمق» ومعناه النعل و«دار» ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك النعل انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٤٥٩/٥

(٢١٦): البازدار: لفظ عربي فارسي مركب من باز وهو الطير ودار وهو ممسك ومعناه حامل الطير. انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦٩/٥، سينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٩٥

(٢١٧): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦٩/٥، ٤٧٠

(٢١٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢٩/١، ٢١٨، ٦٩/٠

الحجازي: النجوم الزاهرة فيحلي حضرة القاهرة ١٢٥

تسيرتشتين: تاريخ سلاطين الممالك ١٢٥

(٢١٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ١٢/١٧٥، ٢٧٣، ٢٨٥، زكي: السلاح في الاسلام ١١

(٢٢٠): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٤٦/١٢، ٥٣

المراسم حتى لتشهد أنه من أحسن وأجمل العروض العسكرية^(٢٢١)، كانوا يتباهون بالزينة، ويفتخرون بالحلي والمتاع، ويهتمون بالمظاهر الخارجية، وبالتقاليد العسكرية وبيالغون في الصرف على أعتدتهم الحربية^(٢٢٢)، كانوا في ذهابهم إلى حروبهم كذهابهم إلى عرض واستعراض فلقد طلع الجيش المملوكي في معركة عين جالوت في عرض لفت انظار القادة في الجيش المغولي فلمعت سيوفهم وشاراتهم، وأعطت شعاراتهم (رنوكهم) منظرا جميلا أخذا وتقدموا نحو القتال وهم في أحلى حلة وأجمل ثياب، ترافقهم الموسيقى التي ترسل نفحات الحرب وويلات اللقاء وصيحات الرعب^(٢٢٣)

- مراسيم استقبال وتوديع الجند والقائد :

يقوم السلطان «القائد الاعلى للجيش» بتوديع الجند الذين يذهبون لقتال العدو في مكان التجمع بالربداية بالقرب من القاهرة، ثم يقوم باستقبالهم عند انتهاء العمليات وقدمهم إلى البلاد^(٢٢٤) هذا فيما إذا لم يكن القائد العام قد نفر مع الجيش، أما إذا كان مع الجيش كما في معركة عين جالوت، فإن المواطنين والمتخلفين لأسباب ضرورة يقومون بتوديع الجيش، ويظهرون ابتهاجهم، ويرفعون أصواتهم بدعاء النصر، والعودة بالسلامة، لقد بذل الشعب مافي يديه وأنفق مافي وسعه، وبارك للجيش وقائده عندما خرج للقاء الجيش المغولي^(٢٢٥). ولما أسفرت تباشير النصر وتغلب الجيش المملوكي في هذه المعركة عاد قطز القائد العام فاحتفى به الشعب أيضا إحتفاء، ونصبت له الزينة وأقواس النصر، وعم الفرح جميع البلاد^(٢٢٦)، ومن

(٢٢١): ابن تغري بردي : المصدر نفسه ٥٤/١٢

(٢٢٢): ابن تغري بردي : المصدر نفسه ٦٣/١٢، ٦٧

(٢٢٣): الشهابي : تاريخه ٤٣٩

Magazine Orientalia Vol. IV, 366.

(٢٢٤): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٣/٣، ٤٣

(٢٢٥): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي من الولاة والسلطين ١٢٥

Henri Zaoust; Les gouvernurs Damas Sous Les Mamlouks Les Premier

(٢٢٦): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٦١/١

ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٧/١

العادة المتبعة إذا خرج الجيش في مثل هذه الحالة لم يتخلف فارس واحد، وكذلك كان يبرس في معاركه التي تلت ينفر معه الجيش والشعب نفرة رجل واحد^(٢٢٧).

- استعراض الجيش :

يجري استعراض الجيش من قبل القائد الأعلى ، ومن قادة التشكيلات كل على مستواه ، وهذا الاستعراض إما أن يكون تدريبيا كما كان يجري في أيام المواجهة ، والغاية من تفقد عدد الحرب ، والتأكد من جاهزيتها ، وتماها ، وزيادة نشاط العسكريين وحثهم على اقتناء السلاح ، والمحافظة على الانضباط وكان يتبدى من طلوع الشمس ويبقى حتى غروبها ، وكان كل أمير مع جنوده في لباس الحرب الكامل ، يركبون الجناث ويمرون أمام السلطان ، وكانت تشكيلة العرض مرتبة خلف بعضها بترتيب خماسي ثم عشري كما في تشكيلات العرض المختلفة في الوقت الحاضر ، وبعد انتهاء العرض ينزل السلطان من المنصة ويسير بين الجنود ويستعرض تشكيلا تشكيلا حتى ينتهي إلى آخرهم ، عرض جميل ، وما يزيد في جماله تلك الخيول التي كانت تزين بشرط في صدرها ، والأسلحة الحربية المذهبة التي على ظهرها^(٢٢٨) ، وأما أن يجري الاستعراض قبيل المعركة وتكون الغاية منه الوقوف على حقيقة وواقع العسكريين واستكمال النواقص ، وتنظيم القطعان والتشكيلات^(٢٢٩).

- الرايات والأعلام :

ترافق الجيش في المناسبات العديدة ، وبخاصة عند خروجه إلى الحرب ، وهي التي يتخذها السلطان والقادة والعسكريون لظهور هيبتهم وإرهاب عدوهم ، وزرع النخوة والشجاعة في نفوس جنودهم ، ومرؤوسهم من قادتهم الذين تحت إمرتهم ، وتقرير مبدأ التنافس في الحرب ، والاستماتة لحماية راياتهم وأعلامهم^(٢٣٠) وأهمها :

(٢٢٧) : ابن تغري بردي : المصدر نفسه ١٨٢/٧

(٢٢٨) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٥١٧/٢/١

(٢٢٩) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٥/٩

هل : الحضارة العربية ٨٥

(٢٣٠) : ابن خلدون : تاريخه ٢١٥/١ ، ٢١٧

- الرنك :

اعتاد ملوك وأمراء الدولة المملوكية على اتخاذ شعار لهم اعتبروه رمزا لهم، يمثل الماضي التليد، والصفات الحربية للمقاتل الذي كان يفتخر بالشجاعة والاقدام، كما يمثل الأعمال التي تسلمها، وكانوا يطلقون عليه اسم (الرنك) ولعل هذه «الرنوك» استوحيت من الايوبيين الذين حكموا مصر قبل المملوكين، أو من الافرنج الذين أتوا به من بلادهم^(٢٣١) لقد تضمنت صورا مختلفة أهمها: السيف والبقجة ونعل الفرس والطاولة والعلم والابريق والعصا والطليل والكأس، فمنها ما يحتوي على صورتين في أول الأمر، ثم إلى تسع فيما بعد، وأحيانا تكرر الصورة نفسها كما في رنك «أتابك العساكر» ومرداش الظاهري، ويشبك الشعباني أو ثلاث أو أكثر، على أنه في كل الاحوال فإنها تدل على تاريخ السلطان أو الامير فالذي كانت وظيفته أمير آخور مثلا كان «رنكة» يحتوي نعل فرس، والجمدار بقجة والسلاحدار وهكذا^(٢٣٢) . . . ينقش هذا الشعار على الاعلام والرايات والسلاح والاثاث وكل شيء يعود ملكيته لهذا القائد. وها قد أقبلت (رنوك) قادة الجيش المملوكي وهم يتقدمون نحو الجيش المغولي عند طلوع الشمس، وقد شاهدها كتبغا قائد هذا الجيش الذي كان يرقب المعركة^(٢٣٣)، وكان «رنك» الظاهر بيرس قائد الطليعة تظهر عليه صورة أسد التي تدل على بطولته وشجاعته^(٢٣٤) وقد اعتاد هذا القائد على أن يكون هذا الشعار موجودا على كل التماثيل والحاجيات الخاصة به، إذ أقام أربعة تماثيل أسود على قطرة الخليج بالقاهرة^(٢٣٥).

- السنجق^(٢٣٦)

وهي راية صغيرة أصغر من العصابة والجاليش، ترفع هذه الاعلام (الرايات) الثلاثة فوق

Roy- Les Colonie Franques De Syrie Aux XII Mees XIII me siecles Pages 51 (٢٣١)

طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٣٢٤ وما بعدها

(٢٣٢): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣: ٢٣، ٤٣

(٢٣٣): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٥

Henri Zaoust; Les gouvernurs Damas Sous Les Mamlouks Les Premier

(٢٣٤): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٦١، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ٣٠٧

(٢٣٥): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٧/ ١٨٢

(٢٣٦): السنجق: لفظ تركي يعني «السرمد» انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٢/ ١٢٨، ٥/ ٤٥٨،

سيتنجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٩٥

رأس القائد الاعلى أو قادة التشكيلات وهذه الراية تكون في أعلى الرمح وهي خاصة بالامراء (٢٣٧).

- الجاليس (٢٣٨)

هو العلم الذي أصغر من العصاة وأكبر من السنجق، وهو من الحرير الابيض تعلو خصلة من الشعر.

- العصاة جمع عصابات:

وهي اللواء في أعلى الرمح، وقد جاءت من عصاة الرأس، وهو أكبر من الراية، وكان قائد الجيش أو من يتدبه هو الذي يحمله في الحروب والمراسم، أما في العصر المملوكي، والعصر الذي سبقه فكان يحمل فوق رأس القائد (٢٣٩).
- الجتر:

كلمة فارسية وتعني القبة والطير، وتعني المظلة أو الخيمة، وهي من حرير أصفر، في أعلاها هلال من ذهب، تعلق على رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك «القائد العام» (٢٤٠) وقد استخدمها الايوبيون من قبل هذا الاسم، ولهذا الغرض (٢٤١) وهي تحمل في جميع المناسبات التي مر ذكرها.

- العاشية:

هي سرج من جلد موشاة بالذهب، وهي التي تحمل أمام السلطان من قبل الركبدارية

(٢٣٧): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١٢/٢/٣٤٤، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٢٥/٤، أبوشامة: كتاب الروضتين ١٦٨/١

(٢٣٨): الجاليس أو الشاليس كلمة تركية معناها المقدمة - انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٢٩، التونسي: المعجم الذهبي ٢١٣، وقد يأتي معناها لاسم الرجل الذي يتولى قيادة المقدمة، أو مقدمة الجيش (الطلية) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١١/١٥٦/١٧٧

(٢٣٩): القلقشندي: صبح الاعشى ٢/١٢٨، الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٢/٦٧، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٤٤٣

(٢٤٠): القلقشندي: المصدر نفسه ٢/١٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٤/١٤٩، الكداني: الالفاظ الفارسية العربية ٣٨، تونجي: المعجم الذهبي ٤١١

(٢٤١): المقرئزي: الخطط ٣/١٥، ابن الساعي: الجامع المختصر ١٧٣

«الركابدارية» في المناسبات ولاسيما في العرض والاستعراض^(٢٤٢)، وهناك (القبة) وهي التي تعلق رأس السلطان المطرزة بأطلس أصفر مزركش^(٢٤٣) و(الطير) ويكون في أعلى المظلة^(٢٤٤).

- لواء الحمد :

هما رحمان طويلان ملبسان بأنابيب من ذهب إلى القاعدة وفي أعلاهما رايتان من الحرير الأبيض ملفوفتان على الرمحين، وهما خاصان بالموكب السلطانية^(٢٤٥)

- رحا الأهلة :

وهما رحمان برؤ وسها أهلة من الذهب، ملبسان بالديباج الأحمر والأصفر، يخرجان من طارة مستديرة، يحملها فارسان صغيران أثناء المناسبات^(٢٤٦).

- الراية :

مستطيلة : عرضها ذراع ونصف، وطولها ذراعان، فإذا كان السلطان في استعراض كان عدد الرايات إحدى وعشرين يحملها أحد وعشرون فارسا من الفرسان الخاصكية «صبيان الملك» يركبون على بغال، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك أربعمئة راية مرقومة الاطراف ترافق الموكب^(٢٤٧).

من التنظيم أيضا الشؤون الشخصية التي تعني بالفرد ويتطوهر فيها يتعلق بتطويعه وخدمته في القوات المسلحة، والترقي والمكافآت والعقوبات والاجازات وما إلى ذلك ففي الترقية كان ينظر إلى الخاصكية، الذين خدموا مع السلطان إذ يرفعون بسرعة إلى المراتب العليا^(٢٤٨)، والجنس فمن كان تركيا في العصر الأول رفع بسرعة، ومن كان شركسيا في العصر الثاني رفع

(٢٤٢) : القلقشندي : صبح الاعشى ١٧٢/٢، المقرئزي : الخطط ٢٥/٣، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة

في ملوك مصر والقاهرة ٢٦٥/٨، ٧٩/١٠

(٢٤٣) : السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٢٨/٢

الكلداني : الالفاظ الفارسية المعربة ١٢٣

(٢٤٤) : المقرئزي : الخطط ٢٥/٣، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٦/١٠، ٧٩

(٢٤٥) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٣/٣

(٢٤٦) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٣/٣

(٢٤٧) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٢/٣، ٤٧٤

(٢٤٨) : ابن تغري بردي : المنهل الصافي ٤٠٥/١ . القلقشندي : صبح الاعشى ١٥/٤

بسرعة^(٢٤٩)، «والخشداشية» وهي الزمالة وهي التي إن رفع منها واحد رفع زملاؤه الذين كانوا معه^(٢٥٠)، فالسلطان يبهرس الجاشكير عين نوابا له في نيابة دمشق لأنهم من زملائه^(٢٥١)، والصورة الجميلة التي تدفع بصاحبها بعد أن يرقى قبل غيره^(٢٥٢)، وإلى البطولات الحربية فكان عندما يقوم الجندي بعمل يدل على الشجاعة كان يرقى إلى رتبة أعلى، ففي معركة عين جالوت أقدم الجندي آقوت الشمس على قتل كتبغا قائد الجيش المغولي فرقي إلى مرتبة الضباط، وكذلك عندما هاجم الظاهر بيهرس انطاكية تمكن أحد الجنود من أسر أحد القادة الروم فأنعم السلطان عليه بترقية إلى أمير عشيرة^(٢٥٣)، وأبى قلاوون إعطاء ابنه إقطاعية لأنه لم يشارك في القتال^(٢٥٤)، لم تحدد المدة للترقية بين رتبة وأخرى. إنما يمارس العسكري مدة قصيرة في رتبته الحالية ثم يرقى إلى الأعلى، وهكذا في غضون بضعة سنوات يصبح أمير ألف، فالمملوك مامش المحمدي بقي يتدرج حتى وصل إلى مقدم ألف في غضون ثنائي سنوات^(٢٥٥)، لم يكن الترقي إلى الوظائف العليا نتيجة خبرة أو أهلية أو تدريب، وإنما صار يرقى العسكري في العهود الأخيرة من الدولة المملوكية نتيجة تقربه من السلطان أو الأمراء، أو دفعة واحدة أو يرقى «اللحام» (الجزار) من وظيفته هذه إلى ناظر الدولة مرة واحدة. حيث خلع لباس السوق «الزفورية» و«المرقدارية» كما كانوا يطلقون عليه، ولبس لباس رؤساء الكتاب، لالعمل عمله، أو لتضحية قدمها، أو لعلم تعلمه وإنما حصل عليها بكثرة دفع المال، وتقديم الاطباق الشهية للملوك والأمراء وصار يدعى بالوزير والقاضي بعد أن كان يدعى بالمعلم الذي لا يحسن القراءة والكتابة^(٢٥٦)، أما الاجازات فكانت تعطى دون نظام أو تقييد^(٢٥٧)، وأما المكافآت فكانت

(٢٤٩): ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢٤٢/١، ٤٥٦، ٩٢، ٢٥/٣

(٢٥٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٦٨/١، ٤٢/٧، ١٨١/٨

(٢٥١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٤٢/٨

(٢٥٢): ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٣، ٥٧٧

(٢٥٣): العيني: عقد الجمان ٥٥/٥٢٩

(٢٥٤): المقرئ: الخطط ٣١/٣٥١

(٢٥٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٢٢/٦، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ١٨٩/٢

السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٣/٣٠٨

(٢٥٦): الحلبي: تحفة الظرف في مناقب الملوك والخلف ٧٧١، ٧٨٠ وما بعدها

(٢٥٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٠٩/٦، ١٨٩

تعطى لمن قام بعمل مجيد تجاه السلطان أو في الحرب أو في التدريب (٢٥٨).
إن التنظيم في الجيش كان غير مترابط إذ أن كل أمير له عدد من المماليك يتبعون له مباشرة، وكانوا غير مرتبطين بسلم القيادة، وحين تدق «الكوسات» يجتمع الامراء مع جنودهم، ويقا تل بهم، وعليه تدريبهم وتهيئتهم للقتال، كما وعليه إطعامهم والاشراف على شؤون حياتهم وكان الجنود غير مشدودين إلى رئيسهم من الناحية العسكرية إلا بمقدار ما يقدم لهم من مزايا، إذا لما يتضايق المملوك كان يفر من قائدة ليلتحق بآخر يؤمن له ميزات أفضل (٢٥٩).

لقد كثر القادة والامراء، وازداد عددهم نسبة إلى عدد الجنود الذين تحت إمرة الضباط، وبخاصة في أيام الاختلافات والانقلابات إذ ينعم قائد الانقلاب على الجنود وعلى الامراء بمزايا كبيرة، مما أخل في البنية التنظيمية في الجيش . . . وفي بعض الاحيان زاد رؤوس النواب على عشرة (٢٦٠)، وقد بلغ أمراء الالوف فيما بعد ٢٤ أميراً في حين كان عدد المماليك ٢٤٠٠ فارساً (٢٦١)، فالزيادة إما أن يكونوا نوابا للقادة وهذا غير ممكن، أو يكونوا بدون عمل، فالمهم عندهم أن يصبحوا أمراء ألوف، ولا يهمهم أن يكون خللاً في التنظيم، وبالتالي فإن هذه الزيادة تخلق القوضى والارتباك وتضيق الجهود، وتقسم الطاقات وتبعثرها، ولا أدل على ذلك من قتل الظاهر بيبرس للسلطان قطز عندما رأى أن هذا السلطان سيحول بينه وبين ترقيته إلى رتبة القائد العام، وقد تنبه أعداء الدولة المملوكية إلى هذا الخلل فأغاروا مرارا على بلادهم بعد معركة عين جالوت، ونالوا منهم في بعض الاحيان وكان التثار وزعيمهم تيمورلنك قد أشاروا إلى هذه الناحية وصرحوا بها أمام ملأ من الناس (٢٦٢).

رابعا: التوجيه المعنوي:

الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد، والحث عليه، والترغيب، وشحن النفوس بمقارعة ومحاربة العدو، وصون الديار والحرمة الاسلامية؛ القوة المعنوية إحدى القوى الثلاث التي يركز عليها في كل الجيوش، فلا ينتصر جيش بدون معنويات، ولهذا فإن

(٢٥٨): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٥٠٩/٣٨٦/٦

(٢٥٩): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٣٤٧/١١

(٢٦٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٨/١٢

(٢٦١): المقرئزي: الخطط ٥٦/٣

(٢٦٢): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٢١٧/١٢

القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ورفعها، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثقاً به، والشؤون الإدارية بحالة جيدة كالطعام واللباس والحاجيات الأخرى.

لقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة كمكافآت والترقيات. إغداق الأموال ولكن هذه الوسائل كانت موقفة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية، ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت تأمر بالقتال، وإن النتيجة مع المقاتلين في النصر أو الاستشهاد، وقد استغل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي فأججوها، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من الجندي كامل طاقته وقدرته القتالية^(٢٦٣).

إذا أردنا أن نحمل بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت للخصنها بمايلي:

- ١ - زيادة حجم الجيش المملوكي وتفوقه على خصمه.
- ٢ - الثقة الكاملة بالنصر يتضح ذلك من تصريحات القيادة العامة بذلك واستعدادها النفسي لللاقة العدو.
- ٣ - الانتقام من المغول الذين طغوا وبغوا في البلاد التي احتلوها، والثأر لكل المظلومين والمقهورين.
- ٤ - العقيدة التي أوجبت في المقاتلين روح التضحية والفداء، وجعلتهم يقدمون على الموت، وهو أحب إليهم من الحياة.
- ٥ - الاستعداد الكامل والتحضير لهذه المعركة، وحشد كل الطاقات والامكانات لنجاحها.
- ٦ - تراخي العدو وعدم اكتراثه، وعدم تطبيقه الاسس والمبادئ الحربية، وعدم أخذ الحيلة والحذر.

ارتفعت معنويات الجيش المملوكي عندما تأكد أن عدد الجيش المغولي أقل من عدده، وأن هولاء من مكان بعيد لم يقيم بإمداده، أو أن كتباً قائد الجيش المغولي في هذه المعركة لم يطلب النجدة^(٢٦٤)، وزادت المعنويات عندما جاء الخبر إلى قادة الجيش المملوكي من الصارم المملوكي الذي كان في خدمة هولاء والذي كان ينقل أخبار الجيش المغولي ويدل على مواطن ضعفه

(٢٦٣): الصفدي: الوافي بالوفيات ٢، ٢، ٣، أبو شامة: الذيل على الروضتين ٢٠٩

(٢٦٤): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٠

وقوته، وعلى أنه كان قليلا وضعيفا في معنوياته^(٢٦٥).

لقد قيض الله للجيش المملوكي رجلا من الممالك أسر مع من أسر في حلب قبل معركة عين جالوت، وعاش مع هولاء كمو مع أسرته ومع جنوده، حتى اطلع على أسرار الجيش المغولي وأسرار قيادته، ولما ألفت الساعة، وتلاقى الجيشان في سهل مرج ابن عامر ظهر دور هذا الأسير الذي أصبح مستشارا لقائد الجيش المغولي في هذه المعركة - صارم الدين أربك بن عبد الله الأشرفي - فأحبط الروح المعنوية لدى كتبتغا وأدخل في نفسه الرعب، عندما صور له قوة الجيش المملوكي واستعداده وأنه لا قبل له بمحاربته أو التصدي له وأشاع الذعر في صفوف الجنود المغوليين. مما سبب إحباط الروح المعنوية لدى هذا الجيش^(٢٦٦)، وانفرط عقده بعد ساعات من القتال.

كانت المعنويات في كلا الجيشين غير منظمة التنظيم الدقيق الصحيح، فلا الجيش المملوكي كان يحافظ عليها، ولا الجيش المغولي كان يهتم بها، إذ لم يوجد جهاز خاص بالقضاء على الاشاعات، ولا هو قادر على فرز العناصر التي دخلت في جيشه وتقوم بدور الاحباط وانخفاض الروح المعنوية، كما أنه ليست هناك ثقة متبادلة بين هذا القائد وجنوده المغوليين الذين كرهوا الحروب، وأنفوا أن يقاتلوا أو أن يستمروا في القتال، صحيح أن هناك انضباطا قويا بين جنود المغوليين ولكنه انضباط ارتكز على الالتزام والشدة والقسوة^(٢٦٧)، فلا يقدم مثل هذا الانضباط المعنويات المطلوبة في مثل هذه المعارك الطاحنة، وهناك مثل هذه الحالة كانت في الجيش المملوكي، فالمملوكي نشأ يتيم الأب والأم وهما أحياء، نشأ عند سيده فرباه التربية الاجتماعية البعيدة عن حنان الوالدين، فتولد لديه غلظة وسوء طبع أثرت على معنوياته وسلوكه، صحيح أنه قاتل في بادئ الامر وفي المعارك الاولى لتأسيس الدولة المملوكية، وبخاصة في معركة عين جالوت أشد القتال، إلا أنه كان بمعنويات دون حرية وبقسوة دون رحمة، وبفوضى من

(٢٦٥): رواية صارم الدين أربك نقلها الدكتور أحمد غنار العبادي في كتابه (قيام دولة المماليك الأولى في مصر

والشام ٢٦٦، ٢٦٧)

(٢٦٦): Magazine Orientalia Volumen IV/366

العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ١٦٤

(٢٦٧): الفلقشندي: صبح الاعشى ٣١٣/٤، ٤٥٠، الهمذاني: جامع التواريخ ٢٦١/١/٢

الاضطراب النفسي دون الاستقرار، لقد أعطت هذه الصفات في بادئ الامر نتائج كبيرة على المستوى العسكري، إلا أنها أثرت في النهاية على قوة الدولة العسكرية، بل وعجلت بانهارها (٢٦٨).

لقد كان المملوكي مشدودا إلى زميله المملوكي بحب الانتساب إلى هذه الطبقة فهم جميعا في مرتبة العبيد. كلهم اتبعوا وصاروا عند السلاطين والامراء في بيوتهم وتحت تصرفهم وليس لهم سلطان على أنفسهم، وكانوا يخضعون لتربية تتصل بتربية أسيادهم وتتأثر بها من جوانب مختلفة، وتباين بين كل سيد وسيد، وكذل فإنهم ينتسبون إلى فئات وقوميات مختلفة، فالقطة الواحدة ترى أفرادها أقرب إلى بعضهم من باقي القوميات الاخرى. فالمجموعة الشركسية تتجمع مع بعضها وتأتلف، كما تتجمع المجموعة الكردية أو التركية أو الرومية وتجدهم أقرب مودة إلى بعضهم من غيرهم، وهذا الامر جعل الامراء يقسمون هذه المجموعات لتقاتل كمجموعة أولتعيش مع بعضها، وهذا مما جعل التنافس وإيقاظ الروح المعنوية على أشدهما، وبخاصة في القتال وأثناء الالتحام مع الجيش المغولي (٢٦٩).

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة، فيها اجتمعوا وتوحدوا على مستوى واحد، وأرضية واحدة، فالمملوكي مهتما كانت طبقة وقوميته فهو عقائدي، وبهذا الانتماء قدم الجهاد، وبهذه المزية اندفع بمعنوية لاتقابلها معنوية في الجيش المغولي، فذاك قطز نادى بأعلى صوته «واسلاماه» (٢٧٠) فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية، ذلك لأن هذا النداء العقائدي أجج في نفوس القادة والجنود كل إمكانيات المقاتل القتالية وجعله يقدم الارادة حبا وتضحية، وفداء واستبسالا، على هذا النداء قاتل الجيش المملوكي قتال رجل واحد فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة (٢٧١)، وذلك الظاهر بيبرس فيما بعد، قال قولاً عقائدياً لبعض قادته عندما ألقوا إلى مسامعه أن وسائط النقل قد قلت فقال: «ماأنا في قيد الجهاد، أنا في قيد نصرة

(٢٦٨): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك

(٢٦٩): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣٨٨/٢/١

(٢٧٠): المقرئزي: المصدر نفسه ٤٣١/٢/١، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٨١/١، ٣٨٣

(٢٧١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٩/٧

أبو الفداء: تاريخه ٢١٤/١/٢

السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٣٩/٢

الاسلام^(٢٧٢)، ومضى في قتاله فانتصر، إن العقائد تفعل سحرها، وإنها لسحر عظيم في
المعنويات وفي استمرارها وتقويتها.

(٢٧٢): المقرئ: المصدر نفسه ٥٢٤/٢/١

الفصل السادس

الصنوف والأسلحة المشتركة في القتال

قد تتشابه الصنوف (التشكيلات) والأسلحة في الجيشين المملوكي المغولي في معركة عين جالوت، إلا أن النشاب والمجانيق في الجيش المغولي أكثر تطوراً، بينما كانت السيوف في الجيش المملوكي متقدمة من الناحية الفنية سقياً وصقلاً وملمساً^(١). أما الصنوف في كلا الجيشين فقد كانت كثيرة وفي مقدمتها سلاح الفرسان الذي تميز بالخفة والرشاقة والمناورة والحركة السريعة في الميدان. وكان الاهتمام به كبيراً من قبل المملوكيين حيث كانوا يشترون الخيل بأثمان غالية من جميع أنحاء العالم^(٢). وقد ظهر أيضاً في هذه المعركة دور سلاح النفط والنيران حيث استخدمه الجيش المملوكي^(٣). أما الأسلحة فقد كان أغلبها ينتج محلياً، وأهم الصناعات الحربية التي برز فيها الجيش المملوكي هي صناعة النشاب والقسي^(٤).

أولاً: صناعة الأسلحة:

هذه الصناعة قديمة. وقد لجأ إليها الإنسان منذ أن خلق على هذه الأرض للدفاع عن نفسه، ولرد الإعتداء، وقد مرت في أطوار مختلفة وفي عهود متتالية، ففي العصر المملوكي وجدت أسلحة جماعية مثل صناعة المنجنيق، ووجدت أسلحة فردية مثل صناعة السيف والرمح والقوس والنبشاب. كما صُنفت إلى صناعة خفيفة كأسلحة الخناجر والطبر والرمح، وصناعة ثقيلة كالدرع والزرديات والدبابات وأهم هذه الصناعات:

صناعة النشاب:

لقد ألفها المماليك قبل مجيئهم إلى مصر، وقد كانت محببة حتى إلى القائد الأعلى للجيش، وإلى قادة التشكيلات حيث كانوا يقومون بأنفسهم بصناعتها ونحتها وتريشها وتفصيلها^(٥).

(١): زيادة: دمشق في عصر المماليك ١١٠، الاسكندري: تاريخ مصر ٢٢١، ويسلر: الحضارة العربية ١١٧ - ١١٩.

(٢): ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ١٣٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١١ / ٣٥٧، مبارك: الخطط الوفية ١ / ١٤٤.

(٣): الهمداني: جامع التواريخ ٢ / ١ / ٣١٤.

David Ayelon, Gunpowder and fire Arms in the Mamluk kingdom: 14

(٤): ابن الفرات: تاريخه ٧ / ٦٨، أبو البقاء: نزهة الانام في محاسن الشام: ٣٦٣، ٣٦٤.

(٥): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٦٠٣.

وقد كان الصانع المهرة المختصون يتقنون صنع هذا السلاح، ثم يقومون بتجربتها، فإذا ظهر فيها عيب عدلت، حتى إذا استوت بعد كل التجارب دخلت ضمن أسلحة الجيش وهي ترمى رشا ودراكا وتصل إلى مسافات بعيدة^(٦). وقد كانت هذه الصناعة منتشرة في جميع نيابات المملكة وذلك لأن أغلب المواد الأولية التي تصنع منها السهام متوفرة في كل مكان، وأشهرت نيابة دمشق بهذه الصناعة التي كانت تمر بمراحل متعددة حتى يخرج السلاح في وضع الجاهزية للاستخدام، وقد كان يمر على عشرة عمال (مراحل)^(٧).

وبهذه المراحل تتعدد اختصاصات العمال، ويدل هذا العمل دلالة قاطعة على الأخذ بمبدأ التخصص والتخصص الدقيق في الصناعة الواحدة، وقد قالوا: «النشاب سلاح الفارس والترس حصنه...»^(٨) وقد شاعت صناعة النشاب والقسي^(٩)، وأهتم بها القادة والجنود، وقد عدت الصناعة الشامية للاقواس من أفضل الصناعات النشابية وكان أجودها الفحل^(١٠) إذ يتتقى لنجارة الخشب فصل الخريف، والجمع والحزم في فصل الشتاء، وتركيب العقب في الربيع، والدهان والتصقيل في الصيف^(١١). وهكذا يمضي على الصناعة عام واحد يصل فيه النشاب إلى أعلى درجة من المتانة والقوة. وكذلك فإن الاعتناء بهذا السلاح وصيانته كانت تتم في الاوقات المحددة^(١٢).

للسهم أنواع وأقسام كالنفيل والعود والعقب والعوف، ومنها السهام (الخطاية) وهي سهام عظام يرمى بها عن قس عظام فتكاد تحرق كل ما تصل إليه^(١٣)، أما أنواعها فمنها (النشاب) وهو عادة ما يكون نصله مثلثا من الخشب و (الجراد) أو الشبر وهو ما يكون قصيرا بقدر شبر الرجل وهو ذو

(٦): ابن العباد الحنبلي: شذران الذهب في أخبار من ذهب ٤ / ٧ / ٣١٥.

(٧): أبو البقاء: نزهة الانام في محاسن الشام ٣٦٣ وما بعدها.

(٨): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٣٠.

(٩): مجهول: مخطوطة الخيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٤٦.

(١٠): مجهول: مخطوطة في علم الفروسية ورماية النشاب على ظهور الخيل ٢.

(١١): الأشرفي: مخطوطة النشاب ١٤، مجهول: مخطوطة الخيل ٢.

(١٢): الناصري: مخطوطة الخيل في الحرب وفتح المدائن وحفظ الدروب: ١٣٢ وما بعدها، الكندي: مخطوطة

النجوم الشارقات ٢٢، زكي: السلاح في الإسلام ٣٣.

(١٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٧.

مواصفات قتالية عالية إذ يتميز بسرعة كبيرة ودقة في الإصابة^(١٤) ومنها الزنبورك وهي في شكل الإبهام وطول الذراع وذو اجنحة، وله أربعة أوجه ونصل حديدي مما يجعله ثابتا مستقيما، يصل إلى مسافات بعيدة، سريعا في طيرانه ووصوله إلى الهدف^(١٥) وللسهم أيضا أسماء منها (أقد) وهو الذي لاريش له، و(جباع) وهوبدون نصل و(زخز) وهو النشاب و(صادر) وهو النافذ و(معارض) وهو الذي له ريش، وأحسنها ما كان من ريش النسور ثم ريش العقاب^(١٦) و(مشقص) وهو العريض. وتوضع السهام في (التركاش) وهي الجعبة أو الكنانة التي يضع العسكري بها هذه الذخيرة^(١٧).

صناعة القوس :

للقوس أنواع منها : قوس اليد، وهو ما اشتهر به العرب، ويدل من اسمه على أنه يستخدم باليد، فتنتقل منه سهام عديدة في جهات مختلفة بدفعة واحدة، وهو ما يشبه السلاح الصاروخي المتعدد الفوهات في الوقت الحاضر. ويمتاز هذا النوع من الأقواس بالدقة والتناثر والسرعة والإصابة المحققة. ومن الأقواس ما يكون طولها اثنا عشر شبرا، ويرمي عنها رجل واحد، في دفعة واحدة بثلاثين سهما^(١٨).

أما قوس الرجل فهو ما اشتهر به الافرنج ويستخدم بالرجل وهبوطي الحركة وغير دقيق في الإصابة إلا أن مداه أطول واطلاقه أسهل^(١٩) وهناك قوس اللولب وقوس الركاب اللذان يحتاجان إلى مهارة وتدريب^(٢٠)، وهناك أنواع أخرى تختلف في صناعتها ومقاييسها والمواد الأولية التي صنعت منها وفي الطول والمدى^(٢١).

(١٤): ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٦، ريسلر: الحضارة العربية ٨٠.

(١٥): الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ١٦٣.

(١٦): الاشرفي: مخطوطة النشاب ٢٠، مجهول: في علم الفروسية ٢٣١.

(١٧): النويري: نهاية الارب في فنون الادب ٦ / ٢٣٠ وما بعدها، الالوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال

العرب ٢ / ٦٥.

(١٨): الناصري: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٤٦ فما بعدها.

(١٩): مجهول: مخطوطة الخيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٩١.

(٢٠): مجهول: مخطوطة الخيل ١، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٦.

(٢١): الناصري: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٤٦، مجهول: مخطوطة الخيل ٢،

صناعة السيف:

لقد اهتمت الامم السابقة واللاحقة بصنع السيوف، وقد وجدت عدة مخطوطات، وأبحاث تدل جميعها على هذه الصناعة العريقة (٢٢).

وإن المواد الأولية التي تصنع منها السيوف متوفرة محليا ففي جبال لبنان يوجد الحديد، كما كان يستورد من أرمينيا، ويوجد الخشب في لبنان كما توجد المواد الأخرى (٢٣)، ولشدة اهتمام الجيش المملوكي بالصناعة الحربية وبخاصة بصناعة السيوف فقد أنشأ مدرسة أطلق عليها « مدرسة صانعي السيوف » وكان مركزها في القاهرة في قصر المأمون (٢٤).

صناعة الجوشن:

يصنع من مركب من العاج والفولاذ وقرون التيوس والسنادج بنسب متفاوتة ثم يدق ناعما، ويعالج بخل خمر، ويسقى بدهن صيني لمدة سبعة أيام، ثم يوضع تحت أشعة الشمس لمدة مختلفة بعد كل معالجة وسقاية (٢٥)، وقد يصنع الجوشن من الجلد ثم يضاف إليه بعض المواد لمعالجته وصنعه (٢٦).

صناعة المدفعية:

اعتنى المملوكين بصناعة المدفعية، وأولوها اهتماما كبيرا. وقد جرت عدة محاولات لتطوير هذا السلاح، وذلك لأهميته القتالية في المعارك ولا سيما في دك القلاع والحصون، وتدمير المناطق والنقاط المحصنة، كما جرى الاهتمام أيضاً بتصنيع مدافع النفط وقد بلغت ذروة التصنيع في عهد السلطان قاتباي (٢٧) إذ أمر بصناعة مدفع بلغ طول سبطاته خمس أذرع وربع وفوهته ثلاث أذرع وثلاث أرباع الذراع، وسماكتها من الحديد ثلث الذراع وهذا المدفع عبارة

(٢٢): الكندي: مخطوطة السيوف وأنواعها وسقيها ١٠، الرماح: مخطوطة نهاية السؤل والامنية في تعلم أعمال الفروسية ١٦٥، الزردكاش: مخطوطة الانيق في المناجيق ٢٢٥، ٢٣٠.

(٢٣): Rey - Les Colonie Franques De Syria Aux XIIIe Siecles Pages: 218.

(٢٤): Lane - poole: A history of Egypt in the middle Ages ages: 7 / 204.

(٢٥): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٤٩ وما بعدها.

(٢٦): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٦٢.

(٢٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢/ ١٩، ٢٢٢، ٢٤٢، ٣٠٥، ٣١١.

عن قطعة واحدة يرمي الحجارة إلى مسافة بعيدة بلغت ٣ كم تقريبا . وهي مسافة نموذجية إذا قيس بمعديات المدفعية في ذلك الوقت (٢٨) ، وكانت ذوقياسات ومديات مختلفة (٢٩) وقد صنع الجيش المملوكي مكاحل النفط من الفحاس والحديد ، وبلغ الانتاج في إحدى السنين سبعا وخمسين مكحلة (٣٠) ، وكانت المدفعية تحمل على ظهور الجمال في بدء تشكيل الجيش المملوكي ثم أصبح فيما بعد على عجل تجره الثيران (٣١) .

صناعة الأسلحة النارية :

انتشرت هذه الصناعة في عهد المملكة المملوكية وقد كان منها حشوات المدافع والبندق والأسهم النارية ، والصواريخ النفطية وقوارير النفط ، وأنواع المقذوفات المحتوية على النفط والبارود وفيها مزيج نفطي ومواد مشتعلة كالبارود ، والمكاحل التي كانت تقذف ما فيها بقوة البارود ، والدبابيس المملوءة بالمواد الحارقة وغيرها (٣٢) .

لقد سبق المماليك غيرهم في هذه الصناعة ، وقد كانت مزدهرة قبل حدوث معركة عين جالوت بدليل استخدام هذا السلاح في هذه المعركة (٣٣) .

صناعة الأسلحة البحرية :

تعتبر السفن البحرية من أهم أنواع الأسلحة التي استخدمها الجيش المملوكي . فهي تصنع من أخشاب مختلفة تتصف بالقساوة والليونة والصلابة والمقاومة للجفاف والحرارة والمياه . وكانت

(٢٨) : ابن تغري بردي : حوادث الدهور في وقائع الايام والشهور ٤٧٤ ، ابن القاسم : غاية الاماني ٦٤٣ / ٢ .

(٢٩) : ابن عبد الطاهر : تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ١٤٩ .

(٣٠) : ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤ / ٢٦١ ، ٢٦٥ .

(٣١) : ابن غانم الاندلسي : مخطوطة الغر المنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ١٧ وما بعدها ، ابو الفداء : تاريخه ٢ / ٢ / ٢٥ ، ٤٧ .

(٣٢) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ١٨٦ ،

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٢ / ٢ / ٤٩٦ ، ٥١٤ ، ٣ / ١١٢ ، النويري : الامام ٢ / ١٣٨ ، ١٤٦ ،

الحجاري وزملاؤه : النجوم الزاهرة في حل حضرة القاهرة ٦٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، القلقشندي : صبح الاعشى

٢ / ١٣٧ ، ١٣٨ ، زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ٥١ ، ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ .

(٣٣) : Davidd Ayelon: Gun powder and fire Arms in the Mamluk kingdom: B1, 14. :

هذه المواد الأولية كالأخشاب متوفرة في جبال لبنان والسلسلة الممتدة فوق الساحل السوري وبلاد الاناضول، وجبل شغلان القريب من أنطاكية والأراضي المصرية والطلاء الذي يدهن به الخشب كالخل والشب والنطرون، والجلود واللبود وكما كان متوفرا أيضا الحديد في مصر والشام واليمن لصناعة الفؤوس والدفوسر والكلاليب والمراسي، والقطران من ليبيا، وبعض النباتات لصنع الحبال والأشعة (٣٤).

عمال الأسلحة:

كان يطلق على العمال صانعي الأسلحة (زردقاش) مهمتهم صنع السلاح وإصلاحه وصيانتة وحفظه وتوزيعه وعلى صانعي القنابل اليدوية « القرموسي » مهمته صنع القذور المختلفة من الفخار والخزف وقد كان من صناع الأسلحة المشهورين إبراهيم الحلبي الذي برع بصناعة المدافع، ... وقد تطورت هذه الصناعة فيما بعد من حيث المواصفات الفنية والتعبوية يدل على ذلك استخدام المدافع ضد اليمينيين الذين تعرفوا على هذا السلاح لأول مرة وفوجئوا بتأثيره (٣٥)، وقد سرق التتر أغلب الصناعات والصناع، وتركوا البلاد خاوية من علمائها الذين يعتمد عليهم في تطوير الأسلحة، وإدخال التقنية في الأعتدة الحربية (٣٦)، وللأسلحة المنتجة محليا أو المستوردة سوق يدعى « سوق السلاح » تباع وتشترى فيه جميع الأنواع. وكان في كل نيابة سوق يحتوي على الدروع والسيوف والنشاب والقسي وغيرها (٣٧).

(٣٥): ابن القاسم: غاية الاماني ٢ / ٦٤٣.

(٣٦): الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٢ / ٩٢، زيادة: دمشق في عصر المماليك ٤٤، بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٩٢.

(٣٧): ابن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ١٤٤، القريري: الخطط ٢ / ٩٧، ابن طولون: مفاكهة الخلال في حوادث الزمان ١ / ١٦٤، الأسدي: احياء حلب وأسواقها ٢٣٢.

(٣٤): النويري: الامام: ٥، ٧، ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ١ / ٢٣٥، أبو الفداء: تقويم البلدان ١١١، ١١٥، ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ١٦٨، ١٩٩، حوراني: العرب الملاحه في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ٢٤٤ وما بعدها، عدوي: الاساطيل العربية في البحر المتوسط ١٥١، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ٤، وما بعدها. اشرنا إلى صناعة الأسلحة البحرية عند المماليك استكمالا للحديث عن وسائل القتال.

ثانياً: الصنوف (التشكيلات):

لقد شاع التخصص، وتنوعت صنوف الأسلحة الداخلة في قوام الجيش المملوكي وكان لها دور كبير في القتال الهجومي أو الدفاعي، ففي الهجوم برز سلاح الفرسان، وفي الدفاعي برز سلاح المدفعية وسلاح النفط والنيران. وقد كانت الصنوف الأخرى تؤدي دوراً قيمياً ومكملاً كالسلاح الهندسي، والسلاح الكيميائي، والسلاح البحري. وكان الجيش المملوكي يتألف من قوتين كبيرتين هما القوى البرية والبحرية، على أن للقوات البرية الدور الأكبر والمهم في الأعمال القتالية.

١) سلاح الفرسان:

الفرس تشبه الدبابة في الوقت الحاضر، وسلاح الفرسان من قبل هو سلاح الدبابات في الوقت الحاضر، والخيّل أساس هذا السلاح ولذا فإنه من الطبيعي أن يكون الاهتمام بهذا المخلوق العجيب الذي اتصف بصفات السرعة والمرونة وقوة التسلق والاحتمال. وقد أعار الجيش المملوكي أهمية كبيرة للخيّل وأنشأ لها الأسطبلات، ونظم لها ديواناً يشرف على إحصائها وصفاتها وأسمائها وما إلى ذلك. وعين لها أمير آخور وناظرًا وكتّاباً، واعتنى قادة هذا الجيش بانتاج الخيّل وتدريبها وسباقها، وكان يوجد عند القادة مئات من الخيّل بل الآلاف (٣٨) ولقد أشارت الكتب العديدة والمخطوطات المؤلفة في ذلك العصر إلى أهمية الخيّل وأهمها: كتاب الفروسية برسم الجهاد ونهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية، والفروسية والحرب والأسلحة للرمح واسبال الذيل في ذكر جياذ الخيّل للرمل والمخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين وفضل الخيّل للدمياطي والتذكرة في معرفة البيطرة لابن الرسول الغساني، وقطر السيل في أمر الخيّل للبلقيني، كما توجد عدة مخطوطات أخرى عديدة لمجهولين كتبوا عن الخيّل وما تجد كتاباً عادياً إلا تضمن أموراً هامة عنها. وقد كان أغلب الفرسان في الجيش المملوكي ولا سيما القادة يركبون الفحل في الحروب والجنائب دون الحجر

(٣٨): البلقيني: مخطوطة قطر السيل في أمر الخيّل ٨٨ وما بعدها، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٩ / ١٦٨، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢ / ١ / ٢١٠، القرموسي: كلمة يونانية معناها الفخاري الذي يصنع منه الفخار والخزف ويقوم بصناعة الاوعية الفخارية أنظر:

والأكديش (٣٩). وكان كل فارس يهتم بفرسه بنفسه (٤٠).

ولشدة أهتمام الممالك بالخييل فقد كان لها سوق يجتمع إليه الجند فيبتاعون من أصيل الخيل والنجائب (٤١). وكلما كان في دمشق وقد وجد أيضا سوق في حلب يقع في قلعته وهو بين باب القوس البراني وباب القوس الجواني (٤٢). وقد أشتهر رجال اختصاصيون بمعرفة الجواد الأصيل وهؤلاء كان يستعان بهم عند الشراء أو البيع (٤٣)، للخييل لباس وعتاد قتال لا بد من توفرهم جميعا للفارس المقاتل وأهمه السرج وله أشكال مختلفة حسب وضع الفارس فإن كان يلبس « الجوثن » فالسرج في هذه الحالة ينبغي أن يكون صغيرا. بحيث يقع « الجوثن » خلف مؤخر السرج الواسع وعند المدرع ينبغي أن يكون وسطا، وفي الأحوال العادية فإن السرج الواسع أفضل من الضيق لتمكن الفارس من حرية الحركة وهو على ظهر جواده (٤٤). . . وقد كان السرج في بادئ الأمر طويلا يغطي جسم الحصان ومؤلف من قطعتين أمامية وخلفية (٤٥).

وكلما كان السرج أخف كان أفضل للمرونة والحركة، وللسرج صفات عديدة فصلها الأخصائيون وشرحوا مراميها وفوائدها القتالية (٤٦)، يصنع من الحديد أو الخشب أو الجلد مما يعطيه ثقلا بالإضافة إلى مقعد مرتفع فوقه، أما تحت السرج فيوجد ثلاثة أغطية (٤٧) و(كنبوش ج كنباش) (٤٨) وهي الفاشية تحت سرج الفرس وكان يكتب عليها بالزركش والحريز أسم ولقب

(٣٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠ / ١٤٣، ١٢ / ٦٥.

(٤٠): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ١١ / ٣٥٧.

(٤١): زيادة: دمشق في عصر المماليك ١٥٩.

(٤٢): الأسدي: إحصاء حلب وأسواقها ٣١٢.

(٤٣): البلقيني: قطر السيل في أمر الخيل ٨٨، ٨٩، المقيزي: الخطط ٢ / ٢ / ٥٢٧ وما بعدها.

(٤٤): الرماح: مخطوطة نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ٨٢.

(٤٥): Rey - Les Colonis Franques de Syrie aux XII me et XIII me siecles pages 30.

(٤٦): ابن الرسول الغساني: مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة ٧٢، الرماح: مخطوطة في عمل الرمح على الأرض والفرس.

(٤٧): Volney; Voyage en Egypt Eten Syrie 153.

(٤٨): كنبوش: لفظ فارسي مركب من « كن » وهي الدبر ومن « بوش » وهو الغطاء. انظر الكلداني الألفاظ الفارسية المعربة ١٣٨.

السلطان وهي ما يستر به ظهر الفرس وكفله وله قوالب وأشكال وفيه من الذهب والفضة وأحيانا يكون من الصوف (٤٩).

واللجام: وهو الالة التي تكون في فك الفرس: قوالبه وأشكال ونسب وجود الذهب فيه مختلفة (٥٠)، وفي اللجام الشكيمة والعنان والفاس والعصاب (٥١)، اثناء الحرب والمطاعنة والمنازلة فإن اللجام كالمنقود ويمكن توجيه الفرس بكل سهولة ولكن اثناء المطاردة أو الركض أو اللعب بالصولجان قد يضايق الفرس لانه يحتاج إلى أخذ كمية كبيرة من الهواء، إذ يستعين بفمه بالإضلافة إلى منخريه، فاللجام يقيد فمه ولا يستطيع التنفس إلا من مجرى واحد، ولذلك عمد الفرسان الاثراك والمغول إلى توسيع مناخر خيولهم لتتسنى لهم أن يستمروا في الحروب، وإذا كان اللجام يمنع التنفس من الفم، فإنه يقيد الفرس عند الشرب إذ أن بعض الخيل لاتشرب واللجام في رأسها (٥٢). كانت صناعة اللجم متقدمة في الجيش المملوكي وكانت قرية (دلاص) وهي إحدى قرى مصر بمديرية بني يوسف مشهورة بهذه الصناعة المنسوبة إليها، وكان يوجد بها ثلاثمائة حداد يعملون فيها ويتفننون في صناعة اللجم وكل ما يخصها، ويزينون حلقاتها من الفضة (٥٣).

والمهراز: آلة من حديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه، فوق الخف، وله بروز إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في العدو. وهو يكون من الفضة أو من الذهب أو مطلي (٥٤).
والركاب: وهو من السرج وهو ما تجعل فيه الرجل عند الركوب وهو إما أن يكون من الجلد أو الخشب أو الحديد (٥٥)، والعنان جمع أعنة وعنن وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة، وقد

(٤٩): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٢٩، ابن السباعي: الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعميون السير ٢٨٧.

(٥٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٢٩.

(٥١): ابن الرسول الغساني: مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة ٧١.

(٥٢): الرماح: مخطوطة في عمل الرمح على الأرض والفرس ٥٣، ابن الرسول الغساني: مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة ٢٠٦ وما بعدها.

(٥٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩ / ٢٥١، ١٠ / ١٩٤.

(٥٤): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٢٩.

(٥٥): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٠، الزبيدي: تاج العروس ١ / ١٨٠.

سمي به لاعتراض مسيرته على صفحتي عنق الدابة من يمينه وشماله^(٥٦)، ومهمته منع الفرس من التلفت يمينا وشمالا وإذا بقي العنان لمدة طويلة أثر ذلك على قوة الفرس ونشاطه^(٥٧).
والسرفسار: وهو السير الذي يجعل في طرف العنان ويقبض عليه الفارس بينصريده اليمنى عند الرمي ويستخدم للخيول التي لها أعناق لينه، وبدونه يمكن لرأس الفرس أن يصطدم بصدر الفارس^(٥٨).

والسوط: ويعرف بالعصر المملوكي « المقرعة » ويضرب به المركوب من الخيل والإبل^(٥٩) وهوبديل القضيب الذي كان مستخدما من قبل. وللملك قضيب خاص يحمله أثناء الاستعراضات والمواكب وطوله شبر ونصف وموشى بالذهب، ومرصع بالدرر والجواهر^(٦٠)، وهناك الحافر: وهي قطعة ياقوت أحمر في شكل هلال توضع في جبهة الفرس.
والرقبة: وهو لباس لرقبة فرس القائد الأعلى للجيش يكون من حرير أصفر مطرز بالذهب ويشد على رقبة الفرس^(٦١).

والتجفاف جمع تجافيف وهو الدرع الذي يصنع للدابة من اللباس أو القماش المبطن والبركستوانات وهي الدرع التي توضع على الخيل. وهي مصنوعة من الفولاذ وهناك الابازيم والبود والمرشحة والقماش المبطن ووجوه الفولاذ لوقاية رأس الجواد. كل هذه الألبسة قتالية يلبسونها للفرس عند القتال^(٦٢)، تصور الفارس في لباسه القتالي، والفرس تحته في لباسها الذي ينم عن مظهر جليل، ومنظر مخيف ظهر في معركة عين جالوت مع تشكيلات قتالية منظمة أزهت المغول ودبت الذعر والهلع في نفوسهم. إن اللباس الذي اتقن صنعه وحسن منظره ولمع برقه وبريقه بما حلي به من ذهب وأحجار كريمة، هذا المنظر كان مع إشراق شمس المعركة وفي

(٥٦): الزبيدي: تاج العروس ٩ / ٢٨١.

(٥٧): ابن الرسول الغساني: مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة.

(٥٨): الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٣٧.

(٥٩): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٠.

(٦٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٢.

(٦١): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٢٧، ٣ / ٤٧٣.

(٦٢): ابن عبد ربه: العقد الفريد ١ / ١٨٠، الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ١ / ٣٠١، زكي:

السلاح في الإسلام ١٧ / ٢٤، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٧.

اليوم الأول وفي بطاح سهل مرج ابن عامر^(٦٣).

إذا كان للخييل لباس، فإن للفارس لباس حرب يلبسه عندما يكلف بمهمة قتالية يتألف من عدة أسلحة منها ما بقي الجسم من ضربات الخصم كالدرع والترس والخوذة والزرديّة والجوشن والقرقل والتي يمكن أن نطلق عليها الأسلحة الدفاعية، أما الهجومية فأهمها السيف والرمح والقوس والنشاب والخنجر والمقلاع، وقد تصنف أسلحة الفارس حسب مدياتها مثل الأسلحة القريبة وهي الخنجر والسيف والعامود والدبوس، ومنها البعيدة كالرمح ومنها ذات المرمى البعيد كالسهم والنبل والمقلاع والحجارة والمزراق والمقذوفات ذات الحشوة البارودية (اللبس هذه الأسلحة نظام خاص عندما يرتديها الفارس فالرمح يحمله يمينه، والخنجر في خفه والسيف من جهة اليسار، والطبر بوضع في خلفه في سرج الفرس^(٦٤). وهكذا فإن الفارس يبدو كتلة من حديد، لا تظهر فيه إلا المفاصل، وهو فوق كل هذا يكون قادراً على استخدام الأسلحة الهجومية والدفاعية، وهو على ظهر جواده، وعليه أن يعرف طرق القتال المختلفة، وأن يتصف بالمناورة والدهاء والحركة في الميدان في كل الاتجاهات^(٦٥)، فالفارس المملوكي لا يقل عن الفارس المغولي في فن القتال في استخدام أسلحته المختلفة وفي صبره واحتثاله على ضراوة الحروب وشدها^(٦٦). وإن القتال كان في معركة عين جالوت لسلاح الفرسان وهو الذي أظهر براعة ودقة في ساحة القتال. وقد تميز هذا السلاح في هذه المعركة بالسرعة والالتفاف. وهو الذي حسم المعركة بعد أن اصطدم المغول مع المماليك وأظهر الجيش المملوكي بسلاحه هذا أنه قادر على تخطي الجيش المغولي وسبق بالسرعة والمناورة والالتفاف^(٦٧).

(٦٣): العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام ٢٦٧.

(٦٤): النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٦ / ٢٤١، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٥،

٤ / ٦ / ٤٠، ابن يحيى: تاريخ بيروت ٦٥، زكي: السلاح في الإسلام ١٦ / ٢٧، ٣٩، ٤٥.

(٦٥): البلقيني: مخطوطة قطر السيل في أمر الخيل ١٤٤ وما بعدها، الرماح: مخطوطة نهاية السؤل والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٨٣.

(٦٦): ابن صاعد: طبقات الامم ٨، القلقشندي: صبح الاعشى ٤ / ٤٥٨، البغدادى: الافادة ١٢٦،

أسعد: بولو ١١، ٢٨، العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام ٢٥٧ - ٢٦١.

(٦٧): الهمداني: جامع التواريخ ٢ / ١ / ٣١٤، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٦١، ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧ / ٧٩، ١٠١.

(٢) سلاح المدفعية :

هو سلاح دفاعي جماعي اعتمد الجيش المغولي على هذا السلاح وطوره وأستخدمه في حروبه السابقة قبل معركة عين جالوت (٦٨).

أما الجيش المملوكي فقد كان الاهتمام بهذا السلاح دون خصمه . إلا أنه كان متوفرا بحمله المقاتلون إلى مسافات قريبة وتحمله الجبال والبغال إلى مسافات بعيدة (٦٩). أما في الجيش المغولي فكان على عجل تجره الثيران أو الخيل إلى أمكنة القتال وساحات الميدان . في كلا الجيشين كانت الذخائر لهذا السلاح عبارة عن أحجار وكرات حديدية ، وقذائف نفطية ثم تطور فيما بعد المعركة في الجيش المملوكي من حيث الصنع والقذائف التي تعتمد على البارود الذي زاد من مسافة رمية وقوة تأثيره (٧٠).

يستخدم هذا السلاح لك القلاع والحصون وتدمير المواقع المحصنة لاحتداث الثقوب والثغرات ، ولحمل المقذوفات النارية لاحتداث الحرائق في المدن والبيوت ، ويرمى ضد التجمعات الكبيرة من الجنود (٧١). حاصر المغول قلعة دمشق قبل توجههم إلى معركة عين جالوت ورموها بهذا السلاح بشكل متتابع حتى خربوا القسم الغربي منها والجزء الكبير من حارة القنوات في دمشق .

ثم وجهوا عليها النفط فأحرقوا منها ما كان قابلا للاحتراق ، حتى أسرع من كان فيها من الجنود إلى الاستسلام (٧٢). وتحرك هذا السلاح بمجموعاته القتالية بعد ذلك نحو بعلبك فأتى فتح تلك القلاع منها الصلت وعجلون وبصرى فهدموا وخربوا كل ما أتوا عليه (وهذه هي سياسة هذا الجيش بأن لا يدع شيئا يمر عليه إلا دمره ، ولا يذر عمرانا ولا حياة إلا وجعلها كالرميم)

(٦٨) : ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ٢١٩ .

(٦٩) : ابن تغرب بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٣١٢ ، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٦١٧ .

(٧٠) : الزردكاش : الايق في المناجيق ١٥٦ وما بعدها ، ابن غانم الاندلسي : مخطوطة العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ١٥ ، ٢٦ .

(٧١) : الزردكاش : الايق في المناجيق ٤٤ ، ٤٥ ، الألوسي : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٢ / ٦٧ ،

زيدان : التمدن الإسلامي ١ / ١٥٨ ، ١٩٣ .

(٧٢) : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ٢١٩ .

وكان لهذا السلاح دور كبير فيما فعله الجيش المغولي في حروبه مع أعدائه واستيلائه على الحصون والقلاع^(٧٣). ثم تحرك السلاح المدفعي المغولي من بعلبك في طريقه إلى عين جالوت لم يكن له تأثير كبير في تلك المعركة ذلك لأنها كانت معركة سلاح الفرسان. يحتوي هذا السلاح على مصادر مختلفة فمنه المحلي الذي صنع في المملكة المملوكية وبخاصة في دمشق، ومنه المغربي ومنه الفرنجي، وكان منه الكبير الذي يقذف أحجارا ذات زنة كبيرة، ومنها الصغير لذي يرمي أحجارا ذات زنة صغيرة^(٧٤) ويتعاون هذا السلاح مع سلاح النفط والنيران في معركة عين جالوت استطاعا أن يحدثا حرائق كبيرة في المواقع المغولية وبخاصة على التجمعات الكبيرة التي كانت تختبئ في أماكن خلفية من مؤخرة الجيش والتي كانت مهمتها القيام بالهجوم المعاكس على الجيش المملوكي، لكن مبادرة هذا السلاح وسبق خصمه في استخدام المدافع المحرقة فوتت على الجيش المغولي القيام بهذا الهجوم، وكانت هذه المبادرة سببا في انهزامه ودحره، وبخاصة عندما رأى النار تلتهم عتاده وسلاحه ورجاله. ففر مذعورا لا يلوي على شيء^(٧٥).

يرمي هذا السلاح بصورة فردية أي كل مدفع مع طاقمه، أو أن يرمي بصورة زوجية، أو جماعية وحينئذ تشترك المدفعية بكاملها وأنواعها وأحجامها المختلفة، وهذا عادة ما يحدث عند تدمير قلعة أو حصن^(٧٦). وبما أن مسرح العمليات وساحة المعركة مكشوفة وخالية من هذه التحصينات، فإن هذا السلاح كان محضرا لتدمير التجمعات من كلا الطرفين، وإبطال المدفعية المعادية. وفعلا فقد تهيأت الظروف المواتية للجيش المملوكي من استخدامه والتأثير على خصمه، وإبطال هجوم خصمه الذي كان ينوي القيام به^(٧٧).

يتتقى جنود هذا السلاح من الرجال الأقوياء الذين يتصفون بالتحمل والشدة والقدرة على

(٧٣): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٥٨ وما بعدها.

(٧٤): ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٧٦، ١٤٩، ذيل مرآة الزمان ١٣٨ / ٢.

(٧٥): الهمداني: جامع التواريخ ٢ / ١ / ٣١٤، الإسحاقى: أخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٣٢.

(٧٦): ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٨٥ وما بعدها.

(٧٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧ / ٧٩.

حمل الانتقال الكبيرة إلى مسافات بعيدة ذلك لأن هؤلاء الجنود سيضطرون أثناء القتال في الميدان أو من مكان إلى آخر إلى حمل هذا السلاح الثقيل على أكتافهم وأعناقهم وسيهاجمون به عدوهم فور وصولهم أو بعد استراحة قليلة وذلك حسب ظروف المعركة وتطوراتها^(٧٨).

تطور هذا السلاح بعد معركة عين جالوت من حيث صنعه ومداه وقذائفه وحشوته فأصبح يصنع من الحديد والنحاس، ومداه زاد عن ٣ كم، وقذائفه زاد وزنها وتأثيرها، وحشوته صارت من البارود الذي صنع فيها بعد في المصانع المملوكية في البلاد^(٧٩)، وكذلك فإن المدافع صارت على عجل وأطلق عليها أسم (المكحلة) جمع مكاحل يمر كل مكحلة زوج من البقر^(٨٠). إنه السلاح الذي اعتمد على البارود فيما بعد وعلى المواد النفطية وعلى الكبريت، وعلى المواد الحارقة، حتى أزدادت قوة تدميره وتأثيره على الاهداف المحصنة^(٨١).

٣ - سلاح النفط والنيران :

ظهر هذا السلاح مرافقا لظهور سلاح المدفعية، وأزدادت فعاليته عند إختراع البارود واستخدامه في الحروب، وسلاح النفط والنيران هو الجهاز الذي يتألف من المكلفين بمهام قتالية أي (الزراقين) كما كانوا يدعونهم، وهم الذين يطلقون النفط من (زراقة)^(٨٢).

هذا السلاح بهذا المستوى تحرك مع الأسلحة الأخرى إلى معركة عين جالوت وكان له تأثير كبير على العدول ويعود له الفضل في الحسمية وفي تحقيق النصر على الجيش المغولي الذي فوجيء باستخدام هذا السلاح بشكل كثيف، وقد ألقى المدافع النفطية واستخدمت الأسلحة المختلفة النارية حتى لا تترك في سماء المعركة إلا النار والدخان لتلتهم الأخضر واليابس، وتقضي

(٧٨): ابن عبد الظاهر: تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٧٨ وما بعدها.

(٧٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢ / ١٩ / ٢٢٢، ٢٤٢، ٣٠٥، ٣١١.

(٨٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٧، الزردكاش: الانيق في المناجيق ١٩٦، ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣ / ٣٨٢، ٥ / ١٣٤، ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ٢٠٣ وما بعدها.

(٨١): ابن غانم الاندلسي: مخطوطة العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ١٥، ٢٦، الرماح: مخطوطة القروسية والحرب والاسلحة ٨٨٠.

(٨٢): أبو شامة: الذيل على الروضتين ١٨٥، الحجاري وزملاؤه: النجوم الزاهرة في حلى مصر والقاهرة

على تجمعات الجنود المغوليين الذين حاولوا الاختباء في أماكن بعيدة عن مرمى الأسلحة العادية، لكن الأسلحة النفطية والنارية أدركتهم واثبتتهم ووسائهم وأسلحتهم فمزراع القصب التي التجأ إليها الجنود المغوليون احترقت بهم فطلبوا النجاة والهرب، وكان من لا تدركه النار يقتل بالأسلحة الأخرى (٨٣).

٤ - سلاح الهندسة العسكرية :

هو الجهاز الذي يتألف من المهندسين والنجارين والحجارين والعمال الاختصاصيين . من مهامه شق الطرقات الجديدة أمام تقدم الجيش وصيانتها، وبناء القناطر وحفر الممرات الإجبارية وتوسيعها، وفتح التحويلات ومد الجسور فوق الأنهار والوديان، وإصلاح القلاع المخربة والمتصدعة من جراء الحروب وصيانتها، وإنشاء الترع والخلاجان والسدود وبناء البحيرات (٨٤) وإقامة الأسوار، وإنشاء مستودعات الشؤون الإدارية المختلفة، ولا سيما مستودعات الأسلحة والذخيرة وتعمير الصحاري (٨٥) وإشادة الابراج المخصصة للمراقبة البحرية (٨٦)، وحفر الابار، وجبر المياه عبر السواقي والمجاري إلى مسافات (٨٧) كل ذلك من أجل تسهيل تحرك الجيش من مكان إلى آخر، ونقل الرجال والعتاد والأسلحة من ضفة إلى أخرى وتكوين الجيش بما يلزمه من المواد الضرورية، ولصد المياه عن القاهرة وتثبيت الدفاع عن المدن والقلاع . يسخر من أجل هذا العمل العمال العاديون من المواطنين، أما الجندي فلم يكن موجهاً إلا للقتال وأعمال التدريب، ويلزم المواطنون في أغلب الأحيان على العمل ويضربون ويعاقبون أشد العقاب إن أعرضوا أو تهاونوا، وتفرض الضرائب عليهم وتنفق الاموال الطائلة على الاشغال العسكرية،

(٨٣): الممذاني: جامع التواريخ ١ / ٢ / ٣١٤.

David Ayalon: Gun powder and Fire Arms in the Mamluk Kingdom: 14.

(٨٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١ / ٢٩١، ١٢ / ١١٣، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٤٤٦، ٥٤٤، ٥٦١، الداوداري: الدر الفاهر في سيرة الملك الناصر ٩ / ٣٨، ٨٠، ٨١، ١٢٤، ١٤٥ / ١٩١، ٣٢١.

(٨٥): ابن مماتي: قوانين الدواوين ٣١ / ٣٢، مبارك: الخطط التوفيقية ١ / ٩٦، ابن عباد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣ / ٦ / ٢٧٣، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣ / ١ / ٤٠٥.

(٨٦): ابن يحمي: تاريخ بيروت ٦٤٢.

(٨٧): ابن مماتي: قوانين الدواوين ٣١، المؤسسة العامة للتأليف والنشر القاهرة في ألف عام ٢٢.

وعلى متطلبات هذا السلاح (٨٨).

وتستخدم الآلات والجرافات والقطاعات للعمل السالف الذكر، وكذلك فإن صنع عدة آلات هندسية بأشكال مختلفة لاستخراج المياه، أو لحفر أو تعميق الخللجان وما إلى ذلك (٨٩).
يتفقد القائد الأعلى أو القائد العام أعمال هذا السلاح، فيجري التفتيشات المفاجئة أو المخططة على الجسور والمصانع والأبراج وعلى العمال الذين يقومون بتنفيذ هذه الأعمال، وعلى الأجهزة المختلفة، فيعطي التوجيهات ويأمر بالأصلاحات ويحضر تدشين المشاريع الحيوية في الجيش (٩٠)، لقد كان هذا السلاح متطوراً عند المغول إذ باستطاعتهم نصب الجسور الكبيرة على الأنهار العريضة بواسطة المهندسين والعمال الاختصاصيين وكانت الجيوش تمر عليه مع العربات والمجانيق والخيول والعدد الثقيلة. ولقد رأينا عندما اتجه هولاء نحو حلب - بعد أن دمر بغداد واحتلها فنصب ثلاثة جسور على نهر الفرات، جسر بالقرب من ملطية، والثاني عند قلعة الروم والثالث عند قرقيسيا (٩١)، وهذا السلاح عند المغول لا يختلف في مهامه عن مهام الجيش المملوكي. وفي معركة عين جالوت هل فكر الجيش المغولي بنصب الجسور فوق نهر الأردن لاجتياز هذا النهر أم فكر في استخدام الطوافات والسفن؟ نقول بكل تأكيد أنه تم استخدام بعض الجسور وأجتازوا هذا النهر إلى ضفته الغربية كما فعلوا من قبل عندما اجتازوا نهر دجلة عندما اقتحموا بغداد (٩٢)، ذلك أنهم قد اعتادوا على نصب الجسور، ومعهم الجهاز الكامل للسلاح الهندسي القادر على مثل هذه الأعمال وغيرها. أما الجيش المملوكي فقد تجنب اجتياز هذا النهر وذلك باتباعه الطريق الساحلي. والحق يقال إن السلاح الهندسي كان متطوراً في الجيش المغولي أكثر من الجيش المملوكي، وكان يتمتع بصفات فنية وعملية كبيرة، وله خبرة واسعة في هذا المجال، كما كان لجهازه القيادي ميزة في التنظيم والتخطيط والمعرفة الدقيقة

(٨٨): المقرزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢ / ٥٨٦ وما بعدها.

(٨٩): الناصري: مخطوطة الحيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٦٤ - ١٧٦، ابن الغوطي:

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٦٥.

(٩٠): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣ / ١٤٣، ١٥٥، ٢٢٤، ٤ / ١٩٧، ٢٤٦.

(٩١): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٧٩، ابن القوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة

السابعة ٣٤، ٣٤٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٣ / ٢١٩.

(٩٢): الهمذاني: جامع التواريخ ٢ / ١ / ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٨٨.

بالاعمال الهندسية.

٥ - السلاح البحري:

إن المراكب والسفن كانت تقسم إلى نهريّة (نيلية) وإلى بحرية، أو إلى حربية وإدارية، فالبحرية مجهزة للقتال، والإدارية للنقل (٩٣)، لعل ضعف هذا السلاح وعدم قدرته على خوض معارك بحرية أوحى على الأقل العمل في الأنهار كنهر الأردن هو الذي ألزم الجيش المملوكي أن يتجنب هذا النهر بسلكه محورا ساحليا. ولعل هذا الضعف أيضا قد أدخل في نفس قائد الطليعة الذي لمس آتئذ ضرورة تقوية هذا السلاح بعد معركة عين جالوت عندما آلت تقاليد الأمور بيده بعد ذلك.

وفي حال وجود معارك بحرية كما حدث فيما بعد عندما أقدم بيبرس على مهاجمة انطاكية بثلاث فرق قتالية بحرية، وكالمملك الاشرف عندما هاجم عكا بقوى بحرية وبرية لاهداف

(٩٣): إن الذي يهتما في هذا المكان هو جواب السؤال يأتي في التحضير لمعركة عين جالوت والسؤال هو: هل حمل الجيش المملوكي المراكب التي سيجتاز بها نهر الأردن؟ وهل كان بتصوره اجتياز هذا النهر، أم أنه خطط فقط للتحرك الساحلي؟ في اعتقادي من الوجهة الحربية، ومن الإحتتمالات التي ترد على فكر القائد الإستراتيجي. إن قادة الجيش المملوكي كانوا مخططين لاحتتمالين أولهما وهو الأهم التحرك على الشريط الساحلي، وثانيهما التحرك ساحليا وداخليا إلى أن الجأتهما الظروف ومتغيرات الحرب السريعة. ولعل المملوكيين كانوا يخافون ركوب البحر، كما هي عادة العرب القدامى من قبل، ففي هذا الاحتمال الثاني يمكن أن يحملوا معهم على ظهر الجمل بعض المراكب للتعدية كما فعل من بعد الظاهر بيبرس حين التقى مع المغول على نهر الفرات وملأ المراكب بالرجال والسلاح والمؤن وفي الاحوال العادية فإنه يجري نقل المراكب من مكان إلى آخر على ظهور الجمل عندما يعترض مسير أو هجوم جيش نهر كنهر النيل أو دجلة أو الأردن.

لاشك أن المراكب النهريّة في النيل كانت متوفرة قبل بدء المعركة الفاصلة كما الحاريق والدراغن والمراكب والشخاير فثلاثة من المراكب التي لا يمتثل نقلها، أما الشخاير فمن المحتمل أن تنقل مع الجيش المملوكي لانها خفيفة الوزن. مهمتها تعدية الجند من شاطئ إلى شاطئ، والتجول بحرية على الشريط النهري، وكذلك يمكن أن توجد بغض المعديات والمعدات الاخرى التي هي عبارة عن مراكب صغيرة. من هذا نستدل على أن هذا السلاح لم يشترك كله في هذه المعركة، وإنما اشترك منه بعض المراكب النهريّة التي لم تستخدم، إنها كانت كاحتياط لدى القيادة، أما القادة والأمراء والمهاليك السلطانية الذين يعملون في البحر، فقد اشترك أغلبهم في هذه المعركة، سيما وأن الأسلحة الاخرى كانت تتعاون مع بعضها في حال وجود معارك بحرية.

بحرية^(٩٤).

٦ - السلاح الكيميائي *

هذا السلاح قريب من سلاح النفط والنيران، ويتشابه هذان السلاحان، حتى لا يستطيع المرء أن يفصل بينهما. فالسلاح الكيميائي والعلماء القادرون على تركيب مواد لها تأثير على الجنود والعتاد والاماكن. وتتألف المواد الحارقة من الشحوم والقطران والزيوت والنفط والجير والبول والمركبات العديدة^(٩٥). يوضع هذا المركب في أوعية مختلفة الاحجام والانواع، وتقذف على تجمعات العدو، وعلى الأماكن المحصنة، وعلى السفن أو البيوت بحيث تشكل دخاناً خانقاً، أو غازاً أو ناراً تؤثر في القوى الحية والعتاد^(٩٦)، فهناك القذور التي يسبب انكسارها على العسكريين الدخان الخائق الذي يسد مجاري التنفس، ويدخل في الاعين أو تسبب ببعض المواد الانزلاق في أرض السفينة، وذلك كله من أجل أرباك الخصم، أو إخراجة من المعركة بموت أو هرب. وهذه القذور متعددة بعضها من مواد نفطية والآخر من مواد كيميائية أو من مواد نفطية وكيميائية معاً حارقة وخائفة في آن واحد، منها ما يفجر ذاتياً، ومنها بواسطة، ومنها ذات الثقوب، ومنها غير ذلك وهي ذات أشكال وأحجام مختلفة. وأهم هذه القذور العراقي والمنتن والمخرم والصنوبر والمختفي والسقطط والمراكب^(٩٧)، وهي ترمى بوسائط مختلفة، أما التي ترمى بواسطة المنجنيق فهي القذور الحديدية والمحرمه والعجمية والمغربية^(٩٨).

لقد كان لهذا السلاح بالاشتراك مع سلاح النفط والنيران تأثير كبير في معركة عين جالوت،

* هذا استكمال للبحوث العسكرية.

(٩٤): ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٤٧ / ١، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢١ / ٥٦٧، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ٢ / ٢١٦.

(٩٥): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١١٥ وما بعدها، الزردكاش: الانيق في المناجيق ١٧٦.

(٩٦): النويري الاسكندراني: الامام ١١٤، ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ٢٠٣ وما بعدها، العدوي: الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط ١٦٣.

(٩٧): الزردكاش: الانيق في المناجيق ١٦٩، ١٨٣، ١٩٣.

(٩٨): الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٨٨ وما بعدها، الذهبي: مخطوطة المقصود في العلم والعمل بالبنود ٣٩، ٤٠.

فقد أستطاع هذا السلاح بمجموعاته أن يخرج الجيش المغولي من المعركة، وأن يؤثر على مسار القتال. ولم تكن بعض البيوت التي يختبئ فيها بعض الجنود المغول منقذا لهم، وبخاصة بعد أن ألقيت عليهم القنابل الكيميائية وهم في داخل البيوت والمزارع^(٩٩). تطور هذا السلاح فيما بعد وصنعت كميات كالتى تستعملها الجيوش الحديثة في هذا العصر ضد تسرب الدخان إلى المجاري التنفسية وسموها (أزقاق) يدخلون رؤ وسهم فيها لتصفية الهواء الملوث، وكان الجيش المملوكي يستخدم أيضا الضروف من الخزف والنحاس والحديد بعد تفرغها وخلوها من الدخان وإذا كان الجنود في غرفة فتحوا منافذها ليتخللها الهواء النقي ويطرد الهواء الملوث^(١٠٠).

ثالثا: الأسلحة « الوسائط القتالية »

لقد استخدمت في معركة عين جالوت الكثير من الأسلحة والوسائط القتالية. ولكل سلاح أنواع مختلفة من وسائط القتال التي اختص بها، إلا أنه من الملاحظ أن أغلب وسائط القتال تشابه مع بعضها البعض في أغلب الأسلحة: الفرسان والبحرية والمدفعية وإذا أريد تصنيف وسائط القتال لصنفت إلى هجومية ودفاعية، أو حسب نوع السلاح إن كان بحريا أو كيميائيا أو هندسيا. وقد تصنف إلى أسلحة وعتاد وذخيرة فالأسلحة كالسيف والرمح والنشاب، والعتاد كالخوذة والدرع والسفينة والقطاعة والذخيرة كالقنابل والحشوات الدخانية والنبال وطلقات المدافع وحشوات نافثات اللهب. ومن المفيد هنا أن تأتي على ذكر الوسائط القتالية في كل سلاح من الأسلحة التي مر ذكرها.

١) الوسائط القتالية في سلاح الفرسان :

توجد وسائط قتالية في هذا السلاح أكثر من غيره، وهي الوسائط الرئيسية التي يمكن أن تتعدد أو تتكرر في كل سلاح، ولا غنى للمقاتل عنها أين كان موقعه وفي أي معركة هجومية كانت أو دفاعية، برية كانت أم بحرية وأهم هذه الوسائط :

- السيف :

لقد أهتم الاقدمون بالسيف، وأهتم به الجيش العربي في فتوحاته^(١٠١) وكان أشهر السيوف

(٩٩): الهمداني: جامع التواريخ ٢ / ١ / ٣١٤.

(١٠٠): الناصري: مخطوطة الحبل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٠٥.

(١٠١): ابن عبد ربه: العقد الفريد ١ / ١٢٨ وما بعدها.

السليمانية والهندية واليهانية والدمشقية والسريجية، على أن السيوف الرومية كانت أقطع وأقوى^(١٠٢). وقد أطلق عليها العديد من الاسماء والادوار كالاصليت أي الصقيل، والباتر أي القاطع والخشيف أي الحاد، والصمصام الذي لايشني وقد اشتهر صمصامة عمرو بن معدي كرب وكان من أمضى السيوف وأحسنها^(١٠٣)، والقرضاب الذي يقطع العظام، ومرهف والمدجل ومغول أي السيف الرقيق وهندواني وهو المصنوع في الهند واليهاني في اليمن^(١٠٤). ولل سيف أجزاء لها تسميات منها الحد والشفرة والقبعة^(١٠٥) ولقرايه أسماء منها الغمد والجعد والجلبان كالحلية أسماء منها الرصائع وهي الخلق المستديرات وتحلى به السيوف، والنعل وهو في أسفل القراب من فضة^(١٠٦).

السيف كان امتدادا وصل إلى الجيش المملوكي في كثير من الصفات التي وصل بها في فتوحات العرب وفي غزوات صلاح الدين الأيوبي. وقد كان السيف في الجيش المملوكي سلاحا رئيسيا حتى أنه ليعتبر من أكبر الهدايا وأفخرها بين السلاطين أو الملوك. يصنع من الحديد أو الفولاذ ويوشى النصل بالذهب والفضة. ويوجد منه المستقيم والمقوس. وأشتهرت مصر والشام واليمن والهند وبلاد فارس بصناعة السيوف^(١٠٧). فالسيف الدمشقي كان له ميزة عن غيره في كثير من الصفات الفنية^(١٠٨). فالشركسي كان يستخدم السيوف ذات النصول المنحنية أو المستقيمة والتي ليس لها واقية لليد والمصنوعة في فارس^(١٠٩)، وهناك السيوف التي

(١٠٢): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ١ / ١٥٦، الألوسي: بلوغ العرب في معرفة أصول العرب ٢ / ٦٢ وما بعدها، زيدان: التمدن الإسلامي ١ / ١٥٦.

(١٠٣): الثعالي: ثمار القلوب ٦٢١، ابن عبدربه: العقد الفريد ١ / ١٨٠، الإشبهي: المستطرف في كل مستطرف ١ / ٣٠١.

(١٠٤): النويري: نهاية العرب في فنون الأدب ٦ / ٢٠٢ - ٢٠٦.

(١٠٥): النويري: المصدر نفسه ٦ / ٢٠٧.

(١٠٦): النويري: المصدر نفسه ٦ / ٢٠٩، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٢.

(١٠٧): زكي: السلاح في الإسلام ٣٥.

(١٠٨): زيادة: دمشق في عصر المهاليك ١١٠، الاسكندري: تاريخ مصر ٢٢١، وسرلر: الحضارة العربية،

١١٧، ١١٨، ١١٩.

(١٠٩): زكي: المرجع نفسه ٣٦.

يحملها الامراء في المواكب والاستعراض المحلاة بالذهب والمرصعة بالجواهر وهي في خريطة من ذهب لا تظهر إلا رؤوسها (١١٠).

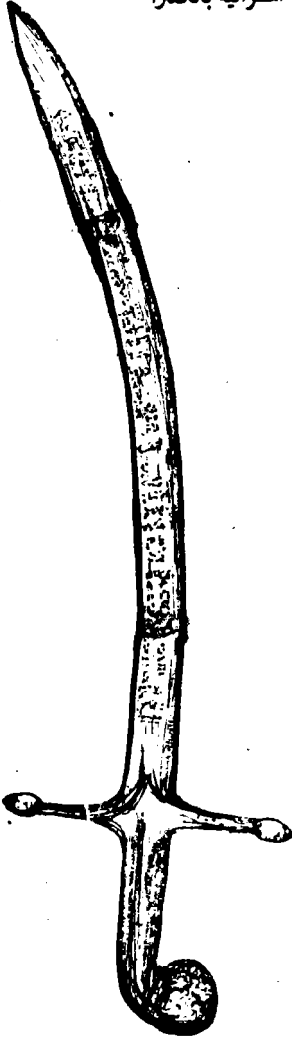
يلبس الجندي المملوكي السيف من جهة اليسار (١١١) ويأخذه الفارس بيده اليمنى ، ويغمده أثناء الجري ، ويمكن أن يدار السيف خلف الظهر ويغمد تحت الفخذ ، أو يؤخذ بالفم ويغمد على الرأس (١١٢) .

(١١٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ٤٧٢ .

(١١١): القلقشندي: صبح الاعشى ٣ / ٤٧٢ .

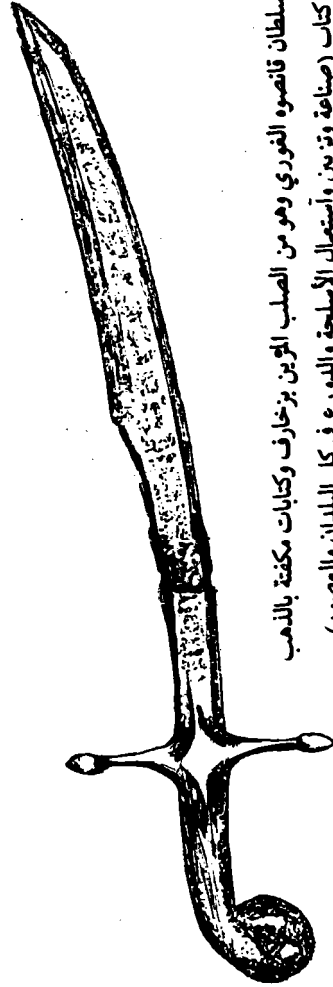
(١١٢): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ١٣ وما بعدها .

نماذج من السيوف المملوكية
متحف المطرانية بانكلترا

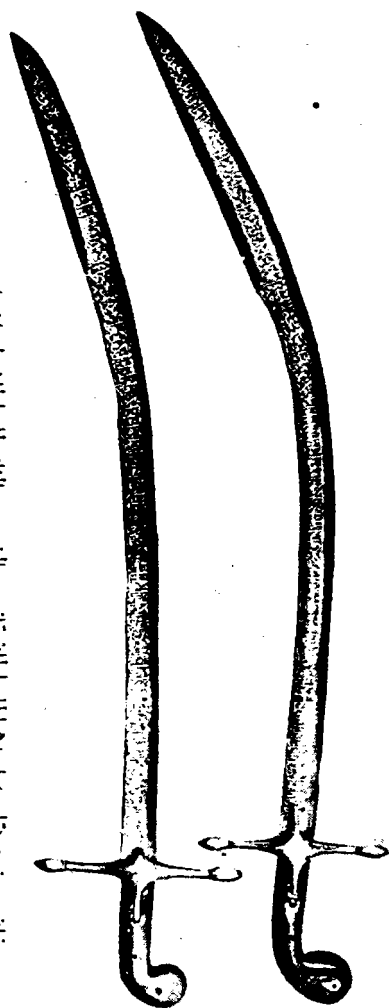


سيف للسلاطان طومان باي وهو من الصلب الزرين بزخارف وكتابات مكفته بالذهب

سيف السلطان قانصوه الغوري وهو من الصلب الثمين بزخارف وكتابات مكثفة بالذهب
 نقلا عن كتاب (صناعة وتزيين وأستعمال الأسلحة والدروع في كل البلدان والمصور)
 جورج كامرون ستون (George Cameron Stone)

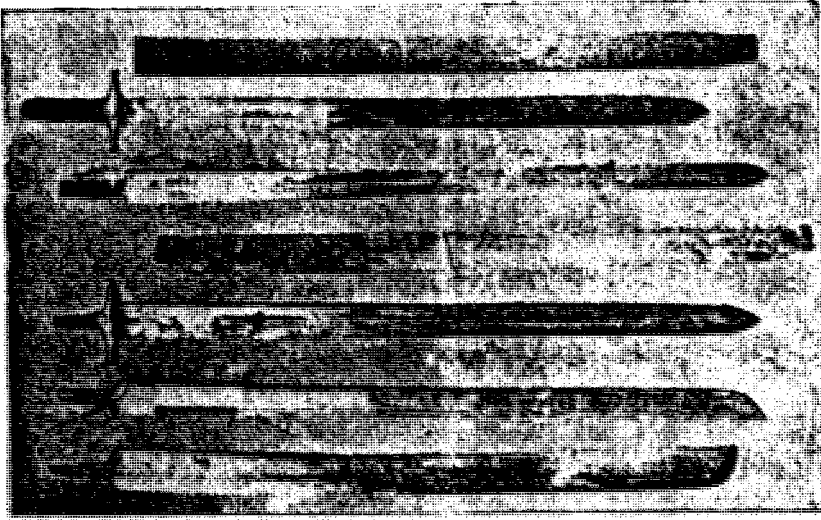


سيفان من نوع (فليج) اهداهما للسلطان قانصوه الغوري والثاني للسلطان طومان باي
تصويراً عن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة



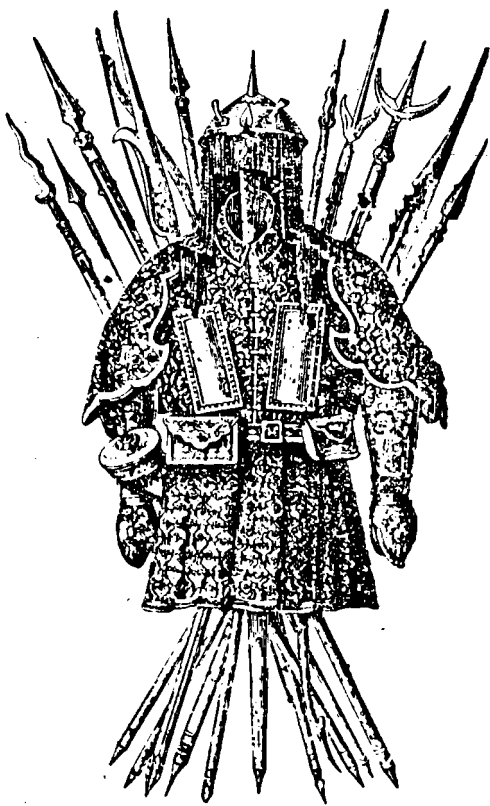
سيف مملوكي مستقيم ذو حدين للسلطان طومان باي
تصويراً عن طوب قابو سراي باستنبول

سيوف مملوكية مختلفة نقش علي كل واحد اسم صاحبه



تصويراً عن متحف الفن الاسلامي بالقاهرة

سيوف مملوكية مختلفة نقش علي كل واحد أسم صاحبه
تصويراً عن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة



« بعض أسلحة المغول الخفيفة »
عن تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي

إن السيوف المفضلة في القتال هي السيوف الدمشقية التي كانت لها شهرة كبيرة، حتى أن الجيش المغولي والجيش الأخرى كانت تسعى للحصول عليها والسيوف الفارسية، « شاسمير » التي تتميز بحدتها وانحنائها وقبضتها البسيطة، والسيوف التركية التي كانت أعرض وأقصر وأقل أنحناء من الفارسية، ويستخدم في الطعن في حين أن الفارسي يستخدم في القطع، وكانت القبضة من القرون أو العاج. وقد كان قادة التشكيلات والقائد الأعلى والقائد العام للجيش المملوكي يحبون أن يقتنوا مثل هذه السيوف وفي معركة عين جالوت بدأ هؤلاء جميعاً وكأنهم إلى معركة يدعون، أو إلى عرض يستقبلون^(١١٣).

- الرمح:

سلاح من أسلحة الفرسان الرئيسية، وله دور كبير في القتال^(١١٤)، وهو آلة للطعن تصنع من القنا وعود القصب المسدود من الداخل أو من خشب الزان. وله أسماء وصفات كثيرة منها: الأسمر وهو الدقيق، والخطي وهو ما نسب إلى مكان باليامة^(١١٥)، والرديني المنسوب إلى مرآة، والسمهرية المنسوب إلى سمهر، والشراعي وهو الطويل، ويضرب المثل في طول الرمح فيقولون: ((طول الرمح))^(١١٦) والصدق وهو الصلب، وعتل وهو الغليظ^(١١٧). . . وهناك الرماح الخاصة التي يحملها المرافقون للسلطان وهي موشاة بالذهب ومن الأنواع الخفيفة والجميلة^(١١٨). وللمرّح أصول وشروط تتبع أثناء استخدامه ستعرض لها في فصل « التدريب والعمليات » وأكثر ما تكون على الخيل^(١١٩)، ومن الرماح ما تحمل النفط والنار، وتستخدم في المعارك وفي حرق المزارع كما حدث في معركة عين جالوت ويطلق عليها « الرماح

(١١٣) : Magazine Orientalia vol. IV / 367.

(١١٤) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ١٢ / ١٢٢، ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤ / ٤١٣.

(١١٥) : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ١ / ٦٠، ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٥.

(١١٦) : الثعالبي : نثار القلوب ٦٢٦. (١١٧) : النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ٦ / ٢١٤.

(١١٨) : القلقشندي : صبح الاعشى ٢ / ١٣٣.

(١١٩) : الرماح : مخطوطة في عمل الرمح على الأرض والفرس ٥٩، ناصر الدين : مخطوطة المخزون لارباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح : ٣٠، زيدان : التمدن الإسلامي : ١ / ١٥٦، الابشيهي : المستطرف في كل

مستطرف ١ / ٢٩٧.

النارية» (١٢٠). ويحمله الفارس بيمينه.

- القوس :

أهتم المماليك بالقوس كما أهتم بها العرب من قبل . وقد أطلق عليها أسماء عديدة منها : جشو وهي الغليظة . وجلهق وهي قسي البندق، وحنانه وهي التي لها مرونة عند الانباض، وحاشكه وهي البعيدة المرمى ، كما لوترها أسماء وكذلك لاصواتها، وكذلك في تركيبها ومبدأ العمل بها (١٢١)، ولها أجزاء هي الكبد، الكلية، الطائف، السية، اليد، الرجل، المقبض، الفرضة، والظفر (١٢٢)، واشتهر من القسي العصفورية والماسخية وتغنى بها الشعراء وكذلك الدمشقية التي امتازت بدقتها (١٢٣).

- النشاب :

هكذا كان الجيش المملوكي يسميه، ويدعى أيضا السهم أو النبل . له عدة أنواع منها المريخ، النبع، الشوحط والخطوة، وله عدة أقسام : النصل، العود، العقب والعوف (١٢٤) وقد اشتهر نشاب هذا الجيش بجودته وشدته ومدته البعيد وصلابته (١٢٥).

Rey - les Colonie Franques De Syrie Aux XII meet XIII me: Siecies pages: 32 : (١٢٠).

(١٢١): النويري: المصدر نفسه ٦ / ٢٢٢ وما بعدها، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٤.

(١٢٢): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية يرسم العمل به ٢٠، التويري: المصدر نفسه ٦ / ٢٢٢.

(١٢٣): الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٢ / ٦٥، الحجازي وزملاؤه: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٦٠.

(١٢٤): القلقشندي: المصدر نفسه ٢ / ١٣٥، زكي: السلاح في الإسلام ٣٣.

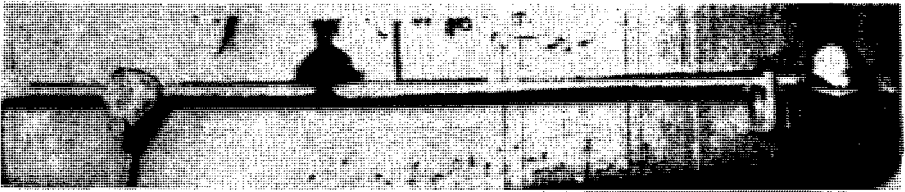
(١٢٥): الثعالبي: ثمار القلوب ٦٢٧.

- الدبوس :

هو العמוד الذي له رأس مدور، ويضرب به على الرأس ليتخطم غطاء الرأس « الخوذة » أو القناع (١٢٦) والدبوس كلمة فارسية تعني المقمعة وهي تعطي نفس المعنى في التعريف السابق (١٢٧) وله أنواع مختلفة وصفات مختلفة ويوضع تحت فخذ الفارس (١٢٨).

دبوس

دبوس



تصويرا عن المتحف الحربي بدمشق

تصويرا عن المتحف الحربي بدمشق

(١٢٦): الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ٢ / ١٦٤، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٦٤ / ٢.

(١٢٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢، ٧٦، ٢٧٢، الكلداني: الالفاظ الفارسية المعربة ٦٠.

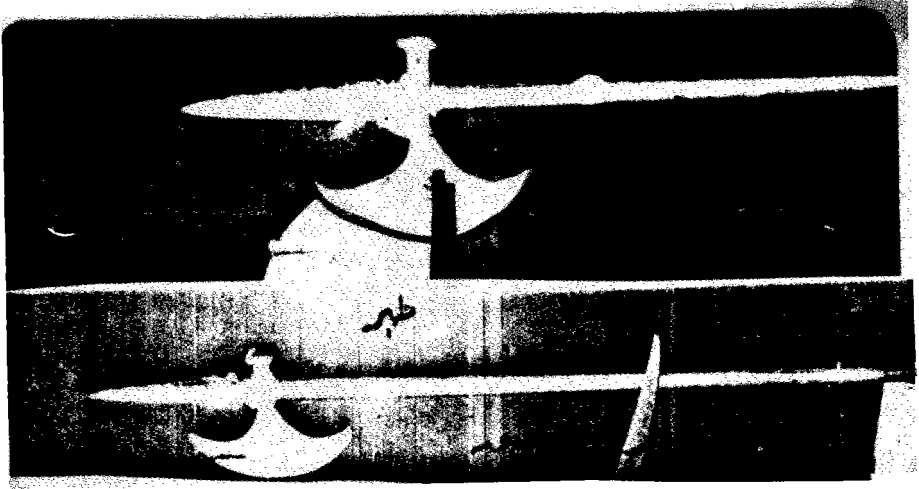
(١٢٨): الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٧٨ وما بعدها، الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٣٧.

- الطبر :

الفأس وهي معربة وأصلها آرامي (١٢٩). وهي آلة حديدية قاطعة. ولهذا السلاح أمير ((أمير طبر)) و(طبردارية) من الجنود يحملون هذا الفأس (١٣٠)، ويصنع من الحديد على شكل هلال نصف دائرة، وله مقبض من خشب أو حديد. ويضعها الفارس في حلقة في سرج فرسه (١٣١). وهناك اللتوت: الذي يشبه الطبر وهو من الاعمدة التي لها رؤوس مستطيلة ومضربة وكذلك المستوفيات: التي لها مقابض مدورة (١٣٢) والعامود: يستخدم لضرب الرأس والانف أو العضد أو الركبة أو الدابة.

ويعلق العامود في كلاب من سرج الفرس عند ركبة الفارس اليسرى.

طبر



طبر تصويرا عن المتحف الحربي بدمشق

(١٢٩): الكلداني: الألفاظ الفارسية المعربة ١١٠، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٤.

(١٣٠): القلقشندي: المصدر نفسه ٥ / ٤٦٢، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٨٠٨.

(١٣١): زكي: السلاح في الإسلام ٣٩.

(١٣٢): القلقشندي: المصدر نفسه ٣ / ٤٧٤، المقرئزي: الخطوط ٢ / ٢١٥، ماجد: تاريخ الحضارة

الإسلامية ٦٥، ٦٦.

- الطارق: جمع طوارق:

هو نوع من الرماح عرفت به حارة كاملة في القاهرة « حارة الطوارق » (١٣٣). ويظهر أن هذا السلاح كان منتشرًا في الجيش المملوكي، وكانت تحمله الجمال لأمداد المقاتلين « مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة وكان الفارس يأخذها بشماله.

- النمجاه:

وهي كلمة فارسية معناها الخنجر أو السيف الصغير أو السكين المنحنية، وهي آلة حربية وقد يطلق عليها الجنيه (١٣٤)، ويضعها الفارس في حزامه على جنبه أو في خفه، ويصطحبها في جميع حروبه، ويستخدمها في القتال، وهي تتلائم مع سرعة الضرب، وخفة الحركة (١٣٥). وأشهرها ما يصنع في فارس والهند (١٣٦).

- القطاعة:

وتسمى أيضًا المطرقة وهي مصنوعة من الحديد تستخدم لهدم الاسوار والقلاع والأبنية. وقد استخدمها الظاهر بيبرس عندما فتح القلاع والحصون، واشترك مع الجنود في هدم سور قيسارية (١٣٧).

- الدرع:

هو قميص منسوج من الزرد على شكل حلقات متصلة فيها بينها للوقاية من السيوف وأدوات الحرب. وقد يلبس المقاتل درعين. للدروع أسماء عديدة منها دلاجي، السلوقي، سابريه وهي

(١٣٣): المقرئزي: الخطط ٣ / ٢٤، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٥.

(١٣٤): ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥ / ١٣٤، النويري الاسكندراني: الألبان ١٠٥، أبو شامة: كتاب الروضتين ١ / ٢٧٠.

(١٣٥): الدواداري: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ٧ / ٥٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٠ / ٢٣، ١٢ / ١٤٥.

(١٣٦): زكي: السلاح في الإسلام ١٩.

(١٣٧): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٥٢٥، ٥٢٦، زكي: السلاح في الإسلام ٤٥.

(١٣٨): النويري: نهاية الارب في فنون الأدب ٦ / ٢٤١، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٥، الألويسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٢ / ٦٦.

الريقة النسج، سابغة وهي الواسعة، ويلبس وهي يمانية تصنع من الجلود (١٣٨).
- الجوشن:

هودرغ إنما بين الحلقات صفائح حديدية. وقد يكون من الجلد، وهو أهم الأسلحة الدفاعية المضادة للسهام والسيوف والأسلحة النافذة (١٣٩).
- القرقل:

هي نوع من الدروع، أو هي زردية بغير أكمام، تصنع من صفائح الحديد، وتبطن بالديباج الأصفر والاحمر (١٤٠).
- الزردية:

منها زردية تغطي الصدر، ومنها مسبلة تغطي الجسم كله حتى القدمين وحتى قوائم الفرس (١٤١).
- الترس:

يصنع من الخشب أو الجلد أو الحديد (١٤٢) منه المسطح والمستدير والمستطيل، على أنه الغالب هو المستدير وينسب الترس إلى مكان صنعه كالعراقي والدمشقي. ومن اسمائه بصيرة، جوب، جحفة، وهو الترس الصغير، فرض وهو الخفيف، ققع (١٤٣)، ويطلقون عليه في الجيش المملوكي الخنويات (١٤٤).

(١٣٩): النويري: نهاية الارب في فنون الأدب ٦ / ٢٤١، مجهول: مخطوطة الحيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٤٩، زكي: السلاح في الإسلام ٢٧.

(١٤٠): ابن تفردي بردي: النجوم الزاهرة ١٢ / ٢٠٧، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٦، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٧.

(١٤١): زكي: السلاح في الإسلام ٢٧.

(١٤٢): الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٢ / ٦٧.

(١٤٣): زيدان: التمدن الإسلامي ١ / ١٥٧، زكي: السلاح في الإسلام ١٦.

(١٤٤): النويري: نهاية الارب في فنون الأدب ٦ / ٢٣٩.

- الخوذة (البيضة):

هي الشكل المصنوع من الحديد أو الجلد أو الزرد، والتي تقي الرأس من الضربات (١٤٥).

خوذة مملوكية تصويراً عن المتحف الحربي بدمشق



تصويراً عن المتحف الحربي بدمشق

(١٤٥): النويري: نهاية العرب في فنون الأدب ٦ / ٢٣٩.

- المغفر:

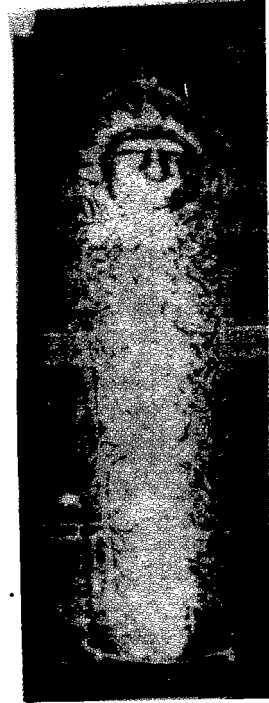
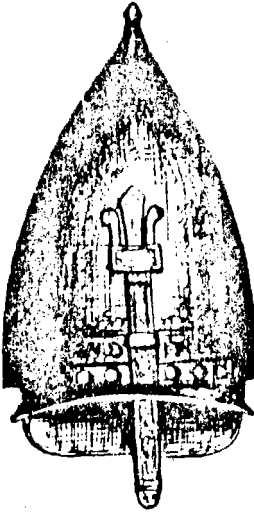
هو كالبيضة، إنما هناك صفيحة تتصل بالبيضة من قفا المقاتل لوقاية اذنه ورقبته وأحيانا أنفه وقد تكون من زرد (١٤٦).

- الواقية:

مصنوعة من الحديد أو الجلد أو الخشب أو الشعر أو الوبر أو الصوف (١٤٧) ويلبسها الفارس أثناء المعارك.

واقية يد

خوذة معدنية للسلطان برسباي المملوكي بمتحف اللوفر



(١٤٦): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٠١، ابن الساعي: الجامع

المختصر ٢٩٥، القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٥.

(١٤٧): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٠١.

نرس مستدير من حديد تصويراً عن المتحف الحربي بدمشق



خوذة وصفيحة وقاية للمقاتل المملوكي
تصويراً عن المتحف الحربي بدمشق



زردية صدر

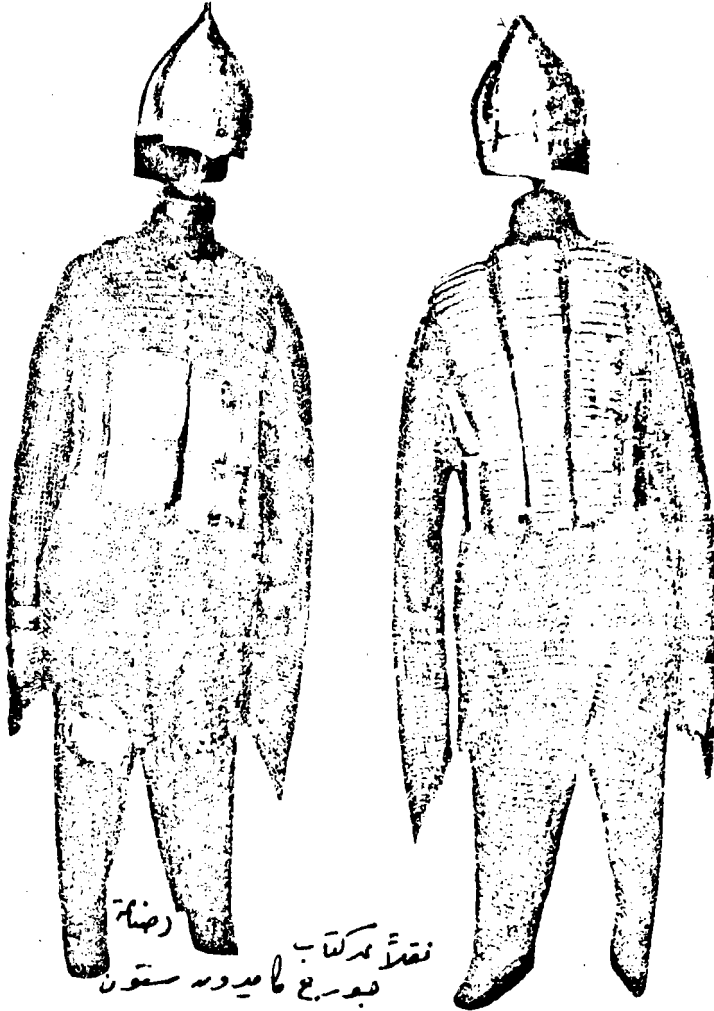
تصويراً عن المتحف الحربي بدمشق



زردية مسيلة

تصويراً عن المتحف العسكري باستانبول

نماذج من الدروع (الجواشن) متحف المطرانية بانكلترا



نقلاً عن كتاب (صناعة وتزيين واستعمال الأسلحة والدروع في كل البلدان والعصور)



دندنيو اسفقال الالاسفحة والدرع في كل البديان والصور
(George Cameron Stone)

(George Cameron Stone)

الجورج كاميرون ستون

٢) الوسائط القتالية في سلاح المدفعية:

إن من أهم الوسائط المنجنيق (ج) مجانيق ومناجيق ويقال عنه أيضا منجنوق والكلمة فارسية (من جه نيك) من جه معناها ايش ونيك جيد ويكون المعنى الكامل الطريقة الجيدة في الحرب (١٤٨). المنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل، وذنبه خفيف، وفيها تكون كفة المنجنيق التي تحمل الحجر ثم تقذف. طور المماليك هذه الوساطة من حيث المدى ووزن القذيفة (١٤٩) والعرادات وهي آلة لرمي الحجارة والمواد الاخرى التي يرميها المنجنيق وهي تشبهه إلا أنها أصغر منه (١٥٠).

- ومدافع النفط: يدعى مكاحل النفط أو المكاحل أيضا، وهي التي يرمي عليها النفط والمواد المشتعلة التي تسبب في اتحادها مع النفط نارا قادرة على حرق الابنية والمزارع (١٥١) كما حدث في معركة عين جالوت. إذ أن في هذه المعركة استخدم النفط بصورة واسعة، وكان له دور كبير في إشعال الحرائق وأمكنة إلتجاء الجيش المغولي. ولم يكن الجيش المملوكي قد تعرف بعد على البارود. فإذن في هذه المعركة استخدم المناجيق والمدافع النفطية التي ترمي السهام والحجارة والكرات الحديدية والمواد الجرثومية والحيات والعقارب والمواد النفطية الحارقة (١٥٢).

- مدافع البارود:

أكتشف المماليك البارود، وطوروا سلاح المدفعية فأصبح المدفع يرمي مقذوفه بقوة مع

(١٤٨): الكلداني: الألفاظ الفارسية المعربة ١٤٦.

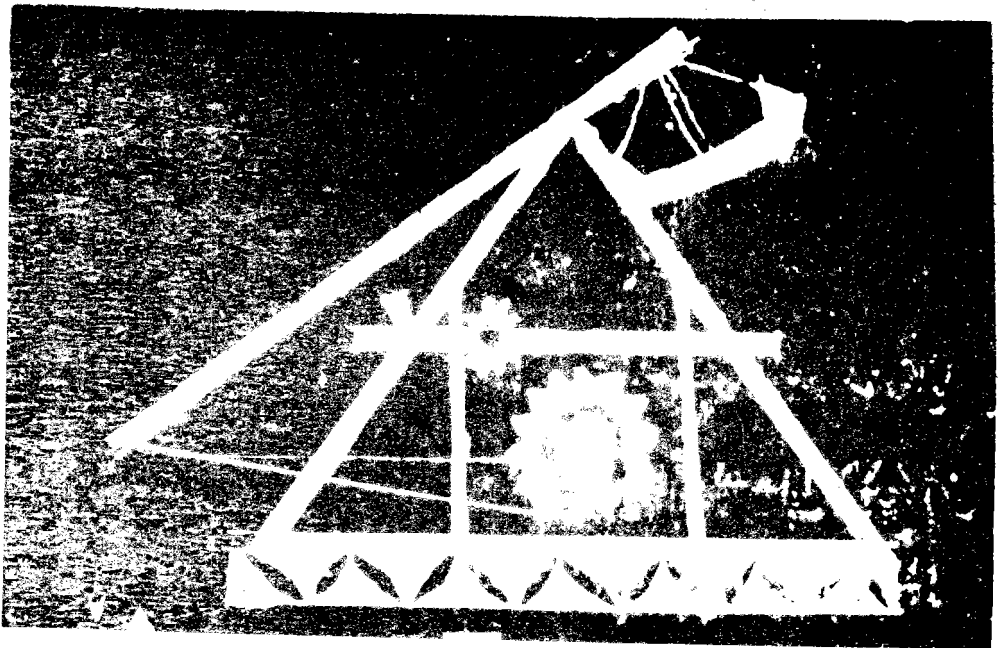
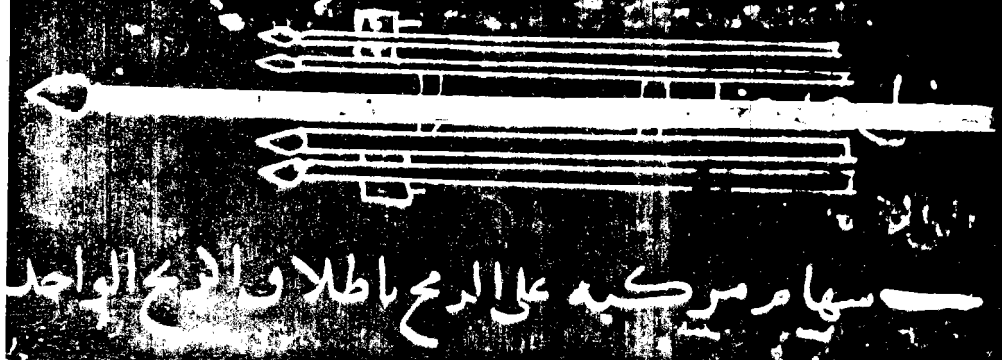
(١٤٩): ابن عبد الطاهر: تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٧٦، ١٤٩، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٢ / ١٣٨.

(١٥٠): الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ٣٤٥، الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٦٧ / ٢.

(١٥١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢ / ١٩، ٢٢٢، ٢٤٢، ٣٠٥، ٣١١، ٣١٢.

(١٥٢): الزردكاش: الاتيق في المناجيق ٤٤، ٤٥، الألوسي: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٦٧ / ٢، زيدان: التمدن الإسلامي ١ / ١٥٨، ١٩٣.

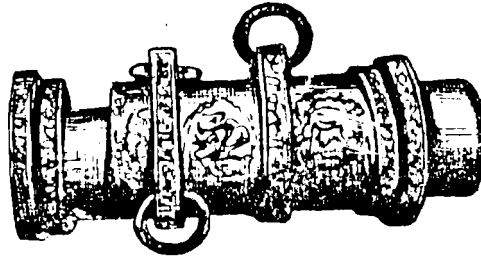
نقلًا عن مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة للرماح



البارود، والسبطانة من حديد أو نحاس لتحمل الضغط، ويستخدم ضد القلاع والحصون^(١٥٣)، وبهذا فقد كان الجيش المملوكي أول من أستخدم مدفعية البارود أو مكاحل البارود، ولهذا فإن مدى القذائف قد ازداد، وكذلك قوة التدمير والإنفجار^(١٥٤). وهناك السبقيات وهي نوع من أنواع مكاحل البارود^(١٥٥).

(٣) الوسائط القتالية في سلاح النفط والنيران :

إن من أهم الوسائط : الجرخ (ج) جروح وهي آلة ترمي النفط المشتعل كما ترمي البندق والسهم، وهي من الأسلحة الفردية التي يعمل عليها مقاتل واحد يطلق عليه جرخي . وهذه



مكحلة (مدفع) تصويراً عن المتحف العسكري باستانبول

-
- (١٥٣): القلقشندي : صبح الاعشى ٢ / ١٣٧، ١٣٨، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٦.
(١٥٤): الزردكاش: الانبيق في المناجيق ١٩٦ وما بعدها، ابن غانم الأندلسي: مخطوطة الغر والنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ١٥، ٢٦، الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٨٨.
(١٥٥): ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ١ / ٢٠١، ابن أياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور.

الواسطة كانت معروفة من قبل . وهذا اللفظ بالذات استخدمه الايبويون^(١٥٦) ، والسهم الحارقة التي منها المخفي والنجمي والرقيق واللزاق^(١٥٧) ، والقذور الحارقة التي منها المحرمة والعجمية والغريبة^(١٥٨) ، والقنابل الفخارية التي كان يطلق عليها الجرار أو الاباريق ، وكانت ذات قياسات مختلفة^(١٥٩) ، والرماح النارية التي تحمل النفط والنار^(١٦٠) وصواريخ النفط التي كانت توجه ضد الاهداف وبخاصة المراكب فتشعلها نارا^(١٦١) ، وكعكات النفط والقنابل الموقوتة

سبطانة مدفع تصويرا عن المتحف العسكري باستانبول



- (١٥٦) : الدوادري : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ٧ / ١٠٦ ، النوري الاسكندراني : الامام ٢ / ١٣٨ .
 (١٥٧) : الزردكاش : الاتيق في المناجيق ١٨٥ ، ١٨٧ ، الرماح : مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٧٠ .
 (١٥٨) : الرماح : مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٨٨ وما بعدها ، الذهبي : مخطوطة غاية المقصود في العلم والعمل بالبند ٣٩ ، ٤٠ .

Rey - Les Colonie Franques De Syrie Aux XI^{me} et XII^{me} Siecles pages 32. : (١٥٩)

Rey - Les Colonie Franques De Syrie Aux XII^{me} et XIII^{me} Siecles pages 40. : (١٦٠)

(١٦١) : ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣ / ١١٢ .

(Time-bomb) التي تنفجر لتوقيت زمني فتنتشر النار إلى مساحات كبيرة (١٦٢)، والزراقة وهي عبارة عن اسطوانة خاصة من حديد يوضع فيها المزيج النفطي والمواد المشتعلة، وهي تقذف هذه المواد إلى مسافات كبيرة (١٦٣) والدبابيس الحارقة والشعلات والخلائط النارية المختلفة (١٦٤) والمرارة الحارقة التي توجه ضد الاهداف المراد حرقها (١٦٥).

٤) الوسائط القتالية في سلاح الهندسة العسكرية:

إن من أهم الوسائط هي: الجرافات والعلوفات والقطاعات والمنتشار والصفائح والقضبان الحديدية والأخشاب وشبك الرصاص وحبال القنب المشدودة وذلك لشق الطرقات وهدم الاسوار ونصب الجسور (١٦٦) وكذلك الدواليب والحفارات لحفر الابار واستخراج المياه (١٦٧).

٥) الوسائط القتالية في سلاح البحرية:

إن الوسائط في هذا السلاح كالقوى البرية مع بعض الاختلافات التي يتطلبها اختصاص البحرية ففيه الستائر وهي آلات لوقاية الاسوار والسفن من الأسلحة الهجومية (١٦٨) والمدفع ومكاحل البارود والمجانيق وقدر الحيات والعقارب والأسلحة النفطية والمركبات الكيميائية فإنها وسائط لا تختلف عن وسائط القتال البرية (١٦٩)، أما الوسائط الخاصة بسلاح البحرية فأهمها

(١٦٢): المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢ / ٢ / ٤٩٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٤ / ١٨٦.
(١٦٣): أبو شامة: الذيل على الروضتين ١٨٥، الجماري وزملاؤه: النجوم الزاهرة في حل حضرة القاهرة ١٦٣.

(١٦٤): الزردكاش: الانيق في المجانيق ١٩٨ وما بعدها، ٢١٠ - ٢٢١، الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٣٦.

(١٦٥): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٦٣.
(١٦٦): ابن ممتي: قوانين الدواوين ١٦، الدواداري: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٩ / ٢٨٤، ٤٠٠، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ٨٨، المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢ / ٢ / ٥١٤.

(١٦٧): ابن الغوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٦٥.
(١٦٨): القلقشندي: صبح الاعشى ٢ / ١٣٨.

(١٦٩): الزردكاش: الانيق في المجانيق ٢، ٣، ٥، ٦، ابن يحيى: تاريخ بيروت ٣٨، ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية ٢٠٣.

للجام وهو كالمزج المضلع يكون في مقدمة السفينة وهو حاد بارز إلى الامام يستخدم في خرق السفن المعادية، فإذا تم ذلك دخل الماء إلى السفينة المخروقة فغرقت (١٧٠)، والكلايب وهي من حديد مثبتة في حبال من قنب تلقى على سفن العدو فتوقفها ثم تحرق، وتلقى الألواح من الخشب بين السفينتين وينشب القتال داخل السفينة (١٧١)، والفؤوس وهي آلات قاطعة للكلايب، فيما إذا تعرضت السفينة لمثل هذه الكلايب سلطت عليها الفؤوس فتقطعها فتفلت من الأسر أو المصيدة (١٧٢) والسفن والمراكب المختلفة الحربية والإدارية التي تدخل في الأسطول كالحراقة والجلبة والطريدة والغراب (١٧٣)

٦) الوسائط القتالية في السلاح الكيميائي:

هناك الكميات وهي عبارة عن قدور من الفخار صغيرة الحجم ملء الكف محشوة بجزر وبول، ومدورة كالعنبر اليدوية التي نراها اليوم هجومية ودفاعية وهي تلقى على الأماكن المراد الاستيلاء عليها كالسفن والحصون وأمكنة تجمع العسكرين، إذ باصطدامها بجسم صلب تنكسر فيخرج منها الجير الذي يدخل في أجهزة التنفس (١٧٤)، والكميات (أزقاق) وهي فردية يستخدمها المقاتل أثناء انتشار الغاز والدخان (١٧٥) والمركبات الكيميائية التي تدخل في تركيبها كثير من النفط والزيت والشحم والقطران وغيرها (١٧٦).

(١٧٠): ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ٢٠٣، العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ١٦٣.

(١٧١): ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ٢٠٣، العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ١٦٣.

(١٧٢): ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ٢٠٣.

(١٧٣): ابن عاتق: قوانين الدواوين ١٦، ابن يحيى: تاريخ بيروت ٢٢٠ وما بعدها، النويري الاسكندراني: الامام ٢ / ٢٣٤، العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ١٥٣، زكي: السلاح في الإسلام ٤٢، متر: الحضارة الإسلامية ٢ / ٣٨٩.

(١٧٤): ابن طولون: مفاتيح الخلافة في حوادث الزمان ١ / ٢٠١، ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور

٤ / ٢٠١، النويري الاسكندراني: الامام ١٤٤، الزردكاش: الانيق في المناجيق ١٧٦.

(١٧٥): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٠٥.

(١٧٦): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١١٥.

- سلاح الدبابات :

أهم الوسائط في هذا السلاح هي :

الدبابة : تصنع من الخشب القاسي ، وتغلف بالجلد ، أو اللبود ، وتدهن بزيادة ضد النيران . وقد يصنع لها برج يعلوه المقاتلون لتسلق القلاع والحصون إذا لزم الأمر ولها عجلات دائرية يدفعها الرجال وهم في بطنها ، وهي قديمة قدم المصريين والأشوريين ، ولها رأس مدبب من حديد ، تستخدم الدبابة لهدم الاسوار والقلاع والحصون^(١٧٧) ، وهناك أنواع من الدبابات التي كان يستخدمها الصليبيون في حروبهم ضد المملوكيين والاقوام التي سبقتهم مؤلفة من أربع طبقات : الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس . وكانت تحدث نوعا من الرعب لفخامتها وتسليحها^(١٧٨) .

والكباش وهو نوع من الدبابات المتوسطة الحجم ، ولها رأس في مقدمتها قوي وثقيل^(١٧٩) ، ومن الدبابات ما تكون فيه مغطاة بصفائح من حديد لزيادة تدريعها^(١٨٠) ، والسلاح المضاد للدبابات هو سلاح النفط والنيران بجميع أنواعه ومختلف وسائطه إذ يؤثر على الدبابة فيحرقها ، غير أن بعضا منها ، وفي الفترة الاخيرة لتطورها ليست بصفائح من حديد وجلود ولبد وقطن بحيث لم تعمد النيران تؤثر فيها ، ولهذا فقد صنع سلاح جديد مضاد للدبابات هو عبارة عن أحجار صوانية بها عارضات من الحديد ومعلقة بجبال فإذا مرت الدبابة من المكان الإجباري وصارت تحت هذه الآلة أرخيت عليها فتكسرها وتحطمها ، وترفع من كان في داخلها^(١٨١) .

(١٧٧) : ابن غانم الاندلسي : العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدايع ١١٤ ، أبوشامة : كتاب الروضتين ٢ / ٥٩٩ .

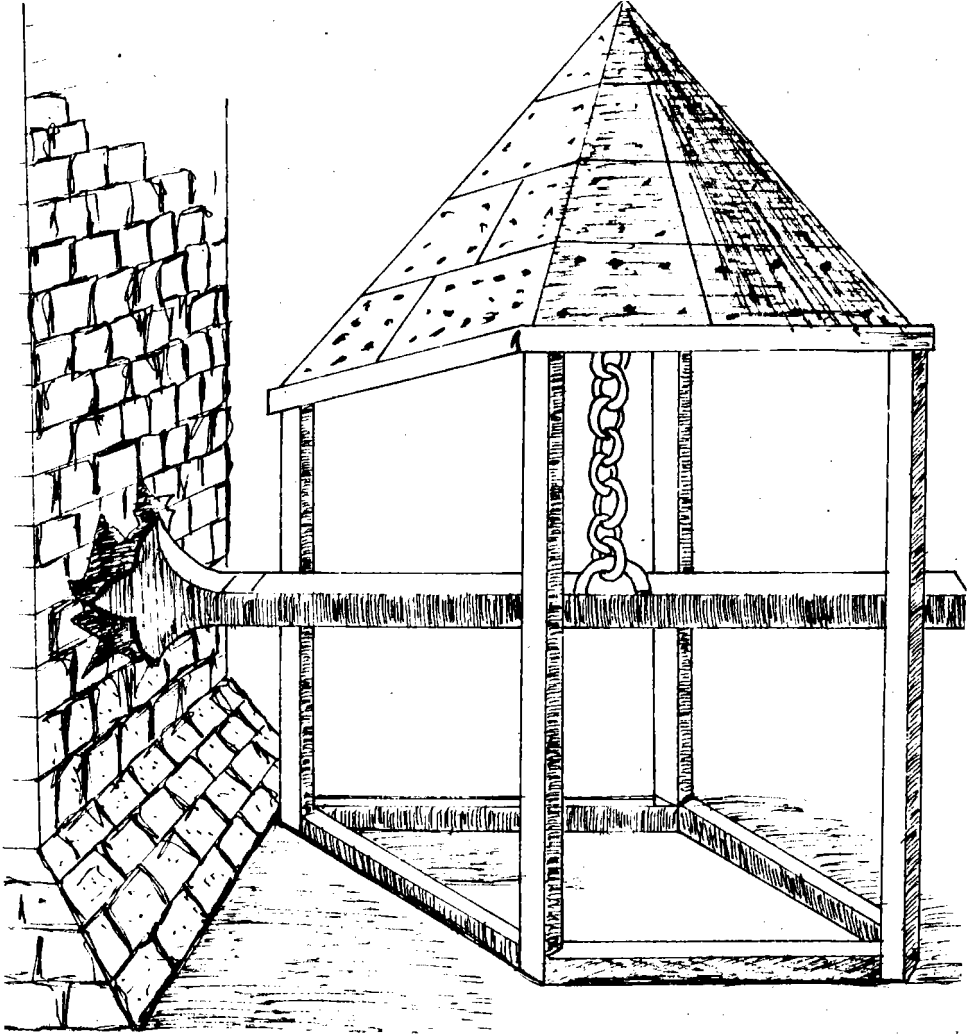
(١٧٨) : الحجازي وزملاؤه : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ١٦٨ ، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٥٢٦ .

(١٧٩) : زيدان : التمدن الإسلامي ١ / ١٦٠ .

(١٨٠) : ابن الفرات : تاريخه ٤ / ١ / ٢٣٠ .

(١٨١) : النويري الاسكندراني : الامام ٢٠٥ .

« الكباش »



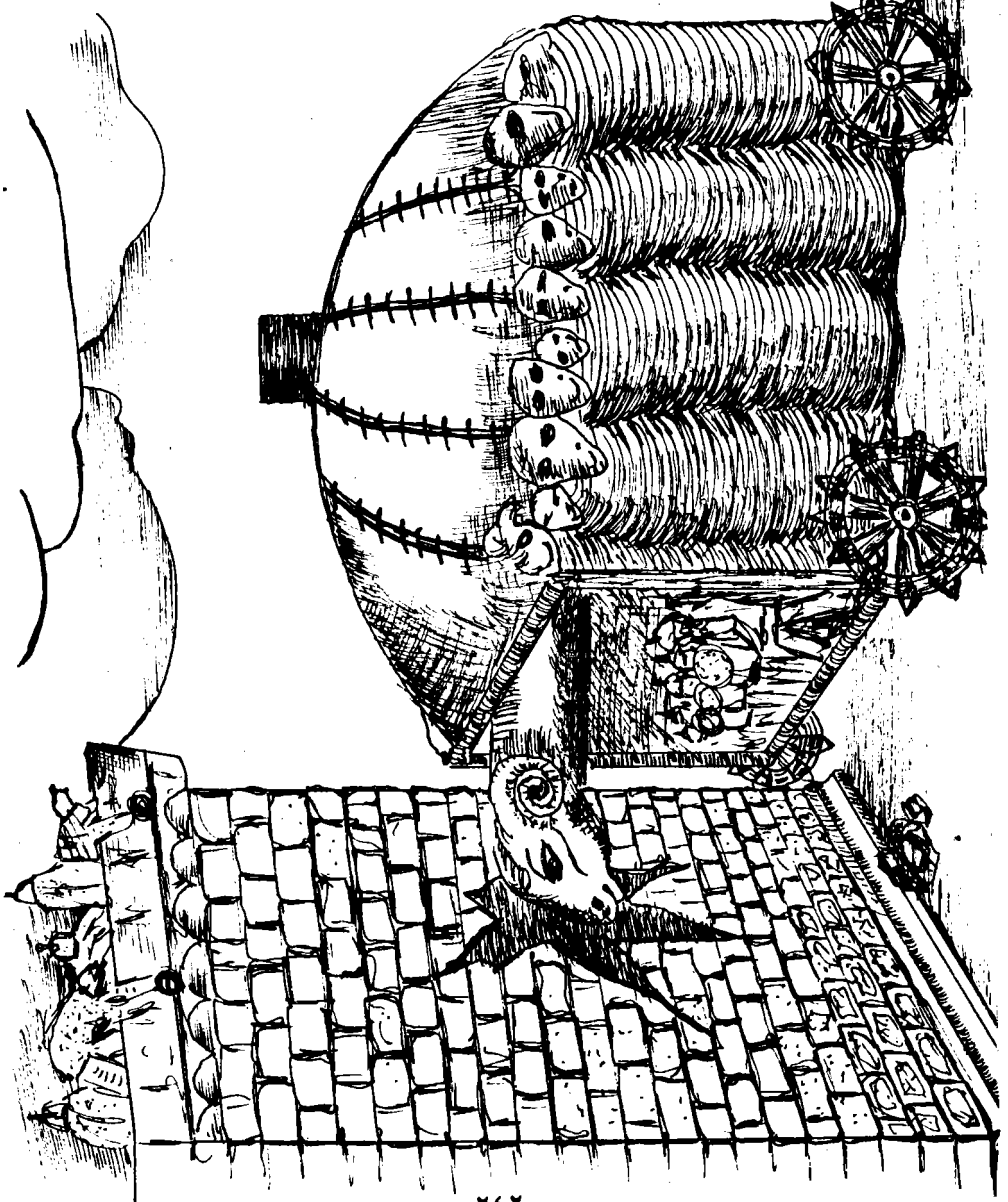
نقلًا عن كتاب (صناعة وتزيين وأستعمال الأسلحة والدروع في كل البلدان والعصور)

جورج كاميرون ستون (George Cameron Stone)

« الكيش »

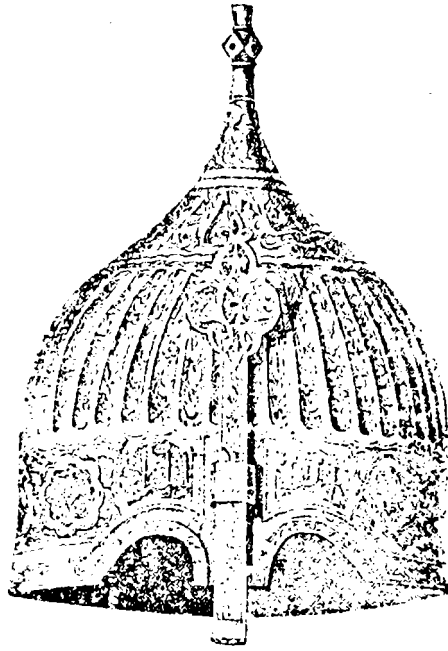
نقلًا عن كتاب (صناعة وتزيين وأستعمال الأسلحة والدروع في كل البلدان والعصور)

جورج كاميرون ستون (George Cameron Stone)





« جندي مغولي بسلحه الحربي الكامل »
عن تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي



« خوذة مغولية »

عن تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي

هولاكو بخوذته الحديدية ودرعه الزردي والمغفر
عن تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي



محارب مملوكي (سلاحدار)



كما صوره الرحالة الألماني أرنولد فون هارف Arnold Von Harv

نقلًا عن كتاب القاهرة (تاريخها - فنونها - آثارها).

للدكتور حسن الباشا وزملائه

الفصل السابع

التدريب والعمليات

التدريب مقدمة للعمليات . لا يمكن لأي جيش أن يخوض معركة ما دون أن يكون مدرباً على المناورة والحركة والالتفاف ، وعلى استخدام الأسلحة بشروطها الفنية والتعبوية . وأن يكون القادة قادرين على القيادة ومدربين عليها في جميع الشروط والظروف القتالية المعقدة . وإذا أريد تعميق التدريب فإنه لا بد من إجراء تمارين وبيانات ومشاريع مشابهة لنوع المعركة ، هجومية كانت أم دفاعية ، ولطبيعة وتضاريس الأرض التي ستكون مسرحاً للعمليات ، وللوقت في الليل أو في النهار .

لقد تدرب الجيش المملوكي على جميع صنوف الأسلحة ، وعلى الرمي وعلى البيانات والمشاريع ، قبل أن يدخل معركة عين جالوت ، وكذلك فإن الجيش المغولي كان مدرباً على القتال وله خبرة كبيرة خاض من خلالها معارك قتالية وخرج في جميعها منتصراً ، وهو بهذا جيش تمرس على القتال وتدريب من العمليات إلى العمليات ، أي بالحرب من الحرب .

- التدريب :

التدريب في الجيش المملوكي هو التركيز على تأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم استعداد له . وقد عنيت الأمم السابقة بهذا التدريب أمثال اليونانيين والرومان والفرس وخرجت أبطالا قادوا امتهم إلى طريق النصر .

مما يلفت النظر أن العصر المملوكي كان مليئاً بالمصادر والكتب التي تبحث في أنواع التدريب على السيف والرمح والنشاب والصولجان وغيرها . وكان القادة المسؤولون يقضون أغلب وقتهم في التدريب وفي الميادين العامة ، وفي المناورات والبيانات العملية ، حتى يمكن القول بأن هذا العصر كان عصر التدريب الحربي . ومن أشهر الكتب والمخطوطات التي تبحث في هذا الاتجاه : « الفروسية » « لابن القيم » كتاب في علم الفروسية ولعب الرمح والبرجاس وعلاج الخيل ولعب الدبوس للدمياطي « كامل الصناعة في علم الفروسية والشجاعة » للرماح لطف الله « كتاب الفروسية والمناصب الحربية » لنجم الدين حسن الرماح « أسبال الذيل في ذكر جياذ الخيل » لنجم الدين الحنفي الرملي ، « رمي النشاب » لطبيب الاشرفي ، « أحكام الرمي والسبق » لتاج الدين ابن التركماني ، « علم الالات الحربية » لابي موسى بن شاكر ، « الامنية في علم الفروسية » لابن جماعة ، « أولى اسباب في الرمي والنشاب » « سبل الرشاد في فضل

الجهاد « لأبي العوالي ابن جزييل ، « السداد في فضل الجهاد » لمحمد بن عمر الواعظ الشهير بمنلا عرب ، « سلم الخداسة في علم الفراسة » لتاج الدين علي بن أحمد المعروف بأبن الدرهم الموصللي ، « السؤال والأمنية في الفروسية » لمحمد بن عيسى إسماعيل الحنفي ، « عرس الانشاب في الرمي والنشاب » لجلال الدين السيوطي ، « نهاية السؤال والأمنية في تعلم أعمال الفروسية » لابن خسروشاه الاقصر ابي الحنفي الرومي^(١) ومن أشهر الفرسان الملك قطز والامير بيبرس واينال العلاء الظاهري وبرقوق الناصري ويشبك الفقيه ، وأزبك اليوسفي ، وجانم الاشرفي والسلطان الاشرف قايتباي ومقدم الجيوش وأمير سلاح بدر الدين بكباش وعلاء الدين اللدكزي وغيرهم^(٢) . وكان أغلب الملوك والسلاطين والامراء من الفرسان المعدودين ، ومن الابطال الشجعان الذين على علم بالرماية ولعب الرمح وضرب السيف وخفة الحركة في ساحة الميدان وبفنون القتال وباستخدام الاسلحة المعروفة في ذلك العصر^(٣) ، ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء بل كان أغلب الجنود أو قل جميعهم من الفوراس ومن المدربين على تلك الاعمال التي في نظرهم في مقدمة كل أمر^(٤) .

أولاً : صفات التدريب :

إن من أبرز الصفات عند الجيش المملوكي :

١ - العمومية والشمولية : إن التدريب كان يشمل المؤخرة ، كما يشمل المقدمة ، والتشكيلات كما في القطعات والوحدات ، والفرد كما في المجموعات ، والجندي كالقائد ، والبحرية كالقوات البرية ، لا يستثنى أحد ولا يختلف أحد^(٥) . وكانت هذه التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب

(١) : حاجي خليفة : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ١/ ١٠ ، ١٦٩ ، ٢٥٢ ، ٢/ ٩٧٨ ، ٩٩٧ ، ١٠٠٨ ، ١٢٠٢ .

(٢) : السخاوي : الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ٢/ ٢٧٢ ، ٣٢٨ ، ٣/ ٦٤ ، ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/ ٨٣ ، ٩١ ، ٣٢٥ ، الذهبي : دول الإسلام ٢/ ١٦١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٩/ ٤٨٦ .

(٣) : ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/ ١٠٥ .

(٤) : ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/ ١٢٢ ، القرمانلي : أخبار الدول وآثار الاول ٢١٦ ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ٣٤٩ ، ٣٩٦ ، ٤١٧ .

(٥) : ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/ ١٢٤ ، ١٤٥ ، الرماح : مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٧١ وما بعدها ، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢/ ٥١٨ .

وأشكاله وطرائقه، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية، وترفع من قدرة الجندي القتالية كألعاب اللنجة والسباق والمصارعة^(٦). وبهذه العمومية والشمولية توصل الجيش المملوكي إلى توازن قتالي بين صفوف قواته، واختصاصاتها المختلفة، وإلى وحدة الجيش الحربية، وإلى ثقل الضغط والحرق، فإن ركز جهوده الرئيسية إلى قطاع من دفاعات العدو تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع كما حدث تماما في معركة عين جالوت عندما حرق الدفاع واستطاع أن ينفذ من اليمين والشمال، وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من صمود وثبات الدفاع^(٧).

٢ - ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي: يشرى المملوك صغيرا ثم يدرّب على أصول العقيدة وأحكامها ونظرتها إلى الجهاد تحت إشراف مدرّبين اشتهروا بتدريب العقيدة منهم ابن الشحنة وابن حجر العسقلاني، سعد الدين وتقي الدين القلقشندي وبيرس المنصور. وكانوا يعلمون القرآن حفظا حتى أن بعض المتدربين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب مثل الأمير إذمر الأبراهيمي الظاهري جقمق، ومحمد بن جقمق وغيرهما من الذين كانوا يتلون ويجودون ويفسرون. كما كان هؤلاء المدرّبون يقومون بتعليم الأحاديث النبوية في الصحيحين مسلم والبخاري، والفقه حتى أن الأمير تنكز بد أقراه في هذه العلوم، والتدريب على الخط وقواعده وأصوله وأحسنه إذ نبغ في هذا الفن الأمير قجماس الاسحاقي الظاهري، وتعليم التاريخ والأدب والشعر إذ ظهر منهم الأمير تغري برمش، واللغات وبخاصة اللغتين التركية والعربية مثل يعقوب شاه الارزبختاني^(٨). بعد تدريبه على أمور العقيدة وبعد اتقائه هذه المرحلة، وبعد أن يكبر، يسلم إلى مدرّبين في أمور الحرب والقتال فيتدرب على ركوب الخيل ويتدرّج من السهولة إلى الصعوبة، فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ثم يصل إلى جميع الأسلحة، ويتدرب في حالة الركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي والدقة في الإصابة على

(٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/١٢٨، ١٢/٦٩، ٨٠، متر: الحضارة الإسلامية ٢/٢٥٧، زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ١٥ وما بعدها.

(٧): الهمداني: جامع التواريخ ١/٣١٤، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣/٢١٩/٥.

(٨): ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/١٩، ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١٤١، ١٨٦، ٣٨٢، ٤٠٢، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٤١٩.

القبض، والضرب بالسيف والظعن بالرمح واستخدام الدبوس ولعب الصولجان، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب يخرج من بعدها مقاتلاً قوياً في عقيدته قوياً في قتاله وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي أو القتالي بل يظل ينمي تدريباته، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب المتلازم^(٩).

٣ - التدريب بشكل متواصل:

إن المقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب ابداً، وإنما هناك الميادين المتعددة التي يلتقي فيها المقاتلون ليقوموا بتدريباتهم المعتادة، كالسياق والاختصار والاسود والعيد، والناصري الذي كان مختصاً بالسباق^(١٠)، والصالحى الظاهري وبركة الفيل، وسرياقوس^(١١)، إذ يواصل العسكري المملوكي تدريبه على جميع أنواع القتال وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف والاحوال الصعبة، ويبقى من الصباح حتى المساء حتى ولو كان الجو مطراً أو بادراً أو حاراً^(١٢)، فالمهم عنده تنفيذ البرنامج التدريبي المقرر. وكذلك كان التدريب العقائدي فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين، وكذلك فإن دور العلم والتدريب كانت كثيرة، وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلازمون هذه الأماكن التي كانت منتشرة بشكل واسع، منها دور القرآن وأشهرها الخيفرية والجزالية والدلامية والبهائية والحرمية والسكرية والغورية وغيرها^(١٣). ومنها دور الحديث وأشهرها التنكزية، ومنها المدارس المتخصصة كالأتابكية والأسدية والأجمدية والحليية وغيرها^(١٤) ومنها دور الصوفية (الخوانق) التي تدرس فيها الطرق الصوفية الروحية

(٩): ابن خلدون: تاريخه ٣٧١/٥، المقرئزي: السوكت لمعرفة دول الملوكت ٥٢٤/٢/٢، المقرئزي: الخطط ٧٦/٣، ٤٨٩/٢.

(١٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦٥/٧، ٨٨/٨، ٩٧/٩.

(١١): المقرئزي: الخطط ١٩/٣ وما بعدها.

(١٢): المقرئزي: الخطط ٧٦/٣، ٤٨٩/٢.

(١٣): ابن قاضي شهبة: تاريخه ١٨٨/٣، النعيمى: الدرأس فى تاريخ المدارس ٧/١ - ٩٩.

(١٤): ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٩٢/١ وما بعدها، السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ٢٦٢/٢ وما بعدها، الحنبلى: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٣٥/٢ وما بعدها، حمزة: الحركة الفكرية فى مصر ١٦٢ وما بعدها.

وأشهرها الأندلسية والباسطية والحاتونية والشهابية والمجاهدية والشيخونية وغيرها^(١٥) ومنها الرباطات وهي كدور الصوفية وهو المكان الأكثر تخصصاً للعلم وأشهرها التكريتي وزهرة والبخاري وغيرها^(١٦)، وفيها المساجد التي كانت تقام فيها حلقات العلوم الدينية المختلفة وهي كثيرة تراها مبسوبة في الكتب العديدة مثل النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفى وخطط المقرئ وتاريخ أبي الفداء وأخبار الدول وأثار الأول للقرماني والدارس في تاريخ المدارس للتميمي وتاريخ ابن قاضي شهبه والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق وغيرهم. وبهذا التدريب المتواصل اكتسب المقاتل المملوك استعداداً كاملاً في كل الاوقات وتلبية فورية لمطالب الجاهزية القتالية، ومعنويات عالية، وقدرة كبيرة على بذل إرادة القتال وعلى إعطاء كل ما يملك في سبيل انتزاع النصر والتغلب على الأعداء.

٤ - التخصص في التدريب: لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي. فكل مادة لها مدربون خاصون بها. فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به، فهم يقومون بتدريبه وتعليمه للفوارس المبتدئين، كما كانوا يؤلفون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح وقواعد رميه وأصوله وأجزائه التي يتألف منها وعمل كل جزء واستخدامه في الميادين وفي ساحات القتال، التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح، بل لكل حالة من حالات العمل بالأسلحة الأخرى^(١٧). وكذلك المنجنيق والرمح والسيوف الذين كان لهم رجال كتبوا عن هذه الأسلحة وبكل ما يتعلق بتفاصيلها واستعمالها المختلفة^(١٨) على أن هذا التخصص زاد من المعارف، وأكسب المدربين والمتدربين الدقة والسرعة وأداء الحركات بكل إتقان وفنية عالية. وكان أهم العلماء الذين تخصصوا بالأسلحة والقتال هو الرماح الاحدب للرمح، وطبيغا الاشرى للشباب والزردكاش للمنجنيق وغيرهم. وبما يلفت النظر أن هؤلاء العسكريين كانوا على جانب كبير من العلم والمعرفة بأسلحتهم وطرق قتالها مما يتيح للجيش

(١٥): النعمي: المدارس في تاريخ المدارس ١٤١/٢، ١٥١، ١٦١، ١٦٩، ١٧٤، ابن قاضي شهبه ١٤٢/٣، ٤٨٣، ٤٩٩، ٦٤٧.

(١٦): النعمي: المدارس في تاريخ المدارس ١٩٢/٢ وما بعدها، المقرئ: الخطط ٤٧٢/٢ وما بعدها.

(١٧): الاشرى: مخطوطة رمي الشباب ٧، ١٣، ١٥.

(١٨): الزردكاش: الانيق في المناجيق ٨، ١٦، ٢٤، ١٠٣.

المملوكي أن يكون من أوائل الجيوش في عصره تدريباً و قتالاً . وإن المرء ليعجب بعد أن وصل هذا الجيش إلى هذه الدرجة من التخصص . أن يكبوا في أيامه الأخيرة وأن يخسر الحرب . - وإنك لتعجب إذا علمت أن المدرب يتدرج حسب خبرته وتحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الأولى يكون فيها معلماً والثانية استاذاً والثالثة رئيساً ، ولا يرقى من درجة إلى أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص وقدم شيئاً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية ، فكان الطنبغا معلم الرمح في عهد برسباي ، وقرأ ابن عبد الله السودون^(١٩) ، أما الأمير أفنجا فهو أستاذ في ركوب الخيل وطرق القتال نال هذه الدرجة بعد أن اجتاز الأولى بنجاح^(٢٠) . أما الأمير جمال الدين مكي بن حسون فقد كان رئيساً عالماً بركوب البحر وقائد أسطول تعلم الملاحة وعلوم البحر^(٢١) . وكان يوجد عدد كبير على مستوى القوات المسلحة من هؤلاء المدرسين جميعاً على مختلف مستوياتهم واختصاصاتهم^(٢٢) .

ثانياً: المنشآت التدريبية :

هي الامكنة المخصصة لتعليم المقاتل ، ولكي يعد فيها اعداداً عقائدياً ، و قتالياً ، يتخرج في نهايتها ويلتحق بالقطعات والتشكيلات لكي يصقل معلوماته ويزيد من خبرته ويمارسه للأعمال الحربية .

لقد سجل لنا الرحالة الألماني (أونولد فون هارف) اثناء زيارته للقاهرة سنة ١٤٩٦ / ٩٠١ - ١٤٩٨ / ٩٠٤ في زمن السلطان قايتباي ، أن مدرسة المماليك كانت مازال منشأة عسكرية ، فيها كل ما يحتاجه الطالب من أمور التدريب الإداري والقتالي ، كما توجد فيها المستودعات والمكتبات والاصطبلات والخيول للتدريب ومصانع الأسلحة وكل ما يتعلق بصنعها وحفظها وصيانتها وتوزيعها ، وكما توجد أيضاً المساجد لاقامة الشعائر الدينية وللتدريب على

(١٩) : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١ / ٢٦٣ ، ٤٣١ .

(٢٠) : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢١) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧ / ٥٤ ، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٥٩٣ ، النويري الاسكندراني : الامام ٢ / ٩٦ ، ٢٣٩ .

(٢٢) : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١ / ٢٩٦ ، ١١١ / ٢ ، ٣١١ / ٧ ، ٤١٧ / ٦ ،

السخاوي : الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ٢ / ٣١٩ .

العقيدة . وكانت هذه المدرسة شأنها شأن المدارس المماثلة فإنها تجمع جانبي التدريب الديني والعسكري . وكان التعليم بشؤون الحرب والفروسية ، وبلغ مجموع الطلاب آنذاك / ٥٠٠ / خمسمائة طالب وعدد الاساتذة اثنين وثلاثين (٢٣) ، كما ضمت القاهرة والاسكندرية كثيرا من الطلاب والمدارس الحربية المختلفة تجمع أغلبها في القسطنطينية بجانب مسجد عمرو بن العاص (٢٤) .

لقد اهتم العرب المسلمون من قبل في التدريب . فكان الغلام يربى على الدين وحفظ القرآن والشعر والثقافة القومية ، حتى إذا استوى وصلب سوقه وكملت رجولته درب على الخيل وقرس على السلاح حتى يكون من الرجال الشجعان وأبطال الحرب (٢٥) .

تبدأ مراحل التعليم للمقاتل المملوكي من حين دخوله في الطباقة وحتى تخرجه منها . فالمرحلة الاولى هي المرحلة العقائدية ، والمرحلة الثانية هي المرحلة الحربية ، ولا يعتبر المملوكي مؤهلا إلا إذا قضى سنتين دراسيتين . ففي العصر المملوكي الاول كانت تطبق هذه المدة ، أما في العصر الثاني فقد خفضت هذه المدة إلى سنة أو أقل واختلفت مدة وزمن (شهر) التخرج باختلاف الامور السياسية وتبدل السلاطين والتهاون في التدريب ، إذ كان التخرج في المحرم ثم في رمضان وأخيرا صار في شوال - وهذا التخفيض وعدم الاهتمام بالتدريب انعكس على الجندي المملوكي وعلى القوة العقائدية والزخم الثوري وبخاصة عندما أتى بالجلبان وهم كبار ، فلا يمرون على التدريب ، أو يدخلون في مدارس (٢٦) .

كان التدريب يجري في الطباقة ، وفي أمكنة التجمع التي ينام فيها الطالب يأكل ويشرب . وكانت جميع حاجياته متوفرة كي يتفرغ إلى التدريب فإذا حضر المدرب الشيخ إنتظموا في حلقات على الأرض ، ويجلس المدرب على سدة أو على منبر بحيث يرى جميع الطلاب . وكانت الدروس تجري بشكل منتظم وهناك استراحات بين الدروس وبعد الطعام . وتجري

(٢٣) : الباشا : القاهرة تاريخها ، فنونها ، أثارها ٨٢ .

(٢٤) : Lane - Poole: A History of Egypt in the Middle Ages p. 2/204 .

(٢٥) : الابشهي : المستطرف في كل فن مستظرف ١/٣٠٣ .

(٢٦) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤/١٦ ، ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالك ١١٦ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦/٥٠٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/١١ ، ٤/٧ ، ٩٥ ، ١٧٣ ، ٢٥٤ ، ٣٢٢ ، العربي : المالك ١٢٤ .

مراجعة الدروس ومناقشتها كل أسبوع أو شهر. ويعطى الطالب يوم عطلة أسبوعية في كل جمعة. وكان يطلق على هذه الفئة (الماليك الكتابية) ومن الطبيعي أن تكون هذه الفئة التي أتى بها من الاولاد الصغار الذين لديهم قابلية التعليم ومرونة التربية، والتقويم التربوي بعكس الفئة الكبيرة (الجلبان) التي كانت بعيدة عن كل هذا^(٢٧).

يجري تعليم أبناء السلاطين وأبناء الأمراء في المنازل وفي أمكنة خاصة من حيث يتدرب الولد طبقا للمناهج العام المقرر للماليك الكتابية، ويلقى عناية خاصة من قبل المعلمين الاختصاصيين، وقد أشتهر محمد بن السلطان جقمق بمعارفه الواسعة في العلوم وكذلك يبرس الركن العلائي. هذا التدريب الخاص أكسب الطلاب معرفة وتوسعا في العلوم، وكان بعضهم متفوقا على الآخرين من أمثاله الذين يدرّبوا في الطباق أو في المدارس^(٢٨).

تعد الميادين المتعددة المنتشرة في المملكة المملوكية أمكنة هامة بالإضافة إلى المدارس والطباق والمنازل التي ذكرناها لتدريب المقاتلين وكان الميدان واسعا يحتوي على جميع أنواع الصنوف والأسلحة، وله قاعدة تدريبية عريضة، إذ يوجد فيه مساعدات التدريب والامكنة الخاصة بكل سلاح، وقد اشتهر ميدان (القبق)^(٢٩). كما كان هناك ميادين كثيرة اختصت جميعها بسباق الخيل والرمي والسيف والرمح والنفط النيران^(٣٠). كما كانت تجري بيانات ومشاريع قريبة من جو المعركة الحقيقية.

من أمكنة التدريب أيضا البحار والأنهار إذا كانت تجري تدريبات بحرية مختلفة وخاصة أثر صنع سلاح جديد، أو مركبة بحرية لاختبار قوتها ومدى فاعليتها في القتال. وكان الظاهر يبرس

(٢٧): المقرئزي: الخطط ٩٥/١، زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ١١، العربي: الممالك ٩٣ وما بعدها.

(٢٨): السخاوي: الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ١٩/٢، ٩٩، ٢٨١، ٢١/٣، العربي: الممالك ٩٥ وما بعدها.

(٢٩): القبقي كلمة تركية هو عبارة عن خشبة في أعلاها دائرة من خشب، يسد الرامي إلى هذه الدائرة السهام لكي تمر في وسطها، فإن خرجت السهام خارج الدائرة عدا الرامي من الذين يتقصهم التمرين وأحكام الرمي وقد أنشأ ميدان القبقي الملك الظاهر يبرس لشدة اهتمامه بالتدريب، انظر، المقرئزي: الخطط ٤٨٩/٢، ٧٦/٣. وقد استخدم لفظ (القبقي) الايوبيين من قبل. انظر أبو شامة كتاب الروضتين ٥٧٩/٢.

(٣٠): المقرئزي: الخطط ١٩/٣، الاشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٣٦.

يشهد هذه التدريبات ويشرف عليها وكانت الشواني السلاح الرئيسي في البحرية تقوم بالتدريب المتواصل (٣١).

يشرف على التدريب الديني والحربي جهاز يطلق عليه « الطواشي » مهمته ملاحظة سلوك المملوك وتعويدته على المطالعة والدرس وتنظيم المجموعات التدريبية وتقسيمها إلى زمر تتناسب مع موضوع الدرس ومع السن والفئة إن كانت تركية أو شركسية أو غير ذلك ، والفصل في المنازعات ورفض الخلافات التي قد تنشأ بينهم ، وفرض الانضباط الشديد في كل أعمالهم ، وتوزيع الطعام والكساء في الاوقات المحددة ، وإيقاظهم لاستقبال العبادة والعمل في اليوم المقبل واركابهم في أيام المباراة وتعيين الطريق ونوع اللعبة التي يودون التمرن عليها كالركوب على الخيل ، أو اللعب بالرمح أو الصولجان ، وتنسيق العمل مع المدربين الدينين والحربيين ، واقتراح الجديرين منهم والذين تنطبق عليهم الفراسة والنباهة والرغبة في التدريب والقيافة الجسدية وحب الالفة والانسجام والحزم في الامر والثبات في القرار ووفرة المعلومات ، والاناة والحكمة والشجاعة والقوة والتمكن من المادة التي يدر بها ، والسماح عن الأخطاء والهفوات التي تصدر عن التلاميذ عن غير قصد . فإذا حاز المدرب على هذه الصفات عد من الاساتذة وأطلق عليه لقب « الاستاذية » (٣٢) . ثم إن جهاز « الطواشي » يقوم بكل الاعمال داخل المدرسة ، ويقسم العمل على جميع مكاتب العمل المختلفة التي تشرف على هؤلاء التلاميذ (٣٣) .

يتألف جهاز « الطواشي » من عدد من الطواشية الذين يشهد لهم بالاخلاق والاستقامة والانضباط وحسن التعرف والحزم والتقوى كالطواشي شبل الدولة كافور الصفوي (٣٤) ، ويتدرجون في المراتب والوظائف من مقدم المئاليك حتى الجندي ، ويوزعون على أقسام ومكاتب العمل في هذا الجهاز من اطعام ، مهمات ، مهمات انضباط ، حرس أبواب ، مكاتب القيادة .

(٣١) : المقرئبي : السلوك لمعرفة دول المملوك ٦٠٥/٢/١ .

(٣٢) : الاشرفي : مخطوطة رمي الشباب ٥٧ ، ٥٨ .

(٣٣) : القلقشندي : صبح الاعشى ١١/١٧٣ ، ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف المئاليك وبيان الطرق والمسالك ١٢٢ .

(٣٤) : ابن الصقاعي : تالي وفيات الاعيان ١٣١ - ١٣٧ .

يشرف على جهاز الطواشية سلطة عليا هو السلطان أو من ينوب عنه تقوم بتقويم اعوجاج هذا الجهاز أو تبديل قسم منه أو معاقبة الذين خرجوا عن النظام أو أساءوا إلى التلاميذ، أو ارتكبوا مخالفات كشرب الخمر أو التأخير في دفع الرواتب. وكانت العقوبات قاسية في بعض الأحيان إذ قطع السلطان ببرز أيدي جماعة وشنق بعضهم. وطرده السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعض الطواشية وقطع رواتبهم وذلك كله ليسود الانضباط والتدريب وليحافظ على تنشئة وتربية هؤلاء الممالك^(٣٥).

ولشدة اهتمام القيادة بالتدريب كان يقوم السلطان في بعض الأحيان بنفسه بمهمة المراقبة والتفتيش على هؤلاء الطلاب، فيحضر طعام التلاميذ، ويشاهد توزيعه وكميته ونظافته ورأي المطعمين فيه. كما يتفقد النظافة العامة والترتيب وحسن القيافة والمنامة فإذا وجد شيئاً مخلاً عاقب المسؤول ونبه على تلافي الملاحظات والسلبيات وأمر بالاهتمام الزائد بالطعام والتربية^(٣٦).

يرعى السلطان أو الأمير تخرج التلاميذ من المدارس في نهاية المرحلة، ويشهد المناورات العسكرية، ويتفقد الميادين المختلفة (الظاهري، الصالحي، بركة الفيل، المهادي، سرياقوس، الناصري) التي كان أغلبها في مصر وأقلها في الشام^(٣٧) خصصت جميعها للتدريبات المختلفة، كما خصص منها - بالإضافة إلى التدريب - لاستكثار الخيل وتربيتها مثل (ميدان المهاري) الذي كان بالقرب من قناطر السباع^(٣٨).

تمنح المكافآت المالية، وتعطى الأوسمة والرتب، ويشن على المتفوقين في نهاية البيانات أو المشاريع، أو الرمي أو الإجابة في استعمال الأسلحة^(٣٩).

وبالمقابل كل من أخطأ في الإصابة، أو قصر في استخدام سلاحه، أو تهاون في المناورات فإنه

(٣٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٢/٨، ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

٢/٥٠٣، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٥٤٠، ٦٢٣، ٢/٢٢٩.

(٣٦): مبارك: الخطط التوفيقية ٨٧/١.

(٣٧): المقرئ: الخطط ١٩٧/٢ وما بعدها، ابن جبير: رحلته ٢٧٧.

(٣٨): المقرئ: الخطط ١٩٧/٢، مبارك: الخطط التوفيقية ٨٢/١.

(٣٩): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٥١٨، ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/١٨٢.

كان يتعرض لعقوبة جسدية ومادية أقلها قطع راتبه^(٤٠)، وفي نهاية التدريب كان يقام الطعام، ويشترك القائد والجنود بعد إجراء التحليل القتالي والتدريبي والإداري^(٤١).

ثالثا: تدريب الصنوف والأسلحة:

يجري هذا التدريب لجميع الصنوف البري والبحري، الهندسي والكيميائي، المدفعي والنفطي، الفردي والجماعي، الفارس والراجل، الأمير والجندي. لا يستثنى أحد ولا يتخلف أحد. يتدرج هذا التدريب من الفرد إلى الزمرة إلى السرية فالكتيبة فاللواء فالجيش الكامل، ويشمل التدريب على جميع الأسلحة من الخنجر حتى السيف فالرمح والدبوس والشاب على أن أهم التدريبات في هذا النوع هو التدريب القتالي الذي يتميز بالتنسيق والتعاون مع جميع الصنوف، إذ على كل صنف أن يؤدي دوره في التدريب، كما لو كان في معركة حقيقية. وهنا تبرز الفرسان المدربة على الخيول الأصلية. وقد سبق أن يتخلل التدريب الحقيقي ألعاب تعطي للجسم لياقته وللاirادة قوتها كالمصارعة، وقتال العصي، ورقصة « الششن » عند الشراكسة والتي تدل على القوة والنشاط والإلمام باستخدام الخنجر وستعرض لذكر أهم التدريبات التي كانت متبعة في الجيش المملوكي.

١) التدريب على الخيل:

لجياذ الخيل صفات معينة، فالأصيل في لونه الاشقر، والأدهم والكميت والأرثم والمجمل^(٤٢). وفي شكله الزافر والنافر والممتلىء والمرتفع والعظيم الصدر وصغير الرأس وشديد سواد العينين ومحدد الأذنين. وكثيف العرف وطويل الذنب ومستدير الحافر وطويل القوائم... وفي حركاته الذي إذا جلس وضع يديه على الأرض ينظر إلى صاحبه، وإذا غاب عنه أوجاهه مستديرا وضع وجهه على الأرض، وإذا استعرض استوى، وإذا سار فهو يسير بخطوة سريعة، وإذا عدا فإنه لا يرفع سنبكه. وفي شربه فإنه لا يثني سنبكه. وفي أخلاقه ألا يكون نافرا، ولصاحبه مسائرا ومنقادا، وأن يكون نشيطا مستجيبا... وعلى الفارس ألا يطيل المكوث على

(٤٠): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٠/٣، ٢٢.

(٤١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥١٨/٢/١.

(٤٢): الرملي: مخطوطة اسبال الذيل في ذكر صياد الخيل ٥ وما بعدها، ابن الرسول الغساني: مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة ٢٣ وما بعدها.

ظهر فرسه فيتخذ مجلساً أو منامة^(٤٣)، وأن يركبه للقتال لا للمسير والاعمال، وأن يروضه على الحركات القتالية التي قد تصادفه عند الالتحام، وأن يقتحم به المياه فلا يتردد، وأن يصصره ظله في الشمس فلا ينفّر ولا يجرن^(٤٤)، وأن يعتني به أعتائه بنفسه فيقدم له العلف والشراب. إن أول ما يشرع به المدرب هو تأديب الفرس وتعويداً على الخصال الحميدة، وتخليصها من العادات السيئة التي تؤثر على قتال الفارس. فالمدرب يبدأ بالمهر إذ يعلمه المشي، ويعوده على رؤية الأسلحة، وعلى المشي في الأزقة الضيقة، وعلى وضع اللجام، وعلى توقيفه على رجله، وعلى منع الصهيل، وعلى تغطية عينيه^(٤٥)، وعلى الفارس أن يدرب على معرفة أحوال الفرس من كل شيء، ومعرفة الجيد من الخيل^(٤٦).

هناك أصول للاعتناء تتعلق بأحوال الفرس والمعلق ونوع العلف الذي يقدم والمخللة والمكان الذي يبيت فيه إذ يجب ألا يكون فيه روث ولا بول وأن يكون مفروشاً بالرمل الذي كلما ابتل تبدل برمل جديد جاف، وفي العلف ألا يكون فيه شوائب أو بعض الأحجار. وفي الترويض أن يصحبه في السحر، وأن يسير به مرتين على الأقل في اليوم، ويرفعه إلى جنبه مرة في الأسبوع. وفي تنظيفه أن يغسل قوائمه ومنخره وجسمه، وأن يعوده على اللجام وحمل الفارس. وكان من جملة التدريبات أنهم كانوا يعرقون الخيل ثلاث مرات في الأسبوع حتى إذا كان الأسبوع الثاني دربوا على الجري، حتى إذا مر أربعون يوماً أخرجت الخيل. وبالرياضة والاعتناء والتدريب المتواصل يمكن أن يصل الفرس إلى درجة كبيرة من الاستعداد الميداني^(٤٧).

إن من أهم التدريبات التي كان يقوم بها الجيش المملوكي هو تدريب الخيل على عبور الأنهار، والمشي بين الأشجار، والخوض في الوحول، والصعود إلى الجبال والروابي، والتسلق على الصخور، وتعويداً على قعقة السلاح ومقابلة الشباب، وذلك لأن الخيل على عاداتها

(٤٣): ابن القيم: الفروسية ١٢.

(٤٤): ابن قتيبة: الحرب والفروسية ١٣٦ وما بعدها.

(٤٥): الرماح: مخطوطة عمل الرمح على الأرض والفرس ٣ وما بعدها.

(٤٦): الرماح: مخطوطة عمل الرمح على الأرض والفرس ٢٠ وما بعدها.

(٤٧): الرمي: مخطوطة اسبال الذيل في ذكر جياذ الخيل ٣٠ وما بعدها، مجهول: مخطوطة الخيل ١٢ - ٢٠.

تنفر من كل هذه الاشياء وتتبعد عنها^(٤٨)، وكذلك كان السباق من التدريب، ومنذ القديم كانت تقام مثل هذه المسابقات، وقد نشبت حروب عديدة نتيجة هذه المباريات^(٤٩) وهناك الوثب وهو ركوب الفرس قفزا. وهذا يحتاج إلى تدريب متواصل، وقدرة على الامتطاء وشجاعة وقوة، وهناك الوثب بالرمح^(٥٠) والركوب وهو إدخال رجل الفارس اليسرى في الركاب ويده اليمنى العنان، ويده اليسرى على قائم السيف وهناك طرق عديدة للركوب تجاوزت السبع منها ركوب الردف والتحول من دابة إلى دابة^(٥١)، ومنها الركوب والدابة تركض، والركوب والفرس عريان^(٥٢).

إذا وصل المدرب إلى طرق القتال على ظهور الخيل، وقد اجتاز مرحلة كبيرة من مراحل التدريب، ودخل في التدريب العملي والقتالي، فهناك أبواب وأبواب لا مجال لذكرها في هذا المجال، وإنما من القول أن هذه الطرق التي أطلقوا عليها « المناصب الحربية » إنما تضع الفارس بحالة جاهزية وتدريب لكل الاحتمالات المتوقعة في الحروب منها الدوران فإذا دار الفارس فما على خصمه إلا أن يقابله بالطعن الخادع ثم يتبعه من خلف ويصوب رأس رمح إلى فخذ فرسه أو يقابله بطعنتين متباينتين^(٥٣)، وفي باب المطاردة تظهر براعة الفارس وخفته ورشاقته ومقدار ما يتقن من تطبيق الفن الحربي. فهو عندما يندفع خلف خصمه لا يأتيه مباشرة من الخلف بل من الجانب، ثم يسدد إليه طعنة ثم يكرر ويقصر رمح ويدخل فيه.

وهناك طرق فرعية عديدة في المطاردة يستخدمها الفارس عند ملاقاته خصمه لكي يتمكن منه ويسدد إليه الطعنات المميتة^(٥٤). إن الهدف من كل هذه الاعمال هو القضاء على الخصم. ينحصر تسديد الضربات إلى الفارس أو إلى الفرس، فإن أصيبت الفرس في أضعف نقاط

(٤٨): الناصري: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٥٣.

(٤٩): ابن هذيل: مخطوطة في الخيل والسلاح وما يتعلق بها ١٠١.

(٥٠): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٧١ وما بعدها ٧٤.

(٥١): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٧٥ وما بعدها.

(٥٢): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٨٧ وما بعدها ٩١ وما بعدها.

(٥٣): الاحدب: مخطوطة الفروسية برسم الجهاد ١٧، ابراهيم: مخطوطة علم الفروسية برسم الجهاد في سبيل

الله ٨.

(٥٤): الرماح: مخطوطة نهاية السؤل والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٦٣، ابراهيم: مخطوطة علم الفروسية

برسم الجهاد في سبيل الله ٧.

جسمها كالمناخر أو الرجلين فإن ذلك يؤدي للوصول إلى الفارس الذي اضطرب نتيجة وقوع فرسه^(٥٥).

لعل التطويق يكون قريبا من المعنى الحديث، إلا أن هناك بعض الاختلافات في الوسائط ونوع السلاح فإذا طوق الفارس وأحاط به العدو من كل جانب فما عليه إلا أن يأتي بأعمال تنفر منها الخيل وتضطرب، الأمر الذي يصعب قيادتها وتوجيهها، ويجعل الصفوف المحيطة مختلة وضعيفة. فبهذه الحالة يمكن للفارس أن ينفذ ويكسر الطوق من تلك النواحي ومن الأماكن الضعيفة، أو من جهة الفارس الجبان مندفعاً بكل قوته طاعناً وجه الفرس الذي يصادفه في مناخره^(٥٦).

من الطرق المطاعنة، وهي أن يقف الفارس على بعد خمسين ذراعاً من خصمه، فإذا دار فعليه أن يدور أيضاً ويترقب، وإن وسع الدوران فعليه أن يضيق، فإن اتبعه فضيق أيضاً، فعلى الفارس أن يقف مكانه حتى يدور خصمه أو يقترب منه، فإن فعل ذلك فعليه أن يأتيه من خلفه ورأس رمح عند عرقوب الفرس لا يرفعه أبداً ولا يسبقه ثم يضرب رمحاً ضربة شديدة ثم يطعنه^(٥٧).

من الطرق الإبطال، أيضاً وهي إبطال طعنات أو ضربات سلاحه. فإذا كان الفرس الخصم أقوى ورمحه أثبت، فما على الفارس إلا أن يجري أمامه، فإذا سدد إليه طعنة من الكتف فما عليه إلا أن يمسك طرف رمح (الخصم) وينحرف نحو الشمال فإنه يظل وينكسر، وحينئذ يمكن استخدام السيف أو الدبوس من قبل الفارس^(٥٨)، وهناك طرق المجادلة والمفارقة والملازمة والمخارجة والمضايقة والكر والفر والهزل والجد والاختذ والرد والطلوع والنزول والمقابلة والاحتراس وغيرها^(٥٩)، كلها تدخل في الفن الحربي عند المقاتل المملوكي الذي تدرّب عليها

(٥٥): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٢٢ وما بعدها.

(٥٦): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٢٣٢٢، الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٨.

(٥٧): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٣١، ٣٢، الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ١٣.

(٥٨): الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٨، ٩، إبراهيم: مخطوطة الفروسية برسم الجهاد في سبيل الله ٦، مجهول: مخطوطة علم الفروسية برسم المجاهدين ٨.

(٥٩): الرماح: مخطوطة في علم الرمح على الأرض وعلى الفرس ٣٠ وما بعدها، البلقيني: مخطوطة قطر السيل

وأَتقنها منذ صغره، ودخل المعركة وهو واثق من نفسه، متمكن من سلاحه.

٢) السيف:

للسيف فضائل ذكرها الاقدمون، وله دور كبير في القتال، وهو سلاح الفرسان والمشاة على سواء، وهو مقدم على جميع الأسلحة^(٦٠).

هناك أبواب كثيرة للتدريب عمليا على السيف ومؤداها جميعا أن تضرب الخصم في المواقع الحساسة من جسمه أو جسم فرسه، وأن تنقل السيف من يمين إلى شمال إلى يمين حسبما تقتضيه ظروف الاشتباك والقتال، وأن يقبض المقاتل على السيف في أماكن محددة وأن تكون راحة يده وأصابعه فوق اذن الفرس والجفن بيده^(٦١) وأن يكون العنان بيساره أو يمينه حسب الحالة يلوح السيف أربع تلوينات ثم يضرب به فرس الخصم من أذنه كفه الأيسر وكذلك في الناحية الثانية منه. وكذلك قبض الذبابة باليد اليمنى والقائم باليد اليسرى وهناك العمل بالمنصف وهي طريقة للتدريب على القتال يتبعها الفارس حسب قواعد وشروط وحركات تدل على المهارة. وبالمخفف وبالفراش وكلها تدل على دقة تأدية التمرينات المرتبطة بالفارس والفرس والسيف لقاء العدو الذي تقدم للنيل من خصمه^(٦٢).

وفي الحقيقة فإن هذه الطرق أشبه ما تكون في الوقت الحاضر بأساليب وطرق التدريب على الأسلحة المختلفة الحديثة وبل اني رأيت فيها تناسق الحركات وأداؤها ومواضع الجسم وأعضاءه ما يدل على أن الفارس يبذل من الجهد الفكري والجسدي أكثر مما يبذله المقاتل في الوقت الحاضر، كما أن الطريقة الواحدة تحتاج منه إلى تدريب متواصل، وتركيز على تأدية الحركات السريعة التي إن أخطأ بها، سوف ينال خصمه منه ويُقتل قبل أن يقتل^(٦٣).

في أمر الحيل ١٤٤ وما بعدها، ابراهيم: مخطوطة علم الفروسية في سبيل الله ١٠ وما بعدها، مجهول: مخطوطة علم الفروسية برسم المجاهدين ٨ وما بعدها.

(٦٠): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٧٠، ٧١.

(٦١): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٧، ١٨، الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ٢٩، الرماح: مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ١٤ وما بعدها.

(٦٢): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٧٣/٧، ناصر الدين: مخطوطة المخزون لارباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح ٤١.

(٦٣): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٧، ٧٣ الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والأسلحة ١١٢ وما بعدها.

كما أن هناك تدريبات مختلفة على غمد السيف، وكيفية إدخال السيف فيه أثناء ركض الفرس أو أثناء النزول أو الصعود وتبرز حالة مهمة في هذه التدريبات، وهي نزع السيف والضرب به أثناء لقاء الخصم، وتسديد الضربات على الوجه أو على جيل العاتق مباشرة دون انتظار أو تأخر^(٦٤)، إن علق سيف الخصم بالترس، فعلى الفارس أن يترك الترس ثم يلحق بالخصم ضربا متتاليا حتى يقضي عليه. وتقام على هذه الطريقة تدريبات مختلفة في ميادين التدريب حتى إذا تمكن منها الفارس وتعلمها كلها، أن له حينئذ أن ينازل الفرسان وأن يقارع الأبطال^(٦٥). وأخيرا فإن ضربة السيف قاطعة فمن نجا منها فقد فاز ومن أجاد الضرب فقد أسرع إلى المجد، واقترب من النصر والفارس هو الذي يضرب فلا يخطيء، وبأول ضربة يقطع عدوه بضربة قاتلة^(٦٦).

٣ - الرمح :

إن السلطان والامراء والممالك كانوا يتدربون بصورة متواصلة على الفنون المختلفة لهذا السلاح^(٦٧)، وقد اعتنى الفوارس المملوكيون بأبواب وبنود الرمح المختلفة والكثيرة في القتال. وهذه الأبواب تحكي أنواع التدريب آنذاك، وطرق القتال وأسلوبه، وكيفية الطعن، والدخول إلى الميدان أو الخروج منه. وعلى الفارس أن يكون ملما بكل هذا، ولا سيما ببنود الركاب والدولاب والتكوير والظهر والمشطور والحل والعقد والليب وغيرها^(٦٨).

فالليب مثلا هو استقبال الخصم بالشمال ومن وراء الظهر، ثم القبض عليه مستديرا من مؤخر السرج، ثم الطعن باليمين إلى كتف الشمال. ثم يؤدي الفارس حركات الطعن والدخول والخروج^(٦٩). وقد بلغ عدد الطرق والبنود أكثر من سبعين، على أن بعضها يتفرع إلى عدة فقرات أيضا، تتناول المسائل التدريبية شرحا وتفصيلا لم أره في عصر من العصور كباب

(٦٤) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٧٧، ٧٨، ناصر الدين : مخطوطة

المخزون لارباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح ٤٢.

(٦٥) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤال والامنية فيتعلم أعمال الفروسية ٧٩.

(٦٦) : ابن قتيبة : الحرب والفروسية ٨٣ وما بعدها.

(٦٧) : الصيرفي : نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ١٥٢/١.

(٦٨) : الذهبي : مخطوطة غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود ٢ - ٤.

(٦٩) : الذهبي : مخطوطة غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود ٥.

التساريح الذي يبلغ ثلاثا وعشرين فقرة دخل بها وخرج فارسا ومعلما^(٧٠). ثم لا يكتفي بكل هذا بل يشرح كل باب أوبند معتمدا بذلك على خبرته واحاطته وتمكنه من العلم الذي يحمله. فإذا دققنا في بند الدواليب، رأينا فيه كل ما يحتاجه الفارس المتدرب، وما عليه إلا أن يطبق تلك المعلومات حتى يخرج منها عالما بالرمح مصيبا به مستعملا الطرق المتنوعة^(٧١)، هذا وقد أشتهر مدربون كثيرون على الرمح. وقد كان جهاز التدريب على الرمح من بين الاجهزة العديدة التي اختصت بالتدريب فكان له رئيس ولديه مدربون اختصوا بالابواب والبند^(٧٢).

٤ - الرمي :

يعتبر الرمي في الجيش المملوكي من أهم المواضيع التدريبية، وقد خصص لهذا النوع من التدريب ميادين خاصة، كما خصصت أعتدة كثيرة وإمكانات ووسائل تدريب متنوعة. وذلك كله بغية الوصول إلى دقة الإصابة وإصابة الأهداف من مسافات معينة حسب المواصفات الفنية والتعبوية للسلاح.

وهناك رمي الشباب ورمي المنجنيق (المدفعية) ورمي النفط^(٧٣). ولشدة اهتمام الممالك بالرمي كان البعض منهم ينظمونه بقصيدة مثل تطبيق الأشرفي الذي نظم قصيدة طويلة في رمي الشباب من مئة وسبعين بيتا في زمن الملك الأشرف شعبان وقد ضمنها أصول الرمي وقواعده وأوضاع الرامي وكل ما يتعلق بالشباب والرامي^(٧٤)، ومثل الزردكاش في مخطوطة الانيق في المناجيق الذي أسهب في رمي المنجنيق والمدفعية وبين المسافات وأحكام الرمي والاعتدة والآلات التي تستخدم في الزيادة أو التقصان، وبين أنواع الرمايات والمقذوف^(٧٥).

إذا ركز الجيش المملوكي على الرمي فلأن له دورا كبيرا في القتال. ولا يعتبر الرامي راميا إلا إذا تعلم على هذا الفن من التدريب على جميع الآلات المستخدمة كالشباب والقسي والأوتار

(٧٠) : الذهبي : مخطوطة غاية المقصود في العلم والعمل بالبند ١٣.

(٧١) : الذهبي : مخطوطة غاية المقصود في العلم والعمل بالبند ١٦.

(٧٢) : الحلبي : تحفة الظرف في مناقب الملوك والخلف ٧٨٩.

(٧٣) : ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/١٢٣، ١٢٤، ١٤٥.

(٧٤) : الأشرفي : مخطوطة رمي الشباب ٥ وما بعدها.

(٧٥) : الزردكاش : الانيق في المناجيق ٤١ - ٤٦، ٤٨ - ١٦٣، ابن غانم الاندلسي : مخطوطة العز والمنافع

وما إلى ذلك. ولقد اعتمد تدريب الرمي على الناحية الجسدية للمتدرب في الطول والقصر والشدة والذكاء وغيرها. فلكل جسم ما يناسبه^(٧٦).

للقوس قواعد في استخدامها منها العقد والإيتار. ومن هذه القواعد تتفرع مسائل عديدة، فالإيتار مثلاً له ستون حالة وكل حالة تشترط على الرامي أن يتخذ أوضاعاً مناسبة كتقدم الرجل اليمنى والدفع بالزند والاستار عند الإيتار ووضع عند عنق الفرس وجذب القوس، ووضع الرامي عند الرمي من الأرض أو من ظهر الفرس، ومد السهم حتى يصل إلى حد معين، والنظر إلى طول القسي. فمنها الضيقة ومنها الكثيرة الخشب ومنها التي تصلح للرمي والتي لاتصلح ووضع الشباب في الوتر وتعليق الكلاب وتدقيق الأوزان وحساب الريش، وشد الزردة على الوتر وغير ذلك من الأعمال التي تهيء الرامي وتجعل عتاده في حالة جاهزية كاملة^(٧٧). . . وبالإضافة إلى العقد والإيتار هناك أربع قواعد أخرى وهي القبض والتفويق والمد والاطلاق. فأما القبض فهو وضع قبضة الفارس على مقبض القوس مع مراعاة وضع الأصابع، والتفويق مسك السهم بالكف اليمنى وبنان اليسرى بأصول ثابتة بحيث تتمكن كل أصبع من مكانها، والعقد هو عقد الأصابع على الوتر وفوق السهم، والمد وهو شد الخنصر والبنصر والوسطى وشد المرفق، والاطلاق.

قد يتعرض الفارس إلى القتل إذا لم يتقيد بأصول الرمي وقواعده وشروطه كما حدث للامير شكار عندما ساق فرسه فاقترب أكثر من المسافة المسموح بها فاصطدم بخشبة القبق فقتل على الفور هو وفرسه^(٧٨). وعلى الرامي أن يتفقد سلاحه ويصونه في كل الأوقات. وعليه أن يحافظ على لياقته الجسمية ولا يتعرض للبرد، وأن يعتني بيديه ليكون عند الرمي قادراً على التسديد دون أية معوقات^(٨٠).

(٧٦): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ١٧، ١٨، ١٩، مجهول: الحيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٥.

(٧٧): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ١٨ - ٢٧.

(٧٨): الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٢٣ - ٣٥، مجهول: مخطوطة في علم الفروسية ورمية الشباب على ظهور الحيل ١٢ وما بعدها.

(٧٩): الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٤٣.

(٨٠): الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ٤٩، مجهول: مخطوطة في علم الفروسية ورمية الشباب على ظهور

يعتبر الرمي على الشباب في مقدمة التدريب على الرمي . أما الرمي على المنجنيق الذي يعتبر من الأسلحة الثقيلة آنذاك، فإن الرامي يتعلم ويتدرب على فك وتركيب هذا السلاح ومقذوفه، وعلى القواعد والاصول، ثم على حمله والمسير به إلى مسافات بعيدة^(٨١) . وأما التدريب على أسلحة النفط فإنها عديدة وأهمها «الزرافة» التي كان الرامي يتدرب فيها على التسديد، وهي لا تحتاج إلى عناء لأن مسافة الرامي فيها كانت قليلة إذا ما قيست برمي الشباب ورمي المنجنيق . وفي كل الأحوال فإن هذه القاذفات كان يرمي عليها أي جندي، بعد أن يكون قد تدرب عليها فترة بسيطة وكان «الصناع» هم في الغالب الذين يقومون بالتدريب^(٨٢)، وما من سلاح من الأسلحة التي برز ذكرها إلا لها مدربون اختصاصيون ويجري التدريب عليها بصورة دقيقة ومستمرة .

٥ - تدريب اللياقة والقوة :

من أهم هذه التدريبات الصيد ولعب الصولجان والصراع واللبخة . فأما الصيد فهو في نظر الجيش المملوكي رياضة تعلم الرمي ضد أهداف تتحرك بسرعة، وعلى الرامي أن يصيب الهدف من الحركة فلا ينتظر الطريدة حتى تقف أو يقف الصياد حتى يرمي بل يسدد من على ظهر الفرس العادية على الغزال الذي يركض بسرعة تفوق سرعة الفرس . وفي هذا تدريب كبير ومشقة في الاقتناص . وكان الأمراء يكثر من الصيد ويعتنون بتربية الطيور الجارحة التي كانوا يطلقون عليها «الكواهي» وهي الصقور المعدة والمدربة للصيد . وكان للطير مطعم خاص به، يبيت فيه الطعام، ويدرب في هذا المكان، وله أناس يقومون على خدمته وتدريبه^(٨٣) . ومما يشبه تدريب الصيد السباق الذي يجري في ميادين عديدة بين الفرسان، الذي يعتمد على تدريب الفارس والفرس بأن واحد . وهو من التمارين التي كانت شائعة في أيام المماليك ومنتشرة إنتشارا واسعا^(٨٤) . أما لعب الصولجان هو نوع من التدريب للفارس وهو على فرسه، بيده عصا يضرب

(٨١) : الزردكاش : الانيق في المناجيق ٤١ - ٤٦ .

(٨٢) : أبو شامة : الذيل على الروضتين ١٨٥ ، الحجازي وزملاؤه : النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ٦٦ وما بعدها .

(٨٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٦٤ ، المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٥٢٣ .

(٨٤) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٢ / ٦٩ ، زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ١٥ وما بعدها .

بها الكرة ويسوقها . ويجري هذا في ميادين خاصة أعدت خصيصا لهذه الرياضة . وللعبة قواعد منها ضرب الكرة خلسة وبرفق ومن تحت غرم الفرس ، ووسط صدرها ونحرها ، والحذر من الجري السريع غير المتزن ومن الصدمات وأذى المشاهدين والإبتعاد عن السب والشتم^(٨٥) . وهذه التدريبات تمهد للفارس أن يصل إلى الفروسية وأن يحصل على لياقة جسمية تؤهله للدخول في القتال . وهي من أفضل أنواع الرياضة لكثرة حركاتها وسرعة الانعطاف للفرس في كل الاتجاهات ، ورفع الكرة من الأرض وبعبق الصولجان وغير ذلك^(٨٦) . ويلحق بهذه الرياضة (الطبقات) وهي الكرة التي يلعب بها الاولاد فيجرون خلفها ، ويحاولون ولوجها في مكان حفرة في الأرض لهذه الغاية^(٨٧) ، أما المصارعة فهي تمارين القوة واللياقة والتحمل ، يشهدها جمهور كبير من الجنود والناس ويحضرها الامير ، وتندق الطبول والزمر ، ولها مراسيم خاصة كما نشاهدها اليوم في ميادين المصارعة المختلفة المنتشرة بصورة خاصة في الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا والعالم . للمنفذ مكافأة يقدرها السلطان أو الأمير وفي كثير من الاحيان تؤدي هذه المصارعة إلى أذى يلحق بالمتصارعين^(٨٨) .

أما « اللبخة » فهي تدريب جماعي وهو عبارة عن عدة شجعان يتقابلون بالعصي ، ويقوم أحدهم فيمسك عصاه من وسطها ويفرق عشرة من زملائه الذين يلعبون معه وتؤدي هذه اللعبة في بعض الاحيان إلى أن يقتل اللاعب زميله . إنها لعبة تدل على القوة والرشاقة واستخدام العصي بكل خفة ومهارة^(٨٩) .

٦- التدريب البحري :

في الحقيقة فإن هذا النوع من التدريب لم يهتم به قادة الجيش المملوكي إلا بعد معركة عين

(٨٥) : ابن قتيبة : الحرب والفروسية ٩٤ وما بعدها ، متر : الحضارة الإسلامية ٢٠٦/٢ .

(٨٦) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤل والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٨٣ ، ٨٤ ، الرماح : مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ٩٣ وما بعدها .

(٨٧) : الرماح : مخطوطة نهاية السؤل والامنية في تعلم أعمال الفروسية : ٨٤ ، الرماح : مخطوطة في علم الفروسية برسم العمل به ١٠٠ وما بعدها ، ابن حرز الله الحاسم : مخطوطة هداية الرامي إلى طريق المرامي وعلم

الرمي بالبندق ٢٩ . Rey - Les Colonies Franques De Syrie Aux XIIme Et XIIIme Siecles Pages 54 .

(٨٨) : ابن القيم : الفروسية ٨ ، متر : الحضارة الإسلامية ٢٠٧/٢ .

(٨٩) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٠/١٢٨ .

جالوت، إذ كانت البحرية المملوكية قبل المعركة ضعيفة التدريب. وفي زمن الظاهريين وبعد أن استلم القيادة بعد مقتل قطز اهتم اهتماما زائدا بتدريب هذا السلاح وأولاه أهمية كبرى^(٩٠) ولعل هذا الاهتمام من قبل هذا القائد آت من دافعين الأول شعوره بتقوية هذا السلاح وتطويره بعد المعركة الفاصلة والثاني هو طموحه لأن يسيطر على البحار وبخاصة البحر الأبيض المتوسط، وليكون هناك توازنا مع القوة البرية. إن التدريب كان يجري على شكل بيانات عملية في النيل يشهده المقاتلون والناس ويحضره السلطان، ويجري عرض للقطع البحرية في النيل، وبخاصة القطع التي صنعت حديثا، وللتأكد من كفاءتها، كانت تجري تدريبات مختلفة عليها^(٩١) وفي بعض التمارين كانت تغرق بعض المراكب، فإن هناك سباحين يقومون بإنقاذ الغرقى أو الذين لم يدرّبوا على السباحة، ومع ذلك فقد يموت غرقا بعض الجنود أو القادة^(٩٢)، لا يكتفي أثناء التمارين البحرية بالعرض والاستعراض، وإنما هناك مشروع تدريب بالرمي الحقيقي وبالمناورة كما لو كان ذلك في قتال حقيقي، إذ تستخدم جميع الأسلحة البحرية التي تحتويها السفن القتالية^(٩٣). وكانت الشواني والغربان من أهم المراكب التي يجري عليها التدريب وتختبر قدرتها ومناورتها وقوة رميها المدفعي والنطفي^(٩٤).

ومما يشار إليه أن الجيش المملوكي كان يجري تدريباً مشتركاً قبل العمليات الحربية التي ينوي القيام بها. وهذه التمرينات كانت تجري في جو يشبه جو المعركة المتوقعة حيث يشترك السلطان وأتابك العساكر وجميع قادة التشكيلات والقطعات والوحدات العسكرية بلباس الميدان الكامل.

يبتدىء هذا النوع من التدريب بعرض الجيش أمام القائد الأعلى بعدها تتفرق الوحدات من جميع المستويات وينصب « القبق » ويتنافس الجنود وقادتهم بالرمي وجميع أنواع التمارين،

(٩٠): مبارك: الخطط التوفيقية ٨١/١، ٨٢، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ٢٩٦.

(٩١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٥١/٢/١.

(٩٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥٦/٨.

(٩٣): ابن يحمى: تاريخ بيروت ٣٨، ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وكنوزها الباقية ٢٠٣، العدوي:

الاساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ١٦٣.

(٩٤): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١٤٢/٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥٦/٨.

حتى إذا كان اليوم الثالث من المشروع انقسم الجيش بالكامل إلى كتلتين كتلة تمثل العدو وكتلة تمثل الصديق وياشر الطعان وتصطدم الكتلتين ببعضهما ويتناوش الفرسان والرماة كما لو كانوا في أرض المعركة الحقيقية والقائد الأعلى يشاركهم ويعطيهم التوجيهات حتى إذا أنهى التدريب بعد ثلاثة أيام أنعم القائد الأعلى على الفائزين وعلى المبرزين في المشروع بإنعامات مختلفة وبمكافآت مادية ومعنوية^(٩٥). ثم أمر فجهز الطعام والحلوى، فأكل القادة والجنود بعد هذا التدريب الصعب والقاسي وبعدها يتحرك الجيش مباشرة إلى ساحات القتال، وهذا ما كان يفعله الظاهر بيبرس عندما تولى الحكم حيث أمر بتحريك الجيش بعد التمرين نحو بلاد الروم.

وكذلك فإن هناك تدريبات كانت تجري أثناء العمليات الحربية بقصد شد الجندي إلى الانضباط، إلى تذكيره بأنواع الرماية وأصول الفن الحربي ولعب الرمح، كما كانت تقام بيانات وعروض مختلفة. أمام الوفود الأجنبية التي تحضر البلاد أو أمام الرسل والسفراء بقصد إدخال الرعب في قلوب الأعداء، والهيبة أمام المجتمع الدولي^(٩٦).

(٩٥): ابن الفرات: تاريخه ٦/٧ وما بعدها.

(٩٦): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٦٢٦ وما بعدها، مبارك: الخطط التوفيقية ٨٢/١.

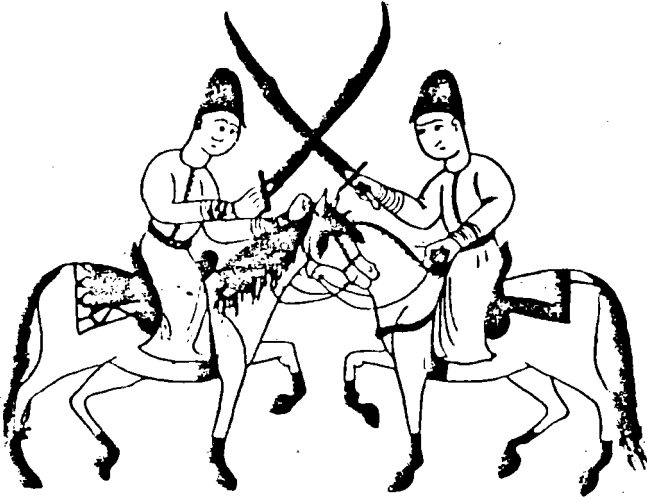
(٩٧): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٦٠٥.

التدريب على الضرب بالسيف على الصومعة

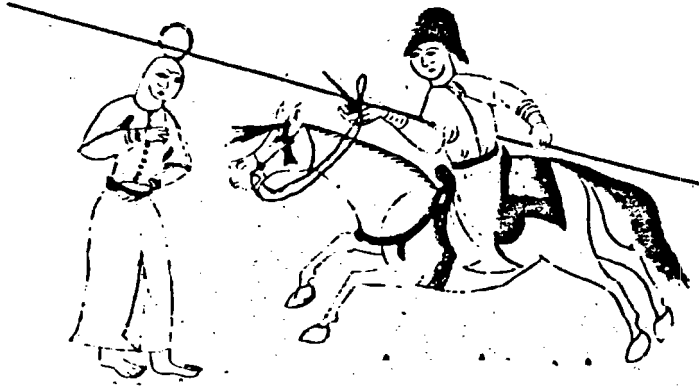


عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لـ ناصر الدين الرماح.

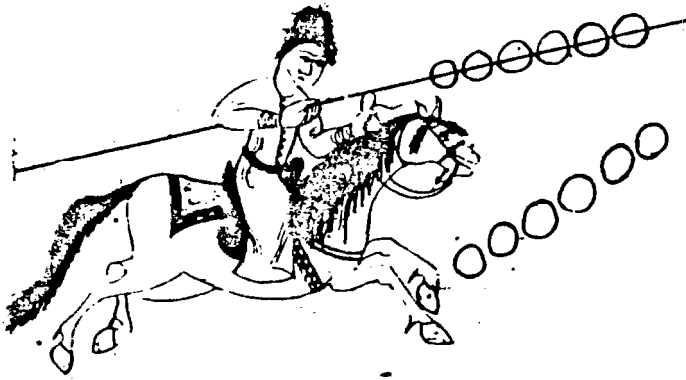
فارسان مملوكيان المنازلة بالسيف.



عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لـ ناصر الدين الرماح.



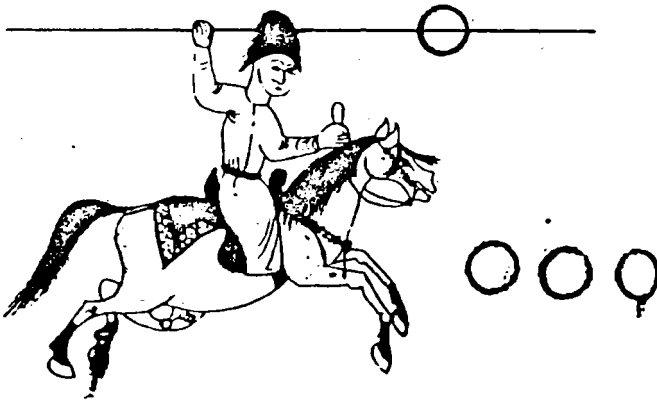
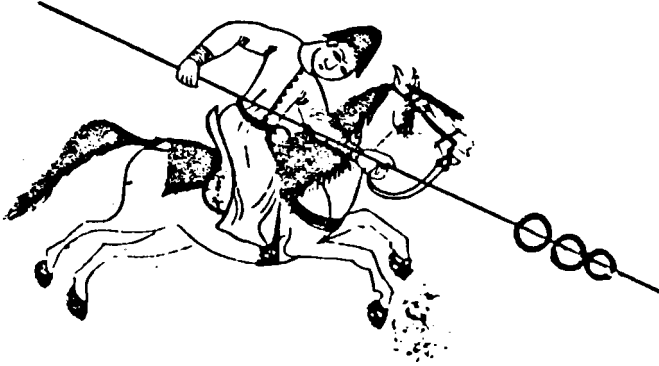
فارس مملوكي يتدرب على أخذ الكرة من على رأس رجل.



فارس مملوكي يتدرب على أخذ الحلقات الست في طلق واحد ويجمعها في يده اليمنى.

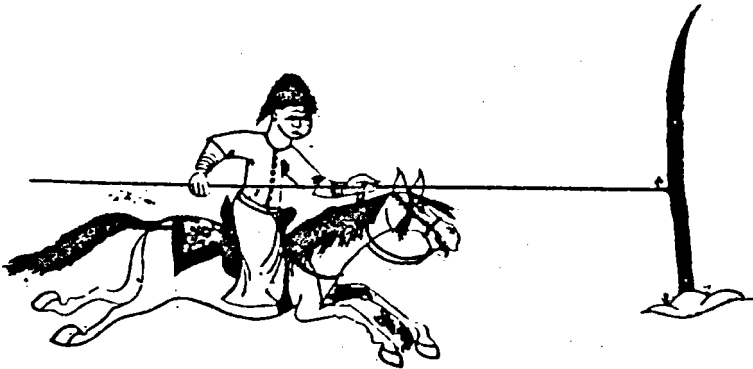
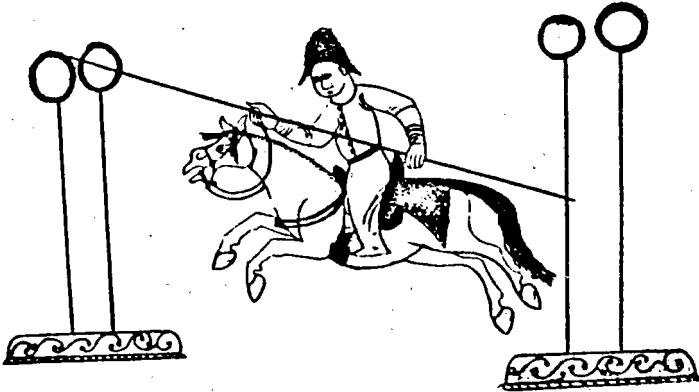
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لـ ناصر الدين الرماح.

فارس مملوكي يتدرب على أخذ الحلقات واحدة بعد واحدة من أرض الميدان بسنان الرمح .
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لـ ناصر الدين الرماح .



فارس مملوكي يتدرب على أخذ الحلقات من وسط الميدان والفرس في حالة الجري .
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح .

فارس مملوكي يتدرب على أخذ الحلقات من على قائمين يميناً ويساراً.
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون ولعب الرمح لناصر الدين الرماح.



فارس مملوكي يطق سيفاً قائماً على حرفه برمح بلا سنان.
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح.



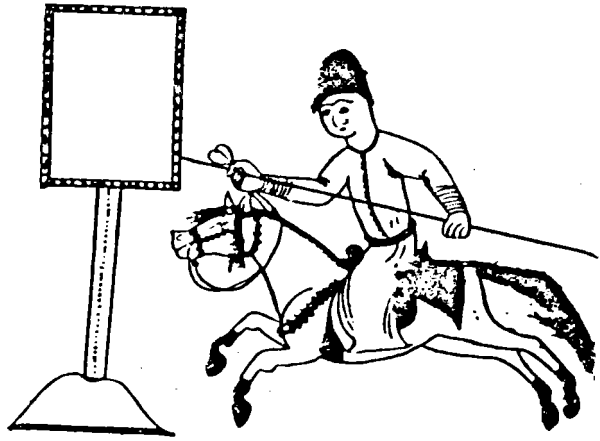
هنا الراجل يرمي ويتدرب على أهداف مختلفة قريبة من الواقع القتالي .
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح .

التدريب على الشباب بأوضاع مختلفة وعلى أهداف متنوعة.
هنا على الفرس ورمي القبق.



عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح.

تدريب على الرمح القصير وكيفية التقرب من الخشبة.



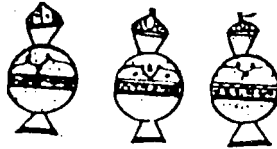
عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح.

سلاح النفط والنيران

راجل أمام فارس يحمل دبوساً يرش منه النيران، وأما الفارس فلديه قوارير (قنابل محرقة).



قوارير نفط يتسلح بها الراجل أو الفارس ليلقيها على الأمكنة المراد حرقها.



عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح.

سلاح النفط والنيران

دبوس ملفوف عليه لباد مشيع بالنفط لحرق أبواب القلاع والحصون.



عن مخطوطة المخزون لأرباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح لناصر الدين الرماح.

« العمليات »

(التكتيك العسكري المملوكي)

إن العمليات هي الجانب التنفيذي في الحرب، وهي مجموعة الإجراءات والأعمال والتحركات والفن الحربي والنشاطات القيادية التي طبقت في معركة عين جالوت. لقد خاض الجيش المملوكي قبل هذه المعركة عدة عمليات حربية إلا أنها كانت صغيرة على مستوى ضيق، ولم يجرب نفسه مع جيش قوي كجيش المغول ولم يقاتل كجيش مملوكي موحد، إنما قاتل بعض أفراد أو بعض قياداته في صفوف الجيش الأيوبي، وأشترك المماليك هؤلاء بصورة خاصة في معركة المنصورة التي جرت بين الصليبيين من جهة بقيادة الملك الفرنسي وبين الأيوبيين بقيادة الملك توران شاه الأيوبي في سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ وكان النصر للجيش الأيوبي بالاشتراك مع المماليك^(٩٨). اشترك في هذه المعركة قادة عماليك قادوا فيها بعد معركة عين جالوت وكان لهم دور كبير في القتال وفي تحقيق النصر. أمثال الظاهر بيبرس^(٩٩). ولعل معركة المنصورة غرست في قادة المعركة المماليك ثقة الانتصار في معركة عين جالوت وشجعتهم على الدخول في مواجهة أكبر قوة ضاربة في العالم وبذلك أتيج لهم أن يتصرفوا على أكبر دولتين كانتا موجودتين في الأراضي العربية، وتهددان باستمرار بغزو دمشق وبغداد إحداهما في معركة المنصورة والأخرى في المعركة التي نحن بصددتها^(١٠٠).

(٩٨): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٣٨/٥، ٢٣٩.

Rashid AL - Din, The Successors of Genghis Khan 233.

(٩٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣١٩، ٣٢٠، ٣٣٦، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٤، ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب من أخبار من ذهب ٢٣٨/٥/٣، ٢٣٩، ٢٤٠، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٦٣٨/٢/١.

(١٠٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٩٧، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب من أخبار من ذهب

٢٣٨/٥/٣، المقرئزي: الخطط ٩٣/٣.

أولا : الخصائص القتالية :

هذه الخصائص التي تميزها الجيش المملوكي في حروبه والتي أهلته إلى أن يدخل معركة عين جالوت ، ثم يستمر في معاركه الأخرى مطبقا هذه الميزات .

ولعلها كانت سببا في إنتصاره على الجيش المغولي ، أو على الجيوش الأخرى التي حاربها فيها بعد وأهم هذه الخصائص :

١ - تطبيق الخصائص القتالية :

يطلق عليها « مبادئ الحرب » أيضا ، وهي تلعب دورا أساسيا في تحقيق النصر . فبقدر ما يكون تخطيطها دقيقا وشاملا بقدر ما يكون الجيش أقرب لبلوغ الهدف . وهذا القول ينطبق أيضا على تطبيق وتنفيذ تلك المبادئ .

إن فعالية التخطيط والتنفيذ تكسب القيادة قدرة على توجيه الضربات الحاسمة إلى الخصم ، ولاشك أن الثقافة العامة والعسكرية ومعرفة قوانين الحرب والمبادئ تلعب دورا هاما في بلوغ النصر . فإذا طبقت هذه المبادئ تكون العوامل التي تساعد في إحراز تقدم حاسم ، وفي بلوغ الأهداف . لا بد من وضعها بعين الاعتبار وهي التسليح والتنوع والمهارة القيادية والكثرة العسكرية والروح المعنوية والإبتكار والتنظيم الدقيق والنشاط العقائدي .

للمبادئ صفة حقوقية إدارية ، فهي واجبة التطبيق على كل قائد خاض أو سيخوض غمار الحروب ، ويتوجب عليه إتباعها ، فإن تنكبها وخسر المعركة فإنه ليسأل عن ذلك وإن طبقها فقد قدم ما عنده وضمن شروطها في هذا تعتبر دليلا ومرشدا . وعلى القائد أن يكون قادرا على الإبتكار وخلق الظروف الملائمة لتحقيق النصر . وإذا أمعنا النظر في معركة عين جالوت بصورة خاصة والمعارك التي تلت بصورة عامة لادركنا تماما أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد الحدود ولا سيما الظاهر بيبرس الذي اشترك في هذه المعركة بالذات وفي المعارك التي شهدا بنفسه فيها بعد .

آ - الاقتصاد في القوى :

لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة عين جالوت ، ولكنه كان يقود القوى الرئيسية للجيش وبيبرس كان يقود الطليعة ، وقد اشتبكت الطليعة وهي جزء من

الجيش مع خامية غزة^(١٠١).

كما اشتبكت القوة الرئيسية هذه مع الجيش المغولي، كما اشتبكت الميمنة مع مايقابلها وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاهها^(١٠٢). وكان قطز حريصا كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تتناسب مع القوات التي تقابلها من الجيش المغولي فقد أفرز قوة للمجنبات وأخرى للالتفاف القريب وثالثة للبعيد ورابعة للكمين وخامسة لعاقة وجذب قوى العدو^(١٠٣)، أما بيبرس فقد أظهر براعة حربية في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة وقاتل وهو في طريقه إلى عين جالوت، ثم في الكمين الذي نصبه للعدو^(١٠٤)، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحا كل الوضوح إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور وعلى كل اتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي^(١٠٥). ثم في القوى التي أرسلها عند إستلامه القيادة العليا إلى العوجا، وسار بنفسه إلى الخليل والقدس، ثم في القوى التي أرسلها إلى حصن الكرك والقلع، وإلى صفد، وحارب الصليبيين في مواقعهم، ورد التتار عن توسعهم. وفي كل هذا كان يقتصد في القوى ويعزز هذا المبدأ باختياره القوى والوسائط والقادة المناسبين^(١٠٦).

ب - تجميع وحشد الجيوش على الاتجاهات الرئيسية :

من مبادئ القتال عند الجيش المملوكي والمغولي أن يحشد في الاتجاهات الهامة، وأن يكتنف القوى والوسائط نحو الجهة الأكثر خطورة^(١٠٧)، فلما أراد الجيش المغولي إجتياح بغداد، جمع

(١٠١) : ابن الصقاعي : تالي وفيات الاعيان ٦٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤ / ٣٦٣ .

(١٠٢) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٤٣١ وما بعدها .

(١٠٣) : الهمداني : جامع التواريخ ١ / ٢ / ٣١٤ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٦١ .

(١٠٤) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧ / ٧٩ ، الشهابي : تاريخ ٤٣٩ .

(١٠٥) : ابن الوردي : تاريخه ٢ / ٢٩٧ ، الإسحاقى : اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول

١٣٢ .

(١٠٦) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ٢ / ٥٤٧ وما بعدها ، زكي : الجيش المصري في العصر

الإسلامي ٨٢ .

(١٠٧) : البغدادي : الافادة والاعتبار ١٤٠ .

تشكيلاته المقاتلة من جميع البلاد والجهات التي كان يحارب فيها، حيث تحركت تشكيلات بايجونية من بلاد الروم وعبر جسر الموصل، وتحشدت في الجهة الغربية من بغداد، وأخرى بقيادة يلبغا، وتوتار وتولي وغيرهم عن طريق مضيق سونثاي لتصل إلى مركز القيادة العامة للجيش المغولي (مركز قيادة هولاكو) وثالثة بقيادة كتبغا كانت تتحرك من تكريت وخوزستان لتصل إلى عمان^(١٠٨)، وكذلك لما أراد الجيش المملوكي مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت جمع قطز الجيش المصري وأرسل إلى الجيش الشامي، وحشد الإمكانات المتاحة، وأرسل في القرى والمدن والبادية بحث المليشيات الشعبية، والتقت هذه التشكيلات جميعاً على أمر المعركة، وركزت الجهود الرئيسية نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك باتجاه مرج ابن عامر، وسار باتجاه الساحل بكتلة واحدة^(١٠٩)، وفي الحقيقة فإن المغول انتصروا عندما طبقوا هذا المبدأ في هجومهم على بغداد، وهُزموا عندما أُخلوا بتطبيقه في معركة عين جالوت، وانتصر المماليك في هذه المعركة لأنهم استطاعوا حشد القوى وتجميعها، وقاتلوا كتلة واحدة. إن الجيش المغولي لم يقاتل على هذا المبدأ بعد حرب بغداد أبداً ولم يجتمع ولم تقم لهم قائمة ولم يحارب إلا بجزء أو بعدد قليل، فقد دخل معركة حمص سنة ٦٥٩ / ١٢٦١ بجيش لا يزيد عن ستة آلاف فارس بقيادة بيدرا من بقايا الذين فروا من معركة عين جالوت وتجمعوا على تفرقة وقاتلوا عن كره، وعن فوضى في التنظيم وتشوش في المهام القتالية. ولم يلبث هذا الجيش أن هُزم أمام الجيش المملوكي ممن هو أقل منه عدداً، فكان لا يزيد عن ألف وأربعمائة فارس بقيادة صاحب حمص وصاحب حماة^(١١٠).

إن وحدة الجيش وقتاله ككتلة واحدة متماسكة يساعده على تحقيق النصر. فقد انتصر الجيش المملوكي على الجيش المغولي لأن الأخير دب فيه ريح الخلافات الداخلية وانسحب معظم الجيش إلى بلاد فارس، وانشغل بالقتال الداخلي^(١١١). وانتصر الجيش العربي من قبل في

(١٠٨): الهمداني: جامع التواريخ ٢/١/٢٨١.

(١٠٩): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٥، ابن كثير: البداية والنهاية

١٣/٢٢٠.

(١١٠): الذهبي: دول الإسلام ٢/١٢٥.

(١١١): الهمداني: جامع التواريخ ٢/١/٣٣٧.

معركة اليرموك على جيش هرقل لأن الأخير قد تفكك واختلف وتخاذل^(١١٢).
فالوحدة تجمع وقوة ونصر، والإختلافات شتات وضعف وهزيمة.

جـ - الضغط على الأعداء:

لا يدع لهم مجالا للتفكير، أو لإعادة بناء قوتهم، أو تجميعها، إنما ينتقل من اتجاه إلى اتجاه ومن مكان إلى مكان على تماس مباشر معهم، وبالمقابل فإنه يصمد أمام هؤلاء الأعداء، صمودا يجعلهم في تردد وحيرة وأمل ضائع، حتى إذا زاد زحزحهم من مكانهم تبعهم فسد عليهم كل منافذ النجاة. لقد كان ذلك واضحا في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش لقادة الجيش المغولي وثبتوا ثبوت الرواسي أمامهم، وأمام كل عنجهيتهم وإنذارهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش المغولي وخرقت جبهته، فتعقبه الجيش المملوكي، ولم يفصل عنه أبدا حتى إذا أدركه وضع فيه السيف ولحقه إلى أطراف الشام والبادية^(١١٣). وبدأ الضغط واضحا في عدة أمور أهمها رفض الإنذار وقتل الرسل^(١١٤). والتفوق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي وتردد كثيرا في طلب المدد ليكون هناك توازن بين الجيشين^(١١٥). وإجبار الجيش المغولي أن يفتح وأن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية^(١١٦) والصمود القوي أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبادر قطز إلى صدها وأهم المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة وبخاصة الجناح اليساري الذي كاد أن يتداعى^(١١٧). والهجوم الصاعق الذي أدى إلى قائد الجيش المغولي وقته^(١١٨). والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط على الجيش المغولي الذي هرب وظن بهربه النجاة

(١١٢): تبلر: فتح العرب لمصر ١٤٤.

(١١٣): الاسحاقى: أخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٣٢، الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢٩/١.

(١١٤): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢.

(١١٥): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٥/١، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٦٠/١.

(١١٦): الشهابي: تاريخه ٤٣٩.

(١١٧): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١.

(١١٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٩/٧٠.

ولكنه كان ملاحقا كيفما اجه ومطاردا اينها سار(١١٩).

د - تحقيق المفاجأة:

إن المفاجأة قد تمت في هذه المعركة بالاختفاء والتمويه وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية، إنما قوة الجيش الرئيسية فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال والمساطر في مرج ابن عامر، وبصمود الجيش المملوكي وقتاله الذي وضع كتبغا في حيرة واضطراب، وتشكيلة القتال الجديدة، وينصب الكائن، وبث الدوريات أمام تقدم القوات المغولية، وبالتطويق الكامل، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية، بقيت المطاردة التي لم تنته إلا بقتل وتشريد المهزمين وإبادتهم، وبالشدة والتنكيل والقسوة والحزم والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبدا. هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر، وانزال الخوف والرعب في الجيش المغولي الذي لم يعد يفكر في الاعتداء، إن اعتدى فإنه كان على خوف من أن تحمل القارعة ثانية، ولهذا فإنه كان يستخدم أسلوب الغارات المتتالية التي لا تحقق كسبا عسكريا، وإنما تحدث بعض الإزعاجات والإضطرابات التي تعبر عن تغطية انهزامهم في معركة عين جالوت.

استخدم المفاجأة فيما بعد. القادة الذين تعاقبوا بعد قطز كالظاهر بيبرس الذي كان يتكر بعض الاساليب كحفز السراييب بجانب الخندق لانتقاء الامكنة التي يهاجم فيها العدو إذ لم يشعر مقاتلو أرسوف إلا والجيش المملوكي قد تسلق القلعة وأضرم فيها النار(١٢٠)، وبانتقاء الزمن فقد هاجم قيسارية عند الصباح وجيشها غافل لا يدري، وأهلها نائمون، وسار في الليل إلى عكا(١٢١). وكذلك بصنع الأسلحة الجديدة، وبالمسير والتخفي والاغواء والتضليل والحيلة والخدعة(١٢٢).

(١١٩): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٦/١/٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة والقاهرة ٧٩/٧.

(١٢٠): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٢٨/٢/١، ٥٢٩.

(١٢١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٢٦/٢/١.

(١٢٢): ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر ٣١١/٢، ٣١٤، ابن خلدون: تاريخه ٣٨٦، الدواداري: الدر

الفاخر في سيرة الملك الناصر ٢٦٢/٩.

هـ - وضوح الهدف :

كان قطز القائد الأعلى للجيش واضح الهدف إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي وتدميره والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب وقتل الرسل (١٢٣).

هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتخطيط لهذا القتال ، واستخدام الرجال والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو وجمع الأموال (١٢٤)، والاتفاق مع الصليبيين في عكا على الالتزام جانب الحياد (١٢٥)، لم يكن هدف قائد هذا الجيش أن يستولي على أرض وإنما أن يدفع الجيش المغولي ويرده عن أرض مصر وديار الشام ، ولم يكن هدفه الاستيلاء على مدينة استراتيجية أو ميناء بحري هام وإنما كان هدفه الوقوف أمام الزحف المغولي وخطره على دولة المماليك ، ولم يكن هدفه القتل والتشريد ، إنما كان هدفه أن يوقف قتل البشرية التي كان يجريها الجيش المغولي أينما حل وأينما قاتل . وأتى الظاهر بيبرس بعد هذه المعركة فكان واضح الهدف في جميع حروبه عند استيلائه على هدف هام ، أو مدينة استراتيجية أو موقع حصين . ولم يوجد في القادة المملوكيين كهذا القائد إذ كانت الصورة أمامه واضحة كشاشة التلفزيون وكجهاز التحكم يستطيع أن يعين النقطة أو المحطة التي يريد بها من مكانه (١٢٦).

و - المناورة بالقوى والوسائط :

وزع قائد الجيش المملوكي القوى والوسائط قبل بدء القتال ، وأثناءه ظهرت ضعف الميسرة ، فنقل القوى والوسائط إليها وقواها ، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية وسد الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي ، كما استطاع أن يقود الإحتياطي الموضوع تحت تصرفه ويناور به ليصل إلى قبالة هذا الخرق فيتصدى للقوات المغولية

(١٢٣) : الهمداني : جامع التواريخ ٣١٣/١/٢ .

(١٢٤) : الشرفاوي : تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٥ ، الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٢٩٠ ، ٢٩١ .

(١٢٥) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١ ، سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ٥٠ .

(١٢٦) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٦٥/٢/١ ، زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ٨٣ .

ويوقفها^(١٢٧)، كما قام بدور مهم عندما نقل بعض القطعات من المجنات لتقوم مع النسق الثاني بالهجوم المعاكس، وفعلاً فقد كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود وقاموا جميعاً بهجوم مضاد وقضى على الوحدات والقطعات المغولية التي تسربت خارقة دفاع الجيش المملوكي. وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات مؤكدة عن قوة العدو وضعفه وأماكن تركز قواته، فناور بقواته وأعاد تشكيلها. بما يتلائم مع هذه المعلومات الجديدة^(١٢٨).

ز - السرعة في الاعمال القتالية:

كل فعل له رد فعل، وكلما كان رد الفعل سريعاً في الاعمال القتالية كان ادعى إلى الانتصار، وأقرب للتغلب على الخصم وهذا ما يؤكد لنا أن المناورة والحركة السريعة في أرض الميدان وملاقاة العدو وسبقه إلى الأماكن الحساسة، أو سبقه في الرمي، أو الالتفاف أو التطويق السريع هو عمل ضروري للقوات المهاجمة أو المدافعة.

تجارب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي وأعلن التعبئة، وعقد مجلس الحرب، واتخذ عدة إجراءات تحضيرية سريعة^(١٢٩)، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحول الجيش المغولي فيهاجم الديار المصرية ويغزو الممالك في عقر دارهم^(١٣٠)، ومن الأهمية بمكان أن نذكر دور قائد الطليعة وسرعته، والتفويت على قائد الجيش المغولي (بيدرا) كل مبادرة مما أتاح لبيبرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة وأن يشل تلك الطليعة العدو التي توقفت حركتها وشل عملها من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي^(١٣١)، هذا ولا يخفى أن الجيش المملوكي أثناء القتال كان يستخدم المناورة السريعة والالتفاف القريب والبعيد من

(١٢٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٩.

(١٢٨): Magazine Orientalia Vol. IV/ 366.

العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ١٦٥.

(١٢٩): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٥.

(١٣٠): ابن الوردي: تاريخه ٢/١٩٣.

(١٣١): الاسحقى: اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول ١٣٢.

المجنبات بمجموعة من الفرسان الذين كانوا يتحركون في ساحة الميدان وكأنهم سهام مارقة أو قذائف موجهة وفي الحقيقة فإن قائد الجيش المملوكي وبخاصة بيبرس، كان ينتقل من مكان إلى آخر، ومن اتجاه إلى اتجاه، ومن القضاء على طليعة العدو إلى نصب الكمين الذي كان سريعا إلى تنظيمه وتنفيذه، ومن الكمين إلى المطاردة (١٣٢).

وظل هذا القائد يتصف بهذه السرعة العجيبة عندما استلم زمام السلطة وأصبح القائد الأعلى للجيش، ففي قتاله في معارك قيسارية وعكا وغزة والشقيفي وحمص وطرابلس وغيرها كان سريعا (١٣٣).

ح - الاستطلاع والمخابرات:

اهتم قادة الممالك بهذا الاختصاص كبيرس الذي كان شديد التأثير، يهيمه أن يرى ما يصنع مرؤوسوه، فبث فيهم من كان قادرا على جلب المعلومات بصدق ووثوق، ومن كانوا يتحلون بحسية مخبراتية، ومن كثر دهاؤهم وانظمت خدعتهم وخرجوا من الامور الصعبة، بما أوتوا من حيلة وحسن تصرف. وكان هذا القائد يمارس هذا بنفسه فيتخفى ويتنقل من مكان لآخر دون أن يشعر به أحد، ويطلع على كل صغيرة وكبيرة لوحده (١٣٤).

قطر قائد هذه المعركة بالاشتراك مع قائد الطليعة رئيس أركان الجيش أرسل الدوريات وبثا العيون واعتمدا على الاهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حقد من المغول وتصرفاتهم، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعا إلى هيئة أركان الجيش المملوكي، في حين أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيرا على الاستطلاع، بل اعتمد على قوته وشدته في الحروب، ولم يأبه بما يجري حوله، ولم يقوم بإجراءات كشف العملاء والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته، ويأخذون منها الاخبار، ويوصلونها إلى الممالك (١٣٥)، وبالإضافة إلى ذلك فإن

(١٣٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٩، ٨٢، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٤٣١.

(١٣٣): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١/٢/٥٢٦، ٥٥٨، ٥٧٤، ابن الوردي: المختصر في اخبار البشر ٢/٣١٢ وما بعدها.

(١٣٤): القلقشندي: صبح الاعشى ٣/١٢٣، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٥٤٠، ٥٧٤، ٥٧٦.

(١٣٥): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٥/٣٥٠، العربي: المغول ٢٥٩.

بببرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية استطاع أن يتلقى أخبارا صحيحة عن قوة الجيش المغولي وتحركاته وأسلحته وقادته^(١٣٦)، وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي أرسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافر تصنت وإنذار من مهامها نقل المعلومات عن الانساق وعن تحركات الجيش المغولي^(١٣٧)، وإن الذي قد نقل معلومات دقيقة وموثوقة، والذي كان له دور كبير في الاستطلاع في هذه المعركة هو صارم الدين أزيك الذي قبض عليه المغول عندما اجتأحوا حلب فسكن بقرهم فوثقوا به وأطمأنوا من جانبه، وأصبح يرتع في جنبات هولأكو، وعد من حاشيته المقربين مملوك الملك الأشرف يطوف بأهل القائد العام للجيش المغولي، ويأكل ويشرب معهم وكأنه منهم، وبهذه العلاقة المتينة استطاع أزيك أن يستوعب ما يقولون، ويدرك خططهم المستقبلية وما يرمون إليه، وما هي أعمالهم وما هونوع سلاحهم واسماء قادتهم وحتى أمورهم الخاصة قبل المعركة، وقبل أن يتلاقى الجيشان أرسل أزيك الأخبار التي التقطها والمشاهد التي رآها إلى قادة الجيش المملوكي وأوصاهم بتقوية المسيرة وعرض لهم على الجيش المغولي وقلته، وأوصل إليهم كل شيء.

ثم استعد الجيش المملوكي، وأعاد تنظيمه بناء على هذه المعلومات متأكداً أن النصر قد أتى وأقبل الجيش المملوكي يحصد الجنود المغوليين، ويتقدم شاقا صفوفهم ومبعثرا جمعهم^(١٣٨). وبالإضافة إلى هذه المصادر من المعلومات فإن هناك مصدر عمال البريد الذين كانوا يكلفون بمهام مخبرية بالإضافة إلى نقل البريد الحربي. إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من الداخل، والتحرري من الأعمال الهدامة، أو الأشخاص الذين يقومون بدور العمالة والتجسس على القوات الصديقة وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز «صاحب الخبر والتحري» الذي كان له خبرة واختصاص^(١٣٩).

إن للاستخبارات دورا كبيرا في الحروب الماضية والحاضرة في إحراز النصر. ولقد كانت من

(١٣٦): ابن الوردي: تاريخه ٢/٢٩٣.

(١٣٧): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/٣٦٦.

(١٣٨): Magazine Orientalia Volumen. IV/ 366.

العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ٢٥٦ وما بعدها.

(١٣٩): المقرئزي: الخطط ٤/٨٨، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ٣٨.

الاسباب الصحيحة التي تلقاها قادة الجيش المملوكي وبنوا قرارهم على هذه الصحة فكان القرار سليما والنصر محققا.

ط - التنسيق والتعاون :

ظهر هذا المبدأ جليا واضحا بين التشكيلات المقاتلة في هذه المعركة، ولا سيما بين المجنبتين والقلب والمؤخرة، وبين القوة الرئيسية وقوة الطليعة وبين الكمين وجماعات الانقضاض، وبين قوة المواجهة وقوة المطاردة، وبين الجيش والشعب حيث أبدى الاخير روح التعاون وذلك ببذل المال والانخراط في صفوف الجيش، وبين الفئات التي اشتركت في القتال بعضها مع البعض كالترك والشركس والاكرد والتركمان وغيرهم، وبين المماليك السلطانية والمماليك الاخرى كأجناد الامراء وأولاد الناس وأجناد الحلقة. كما كان التنسيق بين القيادات بين القائد الاعلى ورئيس الاركان، وبين هذه القيادة وقادة التشكيلات (الامراء)، ومن التنسيق أيضا ذلك الاتفاق بين القائد الاعلى والصليبيين الذي مر عليهم في عكا والذين عرضوا عليه المساعدة^(١٤٠).

ي - التأمينات القتالية :

التأمينات كثيرة أهمها في الجيش المملوكي التأمين الإداري والهندسي، فالتأمين الإداري يهدف في هذه المعركة إلى تحضير الاموال والعتاد والسلاح وتأمين الكساء وإطعام العسكرين المشتركين في القتال^(١٤١)، أما التأمين الهندسي فيهدف إلى نصب الجسور وهدم وتدمير المناطق المحصنة، وفتح الطرق والممرات الجبلية، والحفر والتسوية، وإزالة الاحجار^(١٤٢). ولكنه على ما يظهر أن هذه التأمينات كانت متقدمة في الجيش المغولي أكثر من الجيش المملوكي إذ اعتادوا أن ينصبوا الجسور وأن يصلحوا الاسلحة ويقوموا بكل ما تتطلبه المعركة^(١٤٣).

(١٤٠): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١.

(١٤١): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٥، الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٩٢/٢، بارنولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٩٢.

(١٤٢): الهمداني: جامع التواريخ ٢٣٨، ٢٣٥/١/٢.

(١٤٣): الشهابي: تاريخه ٤٣٧، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٧٩، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة

والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٤٠، ٣٤٢. Rey - Les Colonies Franques De Syrie Aux

٢ - القسوة والشدة في القتال :

كان الجيش المملوكي شديد البأس في القتال، ينزع إلى حرق وتدمير كل شيء، إذ يقتل الرجال بدون تساهل، ويقطع الأشجار دون تردد، ويفور الأنهار، ويهدم القلاع، وينهب الأموال فهي حل له من باب الغنائم، ويمنع على العدو أي شيء يستفيد منه، ويأسر المقاتلين^(١٤٤). لعل هذه القسوة آتية من الطبيعة المناخية التي كانوا فيها قبل مجيئهم إلى مصر، أو أن العادات والتقاليد التي كانت متأصلة في نفوسهم كركوب الخيل، وإجراء التمارين المجهدة، أو أن التدريب الذي تلقوه في سن مبكرة من عمرهم، أو أنهم حرموا حنان الأب والأم^(١٤٥).

من مظاهر القسوة في معركة عين جالوت أن بيبرس عندما التقى بحامية غزة من المغوليين، لم يتيح لهم فرصة الهروب أو الإلتجاء إلى مأمن، بل كان يلاحقهم أينما حلوا، ويقتلهم أينما وجدهم، فتركهم بعد أن غادرهم بين قتيل وجريح، وبين هائم على وجهة وتارك أهله ودياره، وقد استخدم الحصار الذي من عادته أن يقطع المياه والتموين، ويتركهم جوعا، بحيث يعجل من استسلامهم، ويفوت الفرصة عليهم للقيام بأي عمل عسكري مضاد^(١٤٦)، وكذلك فإن هذا القائد عندما نصب كميناً للجنود المغوليين إذ أطبق عليهم من كل جانب وطوقهم من كل مكان حتى إذا وقعوا في الكمين وفي الفخ المنصوب لهم قامت هذه المجموعة القتالية بقيادته فوضعت السيف في رقاب المغوليين وشتت شملهم وفرقت جمعهم^(١٤٧)، وقد تجلت هذه الشدة أثناء المطاردة، فلم يكن يلحق بمجموعة إلا أبادها، ولم يكن يلحق بفرد إلا قتله، وتبعهم رغم هروبهم، وقتلهم رغم استسلامهم^(١٤٨). وإذا عدنا إلى القسوة أثناء القتال فإن القائد الأعلى من قادة التشكيلات مع المقاتلين صمدوا وثبتوا رغم خرق جبهتهم القتالية من الجانب اليساري

(١٤٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/١٤٠، ١٤٢، ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر ٢/٣٢٠.

(١٤٥): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣٨٨، ٣٨٨، سمكوع: مدخل إلى تاريخ الشراكسة ١٢ - ١٥.

(١٤٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/١٧٧، الصفدي: أمراء دمشق في الإسلام

١٩. الكتبي: فوات الوفيات ١/١٦٢ وما بعدها.

(١٤٧): الشهابي: تاريخه ٤٣٩، الاسكندري: تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ٢٣٦.

(١٤٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٩ وما بعدها.

ابن الوردي: تاريخه ٢/٢٩٧.

ورغم الضغط الشديد من جانب الجيش المغولي، وبهذا فقد استطاعوا سد الثغرة والتحمت الصفوف، وقاتلوا قتالا شديدا أخرجوا به المغوليين من أمكنتهم، وأبعدوهم عن الامكنة التي اتخذوها خطا دفاعيا منيعا^(١٤٩)، وأثناء القتال فقد القائد الاعلى فرسه، وظل يقاتل بدون فرس إلى أن عرض عليه أحد المقاتلين فرسا يركبه^(١٥٠)، وأطلق صرخة مدوية تدل على الشدة والقوة والعزيمة أثناء احتدام المعركة والصدام العنيف^(١٥١)، وقد أقدم الجيش المملوكي على حرق المزارع والبيوت بمن فيها من المقاتلين المغوليين المختبئين والفارين من جحيم القتال وشدته، فلم ينج منه أحد إلا ما استطاع أن يتجنب تلك النيران العظيمة والتي انتشرت في كل مكان من تمركز هؤلاء، والذي نجا منهم كان مصيره القتل حتى أبيدوا جميعا^(١٥٢). إنه قتال يدل فعلا على العنف وعلى القسوة المتناهية، بالرغم من أن الجيش المغولي قد اشتهر بهذه الصفات^(١٥٣)، إلا أنه لم يصمد أمام الجيش المملوكي الذي صمم على القتال واستخدام كل ما يمكن استخدامه في سبيل الحصول على النصر

٣- الأخذ بالدفاع المتحرك كنوع رئيسي من أنواع القتال:

يعتمد الجيش المملوكي في قتاله على الدفاع المتحرك، وتعتبر الكمائن من عناصر ترتيب القتال في هذا النوع إذ تستخدم الخدعة وتفاجيء العدو، ثم تخرج من جوانب الميدان فتهاجم العدو من جوانبه المكشوفة، ويكون حجم الكمائن أقل من الكراديس التي تدخل الترتيب أيضا وتضطف مقابل العدو خلف بعضها بعضا^(١٥٤).

لقد جرت العادة أن يعبا الجيش المملوكي على أربع حالات، وأن يقاتل حسب الحالة الملائمة تبعا لطبيعة الأرض وقوة العدو وامكانيات الصديق والأسلحة المستخدمة. ففي معركة

Magazine Oriental vol. IV/366. : (١٤٩)

(١٥٠): ابن كثير: البداية والنهاية ١٣، ٢٢٥ وما بعدها.

(١٥١): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/٣٨١، ٣٨٣، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣١/٢.

(١٥٢): David Ayalon: Gun Powder and Fire Arms in The Mamluk Kingdom: 14.

(١٥٣): أسعد: بولو ١١ وما بعدها،

الصيري: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٢/٨٣ وما بعدها.

(١٥٤): الناصري: الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٧٧.

عين جالوت استخدمت تعبئة القائد الاعلى للجيش أو (الاتابك) وتتميز هذه التعبئة عن الحالات الثلاث وهي تعبئة الجند والاركان وتعبئة القادة. في حين أن القائد الاعلى يملك احتياطيا قويا، وإن إدارة المعركة تكون مركزية، حيث يسيطر في هذه الحالة على الكمائن والكراديس والصفوف، ويوجهها حسب الخطر المحدق به، ويعطي التوجيهات المباشرة^(١٥٥).

يتقدم في الدفاع المتحرك الصف الاول من الرجال المدرعين المجهزين بكامل أسلحتهم ويصطفون حسب عددهم إما على صفين أو ثلاثة صفوف، ويكون الصف الاول أقوى ما يكون من الرجال جسما وقوة وثباتا وسلاحا وتجربة. وعلى القائد أن يوازن في القوى والوسائل بينه وبين عدوه، وأن يستخدم الاسلوب القتالي الذي يتفوق به على خصمه، وأن يضع في اعتباره السلاح والخييل والاشياء الاخرى، فإن تساوى معه السلاح كان عليه أن يتفوق في الخيل، وإذا تساوى معه في السلاح والخييل، فيجب عليه حينئذ أن يستخدم الحيلة والخدعة في الحروب. ومن أعظم الخيل التي كان يستخدمها الجيش المملوكي التظاهر بالضعف أمام العدو والإنسحاب أمامه حتى إذا وصل إلى مكان محدد أطبق عليه من كل جانب كما حدث في هذه المعركة. وكان هذا الاسلوب هو المميز في القتال الدفاعي لدى الجيش المملوكي^(١٥٦).

يتقدم الصف الاول فيقاتل، ويتقدم الصف الثاني من خلال الصف الاول ومن بين الفرج بين الجنود فيقاتل، ثم يتقدم الصف الثالث وهكذا. . . . فإذا كان العدو قويا صمدت الصفوف جميعها، وإن كان العدو ضعيفا تقدمت الصفوف على النحو الذي ذكرنا بالتناوب. وهذه الطريقة تعطي إمكانية قوية في رفع وتيرة الهجوم ومطاردة العدو والقضاء عليه قبل أن يتمكن من لم شعثه وجمع قواته^(١٥٧).

إن الكرديوس كان يقاتل في معركة عين جالوت على صفوف وبين كل كرديوس وآخر مسافة تمكنه من تبديل الأول الذي يقاتل في الانساق الأولى ويتقدم الكرديوس الثاني والثالث من خلال الكرديوس المتقدم الأول أو الثاني. وتقدمت الكراديس كلها صفا بعد صفا^(١٥٨).

(١٥٥): الناصري: المصدر نفسه ١٧٨.

(١٥٦): المصدر نفسه ١٧٩ وما بعدها.

(١٥٧): الناصري: المصدر نفسه ١٨١ وما بعدها.

(١٥٨): الناصري: المصدر نفسه ١٨٩ وما بعدها.

أبتدأت معركة الدفاع المتحرك بالسهم وكان المغول متفوقين فيها^(١٥٩) إذ رشقوا الجيش المملوكي، فأثر ذلك على تقدمهم، وتراجع أمام ضغط وتأثير هذه السهام، وقتل عدد كبير منه، ثم اعتدل الموقف بعد تلاقي الجيشان^(١٦٠). وتلقي السهام بلباس من سراويل ودروع وبما كان يحمل من تروس، حتى إذا مضت الرشقة الأولى وقبل أن تبدأ الرشقة الثانية حمل الجيش المملوكي على الجيش المغولي بالخييل وذلك في تلك الفترة القصيرة بين الرشقتين وبما أظهره هذا الجيش من الخفة والمرونة والسرعة الذي بهما استطاع أن يوقف عدوه ويقوم بهجوم معاكس^(١٦١). قيل أن الجيش المملوكي كان يسمى القوات التي تقوم بالالتفاف من المجنات « تقويس الصفوف » فالقوات في الدفاع المتحرك تقوم بالصدمة والالتفاف القريب والبعيد إذ تتقدم قليلا حتى تتمكن من نفسها وتصبح قادرة على الفتك بالعدو، وإذا لم تهيأ الظروف لتطبيق هذه التشكيلة عمد الجيش المملوكي إلى جعل الصف الأول منتظما على نسق واحد، والصف الثاني على أنفراج وانفتاح نحو الامام. وكلما تقدم أزدادت الفرجة حتى تصل إلى درجة الإحاطة بالعدو، وحينئذ يصعب عليه الإفلات أو التخلص من الكماشة^(١٦٢).

اعتمد الجيش المملوكي اعتمادا كبيرا على الدفاع المتحرك في معركة عين جالوت الذي جذب به القوة المهاجمة المغولية وهضمها وذلك عند وصولها إلى منطقة الإبادة، وأجبرها على التحرك عبر هذا المسار وفق خطة وضعت من قبل قيادة وأركان الجيش المملوكي تحقق من خلالها القضاء على العدو المنتسرب الذي ما أن وصل جبهة وعمق محددين، حتى أطبقت عليه القوات المملوكية من الاجناب، فأوقف على الخطوط القتالية المناسبة، وقامت هذه القوات بجميع صنوفها وأسلحتها بالقيام بالهجوم المعاكس والكمائن المفاجئة من الاجناب والامام والخلف^(١٦٣)، وكانت المناورة في ميدان القتال واضحة للجيش المملوكي، كذلك فإن الحركة النشيطة التي يتطلبها هذا النوع من القتال، بالإضافة إلى المهارة الميدانية والقيام بالهجمات

(١٥٩): البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٦، منادي: مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ٢٨/٧٧.

(١٦٠): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢/٣١٣، ٣١٤.

(١٦١): الناصري: الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ١٩٣.

(١٦٢): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢/٣١٤.

المعاكسة أدت جميعها إلى الانتقال من الدفاع المتحرك إلى الهجوم العام^(١٦٣). لقد استدرج الجيش المملوكي الجيش المغولي، وذلك بعض المجموعات القتالية المملوكية في الوسط مهمتها إعاقة وجذب القوات المعادية، والتحرك الإهتزازي التضليلي كما وضعت بعض المجموعات على المجنات مهمتها القيام بالهجمات المعاكسة والكمائن المفاجئة، كما تركزت في الأنساق الأخيرة ومن الخلف قوات شكلت مع القوة المنسحبة أمام العدو قوة رئيسية قامت بالالتفافين القريب والبعيد على مجنات العدو ومؤخرته.

هذا النوع من القتال وقع قتلى وجرحى كبيرين في صفوف العدو وما نجا منه إلا القليل الذين طوردوا في مجاهل الأرض^(١٦٤).

إن هذا النوع من القتال استخدمته الجيوش المغولية في قتالها مع خصومها وأثناء اجتياحها للأراضي المختلفة^(١٦٥). وقد حاولت تطبيقه في معركة عين جالوت سيما وأن مسرح العمليات يسمح بذلك - لكنها لم تستطع للتضليل الذي قام به الجيش المملوكي، وللسرعة التي استخدمها أثناء مناوراته فلم تشعر القوات المغولية إلا وقد طبق عليها الدفاع المتحرك، فلم تستطع الإفلات من الطوق وتوهمت أن الخصم كان قليل العدد، غير جدير بتطبيق هذا المستوى من الفن الحربي لذلك فإنها أهملت الحذر واستخدام أسس ومبادئ وأنواع القتال التي اعتادت تطبيقها من قبل.

٤ - الاحتراف العسكري وانعكاساته النفسية:

دولة المماليك دولة عسكرية أهتمت بالأمور العسكرية وكل ما يتعلق بها، فالولد منذ طفولته ينشأ على العسكرية، وفي شبابه وكهولته كذلك. ومن هذا الاهتمام تنامي عندهم شعور

(١٦٣): ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢١٩/٥/٣، المنظمة العربية للترية والثقافة والعلوم - دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ٢٩٦/١، كراسات خاصة بالباحث.

(١٦٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٩/٧، ١٠١ وما بعدها، اليونيني: ذيل برآة الزمان ٣٦١/١، المنظمة العربية للترية والثقافة والعلوم. دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ٢٩٦/١، الأكاديمية العسكرية العليا السورية - كراسات خاصة بالباحث.

(١٦٥): البغدادي: الإفادة والاعتبار ١٢٧، الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٩٢/٢ وما بعدها، العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ١٠٧/١ وما بعدها.

بالتفوق على ما عداهم، وباتوا لا يقيمون وزنا لكل مواطن مهما علت رتبته المدنية، ومهما كان نوع علمه، ولم تكن هذه النظرة مقتصرة على الداخل، بل تعدتها إلى الامم الاخرى، فهم يعتبرون أنفسهم أنهم أولى الناس بهذا الاختصاص، وأنهم أقدر الجيوش على الدخول في المعارك والخروج منها منتصرين^(١٦٦). ولعل هذه النظرة جعلتهم يتصدون للجيوش المغولية التي لم تقهر، ويلبون النداء بمجرد سماعهم وتأكدهم من زحف العدو نحو بلادهم^(١٦٧).

من هذه النظرة تولد لدى الجيش المملوكي حب القوة وتمجيدها وعلى انتقاء الافضل في جميع المستويات بدءا من الملك (القائد الاعلى) وانتهاء بامراء الخمسوات والجنود. فكان يحل القاتل محل المقتول في المناصب القيادية كما حل بيبرس محل قطز بعد قتله وهو عائد من معركة عين جالوت^(١٦٨). وقد سبق لقطز أن قتل بعض الامراء وأزاح آخرين قبل المعركة وقبل استلامه قيادة الجيش^(١٦٩)، كما كان التدريب الشاق الذي يمر عليه الجندي هو تدريب يحتاج إلى قوة بدنية عالية وإلى تصميم كبير وتمرس لاعمال الفروسية وما يتفرع منها. ولئن دلت معركة عين جالوت على هذه القوة التي تجلب في اقتحام الموت من قبل القائد الاعلى للجيش ومن قبل قادة الاجنحة والجنود، كذلك فإن الاعداء كانوا على جانب كبير من هذه القوة وقد شهدت لهم المعارك السابقة واختراق المخاطر. كما فعل تيمور من قبل فخاض نهر جيحون هو وجنوده في إحدى المعارك ونجوا بأعجوبة نظرا لشدة التيار ولتلاطم الامواج، وكذلك في كثير من المواقع^(١٧٠).

إن كانت هذه النظرة أفادت الجيش المملوكي في بدء تأسيسه وفي معركة عين جالوت، فإنها قد أضرت به وألحقت به فوضى وعدم تنظيم على الصعيد الداخلي، فقد أخذ يمتعن المواطنون ويسيء إلى كرامتهم، ويعاملهم معاملة فيها قسوة وشدة، وفيها نوع من التحقير والإذلال.

(١٦٦): شوبلر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ١٠٩.

(١٦٧): الهمذاني: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢، منادي: مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ٧٦/٢٨.

(١٦٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٤/٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ٤٨٤/٩، ٣٣٢/١٠.

(١٦٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٢، ٣٣، ٤١، وما بعدها، سرور: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ٥٢.

(١٧٠): ابن عربشاه: عجائب المقدور في اخبار تيمور ٨، ٣٤، ٤٧، ٦٩، ٩٨، ١٢٢، ١٨٤.

وقد عبر المواطنون عن هذا الظلم بالمظاهرات ورجم السلطان وحصاره والإحتجاجات الكتابية والشفهية، ولكنها كانت تقابل بضرب هؤلاء وإيداعهم في السجن وقتلهم وملاحقتهم وتشريدهم عن أوطانهم^(١٧١).

لقد كان التركمان موالين للمماليك وكانوا لهم سنداً في حروبهم ضد الروم والصليبيين وكان منهم أمراء وجنود في الجيش المملوكي^(١٧٢). ثم مالبتوا أن اصطدموا مع المماليك واختلفوا معهم بسبب رفض التركمان لهذه الفوقية. إن العنجهية العسكرية أفقدت سلاطين وأمراء المماليك الرؤية الصحيحة في الإدارة والسياسة، وفقدوا كثيراً من حلفائهم ومؤيديهم^(١٧٣). وكذلك فإنهم مارسوا هذه الفوقية ضد أهل البوادي والعربان الذين كانوا يعبرون بصورة دائمة عن رفض هذه الممارسات الخاطئة^(١٧٤).

إن هذه النظرة الفوقية، والإعتداد بالقوة العسكرية. والتخصص بالأعمال القتالية جعلتهم يهملون كل ما عداها من الأمور الإدارية وتركوها لغيرهم^(١٧٥).

لقد أدت لهم هذه الصفات في بادئ الأمر تفوقاً على غيرهم وجعلتهم ينتصرون على المغول في هذه المعركة الفاصلة^(١٧٦)، لكنها فيما بعد أدت إلى الاعتداء على غيرهم كالمواطنين والتركمان والأعراب، كما أدت إلى الاقتتال فيما بينهم^(١٧٧)، الأمر الذي أدى إلى ضعفهم وخسارتهم المعارك بل خسارتهم الحرب أمام العثمانيين^(١٧٨).

(١٧١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣، ١٧٤، ٣١٤، ٣٨٦، ٢/٣، ٦٧٦.

(١٧٢): المقرئزي: المصدر نفسه ١/٣، ٤٠٢.

(١٧٣): المقرئزي: المصدر نفسه ١/٣، ٣٤٨، ٢/٣، ٤٤٣.

(١٧٤): المقرئزي: المصدر نفسه ٢/٣، ٩٠٧، ١/٣، ١٧٥، ابن خلدون: تاريخه ٥/٥، ٤١٥، طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٦٦، ٢٧٠.

(١٧٥): حتى: تاريخ العرب ٧٦٣، شبولر: العالم الإسلامي في العصر المنغولي ١٠٩.

(١٧٦): أبوالفداء: تاريخه ١/٢، ٢١٤، ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر ٢/٢٩٧، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/٣٩.

(١٧٧): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥/٦٩ وما بعدها، القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول

(١٧٨): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣، ١٣٤، ١٤١، ١٥٠، ٣٨٣ ابن خلدون: تاريخه ٥/٤٩٥

وما بعدها. Lane - Poole: A History of Egypt in The Middle Ages 11/322.

٥ - التواؤم بين العقيدة القتالية والعقيدة الدينية :

يربى الجندي المملوكي على العقيدة الدينية، ثم على العقيدة القتالية، وتتناشى هاتان العقيدتان جنباً إلى جنب مع بعضهما، فالعسكري يعرف الصلاة كما يعرف نظام الصفوف معرفة دقيقة فيها تقارب وعمق ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ (١٧٩) يقرأ هذه الآية ويستوعبها كما يستوعب نظام الصفوف في الكتب العديدة ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (١٨٠). وهذه الآية تتوافق مع التعبئة ونظامها ووجوب تقديم المال والنفس، فهي عنوان إرادة القتال التي تدرس في المدارس والمعاهد والكلليات المملوكية، وفي المساجد والزوايا والخوانق، والثبات أمام الأعداء تفرضه العقيدة الدينية وكذلك العقيدة القتالية، ولن يسمح لجندي واحد أن يترك مكانه الذي يحتله إلا إذا كان هذا الترك يشكل انضماماً إلى جماعة أخرى، أو خطة قتالية معتمدة من القيادة، أو إجراء تبديل بين الصفوف، أو كل شيء يفيد ويقوي الجيش المملوكي. ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه إلى جهنم وبئس المصير﴾ (١٨١)، والتحريض مبدأ معنوي متلازم مع العقيدة يأخذ منه كل القادة الذين سيدخلون المعارك.

﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا.﴾ (١٨٢) ولقد أدرك قطر في معركة عين جالوت أهمية التحريض، كما أدرك غيره هذه الأهمية (١٨٣). وإذا قرأت المصادر وبخاصة المخطوطات التي

(١٧٩): سورة الصف: الآية ٤.

(١٨٠): سورة التوبة الآية ٤١.

(١٨١): سورة الانفال: الآية ٦٥.

(١٨٢): القلقشندي: صبح الاعشى ٢٤٦/٨ وما بعدها، أبو الفداء: تاريخه ٦٩/٢، ٧١، ٩٠.

(١٨٣): الرماح: مخطوطة الفروسية برسم الجهاد ١ وما بعدها، الأشرفي: مخطوطة رمي الشباب ١ وما بعدها،

الناصرى: مخطوطة الخيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب وما بعدها، الدمياطي: فضل الخيل ١ وما

بعدها، ابن الرسول الغساني: التذكرة في معرفة البيطرة ١ وما بعدها، ابن هذيل: مخطوطة في الخيل والسلاح وما

يتعلق بها ١، ٣، ٧ وما بعدها.

تبحث في أمور القتال وطرقه وشروطه وفنونه، فإنك تقرأ في مقدمتها الاصول والقواعد في العقيدة الدينية ليصل بها الكاتب إلى الاصول والقواعد في العقيدة القتالية^(١٨٤). وهناك الموجهون الذين لهم قيمة إجتماعية، ومكرمة عقائدية تساوي تلك المنزلة للقادة المقاتلين أو ترجح^(١٨٥)، وكان الشيخ عز الدين عبد السلام له رأيه القوي وتوجيهه العقائدي مما مكن قطز من إصدار قراره القتالي^(١٨٦)، والشيخ خضر بن أبي بكر الكردي الذي كان يؤثر على قرارات الملك الظاهر بيبرس وعلى مسيرته القتالية له رأي في القتال كما له تأثير في المعنويات^(١٨٧).

جعل التواؤم بين العقيدتين في الجيش المملوكي من المقاتل بطلا يقارع الاعداء، وشجاعا لا يخشى أحد إلا الله، وزاهدا يحب الآخرة ويؤثرها على الحياة الدنيا، ومؤمنا يعتبر الجهاد فوق الاولويات، ومن أفضل الأعمال، وشهيدا أحب الموت في سبيل الله، وعقائديا صرخ في وجوه الاعداء بالكلمة التي يعتقدونها بالمبدأ الذي يقرب إليه النصر^(١٨٨).

إن العقيدة القتالية المغولية قد تشابهت مع العقيدة القتالية المملوكية في كثير من عناصرها وأساساتها. فالجيش المغولي اعتمد الدفاع المتحرك كما اعتمده الجيش المملوكي، وكذلك الشدة والقسوة في القتال والونيرة العالية في الهجوم والمناورة والحركة السريعة في الميدان والإنسحاب التضليلي والاستطلاع ونظام الدوريات والكمائن والإلتفاف القريب والبعيد، وتكتيك المؤخرة ونظام الامداد فيها. بيد أن الجيش المملوكي يحمل بالإضافة إلى ذلك العقيدة الدينية التي هي المعين الذي يروي ويشفي صدور المقاتلين المملوكيين. لقد امتزجت وتلاقت الصفات الحربية مع الصفات العقائدية فنتج عن ذلك عقيدة جديدة عجز عن ملاقاتها أقوى الدول في ذلك العصر، وأعنف الجيوش في تلك البقعة من العالم إذ تقهقر الجيش المغولي وساح في الأرض طلبا للنجاة.

(١٨٤): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٩٥/٢، السبكي: طبقات الشافعية ٢١٥/٨.
(١٨٥): الكتبي: فوات الوفيات ٢٩٨/١، ابن الفرات: تاريخه ١١٩/٧، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٣٥١/٥.

(١٨٦): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٩٥/٢، السبكي: طبقات الشافعية ٢١٥/٨،
الكتبي: فوات الوفيات ٢٩٨/١، ابن الفرات: تاريخه ١١٩/٧، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٣٥١/٥.

(١٨٨): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٨١/١، ٣٨٣، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٢٤/٢/١.

إن الجيشين على ماتقدم هما الجيشان المتساويان في الصفات الحربية وفي الفن الحربي . كلاهما اعتمدا الدفاع المتحرك والأساليب القتالية الملحقة بهذا الدفاع كالانسحاب الخداعي ثم الإلتفاف والتطويق وغيرها من الاعمال التي تخدم تلك العقيدة^(١٨٩) . كل واحد أخذ عن الآخر، إلا أنهما مختلفان في الصفات العقائدية، أما الجيش المغولي لا يملك هذه الصفة في حين أن الجيش المملوكي تربى عليها منذ صغره، ورضع منها منذ أن كان فتى يافعا . وتتلذذ على أيدي المشايخ والفقهاء، وهذا ما جعل كفة الجيش المملوكي تزيد وتثقل . وهذا ما يفسر إنتصار هذا الجيش على خصمه في معركة فاصلة غيرت مجرى التاريخ، واكتسح فيها بعد الأراضي التي كانت تحت حكم الصليبيين، ونمت هذه العقيدة مع الانتصارات وضعفت مع الإهزامات، وبخاصة في الايام الاخيرة من حكم المماليك، مما مكن غيرهم من الانتصار عليهم بكل سهولة .

ثانيا: الآفاق الحربية:

هي مجموعة الاجراءات والاعمال التي قامت بها قيادات القوات المسلحة المملوكية من أجل التصدي للقوات المغولية في معركة عين جالوت، مستهدفة بذلك التأثير على الخصم والنيل منه والانتصار عليه بكل الوسائل الممكنة . وكان أهم هذه الإجراءات:

١ - الرد الفوري على الإنذار:

درج المغول خلال حروبهم السابقة على توجيه انذار قتالي إلى زعيم البلاد أو إلى قادتها، يحمله مراسلون، يتضمن الاعمال المجيدة، التي قام بها الجيش المغولي، والبطش الذي استخدمه، والشدة التي عامل بها تلك الجيوش التي تصدت له، مذكرا ماحل بالمعاندین من دمار وخراب ثم يدعوهم إلى الإستسلام والطاعة، فإن أبى الخصم ذلك ابتدأت المعركة على أشدها لا تبقي ولا تذر^(١٩٠)، أما المماليك فقد كانوا يخشون لقاء المغول ويتوجسون شرا من الإقتال معهم . وفي معركة عين جالوت وصل رسل هولاكو وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم البلاد وفي هذا الإنذار من الوعد والوعيد وأهم ما يتضمنه الإستسلام، أو القتال، أو

(١٨٩) : Rashid Al - Din: The Successory of Genghis Khan 190.

(١٩٠) : الهمداني : جامع التواريخ ٢/١/٢٦٧ وما بعدها .

الجللاء عن البلاد^(١٩١)، إلا أن القيادة المملوكية ردت على هذا الإنذار بقتل الرسل وإعلان الحرب، والإستعداد للمجابهة المسلحة^(١٩٢)، وكان قادة الجيش المغولي لا يتوقعون مثل هذا الرد القاسي والشديد، وبات الطرفان يستعدان للدخول في معركة فاصلة والقلوب تغور غيظا، والإنتمقام في نفوس الفتتين يزداد حماسا وشدة.

٢ - مجلس الحرب :

انعقد مجلس الحرب في القوات المسلحة المملوكية مباشرة بعد الإنذار، ويتألف من السلطان القائد الأعلى رئيسا، وعضوية كل من الخليفة الذي لم يكن قد عين بعد، وأتابك العساكر وشيخ الإسلام وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المشين أي قادة التشكيلات المقاتلة وأعيان المشايخ. ومن مهمته النظر في مشروعية الحرب وتعبئة الجنود، وإعلان النفير العام، والتدريب وتأمين الأسلحة والذخائر، وتحضير الأموال اللازمة وتعيين أمير التجريدة العام والأمراء الذين بضحته والذين يشكلون أركان الجيش وقادة التشكيلات^(١٩٣)، دارت المناقشة التي كان يرأسها قطز، وكان كل عضو يعبر عن رؤية بكل صراحة ووضوح منهم الأمير ناصر الدين قيمري الذي تكلم أثناء الجلسة وأظهر أن الجيش المملوكي غير قادر على مجابهة الجيش المغولي لما يتمتع به الأخير من قدرة على القتال، ذاكرا أعماله وفتوحاته وشهرته. وكذلك فإن أغلب الأمراء (قادة التشكيلات أبدوا تخوفهم من هذا اللقاء، وايدوا وجهة نظر قيمري، ولكن قسما من هذا المجلس رفض هذا القول وطالب باعلان الحرب مهما كلف ذلك من تضحيات وكان على رأس هؤلاء بيبرس البندقداري قائد الطليعة ورئيس أركان الجيش المملوكي وكانت وجهة نظره: فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في الحالتين معذورين^(١٩٤) وكذلك فإنه اعترض على أخذ الأموال من الشعب للتأمين المادي لهذه المعركة، أحد أعضاء هذا المجلس البارزين وهو الشيخ عز الدين

(١٩١) : Lane - Poole: A History of Egypt in the Middle Ages: 9/262.

(١٩٢) : أبو الفداء : تاريخه ٢/١/٢٤١، الهمداني : جامع التواريخ ٢/١/٣١٠، الرماني : أخبار الدول وآثار

الاول ١٩٨، الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٢٩١.

(١٩٣) : الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٤٦٠، زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي

(١٩٤) : الهمداني : جامع التواريخ ٢/١/٣١٣، السبكي : طبقات الشافعية ٨/٢٧٧.

ابن عبد السلام الذي أبدى رأيه الصريح لهذه المعركة وفي المصادر المادية وفي الأولويات، ثم حذر من عواقبها، مصادرة أموال الشعب إلا بحقها وبعد أن تفرغ الخزينة، ويدفع المسؤولون في الدولة كل ماله منهم من أموال^(١٩٥)، كانت المناقشة جادة ومسؤولة وعنيفة اتخذت اتجاهها من الجدل والتمحيص. كل ذلك والقائد الأعلى يسمع ما يقول الأعضاء الذين انقسموا إلى قسمين قسم ينادي بالاستسلام والانقياد بزعامة الأمير ناصر الدين قيمري، والآخر ينادي بالتصدي والحرب بزعامة الأمير بيبرس البندقداري وكانت الكلمة مدوية قوية حين أعلن قطز أنه مع رأي الذين قالوا بالحرب، وفوض الأمراء جميعا الأمر إلى السلطان باتخاذ الترتيبات اللازمة وإعلان الحرب، وانفض المجلس على قرار تاريخي، وتحضير قتالي، واستعداد يتوافق مع هذا اللقاء الحاسم^(١٩٦).

٣ - التحضير والإعداد للحرب:

أعلنت التعبئة في البلاد، وتدافع المواطنون من أجل الدفاع عن البلاد، وهبت كل فئة من أجل التحضير، وجمعت الأموال، واشترى السلاح والخيول، ووزعت الرواتب على الجنود، وتفقد القادة العتاد والسلاح^(١٩٧) ودقت طبول الحرب في كل مكان، واجتمع الحشد الكبير لتلقي تعليمات القتال. ومن عادة الجيش المملوكي إذا دعي للقتال أن يعلن الحرب والإجماع له بالطبول^(١٩٨)، وهذه العادة متبعة أيضا في الجيش المغولي^(١٩٩).

٤ - منطقة التحشد:

بعد أن حضر قطز لمعركة عين جالوت، أمر الجيش بالخروج من ثكناته ومن طباقه ومن أمكنة سكناه، أن يتحرك فيتحشد في منطقة الريدانية التي لا تبعد كثيرا عن القاهرة. وتتابع أرتال

(١٩٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٢، ٧٣، السبكي: طبقات الشافعية ٨/٢١٥، السيوطي:

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/٩٥، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ٢٨/٧٦.

(١٩٦): الهمداني: جامع التواريخ ٢/٣١٣، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ٢٨/٧٦.

(١٩٧): الشوقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة السلاطين ١٢٥، الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ

حلب الشهاب ٢/٢٩٠، ٢٩١.

(١٩٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/١٧٠، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/١٢٢.

(١٩٩): أسعد: بولو ٥٣.

التشكيلات حتى أخذت أمكنتها المحددة. وهنا تجول القائد الاعلى وعرض العسكر. وأعطى التوجيهات، وحرص على القتال، وفتش على الجنود والأسلحة المختلفة. وتفقد كل اللوازم القتالية والإدارية، وحدد اتجاه المسير، وعين الأمراء، وحدد المهام، وأسند لكل قائد مهمته القتالية بعد أن شرح قوة العدو وتماديه وظلمه، وبعد أن بين عواقب التخاذل، وقتل رسل هولاءكو^(٢٠٠).

٥ - التوجيهات العملية:

كان القائد الأعلى للجيش المملوكي يصدر توجيهاته قبل القتال، كما كان القائد الاعلى للجيش المغولي يصدر مثل هذه التوجيهات. وأهم ما تتضمنه: الحث على القتال، والثبات، وإظهار القوة والشجاعة والتقىد بمظاهر الانضباط العامة، وبالقوانين النافذة، والإجراءات التي ستخذ عند الظفر بالعدو، والمعاملة التي سيلقاها المهزومون، والتذكير بالعواقب السيئة فيما إذا تراخى الجنود أو أهملوا واجباتهم، والرجوع إلى العقل والحكمة في كل الأمور المعروضة والمسائل القتالية المعقدة، الاستئناس بالرأي الجماعي والمشورة^(٢٠١). وقد اعطى الجيش المغولي هذه التوجيهات على طريقتهم المعهودة التي كانوا يتبعونها في مثل هذه الحالات^(٢٠٢). ولعل أمر العمليات (المرسوم) الذي كان يصدره السلطان المملوكي عندما يرسل بتجريده إلى مكان ما أو يأمر الجيوش بأكملها لتسير ولتتحرك إلى منطقة معينة للقتال فيها كان من هذه التوجيهات، إذ يتضمن هذا المرسوم قادة الألوية والتشكيلات المشتركة في القتال، وتعيين نائب السلطان في حال غيبته، والجهة التي ينفذ إليها الجيش، والاهداف التي يجب أن يحققها ومكان التحشد وغير ذلك من الامور العملية الهامة^(٢٠٣). وكذلك فإن المنشور الجهادي هو من التوجيهات العملية والذي يتضمن الحمد لله على ما أنعم، والصلاة والسلام على الرسول محمد ثم يبدأ بالتحدث عن الواقعة، ويشرح مضمونها، ويدعو كل المستمعين إلى النصر والدين. ومخاطبهم بما يدخل في نفوسهم، وبما يرفع من معنوياتهم. ثم يعرج على أعمال السيف

(٢٠٠): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٦/١، سليم: عصر سلاطين المالك ٢٥٠/٢.

(٢٠١): الهمداني: جامع التواريخ ٢٥٣/١/٢.

(٢٠٢): الهمداني: جامع التواريخ ٢٣٧/٢/١، عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ١٣٣.

(٢٠٣): ابو الفداء: تاريخه ٢٦٩/٢/٢، ٧١، ٩٠.

الذين لبوا الدعوة وكانوا خير الناس في الجهاد ويؤكد على تقديم المال والنفس، ثم يسترسل فيذكر المشوية والثواب لمن تمسك بهم والتي ما قد افترضه الله عليه، ويبلغ بهم منتهى العزيمة والصدق، ويحثهم على اتباع أهل الشجاعة والبأس والشدة ويبعث فيهم حب اتباع الحق والطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر، ويصبرهم على اللقاء، ويهون عليهم المصاعب والمتاعب، ويذكرهم بترك الأحقاد والحسد والضغينة.

وقد يتضمن المنشور كيفية اللقاء وتعليمات القتال التي من أهمها سرعة الحركة والقضاء على العدو والحذر والمحافظة على السلاح، والثوق بالجيش وبالسلاح القوي وبالقوة التي يتمتع بها الرجال، والتركيز على التدريب، والإحاطة التامة بالعدو، والاستمرار في المعركة ليل نهار، وتحقيق المفاجأة والتشديد على الخصم الألد^(٢٠٤).

٦ - المحاور القتالية :

إعتاد الجيش المغولي أثناء تحركه للقتال أن يشق طرقاً جديدة وأن يمهد تلك الطرق ويعتني بصيانتها ويقيم الجسور على وديانها وأنهارها، ويشكل الحراسات اللازمة عليها. واصل المغول تحركهم نحو دمشق واتبعوا الجيش المنسحب من دمشق والفلول الهاربة منها حتى وصلوا إلى غزة^(٢٠٥)، ولم يلقوا في طريقهم أية مقاومة إلا ما كان من قلعة دمشق حيث نصبوا عليها المجانيق واستولوا عليها وخربوها^(٢٠٦)، أما الجيش المملوكي فإنه لم يتعود أن ينشأ، ويتعهد تلك المحاور^(٢٠٧). وتحرك هذا الجيش من قلعة الجبل في مصر، وتحشد في الريدانية ومنها إلى الصالحية، غزة، عكا، عين جالوت^(٢٠٨). وقد شكل الحراسة والجاليش والطلعية ودوريات الاجناب، وأخذ حيلة المسير.

يتفق الجيشان المملوكي والمغولي ويتشابهان في نقاط، إقامة نقاط للاستراحة تتوفر فيها المياه والمراعي، كما توجد على المحاور بعض العلامات كالعمد التي تهدي المسافر وبخاصة أيام

(٢٠٤) : القلقشندي : صبح الاعشى ٢٤٦/٨ وما بعدها.

(٢٠٥) : ابن الوردي : تاريخه ٢/٢٩٣، أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ٢٠٤.

(٢٠٦) : ابن الوردي : تاريخه ٢/٢٩٥، ٢٩٦.

(٢٠٧) : منتر : الحضارة الإسلامية : ٢/٣٩٨، ٣٩٩.

(٢٠٨) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧/٧٩، الطباخ : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٢٩١.

الضباب والأمطار^(٢٠٩). وفي معركة عين جالوت لم يطبق الجيش المغولي تلك التعليقات والتجارب التي كان قد اكتسبها في حروبه الماضية وذلك أثناء تحرك القوة الرئيسية من البقاع وبلاد الشام إلى أرض المعركة، بل أهمل كل هذه المواضع الحساسة. إن الجيش المملوكي طبق القواعد الأساسية في التحرك فابتعد عن الطريق غير المسلوكة أو غير الممهدة، وسلك محاور معروفة مسبقا، وعين الحراسات اللازمة، وأرسل الطلائع الضرورية لتأمين التحرك المأمون^(٢١٠).

٧ - الطليعة :

هي القوة التي تتقدمه على مسافة قريبة أو بعيدة حسب حجمها والمهام المكلفة بها وطبيعة أعمال العدو. وقد يبلغ حجم الطليعة عند كلا الجيشين المملوكي والمغولي من (٥ - ٢٥) ألف مقاتل وقد بلغ حجم طليعة المغول في حروبهم مع إيران أو مع خراسان حوالي (١٢) ألف مقاتل^(٢١١)، أما طليعة الجيش المملوكي بقيادة بيبرس فقد كان عددها أكثر من ذلك أو حول هذا العدد، في معركة عين جالوت لم يرسل الجيش المغولي تلك الطليعة التي تكون من مهمتها الاستطلاع ومعرفة قوة العدو واتجاهه ونيته وكشف مجاهل الطريق، وتسهيل مرور القوة الرئيسية عليها، وتحاشي الاشتباك مع العدو إلا عند الضرورة^(٢١٢). أما الجيش المملوكي فقد كانت طليعته بقيادة رئيس أركان هذا الجيش الذي قادها بكل حزم وخبرة، وقد اصطدمت في طريقها مع بعض القوى المتقدمة من الجيش المغولي فقصفت عليها وتابعت مسيرها باتجاه أرض القتال ومسرح العمليات أما الجاليش فهي كالطليعة إلا أن عددها أقل، وتشكل في المستويات الأدنى من الجيش مثل الفرق والالوية، كانت هذه الكلمة مستخدمة في الجيوش الأيوبية، وظلت على مفهومها ومدلولها في الجيوش المملوكية^(٢١٣)، يصل عددها في بعض الأحيان إلى ستة آلاف أو

(٢٠٩): متز: الحضارة الإسلامية: ٤٠٠/٢.

(٢١٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٨، البيهقي: ذيل مرآة الزمان ١/٣٤٩، مرمجي: بلدانية

فلسطين العربية ١١٥.

(٢١١): الهمداني: جامع التواريخ ٢/١/٢٣٥.

(٢١٢): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم الفروسية ١١٦.

(٢١٣): ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٤٩، ابن واصل: مفرج المروب في اخبار بني أيوب

أكثر أو أقل، وذلك حسب طبيعة المهمة، ونوع القتال وتوفر الاعتدة والأسلحة ووسائل النقل وقوة العدو. وتقسم هذه المقدمة إلى عدد من التشكيلات يتجاوز عددها في بعض الأحيان خمسة، عدد كل تشكيل ألف من العسكريين. وهناك قطعات أطلاب تدخل ضمن هذه التشكيلات. وهناك أيضا وحدات خاصة يدخل في تنظيمها المماليك السلطانية والأتابكية والموسيقى. والجاليش عادة ما تكون على مسافة بعيدة أمام الجيش تصل حتى ثلاثة أيام، لهذه المقدمة أمير يطلق عليه «مقدم الجاليش» كما يعين لكل تشكيل «مقدم الف ولكل قطعة أمير عشرة» (٢١٤).

٨ - التحييد:

سيجتاز الجيش المملوكي أثناء تحركه لقتال المغول بلادا عائدة للصليبيين. فالمنطقة الساحلية والغربية من أرض الشام يحكمها الصليبيون ويعتبر هؤلاء في نظر الدولة المملوكية أعداء يحذر من غدرهم ومن تصديهم لهذا الجيش الذي وضع الهدف الأول والرئيسي قتال المغول (٢١٥). أراد قطز وحتى يتفرغ للاتجاه الرئيسي تحييد الصليبيين، وذلك عندما عرضوا عليه المشاركة في القتال فأبى، وحين أبدوا اهتمامهم لقتال التتار وهي في عكا التي هي ملتقى التجار من المسلمين والصليبيين وعاصمة مدن الساحل. وهي ذات نشاط اقتصادي وتجمع سكاني، وهي مرفأ كبير تأوي إليه السفن القادمة من بلاد أوروبا والتي تكون محملة بالبضائع والموان. وفي هذه الحالة تعتبر عكا من الناحية العسكرية قاعدة تموينية للجيش التي تقاتل على مسرح عمليات فلسطين (٢١٦).

القائد الأعلى للجيش المملوكي أخذ عهدا على الصليبيين أن لا يكونوا معه ولا عليه، وأكد على ذلك العهد بإيمان ومواثيق. سار من أراضيهم وهو عازم على قتال المغول لوحده، وكما كان يضع في حسابه إن أخلفوا أن يقاتلهم لوحدهم، معتمدا في ذلك على مبدأ التحييد والتفرد بعدد واحد فواحد أو جزء فجزء (٢١٧).

(٢١٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٥٦. Dozy: Suppl. Aux Dic. Arabes. 11. p. 128.

(٢١٥): الدوميلي: العلم عند العرب ٢٩١.

(٢١٦): ابن جبير: رحلته ٢٩٣، ٢٩٦.

(٢١٧): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢/ ٤٣٠، سرور: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره

Runciman: A History of the Crusades Volume III The Kingdom of Acre book 3/ chapter 3/311.

٩ - التفوق :

لقد أدرك قطز أهمية التفوق النوعي والكمي في هذه المعركة، حيث كان الجيش المملوكي يتفوق كما وعددا^(٢١٨)، كما أنه أثناء المعركة عززت ميسرة الجيش المملوكي ليحصل التفوق على الجناح اليميني المقابل في الجيش المغولي. وبهذا التفوق أمكن للقوات المملوكية أن تخترق خطوط ودفاعات القوات المغولية وأن تلتف عليها وتوسع الإحاطة كما حصل التفوق أيضا في القلب عندما زج قطز نفسه قوات النسق الثاني والمؤخرة في الثغرة التي حاول العدو خرقها وبهذا الزج حصل التفوق الجزئي على العدو، فاستطاع الجيش المملوكي أن يسد الثغرة وأن يقوم بهجوم معاكس ناجح. كما ويعتبر التفوق حاصلا على المستوى الاستراتيجي عندما حيدت القيادات العامة المملوكية القوات الصليبية. أما التفوق النوعي فكان في السرعة في القتال، وفي نوع القتال (الدفاع المتحرك)، وفي جميع القوات في الزمان والمكان المناسبين، وبإرسال الطليعة التي كانت تتقدم على غير الاتجاهات التي كان يتوقعها قادة الجيش المغولي، وبتشكيل الأجنحة والاختيار الصحيح لقادتها، وبتضييق حرية العمل والمناورة لدى العدو وإذا لزم أن يكون باتجاه تقل فيه حركته وتضعب فيه مناورته، وبقطع سبيل التخلّص والإنسحاب من أرض المعركة وذلك بعمل أطواق متتالية، وبالقضاء على مقدمة ومؤخرة الجيش المغولي. وفي معركة حمص التي أعقبت معركة عين جالوت سنة ٦٥٦ / ١٢٦١ كان التفوق النوعي بارزا إذ كان ترتيب الجيش المغولي على صفين وترتيب قتال الجيش المملوكي على صف واحد مما أعطى جبهة كبيرة. فكان الجيش الحموي في الميمنة والحلبي في الميسرة والحمصي في القلب^(٢١٩). فالجيش المغولي كان أكثر عددا إذ بلغ ستة آلاف فارس، بينما كان الجيش المملوكي ألفا وأربعمائة فارس. فالأول (المغولي) كان منسقا في العمق وهذا مما يعطي قوة واستمرار في القتال، أما الثاني فكان يعتمد على قوة جناحية وعلى الالتفاف والحركة السريعة، وعلى الضباب الذي كان يخيم على حمص مما سمح له بخرق صفوف الجيش المغولي الذي لم يتعرف بعد على أرض المعركة وبهذا فقد انتصر الجيش المملوكي وقتل عددا كبيرا من جيش العدو وحتى كان عدد القتلى يربو على

(٢١٨): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢/٣٠٨، ٣٠٩، ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٣٠٥،

خصباك: العراق في عهد المغول الايلخانيين ١٨.

(٢١٩): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/٤٣٤، ٤٣٥.

عدد القتلى في عين جالوت (٢٢٠).

١٠ - الاخفاء والتمويه :

عندما تحركت القوات المسلحة المملوكية باتجاه الساحل كانت تتقرب بخفية عن انظار ورصدا القوات المسلحة المغولية ، وبخاصة عندما وصلت إلى عكا وحطت رحالها في تلك الأراضي ، إذ توهم العدو أن هذه القوات لن تتقدم بعد ذلك أبدا ، سيما وأنها أقامت مدة طويلة في هذه المدينة تبسيع وتشترى وتمارس الاعمال التجارية المألوفة ، واستغلت القيادة المملوكية هذا التراخي من قبل المغول فتسللت عبر الوديان والممرات من عكا متجهة إلى الجنوب الشرقي (انظر الخريطة) فوصلت سهل مرج ابن عامر دون أن يكون للقوات المغولية علم بهذا التحرك (٢٢١) ، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه القوات تخلفت عن استخدام الاخفاء الذي اعتادته في حروبها السابقة (٢٢٢) ، إما لاستهتار وإما لأنها كانت مغرورة في قوتها ، وفي زيادة ثقتها بنفسها .

١١ - المعركة التصادمية واختيار مكان المعركة :

لماذا لم يجارب قطز على أرض مصر؟ أويكون بحالة دفاع عن بلاده بمجرد وصول التتار إليها؟ إنه فكر كما فكر غيره من القادة ، مصر بلدة السهول ومسرح عملياتها وطبيعتها الجغرافية تسهل للقدام إليها أن يتقدم بسرعة والا يكون هناك زمن كاف للوقوف أمام العدو المهاجم إذ الأرض لا تمكن من حرب طويلة أو على الأقل معوقة . فالجرب تسير فيها بسرعة والانتقال من معركة إلى معركة يحقق مكسبا حربيا للمغول الذين قرروا الزحف نحو مصر .

أما سورية وفلسطين فهما بلدا الجبال ، ولا يمكن احتراز النصر في الجبال ، كما أن ربح معركة لا تؤدي بالتالي إلى حسم الحرب (٢٢٣) لكن هذه الفكرة تبدو صعبة التطبيق إذا لم يسرع الجيش المملوكي للملاقاة الجيش التتاري قبل أن يجتاز تلك الأراضي ويدخل أرض مصر ، سارعت القيادة المملوكية لاتخاذ قرار بهذا الشأن ، وتحرك الجيش فالتقى بالمغول على أرض عين جالوت وفي المنطقة التي أرادها قادة مصر . وفي هذا الإطار وهذا المفهوم هل نسمي عين جالوت معركة

(٢٢٠) : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٤٣٥/١ ، ابن الوردي : تاريخه ٣٠٣/٢ .

(٢٢١) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١ ، العربي : المغول ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢٢٢) : أسعد : بولو ٥٢ .

(٢٢٣) : Volney: Voyage en Egypt et en Syrie: 357

تصادمية بين الجيشين المملوكي والمغولي؟ الأول سار من مصر، وما اتخذ مواقع دفاعية حول القاهرة، بل تجمع وانطلق لملاقات خصمه. وأما الثاني فقد تحرك من بغداد إلى حلب إلى دمشق وهو باتجاهه نحو مصر ليدمرها كما دمر بغداد، وليقضي على جيشها كما قضى على جيش الخليفة. وفي الحقيقة فإن هذا النوع من القتال هو قتال تصادمي^(٢٢٤) يحتاج إلى مهارة في فتح القوات من التحرك إلى ترتيب القتال، وإلى تدريب شاق للاصطدام مع العدو، وإلى سبقه في الفتح وفي احتلال أراض مناسبة، وتوجيه الضربة القوية دون الانتظار أو التمهّل في إعادة تنظيم الجيش المتحرك، وأخذ زمام المبادرة والشدة والحسمية في القتال، ونقل الاعمال القتالية إلى الأرض التي تؤمن سرعة القتال، وخرق الصفوف، وشل عمل وتفكير القيادة^(٢٢٥) وبالفعل فإن قطز قائد الجيش المملوكي خلق كل الشروط الملائمة للدخول في هذه المعركة التصادمية، أما كتبغا قائد الجيش المغولي وصحبه، ما استطاع أبدا أن يتلائم مع هذه الشروط. فقد كان الموقف غامضا بالنسبة إليه، والسرعة بطيئة إذا ماقيست بسرعة خصمه الذي تحرك من مصر، بينما تحرك هو من الشام ومن سهول البقاع^(٢٢٦)، فلو قدرت السرعة للجيش المملوكي لكانت أضعاف سرعة الجيش المغولي. فالتحرك مع السرعة في المعركة التصادمية يظهر تفوق الجانب المتحرك بلا ريب. وهذا ما حققه الجيش المملوكي إذ أستطاع أن ينفذ بسرعة إلى مسرح العمليات القتالية وينشر قواته المستعدة للقتال. فقد تم الاصطدام أولا بالطليعة بقيادة بيبرس ومن ثم بالحراسات المتحركة التي كان يرسلها قائد الطليعة بصورة متتالية، ثم بالقوى الرئيسية بقيادة قطز القائد الاعلى للجيش الذي عمل على زيادة وتيرة الهجوم، وكشف الجناح الذي كانت له مهمة الخرق. وكانت المعركة عنيفة وشديدة. وكان للفرسان في هذا النوع من المعارك دور كبير. إذ يستطيعون بما يملكون من سرعة وحرية للمناورة أن يحسموا المعركة. ولم يستفد المغول أبدا من ثباتهم، واتخاذ مواقع دفاعية، وإظهار صمود قوي وجدار صلب يقف أمام الصدمة القوية التي استخدمها الجيش المملوكي في الساعات الأولى من بداية القتال.

لو استطاع الجيش المغولي أن ينشر أمام القوات المملوكية بعض عناصر الحراسات، أو يرسل

(٢٢٤): مجموعة التأليف في أكاديمية فرونزي العسكرية: التكتيك ٢٨٥ وما بعدها.

(٢٢٥): مجموعة التأليف في أكاديمية فرونزي العسكرية: التكتيك ٢٦٩ وما بعدها.

(٢٢٦): ابن الوردي: تاريخه ٢/٢٩٣.

بعض الطلائع بمهمة تأخير وإعاقة القوات المهاجمة لما تعرض لهذا التدمير وهذه الخسارة، بخاصة فإن العمق التكتيكي له مكان غير كاف للصمود أو الدفاع أمام الهجمات المملوكية المتتالية مما اضطره إلى الانسحاب، بل إلى الهرب تاركا وراءه جثث القتلى والاعتدة المحطمة.

١٣ - منطقة التمرکز:

هي المنطقة التي التقى فيها الجيشان المملوكي والمغولي. المملوكي كان في الجنوب الغربي والمغولي في الشمال الشرقي من عين جالوت، وفي الجنوب الشرقي من سهل مرج ابن عامر. ومما يؤكد على أن هذه الأرض هي التي وقعت فيها المعركة، هروب التتار إلى جهة الشرق الجهة التي دخلوا منها وهي مفتوحة بطبيعة الحال (٢٢٧)، وكذلك المحاور والدروب التي كانت تحدد اتجاه الفارس تساعد على الهجوم واستخدام سلاحه (٢٢٨).

١٤ - إختيار زمن المعركة:

إن هذا الاختيار يحقق المفاجأة، كما يتيح الاستعداد الكامل، وإنهاء التحضيرات اللازمة للقيام بالهجوم، وتخطيط مراحل القتال المستقبلية، وإجراء التدريبات المتوافقة مع نوع القتال المنتظر، ومسك زمام المبادرة، وتحاشي السلبات التي قد تقع قبل القتال وأثناءه وصيانة الاعتدة والأجهزة قبل العمليات القتالية.

لقد كانت المعارك الكبرى التي حدثت من قبل في مسرح العمليات، وكنا قد عرجنا عليها. فهي معارك وقعت في أشهر الصيف وفي الصباح من اليوم الذي بدأ فيه القتال. لعل اختيار هذا الفصل والصباح عند طلوع الفجر يأتي من أن الحرارة قد اعتاد عليها سكان الصحراء والعرب خاصة، وألفوا ذلك الجفاف والمناخ الصحراوي، والأرض المكشوفة، كما أن المقاتل من جهته لا يملك ملابس تقيه قسوة الشتاء، وبالتالي فهو يكره أن تقيده الملابس الثقيلة أثناء القتال لأنها باعتقاده تحد من حركته وتقيده مناوخته. معركة أجنادين وقعت في تموز أو آب عام

(٢٢٧): الشهابي: تاريخه ٤٣٩.

(٢٢٨): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٩، الادريسي: نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والافاق ٢٢٩، مرمجي: بلدانية فلسطين العربية ٩٦/٩٢.

(٢٢٩): البعقوبي: تاريخه ١١/٣، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٩٥.

١٣ / ٦٣٤ (٢٢٩)، ومعركة القادسية في صيف عام ١٤ / ٦٣٥ (٢٣٠)، ومعركة اليرموك في آب من عام ١٥ / ٦٣٦ (٢٣١)، ومعركة حطين في تموز من عام ٥٨٣ / ١١٨٧ (٢٣٢).

معركتنا التي نحن بصدددها حدثت في صباح يوم الجمعة وعند شروق الشمس في ٢٥ رمضان الموافق ٣ ايلول من عام ٦٥٨ / ١٢٦٠ (٢٣٣). وكان لايزال الجوحارا في هذا الشهر. وقد أشتهرت تلك الأراضي بدفئتها في الشتاء وحرارتها في الصيف، فالمغول تؤثر عليهم حرارة الطقس أكثر من تأثر المملوكين بها ذلك لأنهم تعودوا الطقس البارد القاري في بلادهم (٢٣٤)، لكنهم قوم صابروا وجالدوا هذه الناحية، وكادوا يألّفون تلك المناخات الحارة التي اجتازوها، أو مروا بها، أو مكثوا فيها أثناء قتالهم مع الأمم والشعوب التي حاربوها، أما المملوكيون فإنهم تعودوا هذا الجو، ذلك أن مناخ مصر يشبه في حرارته إلى حد بعيد ذلك المناخ الذي يقاتلون فيه وهو مناخ جزء من أرض فلسطين، وإن كان مناخ الجزء الآخر وهو الطور الأشد حرارة وأكثر رطوبة وهكذا فإن منطقة عين جالوت التي حدثت فيها المعركة كانت من الناحية المناخية ملائمة للجيش المملوكي، وإن حرارة الجولا تؤثر على القدرة القتالية بقدر تأثيرها على الجيش المغولي الذي كان يشعر بشيء من الضيق والحد من حركته أثناء القتال كما حدث تماما للنبليون وهتلر عندما حاربا بجيوشهما في الأراضي السوفييتية في مناخ بارد حيث تجمد الجنود، ولم يستطيعوا مقاومة الصقيع، مما أتاح للجيوش السوفييتية آنذاك التي تعودت على هذا الطقس أن تقاتل بكفاءة وأن تنتصر في النهاية.

(٢٣٠): الطبري: تاريخه ١١/٣. ابن كثير: البداية والنهاية ٣٨/٧، ابن بطوطة: رحلته ١/١٩٤، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٩٦.
(٢٣١): ابن عساکر: التاريخ الكبير ١٥٩، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٩٥.
(٢٣٢): مختار باشا: التوفيقات الالهامية ٢٩٢.

Lane - Poole: A History of Egypt in the Middle Ages 7/210, 211.

(٢٣٣): أبو الفداء: تاريخه ٢/١/٢١٤، القرمانلي: اخبار الدول وأثار الاول ١٩٨، ابن الوردي: تاريخه ٢/٢٩٧، العبادي: قيام دولة المهاليك الاولى في مصر والشام ١٦٣، مختار باشا: التوفيقات الالهامية ١٩١، بول: طبقات سلاطين الإسلام ٨٠. Magazine Orientalia Vol. IV/ 354.

(٢٣٤): العربي: المغول ٦.

١٥ - الخدعة:

لقد كان لصارم الدين أوزبك بن عبد الله الأشرفي الذي وقع في الأسر لدى المغول دور كبير في إحراز النصر وذلك عندما قام بخداع قيادة الجيش المغولي، إذ نقل المعلومات الصحيحة إلى الجيش المملوكي، والمعلومات الخاطئة للجيش المغولي، ووضع في قلب قادة المغول الخوف والرعب، والتشكيك بقدراتهم القتالية، سيما وأنهم كانوا يأمنون جانبه وهو موضع ثقة عندهم. وبالمقابل فإن أوزبك أرسل غلاما من قبله حمله كل ما يهيم الجيش المملوكي، ذاكرهم أسلوب الخدعة والطريقة التي سيسلكها لتنفيذها، فقال لهم: « في الصباح عندما يلتقي الجيشان أظهر في مقدمة الجيش المغولي وعندما يبدأ القتال أترك مكاني وأهرب من الصف فيتبعني بذلك من خارت قواه وضعفت عزيمته وبالتالي فإن بعض الوحدات تلحق بعضها بعضا. وفي هذه الأثناء شدوا على الجيش المغولي واضربوه من كل مكان وبخاصة في المكان وفي الطرف الذي أكون فيه ». وهكذا انطلت الخدعة على الجيش المغولي وقادته، أما فيما يتعلق بالجيش المملوكي فقد اتخذ إجراءات كثيرة استنادا إلى المعلومات الصحيحة التي تلقاها من أوزبك، ففرز الجناح المقابل، وأعاد تنظيمه وترتيبه القتالي فيما يتوافق مع هذه الخدعة، وأصلح نقاط الضعف وأزال السبلات التي كانت يمكن أن تعترض سبيل القتال.

وفي اليوم التالي وقع ما كان ينتظر من هذه الخدعة، إذ تفرقت صفوف الجيش المغولي لما رآوا أوزبك يهرب ويشيع في الصفوف الهزيمة، وينشر فيهم ما يضعف معنوياتهم، ويجعلهم خائفين مرعوبين (٢٣٥).

١٦ - الكمين:

هو مجموعة من المقاتلين كمنوا في موضع مخفي عن انظار العدو مشرف على ساحة القتال وهم قد اتصفوا بصفات تؤهلهم للقيام بمهمتهم. فلا ضوضاء ولا سعال ولا حركات يمكن ان يشعر بها العدو، فاذا وصل العدو الى المكان المحدد انقضوا عليه بقوة وشجاعة (٢٣٦).

تمركزت بعض الوحدات من الجيش المملوكي بقيادة الظاهر بيبرس في شرقي بيسان في هذا الوادي وعلى طرق انسحاب الجيش المغولي بشكل مخفي عن أنظار العدو. وكان هدف هذه الكمائن القضاء على وحدات الجيش المغولي الهاربة، وإيقاع أكبر الخسائر فيها، وفعلًا فقد هبت هذه الكمائن في الوقت المناسب وحين مرور القوات المغولية الهاربة. فكانت موقعة. يمكن أن نسميها موقعة الكمائن. أكبر من الموقعة التي حدثت في عين جالوت. وقد قتل فيها خلق زاد عن القتلى الذين قتلوا في ساحة المعركة (٢٣٧).

قبل القتال وأثناء تمكنت القيادة المملوكية أن تركز وحدات كمائن على مجنبات الجيش، وثبتت هذه الوحدات في مكانها مع ما أصاب ميسرة الجيش المملوكي من تصدع، وظلت ترقب أرض المعركة، وتقدم القوات المغولية حتى إذا اقتربت هذه القوات من المكان الملائم للانقضاض هاجمتها وحدات الكمائن وبخاصة في الجانب اليساري من الجيش المملوكي والذي حدث به خرق، وظن الجيش المغولي أنه سيتابع ذلك الخرق ويوسعه دون أن يصطدم بأية عقبة أو صعوبة، لكنه فوجئ بتلك الكمائن التي تقدمت من كل جانب وبخاصة من المؤخرة وقطعت الطريق أمام انسحاب الجيش المغولي وشنت هجمات متتالية بحيث لم تسمح للجناح اليميني من الجيش المغولي أن يتقدم بانتظام أو يتأخر بانتظام ووقعت الواقعة وتفرق المقاتلون وأصابهم نوع من الفوضى والذعر (٢٣٨).

وبهذا فإن الكمائن في هذه المعركة فعلت فعلتها وأدت مهمتها أثناء القتال أي أثناء الاشتباك الأول، وكذلك بعد انتهاء وجلاء المعركة لصالح الجيش المملوكي.

١٧ - التضليل الإستراتيجي :

نجح قادة الجيش المملوكي بتضليل قادة الجيش المغولي، وإبعادهم عن كل تقدير صحيح، رغم محاولاتهم العديدة في معرفة واستطلاع قوة الجيش المملوكي وعدده وأسلحته وعتاده الحربي ونيته واتجاه تحركه ومراكز قوته ودراسة قاداته. فلقد أوقف قطز القائد الأعلى للجيش المملوكي وأبطل استطلاع قائد طليعة الجيش المغولي

(٢٣٧): الشهابي: تاريخه ٤٣٩، الاسكندري: تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ٢٣٦.

(٢٣٨): ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة ٧/٧٩.

ورده إلى سهول البقاع^(٢٣٩) دون أن يتمكن من معرفة أية معلومات عن الجيش المتحرك من مصر، كما استطاع بيبرس رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطليعة أن يجذب القوة الرئيسية للجيش المغولي نحو غزة ويشتبك معها، ويجرها إلى الغور وإلى الاتجاه الداخلي قاصداً من ذلك تضليل القيادة المغولية عن القوة الرئيسية التي كانت تتحرك بقيادة قطز باتجاه الساحل. وعند محاولة كتبغا قائد الجيش المغولي التملص من هذه الطليعة فإن بيبرس كان يقترب منه ويهاجمه، الأمر الذي جعله متصلاً به بصورة دائمة، وبهذا تمكن من أن يتحرك إلى الجهة التي يريد، والطريق التي يسلكها، والأرض التي رآها مناسبة للاشتباك مع المغول، فظل يحاوره ويضلله حتى وصل به إلى عين جالوت. وما زاد في هذا التضليل أن قطز تحرك بكل حذو وتمويه مستخدماً طيات الأرض التي تسهل له التحرك المستور، ودوريات الاستطلاع التي كانت ترصد حركات المغول وأمكتهم^(٢٤٠).

لقد اعتقد المغول أن الجيش المملوكي هو أقل من جيشهم عدداً، وإنه بالامكان ابتلاعه والقضاء عليه، حيث لم يجدوا أمامهم سوى طليعة كان يقودها بيبرس، كما أنهم كانوا على يقين من انتصارهم طالما كانوا يظنون أن التفوق بالقوى والوسائل محقق، وذلك ظنهم أرداهم فتيين لهم فيما بعد الجيش المملوكي الجرار وقد ظهر من جهة الغرب لا الشرق كما كانوا يتوهمون، كما انقضت الكمائن من أمكنة كانوا يجهلون أنها كما تبين لهم أيضاً التصميم والثبات والقتال الشديد الذي لم يألفوه من قبل من أي جيش تلاقوا معه في حروبهم السابقة. وهذا تبين أن التضليل التكتيكي كان امتداداً للتضليل الإستراتيجي. وكلاهما نجح في أعلى مستوياته، وفي منتهى الدقة والتنفيذ.

١٨ - المطاردة:

لقد اتبع الجيش المملوكي قتال المطاردة الذي كان بعد الهجوم الناجح، أو بعد المعركة التصادمية الناجحة وفرار العدو. فإنه بعد أن انتصرت القوات الشامية والمصرية على المغول، لاذ هؤلاء بالفرار فتعقبهم الجيوش المملوكية، ولم يشفع لهم اعتصامهم بالتل الذي كان قريباً من أرض المعركة، ولم يغن عنهم أن توجهوا نحو حلب. فإن قسماً من الجيش بقيادة بيبرس

(٢٣٩): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢.

(٢٤٠): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٦٦/١.

البندقداري لحقهم وأعمل فيهم السيف وقتل منهم الكثير (٢٤١). وكان الاسلوب المتبع في المطاردة هو الاسلوب المتوازي والمحاور المتلاقية وحصر العدو حتى لا يفلت منه أحد وفي هذا تكثر القتلى وتسبى الذراري والنساء، وتجمع الاموال والغنائم الطائلة (٢٤٢).

اتجه المغول في فرارهم نحو الشرق عبر المنافذ الخارجة من أرض فلسطين جنوب بحيرة طبرية، إذ تركوا أمكنتهم التي كانت فيها ظهورهم إلى البادية إلى نهر الأردن ووجههم باتجاه الغرب أو الجنوب الغربي. ومن عادة المقاتل أن يفر من الجهة التي جاء منها والتي سار فيها وسلك سبلها (٢٤٣)، إن الجنود المغوليين فروا من المعركة بدون نظام، وتبع بعضهم بعضا كقطعان الماشية، خائفين من عدوهم الذي يكاد يلحقهم ليقضي على أكثرهم. ما أن تكشف المعركة، وبدأ الجيش المغولي بالتفكك، حتى أمر قزبتشكيل مفارز مطاردة بقيادة بيبرس، فأرسل وراءهم قوة تطاردهم كما أرسل مجموعات سبقتهم وكنمت في بعض المنعطفات والثنيات من الأرض وفوجئوا بالخطر الذي يلاحقهم والموت الذي يحيط بهم. وقد اتبع بيبرس في تلك المطاردة السرعة لكي يدركهم ويتجاوزهم ويوقع بهم الخسائر. وأرسل مجموعات على الطرق الموازية، وظل على تماس مباشر معهم، حتى أوصلهم في المرحلة الأولى إلى دمشق (٢٤٤). ففر قسم منهم باتجاه طريق دمشق، القطيفة، القريتين، فتركهم، واتبع القوة الرئيسية التي اتجهت باتجاه حلب مغادرة الطريق إلى القطيفة، النبك، حمص، حماة، حلب، واستغرقت المطاردة عدة أيام ذاق المغول خلالها القتل والعذاب والتنكيل والأسر (٢٤٥).

لقد كانت هذه المطاردة أوسع وأعنف مطاردة اتبعتها الجيش المملوكي في حروبه، وإن كانت المعارك اللاحقة أخف وطأة وأقل اتساعا. ذلك أنها كانت معركة فاصلة ومصيرية إما الحياة أو الموت (٢٤٦).

(٢٤١): الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والاخبار ٢٩/١.

(٢٤٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧٩/٧، ٨٢.

(٢٤٣): ابن الوردي: تاريخه ٢٩٧/٢.

(٢٤٤): بيشوف: حلب الشهباء ٢٨١.

(٢٤٥): الاسحاقى: اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٢٣، بيشوف: حلب الشهباء

٢٨١. (٢٤٦): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٦.

ترى هل كان يخشى بيبرس عند مطاردته لفلول الجيش المغولي اصطدامه بالقوى الاحتياطية لهذا الجيش المنسحب؟ أو إعادة تجميع هذه القوى المبعثرة والوقوف أمام القوة المندفعة ومجابهة قائد المطاردة؟ من الحق أن نقول: أنه كان لا يخشى ذلك لشجاعته النادرة ولعلمه أن الجيش المغولي لم يكن له احتياطات قوية في الشام أو غيرها، بل التحق معظم جنوده مع هولاكو، ولم يخشى بنفس الوقت المدد الذي يمكن أن يتلقاه الجيش المغولي لاسيما أن المسافة كانت بعيدة بين قاعدة الامداد فارس وبين بلاد الشام، كما كان هولاكو مشغولا بالحروب الداخلية هناك. ولذلك فإن بيبرس كان يطارد بقايا الجيش المغولي عن معرفة وعلم بأسرار تلك المطاردة وشروطها.

١٩ - المحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر:

قد ينتصر جيش ما على آخر، لكنه يخسر الكثير من جنوده، وقد يتراجع جيش ما أمام آخر وينسحب محافظا على جنوده من القتل والتدمير المحقق بيد أول وهلة أن الأول قد انتصر، ولكنه انتصار مؤقت لا يلبث أن يتراجع وتضعف قوته بفقد العدد الكبير من رجاله، أما الثاني فإنه تزداد قوته بعد تحسين مواقعه وظروفه القتالية. ويعتبر في هذه الحالة هو المنتصر لانه حافظ على رجاله، وأستطاع أن يجمعهم من ضربة نازلة بهم، ويعتبر الأول هو المنهزم لأنه قدم خساره من جنوده دون مبرر لاتعويض بسهولة، وهذا بالطبع يعود كله إلى حسن القيادة والتصرف، وإلى الخبرة في القتال، وإلى الكفاءة القتالية لقائد الجيش. لقد اهتم قطز قائد الجيش المملوكي بترتيب جيشه في معركة عين جالوت، وتقدم أمام الشجعان، وقسم جيشه إلى كتل ومجموعات قتالية بحيث تستطيع هذه المجموعات أن تبدد هجمات الجيش المغولي المتتالية، وأن توصله إلى الشعور بالتعب والإعياء، وهي بهذه المناوشة تستطيع أن تستهلك كل قواه وبنفس الوقت تكون مستعدة للوثوب عليه عند وصوله إلى هذا الحد من الإعياء وإلى هذا الحد من الأرض التي وصل إليها ولا يستطيع الخروج منها. في هذه الشروط قامت القوات المملوكية بهجوم مضاد صاعق كبدت فيه الجيش المغولي الكثير من القتلى، وحافظت على جنودها، بحيث لم يصب منهم إلا القليل وطارد بيبرس البقية الباقية وقضى عليها(٢٤٧). كذلك في السنة التالية من

(٢٤٧): البيهقي: ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٦٠، ٣٦١، ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ٣٠٦.

المعركة هاجم المغول منطقة حمص وحماة بجنود يربو عددهم على جنود المملوكيين والتقى الجيشان بالقرب من المدينة. نظم صاحب حمص جنوده ورتب صفوفهم بحيث يتحاشى ما أمكن ضربات عدوه، وبنفس الوقت يتمكن منه، واحتدمت المعركة وأسفرت على قتل عدد كبير من الجيش المغولي، أما الجيش المملوكي فلم يقتل منه سوى جندي واحد (٢٤٨)، لقد دلت حروب المملوكيين على أنهم كانوا يحافظون على النصر بالمحافظة على رجالهم وقتل الكثير من أعدائهم ولم يتورطوا إلا في نهاية حكمهم واختلافهم، وانتشار الفتنة بينهم وتابعوا بعد معركة عين جالوت انتصاراتهم ولا سيما في زمن الملك الظاهر بيبرس إذ أستطاع أن ينتصر على أعدائه، مطبقا هذه المقولة القتالية في هجومه ودفاعه (٢٤٩).

٢٠ - القتال الاستراتيجي بالجيش الملاقية:

كانت خطة القيادة المملوكية عند تحركها لقتال المغول في هذه المعركة أن تقسم جيشها إلى كتلتين أو مجموعتين قتاليتين كبيرتين: إحداهما تتجه باتجاه الساحل وأخرى تتجه باتجاه مواز لتلتقيان فيما بعد في أرض فلسطين وفي سهل مرج ابن عامر. وفائدة الجيش المتلاحقة أنها تجذب قوة العدو وتضللهما وتحقق المفاجأة. وهكذا فقد انطلق قطز قائد المجموعة الاولى مستخدما الإخفاء والتمويه والتضليل، وانطلق بيبرس قائد المجموعة الثانية بغية جذب الجيش المغولي إليه وصرف انتباهه عن خطر المجموعة الاولى وبهذا العمل تهيأت الظروف المواتية لقطز أن يتقدم بالمكان، وإن يركز جيشه في الاماكن المناسبة، وأن يزوده بالتموينات اللازمة.

والتقت المجموعتان في الزمان والمكان المخططين منذ وضع الخطة القتالية، وركز الجيش المملوكي في بادئ الأمر على المجموعة الثانية بينما كانت المجموعة الاولى تتقدم حتى التقتا أمام وخلف الجيش المغولي وبهذا كان التطويق محققا والتقت القوتان بأحاطة قريبة والتفاف بعيد تساعد إحداهما الاخرى حتى أطبقتا على الجيش المغولي وقضت عليه. وقد اتبع بيبرس فيما بعد في حروبه التي تلت نفس هذا القتال الاستراتيجي ونجح فيها بمهاجمة انطاكية (٢٥٠).

(٢٤٨): الذهبي: دول الإسلام ١٢٥.

(٢٤٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ وما بعدها، ابن الفرات: تاريخه ٤٦/٧.

(٢٥٠): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٦٧/٢/١، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ٢١٦/٢.

٢١ - الترتيب القتالي والتشكيلات القتالية :

التشكيل القتالي كان يقصد به في القرون الوسطى الصفوف والحلقات والتراتب التي تكون ضمن الجيش، وفي الوقت الحاضر فإن الترتيب والتشكيل القتالي يطلق عليه « الترتيب القتالي » .

إن النظام المتبع في الجيشين المملوكي والمغولي هو ترتيب القتال ونظام الصفوف المنسقة في العمق، ونظام الميمنة والميسرة والقلب فكان قطز قائد الجيش في القلب وركناه في الميمنة والميسرة وهما وظيفتان يتولاها الأمرء ويسمون بها « أمير الميمنة » و « أمير الميسرة » و « رأس الميمنة » و « رأس الميسرة » (٢٥١).

وكان المغول يطلقون على قائد القلب (قول) (٢٥٢).

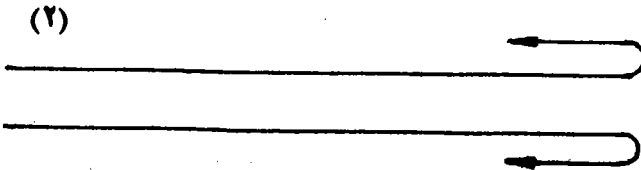
إن التشكيلات القتالية هي أقرب ما تكون إلى طرق القتال أو نظام القتال وهي الاشكال والصفوف التي يتبعها قادة التشكيلات التي هي أصغر من الجيش والتي تبدأ من لواء فما فوق أو مقدم مئة وأهمها :

أ - الصف الواحد والمقدمان في الوسط :



(١)

ب - الصف المتتابع والمقدمان في الخارج :

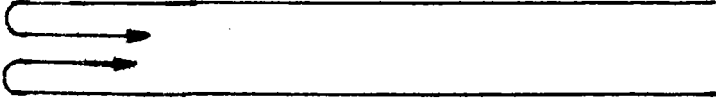


(٢)

(٢٥١) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٠/١٢٦، ١٤٤ .

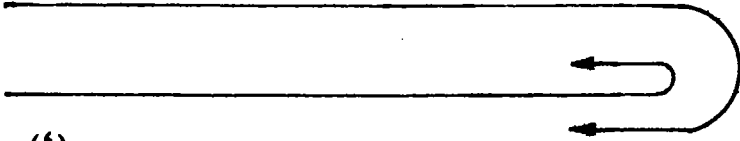
(٢٥٢) : الهمذاني : جامع التواريخ ٢/٢٠١ .

جـ - الصف القطاري والمقدمان في الداخل : .



(٣)

د - الصف القطاري والمقدمان أحدهما في الداخل والآخر في الخارج . ثم يتغير فيصبح الداخل خارجاً والخارج داخلاً : .



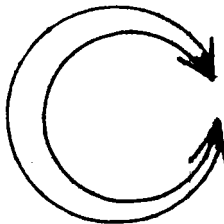
(٤)

هـ - الصف القطاري إلى رأس الميدان : .



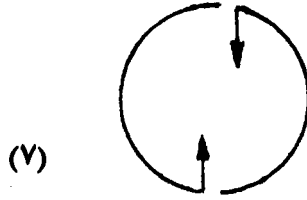
(٥)

و - حلقة حفظ الفارس والمقابلة بالقتال : .

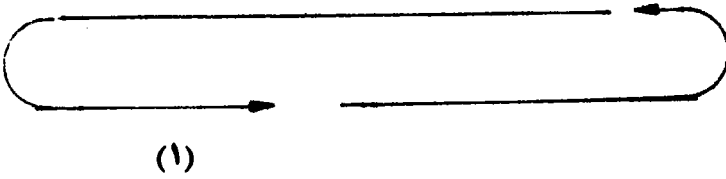


(٦)

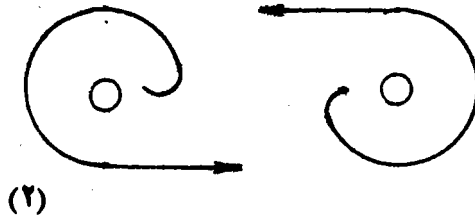
ز - الحلقة والمقدمان في الوسط يطلب أحدهما الآخر:



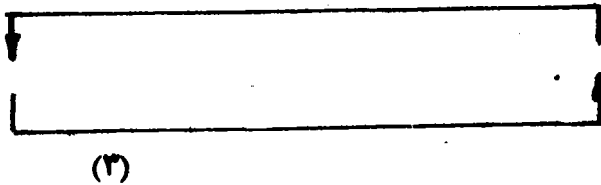
ح - ترتيب الكلاب يتبع احدهما الاخر:



ط - الحلقتان المتقابلتان :

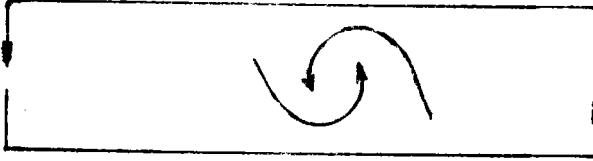


ي - الصفوف المتداخلة :



ك - صفوف المطاردة كالصفوف المتداخلة ، إلا أنه في هذه الصفوف يتفرق كل صف وينسحب إلى الميدان : .

ل - صفوف المبارزة : -



(٤)

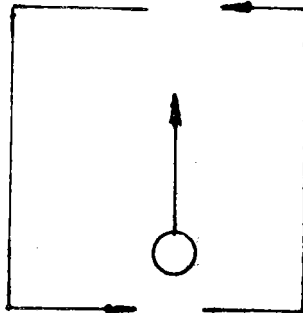
م - صفوف الدخول كالصفوف المتداخلة ، إلا أن صفوف الدخول في هذه الحالة تبرز إلى وسط الميدان وتخرج بأسلحتها وتنتهي للقتال .

ن - ميدان الاصل أو « الكورد » .



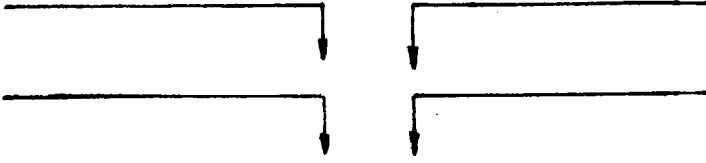
(١)

س - البرجاس والدخول فيه : الفرسان صفان يمينا وشمالا ، والبرجاس في وسط الميدان .



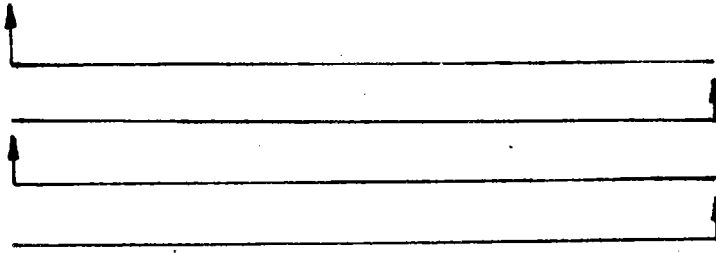
(٢)

ع - الصفوف بأربع مقدمين : .



ص - الصفوف الاربعة المتتالية :

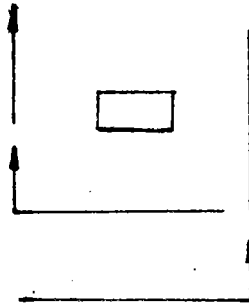
(٣)



(٤)

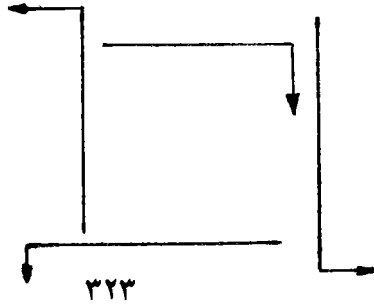
ت - كما يسمونه « سياج الملوك » .

(٥)

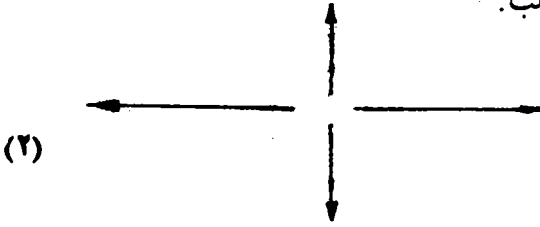


خ - كما يطلقون عليه « ميدان البقجة » .

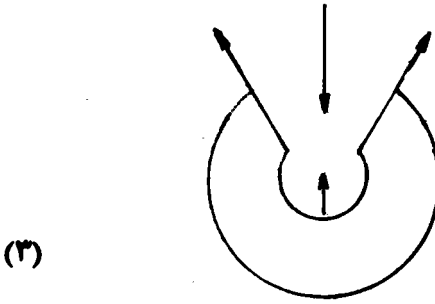
(١)



ذ - ميدان الطير المصلب .



ض - ميدان الأهلة .



إن تغيير صف من هذه الصفوف يتم بالتتابع . ومن الملاحظ أن هذه التشكيلات ينبغي أن تكون على جانب كبير من التدريب .
وإن أي خطأ يظهر في الانتقال من صف إلى صف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك أو إلى الهزيمة . وبالمقابل فإن إبطال صف ما قد يربك القيادة ويؤخر تقدم المقاتلين لاخذ مكانهم في التشكيلة الواحدة .

لقد اتبع الجيش المملوكي عدة طرق في القتال . وكان يتقني الطريقة والتشكيلة التي تتناسب مع العدو والأرض والامكانيات المتاحة فإن قدم العدو النشابة ، كمن واستتر وعاجله بالخييل بعد الرشقة الأولى وإن قدم رماحة الخيل سبقه الجيش المملوكي في ذلك ، وإن قدم رماحة الرجال قدم أيضا هذه الفئة متبوعة بالخييل ، وإن قدم النشابة والرماحة في صف واحد ، زحف إليه بخيله ورجاله .

وفي بعض الأحيان الرماحة والنشابة من الرجال ويتبعها بالخييل (٢٥٣) .

(٢٥٣) : الناصري : المصدر نفسه ١٩٤ .

٢٢ - البريد الحربي :

إن المكلف بنقل البريد على الخيل يطلق عليه « البريدي » ويطلق على الذي ينقل البريد على الجمال (النجاب) والذي يشرف على بريد الحمام (البراج) إن موظفي البريد هم الذين يحملون الطرود والرسائل في حقبة ويلبسون لباسا يعرفون به (٢٥٤).

لقد اعتنت الدولة المملوكية بالبريد، وأنشأت له ديوانا خاصا، وعينت العناصر للمحطات، وفتحت السجلات الخاصة في كل الفئات البريدية (الخيل، الجمال، الحمام) وكثرت أبراج الحمام والبراجون، وكانت لهذه الفئة دور كبير في المراسلات الحربية (٢٥٥).

البريد الحربي هو مجموعة الوثائق والصور والأخبار والأوامر والتعليمات القتالية التي ترسل بين مقرات القيادة المختلفة بوسائط الاتصال المختلفة كالسعاة والخيل والحجارات (٢٥٦).

أستخدم السعاة والحجارات في القرن الرابع الهجري، واستخدمت وسائل أخرى في الفترة التي سبقت قيام الدولة المملوكية (٢٥٧)، أما في العصر المملوكي فقد اتخذت الخيل التي تتصف بصفات خاصة لتدل على أنها واسطة نقل البريد، وكذلك الحمام على نطاق واسع (٢٥٨)، وقد نظم هذا الجهاز أحسن تنظيم إذ كان في ملاكه المقدمون والأفراد والذين يعملون في نقل الرسائل الحربية، كما أنشئت محطات بين كل الأماكن التي يمكن أن يتمركز فيها الجيش المملوكي، وأوجدت فيها الاطعمة والاعلاف والراحة للمسافرين (٢٥٩).

(٢٥٤): ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ٣٧.

(٢٥٥): الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ٣٦، ٣٦١، ويسلر: الحضارة العربية ١٣٤، ١٣٥،

ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ٣٧.

Demombynes La Syrie a lepoque des Mamelouks 250.

(٢٥٦): متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ٤١٤/٢، ٤١٥.

(٢٥٧): متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ٤١٦/٢، هل: الحضارة

العربية ٨٨.

(٢٥٨): المقرئ: الخطط ٤٤/٣، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٣٧/١/٣.

(٢٥٩): ابوشامة: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ٥٢٠/٢، الدواداري: الدر الفاخر

في سيرة الملك الناصر ١٩.

في معركة عين جالوت لم يستخدم البريد الحربي على نطاق واسع، إنما استخدم قبل المعركة حين أرسل الملك قطز برسل إلى الملك الناصر صاحب دمشق وإلى القادة الأمراء الذين فروا من مصر والتجأوا إلى الملك المغيث في الكرك حين دعاهم إلى البلاد والإشتراك في المعركة الفاصلة مع المغول، وبعد الانتصار حين أرسل القائد الأعلى للجيش بريد إلى بلاد الشام وآخر إلى مصر، ثم إلى الاقطار الأخرى يعلمهم فيها عن انتصاراته وقضائه على الجيش المغولي (٢٦٠). ومن الطبيعي ألا يكون البريد منظما أثناءها بصورته الصحيحة إلا فيما بعد وفي زمن الظاهر بيبرس، وهكذا فإن البريد كان يسلم إلى رجل موثوق، سريع، أمين، يوصله إلى المكان المرسل إليه، وذلك لأن الجيش المملوكي كان لا يزال فتيا، ولم يخض معركة قتالية مستقلة لوحده، إلا في هذه المعركة التي خرج منها القادة بأفكار تنظيمية وخبرة قتالية، مكنتهم فيما بعد من تنظيم هذا الجيش وإنشاء مؤسساته المختلفة التي منها مؤسسة البريد الحربي (٢٦١). والتي كان أهم واسطة فيها لنقل البريد هو الحمام الذي درب تدريبا دقيقا ومتوصلا حتى غدا الحمام يصل إلى أبعد المراكز، إذ توضع البطاقة في جناح الطائر لحفظها من المطر، أو في الذنب وينقلها إلى أنحاء متفرقة من البلاد (٢٦٢).

٢٣ - وسائل الاتصال:

كان المماليك يستخدمون النار في اتصالاتهم، وفي نقل الأخبار عن العدو، واتجاهه وقوته وسرعة مسيره، للنار محطات مرتفعة على رؤوس الجبال، وعلى قمم التلال، وعلى مرتفعات القلاع والبنيان، إذ كانت الاخبار تنقل عن الجيش المغولي من الفرات إلى النيل في أقل من نصف يوم عبر المحطات المتتابعة التي كلف بها رجال اختصوا برموز النار في الليل، وشارات الدخان في النهار، وهناك محطة على الجبل المطل على بيسان (٢٦٣) ولا يستبعد أن تكون هذه

(٢٦٠): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/٣٦٧، ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٣٠٧.

(٢٦١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/١٨٦، حتى تاريخ العرب ٧٦٧.

(٢٦٢): السيوطي: حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ٢/٣١٣، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف

الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٧، القلقشندي: صبح الاعشى ١٤/٢٨١، المقرئ: السلوك لمعرفة دول

الملوك ٣/١/٢٣٧، الدواداري: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٩/٢٥٥ وما بعدها.

(٢٦٣): Demombynes La Syrie a le poque Des Mamelouks 260.

المحطة قد كشفت تحرك الجيش المغولي عندما أقرب من بيسان، وعندما توجه إلى الغرب إلى عين جالوت، ذلك أن جبل قفره يشرف على وادي بيسان وعلى أرض المعركة وعلى كل الاتجاهات. وكانت الظروف مهيأة للمراقبين والرصاد لكشف تقدم العدو، ولإعطاء أخبار مفصلة عن قوته وعتاده وأسلحته مما ساعد بلا شك الجيش المملوكي من اتخاذ الإجراءات الدفاعية المناسبة.

٢٤ - ميزان القوى :

إن عدد الجيش المملوكي كان يساوي ثلاثة أضعاف الجيش المغولي في هذه المعركة (٢٦٤). كما أن عدد الخيل كان أكثر بقليل ذلك أن نسبة كبيرة من العربان والمواطنين الذين اشتركوا في القتال كانوا مشاة (٢٦٥)، وإن الفرسان الاساسيين كانوا من الجيش المصري عندما تحرك من تلك البلاد. أما الأسلحة كالسيف والرمح والترس والخوذة والدرع فكانت متشابهة في كلا الجيشين، غير أن النشاب كان متقدما من الناحيتين الفنية والقتالية عند الجيش المغولي (٢٦٦)، هذا على مستوى الأسلحة الفردية الهجومية والدفاعية، أما الأسلحة الجماعية كالمنجنيق فإنه كان متفوقا في الجيش المغولي ومتقدما من الناحية التقنية (٢٦٧) الذي كان يستخدم لذلك القلاع والحصون، والذي لم يستخدم في هذه المعركة إلا على مستوى ضيق. كما أن السلاح الهندسي كان متطورا عندهم. وهو من الأسلحة التي لها خبرة ميدانية في ساحات القتال المختلفة التي خاض المغول فيها معارك كثيرة، فنصبوا الجسور على الوديان والأنهار (٢٦٨). وما يلفت النظر أن سلاح النفط

(٢٦٤): الهمداني: جامع التواريخ: ٣٠٨/١/٢، ٣٠٩، القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٢٢٦، الشهابي: تاريخه ٤٣٨/٤٣٩، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١/٣٦٠، ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٣٠٥.

(٢٦٥): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٢٠٣، ٢٠٩، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٥، الكتبي: فوات الوفيات ١/١٦٩.

(٢٦٦): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢/٣١٣، ٣١٤، البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٦، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ٧٧/٢٨.

(٢٦٧): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٥٦ - ٣٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٢١٩.

(٢٦٨): الشهابي: تاريخه ٤٣٧، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٧٩.

والنيران عند الجيش المملوكي كان أخف حركة، وأقدر على توجيه النيران باتجاه المكان المراد حرقه (٢٦٩)، إذ استطاع هذا الجيش أن يسدد ضربة حاسمة بهذا السلاح ضد الجيش المغولي في هذه المعركة.

إن التدريب الفردي لدى الجيش المملوكي كان تدريباً قاسياً يخضع لاختبارات متعددة، كما أن التدريب الجماعي الذي تشترك فيه جميع القوى، وجميع أفراد القوات المسلحة كان تدريباً فيه مشقة وعنف واستمرارية، إذ يقضي الجنود والأمراء أغلب أوقاتهم في التدريب، كما كانت القيادة المملوكية حريصة كل الحرص لأن توفر المدارس والكتليات والمدربين الاختصاصيين (٢٧٠)، أما التدريب في الجيش المغولي فهو تدريب خبرة وحرب لا مشاريع وبيانات كما كانت عند الجيش المملوكي وبهذا فإن خبرة الحروب الطويلة، وتجارب الجيش المغولي كانت أقوى وأفضل من تدريب خصمه، والمقاتل كان أكثر ممارسة ومعاناة.

لا يخفى أن للعقيدة دوراً كبيراً في القتال، ولها ثقل كبير في ميزان القوى بين القوتين المتقابلتين، فلقد كان الجيش المملوكي يحمل عقيدة يقاتل من أجلها، ويقدم إرادة القتال (٢٧١)، أما الجيش المغولي فهو لا يقاتل إلا لبسط السيطرة والنفوذ (٢٧٢). وبهذا فإن الجيش المملوكي كان أقوى على مجابهة القتال، وعلى تحمل المتاعب والمصاعب، وعلى انتزاع النصر مهما كلفه ذلك من تضحيات.

تعد الحرب النفسية من الحروب التي لها تأثير كبير على مجرى القتال، فلقد كانت للجيش المغولي سمعة قتالية أرهبت العالم وجعلته يستسلم قبل أن تصل إليه القوات المغولية (٢٧٣)، بل

(٢٦٩): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٤/١/٢.

David Ayalon: Gun Powder and Fire Arms in the Mamluk Kingdom: 14.

(٢٧٠): القلقشندي: صبح الاعشى: ١٧٣/١١، ابن تغري: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١/٢٦٣، الباشا: القاهرة ٨٢.

(٢٧١): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٨١/١، ٣٨٣، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣١/٢/١، ٥٢٤.

(٢٧٢): البغدادي: الافادة والاعتبار ١٢٧، كرد علي: خطط الشام ١٦٧.

(٢٧٣): اسعد: بولو ١١.

إن كثيرا من الدول كانت ترتعد خوفا ورعبا. وتفر من المعركة كما تفر الحمر من القسورة (٢٧٤)، إلا أن الجيش المملوكي قابل هذه الحروب النفسية بابطاها، وتصدى لها بكل شجاعة وقوة إذ رفض الإنذار وقتل الرسل وأعلن الحرب (٢٧٥).

فالحرب النفسية قابلتها حرب نفسية، وأصاب قيادة الجيش المغولي من جراء ذلك حمى هستيرية وفقدوا توازنهم، وتصرفوا بشيء من الطيش والحمق ورأوا أنفسهم أمام جيش قد تحداهم وخرق سمعتهم التي كانوا يفاخرون بها، ويردعون الجيوش بها.

لقد كان الانضباط في الجيش المغولي قويا شديدا، لا يستطيع أحد أن يخالف أوامر قاداته، أو ينحرف عنها، إلا أن هذا الانضباط كان قسريا خلفه قوة كبيرة تطبقه وتفرضه على المستويات الدنيا فرضا، فمن لم يلتزم بهذا، فإن مصيره إلى العقوبات الشديدة التي كانت كثيرا ما تؤدي إلى الموت (٢٧٦).

أما الجيش المملوكي فقد كان في انضباطه بعض الخلل، إذ كانت لاتزال بعض الشحنة بين القادة وبخاصة بين قطز القائد الأعلى وبين بيرس رئيس الأركان وقائد الطليعة، ومع هذا الخلاف فانه كان في هذا الجيش الانضباط الطوعي الذي يتجلى بالتطبيق المستند على الرضا والقبول والقناعة (٢٧٧).

إن الشؤون الإدارية في الجيش المغولي كانت تتميز بقوة القاعدة المادية، ويتوفر الاموال والعتاد ومواد التعيينات ووسائل النقل، فلقد غنم هذا الجيش الشيء الكثير في حروبه واستولى على الأموال والاعتدة الكثيرة (٢٧٨). وهو بالاضافة إلى ذلك فقد تعود على صعوبة الحياة (٢٧٩) واستفاد من الوسائل المحلية لجنوده لوسائل نقله (٢٨٠) وهو لم يحمل خلفه تموينات،

(٢٧٤): الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٨٤/٢، ٨٨ وما بعدها.

(٢٧٥): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢، مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ٧٦/٢٨.

(٢٧٦): القلقشندي: صبح الاعشى ٣١٣/٤، ٤٥٠، القرماني: اخبار الدول وآثار الاول ٢٨٤، اسعد بولو ١١

(٢٧٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٤/٧، ٥٥، بيشوف: حلب الشهباء ٨٠.

(٢٧٨): الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٩١/٢، كرد علي: خطط الشام ١٦٧.

(٢٧٩): اسعد: بولو ١١ وما بعدها ٧٣.

(٢٨٠): القرماني: اخبار الدول وآثار الاول ٢٨٤، اسعد: بولو ١٢.

وما كان يثقل نفسه بتلك المواد التي تحتاج إلى كادر كبير وإلى وسائط نقل كثيرة، أما الجيش المملوكي فقد كان يفتقر إلى المال وإلى القاعدة المادية الكبيرة التي يحتاج إليها الجيش في الحروب، كما لم تكن لديه الغنائم، كما كانت فائدته قليلة بالنسبة للوسائط المحلية، أما مؤخرة جيشه فقد كانت خفيفة كالجيش المغولي. وهذا فإن الشؤون الإدارية في الجيش المغولي أقوى وأمتن من الجيش المملوكي الذي لجأ إلى تموين نفسه من عكا حين مر بها وهو في طريقه إلى المعركة (٢٨١). فمن يملك قاعدة مادية متينة أقدر بطبيعة الحال على مواصلة القتال وإطالة أمده، لكن الحقيقة أن الجيش المغولي لم يكن منظماً هذه القاعدة بصورتها الصحيحة، ولم يستفد منها في هذه المعركة إلا ما حضر من عتاد وأسلحة قبل دخوله القتال، أما الجيش المملوكي - مع قلة الموارد - فقد استطاع أن يجمع من الأهالي ومن الخزينة ما مكنه من توفير الخيل وشراء السلاح (٢٨٢). كما أنه عار أهمية كبيرة إلى الامداد والتزود بما يلزم قبل دخوله المعركة.

يبدو من ميزان القوى أن الجيش المملوكي كان متفوقاً بالعدد وبالخيل وبالعتيدة، وأن الجيش المغولي كان متفوقاً بتقنية بعض الأسلحة الهجومية، يقابله سلاح النفط واليران في الجيش المملوكي، وكذلك كانت القوات المغولية متفوقة بالعتاد الحربي، ومثانة القاعدة المادية. وفيما عدا ذلك فإن الجيشين تساويا، وكانت أوضاعهما متشابهة، وسلاحهما قريبان من بعضهما فنيا وتعبوياً. وتدريبهما واحداً، وإن كان هناك بعض الميزات التدريبية للجيش المغولي بما كان يحمل من تجارب حربية وخبرات قتالية، وإذا نسيت فلا أنسى الحرب النفسية لهذا الجيش وقوة تأثيرها على خصمه، إلا أن تأثيرها كان قليلاً على الجيش المملوكي الذي قابلها بحرب نفسية أبطلت قوة الخصم فيها، وأضعفت أندفاعها وانتشارها.

٢٥ - التصميم:

إن من أبرز سمات هذه المعركة أنها اتسمت بالتصميم على القتال، وأن لارجعة إلا بالشهادة أو النصر. هذا وكانت جموع المشتركين في القتال. بعضهم قاتل حاسراً، وبعضهم إندفع كمن يطلب الموت فهو المحبب له ولعل هذا التصميم آت من العقيدة، ومن الحذر الكبير من قوة

(٢٨١): ابن جبير: رحلته ٢٩٣/٢٩٦، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١.

(٢٨٢): الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين ١٢٥، الطباخ: اعلام النبلاء بتاريخ

حلب الشهاب ٢٩٠/٢، ٢٩١.

العدو التي إن قدر لها أن تنتصر، فيكون الجيش المملوكي والدولة المملوكية اثراً بعد عين ولم تقم لها قائمة أبداً، ومن الحقد الكبير نحو المغول الذين كانوا ألد أعداء البشرية، وبخاصة نحو تلك الدولة الفتية، ومن اجماع القادة العسكريين على القتال، عهداً على الثبات، فلا مفر من الزحف بهذه الاحوال وبهذه الدوافع يزداد المقاتل ضراوة وثباتاً وعناداً (٢٨٣).

٢٦ - النصر السياسي قاد إلى نصر عسكري:

شعر قطز قبل أن يستلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد وأكثروا فيها القتل والعذاب، ولا بد له ازاء هذا الخطر أن يتخذ عدة اجراءات سياسية تضمن له النصر على اعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات أو شهور حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ومصر.

بدأ التفكك الداخلي واضحاً عند استلام المماليك الاتراك، إذ حكمت امرأة، ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطتها، وتزوجت فيما بعد من عز الدين أيبك لتحصل على الاعتراف الخلفي، واحتدم الصراع بينها وبين زوجها أدى إلى قتلها، واستلم الحكم علي بن أيبك وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه. ولما كان قطز هو نائب السلطان والوصي على الصبي، وهو يعلم أنه قادم على معركة فاصلة، أراد لكي تتاح الحرية السياسية والتصرف بالامور العسكرية والإدارية - أن يتخلص من السلطان الصغير - ، فاستلم الحكم واعتقل الصبي (٢٨٤).

هذا إجراء سياسي داخلي، وهناك إجراء سياسي داخلي اتخذته هذا السلطان بعد أن استلم البلاد وهو مهم بالنسبة للمعركة القادمة. هرب بعض امراء المماليك البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك لما رأوا أنهم لا يستطيعون أن يؤثروا على المسيرة التي انتهجها قطز لاصلاح البلاد وتحضيرها، هربوا لكي يجدوا الخليف ضد هذا القائد، وحاولوا القتال وزحفوا نحو مصر في سنة ٦٥٥ / ١٢٥٧، لكن قطز تصدى لهذه المؤامرة وتغلب على الأمراء، وأوقع فيهم القتل

(٢٨٣): الهمداني: جامع التواريخ ٣١٣/١/٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

٧٩/٧، ٨٥، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ٢٩٧/١.

(٢٨٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٧٤/٤ وما بعدها ٧٠، ١٤، ١٩، ٢٠، ٥٥ المقرئزي: السلوك

لمعرفة دول الملوك ٣٦٨/٢/١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٢٦٨/٥/٣.

وردهم على أعقابهم (٢٨٥)، ولم يمكنهم أبدا من العبث بأمن الدولة وقدرتها وتصديها للعدو المرتقب المغوليين. وظل صامدا يتابع توجيه السياسة وإصلاح البلاد، وتحليلها من الفتن والاضطرابات وتوحيد جبهتها الداخلية، حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت وأزداد الخطر، رأى أنه من المناسب إعادة الصفاء بينه وبين الأمراء الهاريين الذين حاربوه، لتجتمع الكلمة، وليستفيد من خبراتهم في الحروب وفي قيادة الجيوش (٢٨٦)، وهكذا كان الإجماع الداخلي على التصدي للعدو المغولي، وتوج هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب وبحضور جميع الساسة في البلاد، وتحققت الوحدة الداخلية والتماس الشعبي أمام الخطر المحدق (٢٨٧).

بعد أن استتب الوضع الداخلي، واستقرت الأمور، عكف قائد هذه البلاد على تأمين الوضع السياسي من الوجهة الخارجية. فالمغول عدو وهويتر بص الدوائر ويتحرك نحو البلاد ليقضي على دولة الممالك وعلى جيشها وعلى شعبها، وهو مقبل لا ينتظر ولا يمكن إعاقته أو تأخيرها، وهو العدو المباشر الذي سيسارع إلى الحرب ويباشرها قبل غيره من الأعداء. والصليبيون وهم أعداء أيضا، لا يتورعون إذا سنحت لهم الفرصة أن يبطشوا بالممالك ويقذفوهم من وراء الحدود والأراضي، لكن هذا العدو في الوقت الحاضر لا يمكن أن يبدأ القتال وأن يباشره نظرا لعدم استعداده ويكره أن يقاتل إلا في الأراضي الفلسطينية وفي الشواطئ الساحلية، وهو من جهة ثانية يكره المغول، ويحب أن يراهم مهزومين.

وهناك أعداء ثانويون في الوقت الحاضر لا يشكلون خطرا كبيرا كالأرمن والاسماعيليين والروم الذين حاربهم الظاهر بيبرس بعد معركة عين جالوت واستولى على بلادهم وقلاعهم وقتل وأسر الكثير منهم (٢٨٨).

(٢٨٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤٥/٧، ٤٦، ابن الوردي: تاريخه ٢٨٠/٢، عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ١٦٦.

(٢٨٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٤/٧، ٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ٣٦٤/٢. ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٢٦٤، عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ١٦٨.

(٢٨٧): الهمذاني: جامع التواريخ ٣١١/٢/٢ وما بعدها، السبكي: طبقات الشافعية ٢٧٧/٨.

(٢٨٨): ابوالفداء: تاريخه ٣/٢/٢، ١٠، ١٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٣٨٥/٥/٣، الدواداري: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٣٩٧/٩، ابن الوردي: تاريخه ٣٨٥/٢.

إزاء هذا الوضع الدولي، رأى قطز أن يعقد معاهدة صلح مع الصليبيين (٢٨٩) الذين سيدخل الجيش المملوكي في بعض أراضيهم، وهذا الصلح يكون قد ضمن هذا الجانب، ليتفرغ إلى الجانب المغولي وحده. فهو لا يستطيع أن يقاتل على جبهتين، وإذا قاتل فإن هذا القتال لن يكون مضمون النتائج. خرج هذا القائد بجيشه بعد أن اتخذ عدة إجراءات سياسية متتالية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وقابل المغول في عين جالوت وانتصر عليهم (٢٩٠). استمرت الأعمال السياسية والإدارية بعد المعركة، فقد أرسل قطز رسلاً إلى بعض الدول يخبرهم فيها عن انتصاره، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر والشام (٢٩١)، وبذلك ثبت دعائم الأمن والاستقرار السياسي، كما نظم البلاد من الناحية الإدارية، وعين النواب، وبسط نفوذه على كل البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام (٢٩٢).

Runcinan: A History of The crusades Vol. III The Kingdom of Acre Book 3/ chapter 3/311. : (٢٨٩)

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١.

(٢٩٠): أبو الفداء: تاريخه ٢١٤/١/٢، المقريزي: الخطط ٩٣/٣، الاسحاقي: اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول ١٣٢.

(٢٩١): ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٧/١، الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ٦٩/١، الجبري: عجائب الآثار في التراجم والاخبار ٢٩/١.

(٢٩٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٣/٧ وما بعدها، الكتبي: قوات الوفيات ٢٦٨/٢، عمون: تاريخ مصر ١٩٦.

معركة عين جالوت

الجيشان المملوكي والمغولي قبيل المعركة « الحالة الأولى » نظام الصفوف والدفاع المتحرك



حالة الهدوء والمبارزة

معركة عين جاولت

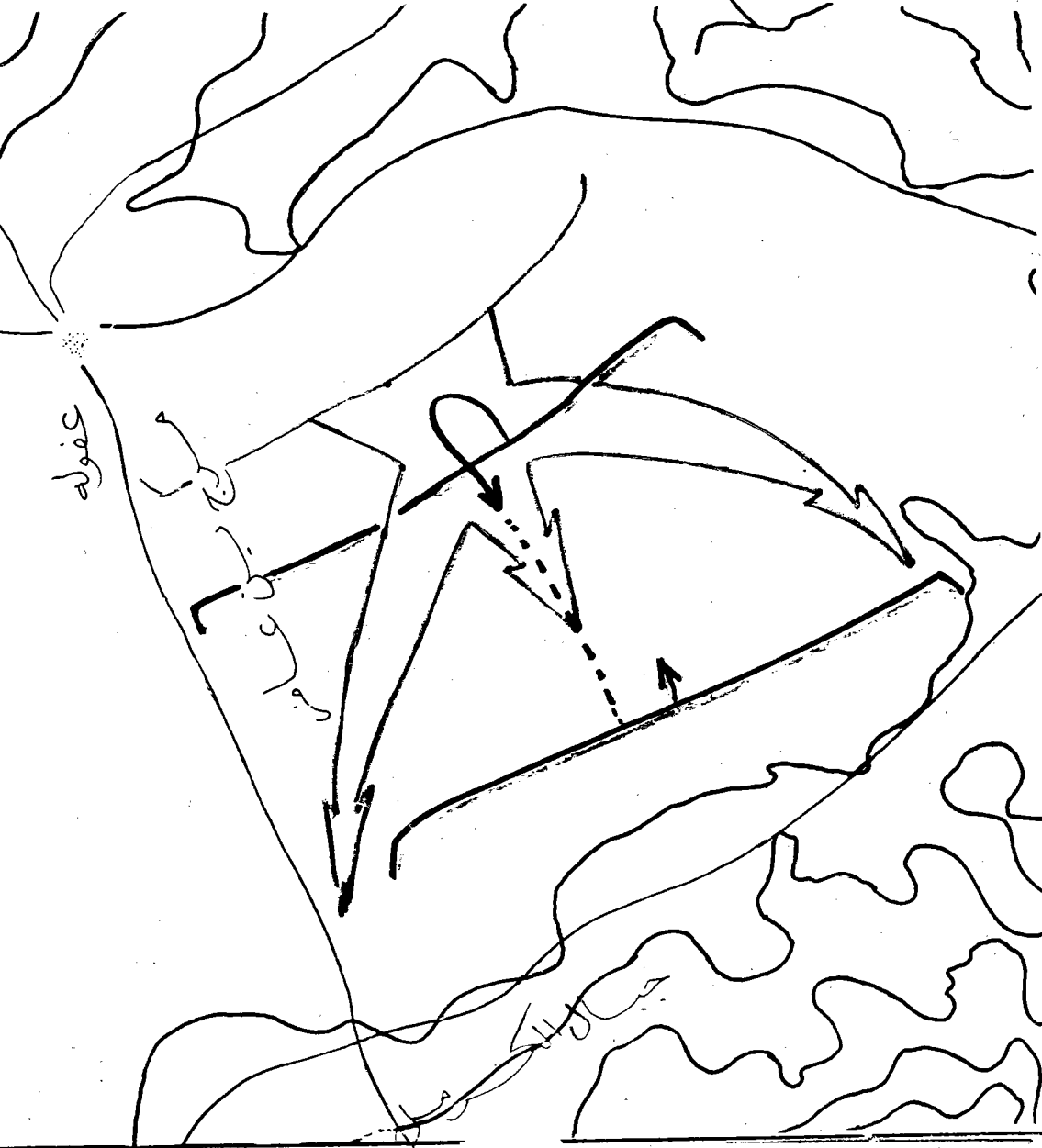
« الحالة الثانية » قوات الهجوم المغولية تضغط على قوات الإعاقة والجذب المملوكية وتحاول

تدميرها.



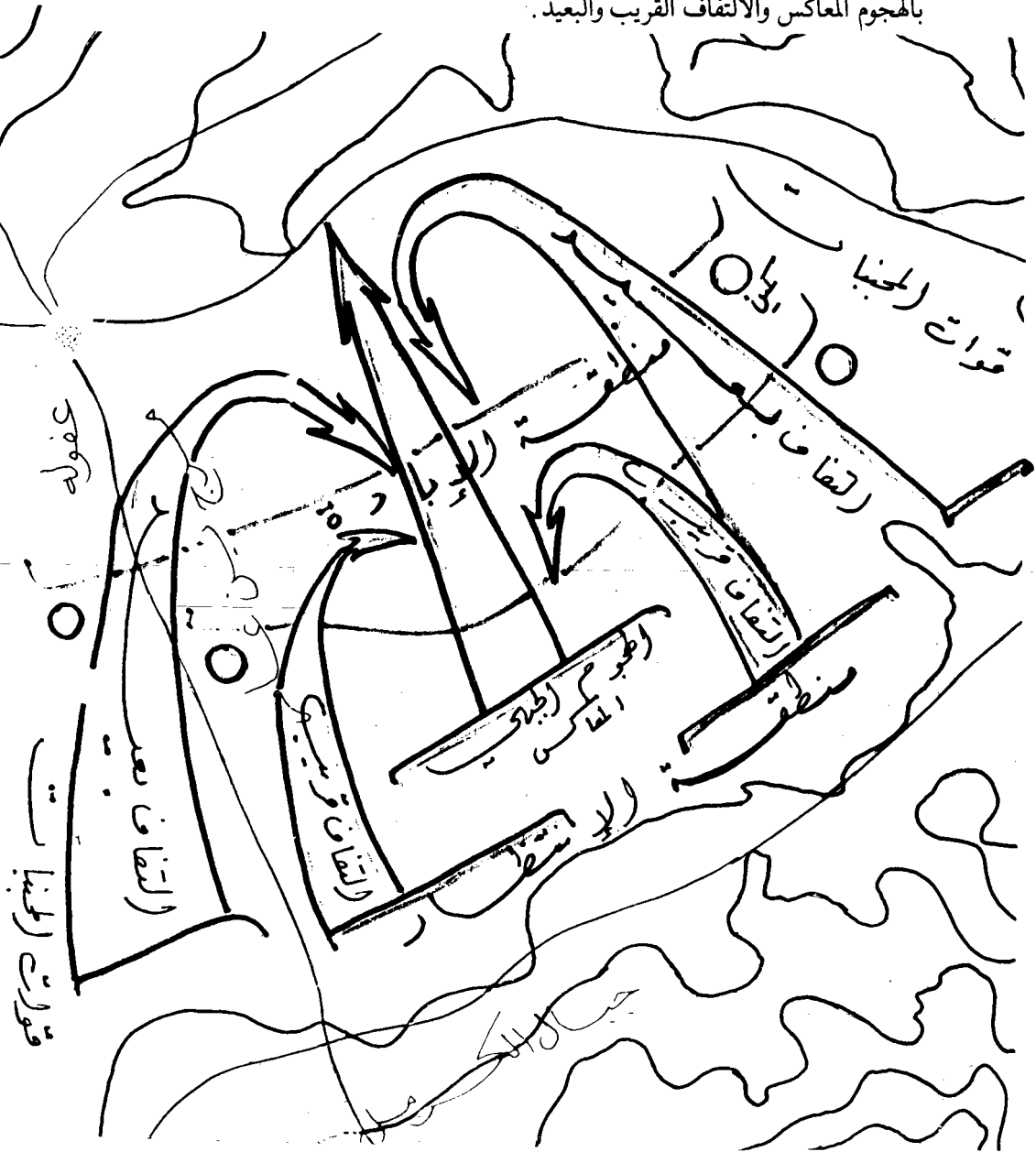
معركة عين جالوت

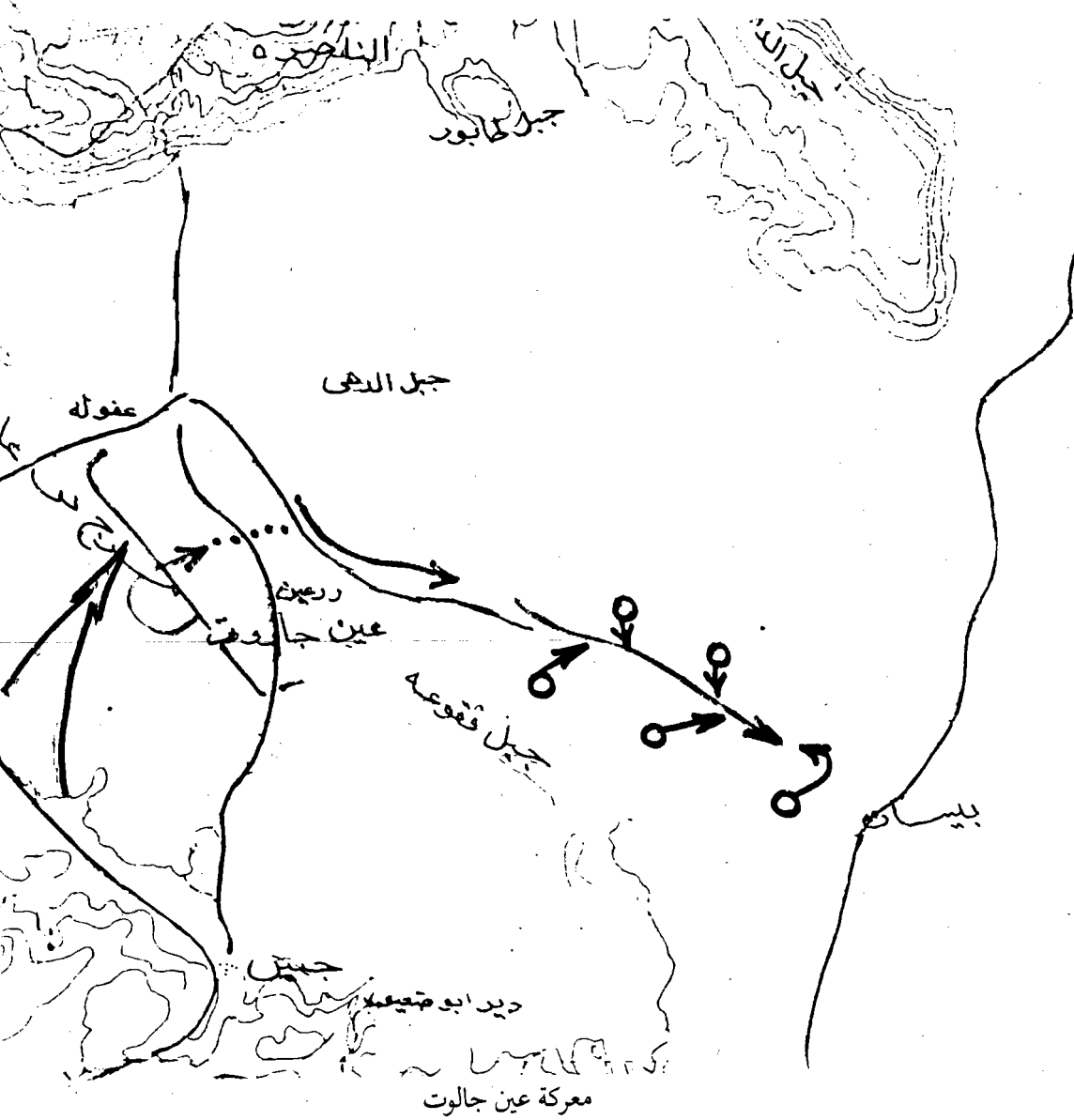
« الحالة الثالثة » قوات الهجوم المغولية تتقدم والقوات المملوكية تنسحب أمامها خدعة .



معركة عين جالوت

« الحالة الرابعة » توقف القوات المغولية المتقدمة أمام ثبات وعناد القوات المملوكية وقيام الأخير
بالمهجوم المعاكس والالتفاف القريب والبعيد.





« الحالة الخامسة » القوات المغولية تنسحب من أرض المعركة دون نظام مدعورة تلاحقها القوات المملوكية من الخلف وتكمن لها أمام طريق انسحابها بقيادة رئيس أركان الجيش بيبرس .

مسرح عمليات معركة عين جالوت.

طريق ———

مسلك مشاة ----

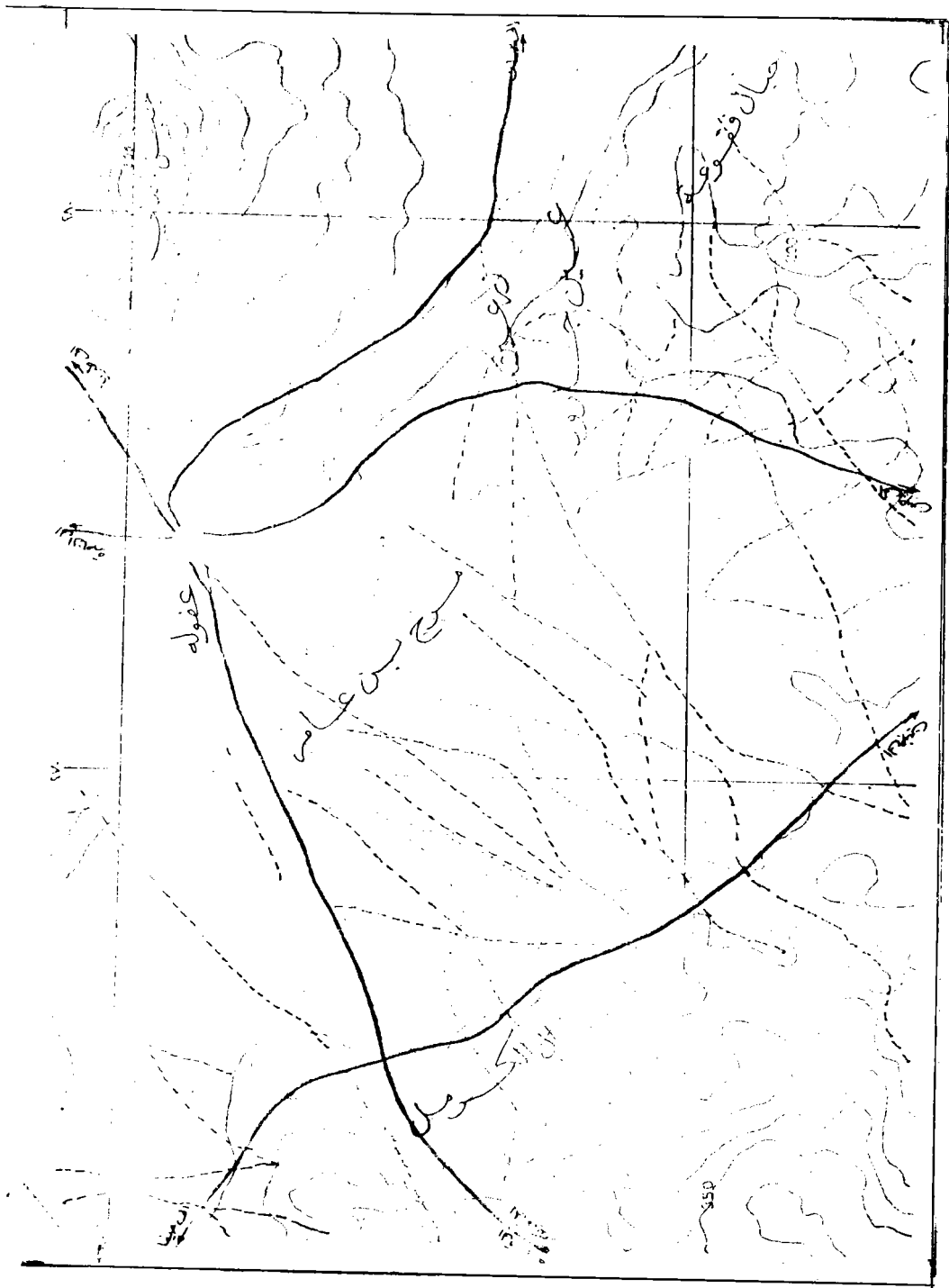
مستنقع

بئع .. بئر

•

مقياس

1 / 500 000



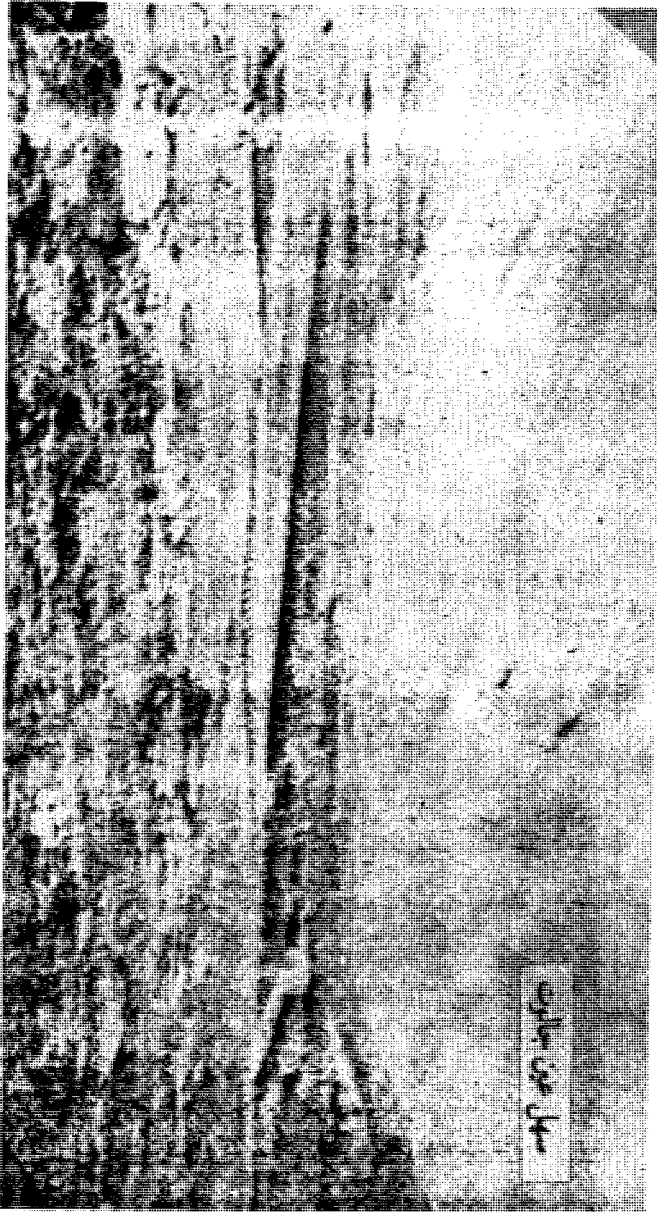
أرض المعركة جغرافيا.

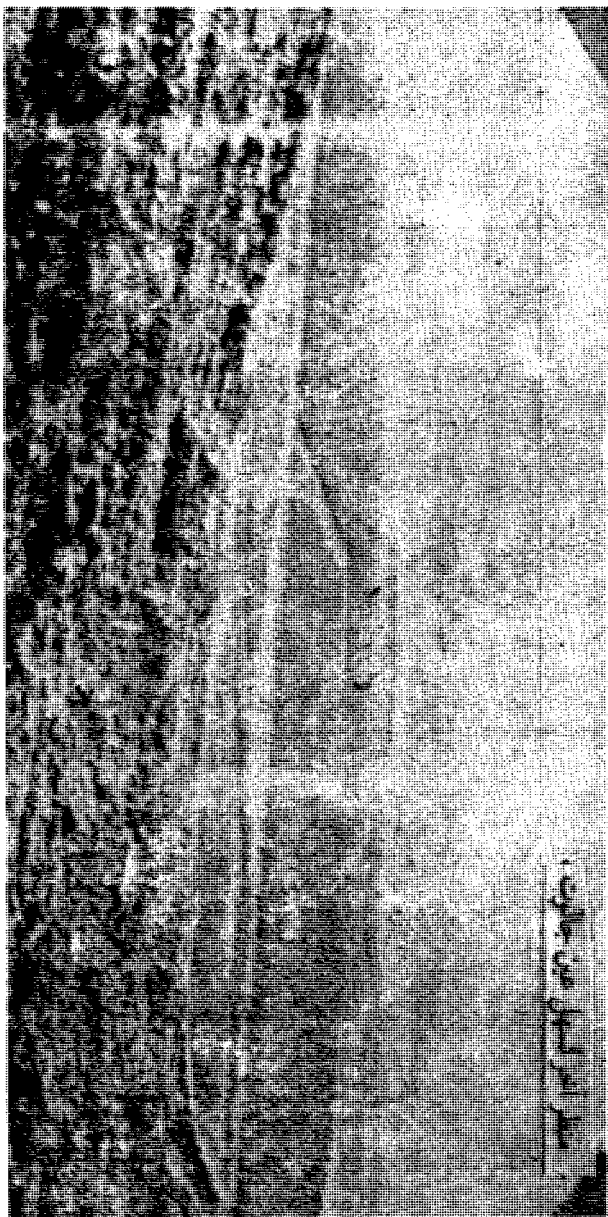
طريق —————
مسلك مشاة - - - - -
مستنقع ~ ~ ~
نوع - بحر 6 0

مقياس

1/15000

« أرض المعركة » طبيعياً





نقلاً عن أطلس التاريخ العربي لشوقي أبو خليل.

الفصل الثامن الشؤون الادارية

هي مجموع الاجهزة التي تتولى أمور التنظيم والاعداد والتأمين المادي والمالي والطبي والنقل والطعام والملابس والايواء والسكن، والشؤون الادارية لهذه الاجهزة قادرة على الامداد بجميع الوسائط المادية التي يحتاجها العسكري من أجل نجاح المعركة، ويتوقف تقدم القوات أو تأخيرها، نجاحها أو فشلها على قوة المؤخرة في كل بلد، فالافتصاد القوي يخلق مؤخرة قوية، وبالتالي يخلق جيشاً قوياً بأعدته وسلاحه.

ولاشك أن القاعدة المادية لها دور كبير قديماً وحديثاً في الحروب وفي استقرار القيادة وقوة الدولة واستمرارها، وإذا ماتناست دولة ما هذه القاعدة، وأهملت العمل بها والتخطيط لنموها ووفرت الوسائط المادية لها، فإن الدولة ستموت عاجلاً أو آجلاً، وسيتلاشى جيشها ويصبح من أضعف الجيوش وأقلها صموداً أمام تربص الاعداء وكيد الطامعين، ولقد قامت حروب عديدة بين الممالك وأعدائهم بسبب تقوية القاعدة المادية، وتسهيل سبل التجارة ودخول الوسائط المادية المختلفة كتلك التي كانت في زمن برقوق^(١)

لقد كانت القاعدة المادية عند الدولة المملوكية بين مد وجزر وكانت تتألف من الزكاة والخراج والعشور وأجور أملاك الدولة والضرائب^(٢) تارة ترتفع وتتوفر الوسائط المادية، وتارة تضمحل ويسود الجوع والفقر، ويأكل الناس بعضهم بعضاً، وفي نهاية الحكم أصاب المواد الأولية نقص كبير وبخاصة الاخشاب والحديد والمواد التي تصنع منها الأسلحة، وضرب حصار اقتصادي من قبل البابا، واضطرت القيادة العامة للجيش المملوكي أن تلتبس تلك المواد الناقصة من الدولة العثمانية في أيام السلطان الغوري ووصلت بعض الامدادات إلى ميناء بولاق^(٣) ولكنها كانت غير كافية، وغير مضمون استمرارها، كما أنه لم يكن لدى هذه الدولة المستودعات الكافية للتخزين، ولم يكن لديها نظام دقيق لتأمين هذه القاعدة بكل ما تحتاجه^(٤) وهذا ما ينعكس على

(١): زكي: الجيش المصري في العصر الاسلامي ١٥٠

(٢): زيادة: دمشق في عصر المماليك ٦٥

(٣): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١٥١١/٩/٧، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١٩٦/٤

ومابعدھا، اليوزبكي: تاريخ تجارة مصر البحرية ١٢٣ ومابعدھا

(٤): المقرئزي: إغاثة الامة بكشف الغمة

سياسة الدولة، فقد كانت في زمن قايتباي دفاعية وبخاصة مع العثمانيين^(٥).

انعدم التوازن في الجيش المملوكي فكننت ترى تركيز القاعدة المادية والهدربين السلطان والامراء دون أن يكون للشعب منها نصيب إلا القليل وإذا كان الجيش يحتاج إلى عتاد وأسلحة عمد السلطان والامراء فاشترى ما يخصهم وقروا أنفسهم دون أن يكون هناك توازن بين القوات المسلحة بصفوفها المختلفة، وإن عدم التوازن هذا خلق تناقضات كثيرة بين الشعب والجيش، ضمن فئاته وجنسياته المختلفة، وبين الامراء أنفسهم^(٦).

حقا إن الفساد كالرشوة والبراطيل خلقت شرخا كبيرا في القاعدة المادية، مما عكس ذلك على الجيش، الذي كان يتولى قيادته الامراء الذين وصلوا إلى مناصبهم عن طريق دفع المال، فوصل الضابط غير المناسب في المكان غير المناسب، وليس لهم من هم إلا جمع المال بأية طريقة كانت، فكان الظلم، وكانت الضرائب الكثيرة التي كانت تؤخذ من كل فئات الشعب على اختلاف وظائفهم وأعمالهم^(٧).

١- التحضير المادي:

ترى هل هيأت القيادة المملوكية قبل معركة عين جالوت سبل التأمين المادي، وهل فكر قطز بجمع المال وتحضير العتاد والأسلحة؟ هذا أمر طبيعي أن يفكر القادة قبل قدومهم على معركة ما أو حرب ما بالتأمين الإداري، إن سبب قلة الوسائط المادية والمجاعات التي يتعرض لها الجنود والشعب على السواء هي تلك القيادة التي نسيت أن هذا التأمين هو كل شيء في المعارك الحربية، فإذا أهملت تلك الناحية فإنها تعود بالخسران والضياع، وتؤدي حتما إلى الجرائم والانكسارات فلقد نسي القادة المماليك دورهم ولم يستوعبوا المسائل القيادية في التأمين الإداري، في حين أن مصر وحدها تعتبر من القواعد المادية الغنية في العالم وبخاصة في الزراعة والمواد الغذائية^(٨) لقد حضر قطز لهذه المعركة، فجمع الأموال، واشترى السلاح والخيول وأعد

(٥): عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ٢٥٣، زكي: الجيش المصري في العصر الاسلامي

١٩٣ وما بعدها

(٦): المقرئزي: إغاثة الامة بكشف الغمة ٣٦ وما بعدها. مبارك: الخطط التوفيقية ١٤٠/١

(٧): المقرئزي: إغاثة الامة بكشف الغمة ٣٧، ٤٣ وما بعدها ٧٠

(٨): ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ٥٤، ٦٧، ١٢١، ١٨٥، السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٤٠١/٢ وما بعدها، النويري الاسكندراني: الالم بالاعلام فيما جرت به

الأعتدة اللازمة^(٩) غير أنه لم تكن هناك احتياطات مادية كافية مخزنة في مستودعات القيادة العامة، وإن مثل هذا التحضير يحتاج إلى مدة طويلة كأن تكون الزراعة مزدهرة وذلك بزيادة مساحة الاراضي وإنشاء السدود والأقنية، وأن تتخذ الاحتياطات ضد الكوارث والحوادث الطبيعية، وأن تكون الصناعة كذلك، وإذا فرض قطز أن يكون مستعداً فما عليه إلا أن يستفيد من الموارد المتاحة في مصر فينظمها ويقتنها، ويفرض الضرائب اللازمة إذا لزم الأمر^(١٠).

٢ - مؤخرة القوات المسلحة :

لا يوجد مؤخرة بالمعنى الصحيح لمفهوم اليوم، وإنما كانت بعض المصالح التي تتولى تأمين الطعام والملابس والذخيرة والاسلحة والخدمة الطبية والنقل، وكان المفهوم السائد لدى القيادة العامة أن المؤخرة يجب أن تكون خفيفة لا يعيقها عن الحركة والمناورة الذيل الإداري الكبير وأن تكون من المواد الضرورية والمفيدة للجندي أثناء القتال، وأن تعتمد على الذات يقوم بأغلب الأعمال المقاتل فلا يحتاج غيره إلا عند الضرورة، وأن تركز على الوسائط المادية المحلية، وأن تقيم محطات إدارية على طول الطريق تتوفر في هذه المحطات جميع ما يحتاجه العسكري وبخاصة من مواد الطعام والشراب، وأن يخصص للمقاتل راتباً يؤمن به ما يحتاجه، من جميع الوسائط المادية وأن تخزن المواد الضرورية لدى الأمراء وفي أمكنة التمرکز، وفي القلاع والحصون وهذه المخزونات عادة ماتكون من المواد المجففة والتي تتحمل فترة طويلة كل ذلك من أجل التخفيف عن كاهل الجيش والمقاتل على السواء^(١١).

٣ - محاور الامداد والاخلاء :

هي تلك المحاور التي كان يتحرك عليها الجيش المملوكي إلى كل الاتجاهات، وقد فصلنا هذه المحاور عندما قمنا بدراسة لمسرح العمليات في الفصل الثاني، وإنه من المناسب أن أعرج على بعض المحاور الداخلية في مصر، والدولية التي تمتد عبر الاراضي السورية أو الفلسطينية لتصل إلى معركة عين جالوت وإذا كانت المؤخرة تشكل الرتل الأخير عند تحرك الجيش فإنها

الاحام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ٥، ٦، ٨، البغدادي : الافادة والاعتبار ١٩ ومابعدها

(٩) : الشرقاوي : تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولادة والاسلاطين ١٢٥

(١٠) : ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٨، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ١٥٩، ١٧٨،

ابن تغري : النجوم الزاهرة ١٧، ٧٢ ومابعدها.

(١١) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٢٢٨

كانت تحمل بعض المؤن والعلف ، ولانعود هذه المؤخرة إلى القاعدة الامدادية في مصر لتزود ثانية وتنقل الامدادات منها وإنما كانت تتمون لأول مرة ثم تتمون في طريقها من المحطات المتوفرة على الطرق، وكما تمونت هذه المؤخرة بشكل كامل من عكا^(١٢) قبل بدء المعركة وأهم هذه المحاور هو المحور الساحلي حتى يصل إلى غزة الذي سلكه الجيش المملوكي في طريقه إلى عين جالوت والمحور البري الذي يصل مصر بدمشق والذي يمر بالعريش وغزة والمحور البحري الذي لم يستخدم في هذه المعركة وهو ثغر دمياط صيدا - بيروت، وهناك المحور البحري البري الذي كان ينقل عليه الامداد وبخاصة الثلج من سوريا إلى مصر حيث يصل المحور الساحلي إلى ثغر دمياط ثم إلى النيل (حيث تنقل البضائع من مراكب البحر إلى مراكب النهر) ويصل بولاق حيث ينقل الامداد على ظهور البغال إلى مستودعات التخزين) من عين جالوت تنفرع عدة محاور داخلية عرضانية وطولانية أشهرها ذلك المحور الذي يتجه إلى حطين وإلى بيسان، ومن مصر القاعدة الامدادية تنفرع أيضا عدة محاور أشهرها تلك التي تنطلق من القلعة في مصر إلى الريدانية وإلى غيرها من الجهات إلى ثغر الاسكندرية ودمياط ومنها إلى الفرات^(١٣).

(٤) - الطعام والمياه :

كان يطلق على مصلحة الاطعام في عصر المماليك «الاقامات» وهي كل المواد والعتاد الذي يخص المقاتل وكل المواد التي تلزم الوسائط في النقل من العلف^(١٤). (ويطلق عليها في الوقت الحاضر التعيينات).

يتولى أمور الطعام من تأمين ونقل وحفظ وتخزين واستلام وتسليم جهاز مؤلف من عدد من العناصر ومن الوظائف التي كانت في هذا الجهاز «الخوان سلا»^(١٥) و «المقدار»^(١٦) و «المهتار»^(١٧)

(١٢): المقرئ: المصدر نفسه ٦٣٠/٢/١ وما بعدها.

(١٣): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: ١١٨

(١٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢١٠/١٢، ٣١٨

(١٥): الخوان سلا: لفظ معرب فارسي مركب من الخوان وهو الذي يوضع الطعام عليه من مشمع أو طاولة أو نحوهما، وسلا فارسي ومعناه المقدم، فيكون المعنى مقدم الخوان، وهو لقب رئيس الطباخين في المطبخ السلطاني انظر: القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧١/٥، ستيغانس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٨٠، ٦٩٢

(١٦): المقدار: وظيفة الخدمة في المطبخ وتأمين الطعام وحفظه وتقديمه، انظر القلقشندي: صبح الاعشى

و «الساقى»^(١٨) وغيرها .

كثرت المطابخ في العصر المملوكي ، فقد كانت للسلطان عدة مطابخ كما أن للامراء كذلك لكي يطعموا المماليك الذين تحت امرتهم فالجندي في الجيش المملوكي كان مطعما طالما هو في القلعة وأثناء السلم ، ويتناول طعامه في تلك المطابخ التي خصصت لهذه الغاية . وحين تدق طبول الحرب (الكوسات) كان السلطان يمنح المقاتلين المبالغ اللازمة ، النقود ويصرف لهم الطعام الناشف والعليق لخيولهم ودوابهم ، وكان عدد المطابخ يزيد عن ستين في جيش مصر وحدها وأشهرها اليسيري ، والأمير سيف الدين اكديمي ، والأمير فارس الدين اقطاي ، والذخيرة ، ومطبخ سيف الدين زيني^(١٩) أما أنواع الاطعمة التي كانت تحضر في هذه المطابخ فهي متنوعة وكثيرة إذ زاد الترف من التفنن بها زاد البطر من زيادة النفقة عليها والاسراف في تحملها الشيء الكثير . . . فقد كانت المطابخ لا تنطفئ أبدا وكان القائمون عليها يواصلون الليل بالنهار بنوبات كما زادت أنواع الاطعمة عن ستين وكان أهمها : السفرجلية والرمانية والمسكية والرومية والمكمور والحصرمية والسماقية والملوخية والبصما والقرنفلية والمطوقة وغيرها^(٢٠) ، وكان لهذه المطابخ أطقم كاملة من الاختصاصيين والمواد والعتاد^(٢١) ، كما كان يصرف فيها المال الكثير ، فلقد بلغت نفقة أحد المطابخ فوق العشرين ألف درهم^(٢٢) ، وكذلك فإن الاشربة كانت كثيرة أهمها اشربة الفواكه والسكر وشراب الزبيب الذي كان يدعى «التمر بغاوي»^(٢٣) وشراب «المزر الابيض»^(٢٤) المصنوع من القمح وهو كالبرية في الوقت الحاضر وهو

(١٧) : المهتار : لفظ فارسي مركب من مه وهو الكبير وتار بمعنى أفعال التفضيل فيكون المعنى المهتار الاكبر وهو لقب كل من يعمل في البيوت كمهتار الشراب خاناه . ومهتار الطرق خاناه . انظر القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٠/٥ ، ستيجاس : المعجم الفارسي الانكليزي ٢٧٤ ، ١٨٥٠

(١٨) : الساقى (السقاة) الذي يتولى سقي الماء وشراب التمر ، ورئيسهم يدعى (شاد الشراب) انظر ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥٨/١١

(١٩) : ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٥ ، ابن دقناه : الانتصار لواسطة عقد الامصار ٤١/١ ومابعدها

(٢٠) : ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٢٥

(٢١) : ابن عماتي : قوانين الدواوين ١٩

(٢٢) : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ٤٦٣/١

(٢٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٦٢/١٢

شراب العامة والجند وشراب «القمز»^(٢٥) نبذ يصنع من لبن الخيل وكان يبرس قائد طليعة الجيش إلى معركة عين جالوت يحب هذا النوع من الشراب.

التعيين العملياتي «وهو التعيين الذي يرافق الجندي أثناء القتال وفي التحرك» يتألف من «البقساط»^(٢٦) وهو عبارة عن خبز مجفف مثل التوست في الوقت الحاضر. وهذا النوع من الخبز استخدمه الجيش الايوبي قبل الجيش المملوكي في حروبه مع أعدائه^(٢٧) واللحم المقدد^(٢٨) الذي يوضع في مخللة من جلد يضعها المقاتل في حزامه على جانبه الايمن. يعوض التعيين العملياتي أو يجدد بعد استهلاكه من المحطات الادارية أو من الوسائط المحلية المتوفرة، وإن المقاتل المملوكي كان يملك مثل هذا التعيين في أثناء تحركه إلى القتال في معركة عين جالوت^(٢٩) ولا يتقيد الجندي في عدد التعينات كما تفعل الجيوش الحديثة اليوم وإنها كانت تحسب هاتين المادتين بكميات وبأعداد وبأوزان تختلف بها الواحدة عن الأخرى ويتناولها كوجبة (وجبات عند الحاجة والضرورة: أما في الجيش المغولي فإنه يركز على اللحوم بأنواعها، وكذلك على الحليب من الفرس، وكذلك الارز الذي يكثر في بلادهم فهم يتزودون به اثناء القتال ويأكلونه منقوعا أو مسلوقا. ويأكلون أيضا لحوم الصيد على اختلافه ولحوم الكلاب والفئران والسباع^(٣٠) كذلك كانوا يأكلون لحوم الخيل، وإذا احتاج المقاتل لقطعة من اللحم استخرجها من تحت السرج وأكلها، وإذا لم يتوفر معه من اللحم والارز عمد إلى ضرع الخيل فوضع منه، وعادة مايخمرون لبن الخيل ويصطحبونه معهم كشراب ويطلقون عليه «القمز»^(٣١) وهو نفس الشراب المستخدم

(٢٤): الحجازي وزملاؤه: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٣١

(٢٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٧٥/٧، ١٧٧، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٧٠٧/٢/١،

٦٣٥، ابن بطوطة: رحلته: ٣٦٥/١، الصقاعي: وفيات الاعيان ٢٧٣ ٥١ P. 273 Lone - Poole: A History of Egypt.

(٢٦): البقساط خبز يابس معروف، انظر ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦٣/٩،

الكلداني: الالفاظ الفارسية العربية ٢٥

(٢٧): ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ١٦٨

(٢٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦٨/٧

(٢٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦٨/٧

(٣٠): القرمانى: اخبار الدول وآثار الأول ٢٨٤، أسعد: بولو ١٢

(٣١): القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول ٢٨٣

في الجيش المملوكي كما كان المقاتل المغولي يتزود بالدقيق وبقرية النبيذ^(٣٢).

يتناول المقاتل المملوكي طعامه مجانا على حساب الدولة مهما كانت رتبته من الجندي وحتى الامير إذ ينحصر لكل واحد منهم وحسب رتبته يوميا المواد الناشفة والغضة من اللحم والزيت والخبز وغير ذلك من المأكولات كما يجدد لخليهم الشعير والعليق وماشابه ذلك^(٣٣)، كما أن هناك منحا طعامية مشابهة في المناسبات والاعیاد وشهر رمضان وفي نهاية التدريب الناجح. وفي بدء العمليات الحربية، والنجاح في المعارك وغير ذلك^(٣٤).

يجري تفقد الطعام من قبل القادة والمسؤولين، ويحظر على كل مقاتل أن يخرج للقتال بدون طعام، يتأكد القائد أثناء التفتيشات على الطعام من الكمية والنوعية ويأخذ بمقترحات العسكريين في تحسين وتطوير الكمية والنوعية معا، حتى إن القائد الاعلى كان يقوم بنفسه بهذه التفتيشات المفاجئة^(٣٥).

إن الطعام وأنواع المواد كانت متوفرة في أسواق ومدن مصر وفي الشام وكذلك في النيابات الاخرى، وبخاصة لحوم الدجاج ومن الاطعمة ماتكون جاهزة لاحتاج إلى تحضير، وبالطبع فإنها تسهل على المسؤولين، إدارة الطعام وتحصيل هذه المواد بكل يسر، وعلى الطعام الجاهز بكل أنواعه وأصنافه^(٣٦).

تحرك الجيش المملوكي من مصر، وكان تتوفر في طريق مسيره المؤن والوسائط المحلية والمياه إذ كانت فلسطين معروفة بكثرة خيراتها ومزروعاتها وفواكهها وكثرة سكانها، وكان قادة هذا الجيش يؤكدون المسير على هذا الطريق نظرا لتوفر الاحتياجات المادية، كان الجيش ينزل في كل محطة فيستريح بها ويعيد ملء أوعيته، ويتزود بالمؤن والعلف ويترك لخليله ووسائط نقله الفرصة للرعي وللشرب من تلك المناطق الخصبة^(٣٧) فإذا دققنا النظر في المدن الساحلية التي كانت تشكل محطات إدارية على طول تحرك الجيش المملوكي مثل عكا، صور، عسقلان، قيسارية

(٣٢): الهمداني: جامع التواريخ ٢٣٥/١/٢

(٣٣): المقرئزي: الخطط ٥٣/٣

(٣٤): المقرئزي: الخطط ٥٤/٣، مبارك: الخطط التوفيقية ١٣٤/١

(٣٥): المقرئزي: الخطط ٤٨/٣ ومابعدها.

(٣٦): أبو البقاء: نزهة الانام في محاسن الشام ١٠٤ ومابعدها.

(٣٧): ابن بطوطة: رحلته ٢٩٧، العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٧٩، العربي: المغول ٢٥٩

لوجدنا في سهولها وأراضيها الشيء الكثير من مصادر الامداد التي تحتاجها الجيوش^(٣٨)، كما أن الايوبيين والمماليك أكثرها من بناء الخانات التي كانت عبارة عن محطات يستريح فيها المقاتل ويأكل ويشرب ويتزود ثم ينتقل إلى الخان الذي بعده^(٣٩).

أدوات الطعام كانت كثيرة أهمها «القدر»^(٤٠) وعادة ماتكون مصنوعة من النحاس ويدل كبرها على كرم وعظم مستخدمها، كما تطعم الرجال المقاتلين في الفصائل والسرايا، و «الاثافي»^(٤١) وهي الالة المثلثة التي تعلق عليها القدر عند الطبخ وتكون من حديد، و «حياض الماء»^(٤٢) وهي من جلد تستخدم لسقي الدواب ووسائط النقل أثناء التحرك.

كلما اضطربت البلاد داخليا: أو حدث شيء يستدعي وجود مواد تموينية كان السلطان أو الامراء يخزنون بعض الاطعمة في قلاعهم أو في أمكنتهم التي يدافعون عنها، وأكثر ما يكون التخزين من الخبز المجفف والقمح والشعير والدقيق^(٤٣).

إن عليق الجمال وعلف الدواب كان مستأثراً اهتمام قادة الجيش المملوكي ولذا فإن هذه الكميات الكبيرة المخصصة لعليق الجمال والدواب كانت تحتاج إلى وسائط نقل كبيرة وأغلب العليق يكون من القول والشعير^(٤٤)، وفي الاحوال العادية وأثناء السلم وفترات الهدوء، وعند الاستراحات في المسير والتحرك كان الجيشان المملوكي والمغولي يرعون إبلهم وخيلهم في المروج الكبيرة كمرج ابن عامر الذي حطت فيها رحال الجيشين قبل اللقاء الاخير كما كان الجيشان ينقلان العلف من أماكن بعيدة^(٤٥).

(٣٨): المقدسي: صور التقاسيم في معرفة الاقاليم ١٦٣، خسرو: سفرنامه ١٥، ١٨، البغدادى: مراصد الاطلاع على أساء الامكنة والبقاع ٣٦٨/١، ابن بطوطة: رحلته ٨١/١، القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد

١٤٧/١

(٣٩): ابن تغري: النجوم الزاهرة ١٠/١١٠

(٤٠): القلقشندي: صبح الاعشى ١٣١/٢

(٤١): القلقشندي: صبح الاعشى ١٣١/٢

(٤٢): القلقشندي: صبح الاعشى ١٣٢/٢

(٤٣): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٢٢/٢/٢

(٤٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/١٢٢، ١١/٢٨٧، ٢٨٨، ١٢/١٠٧

(٤٥): ابن الفرات: تاريخه ٨٠/٧، الهمداني: جامع التواريخ ٢٥٣/١/٢

إن التزود بالمياه شيء ضروري في الجيش المملوكي عند تحركه فهو يملأ القرب الكبيرة والأوعية الأخرى كما كانت تحفر الأبار مقدما على طول طريق التحرك^(٤٦) والمياه مادة استراتيجية يلجأ القادة إلى قطعها عن الجيش الخصم ، أو يئس السم فيها ، أو يستولي عليها ويمنع أحدهما الآخر عن الاقتراب من الماء وهذا ما فعله قطز وبيبرس في معركة عين جالوت وكذلك في المعارك الأخرى السابقة واللاحقة^(٤٧).

٥ - الوسائط المحلية :

هي كل المواد والاعتدة المحلية المتوفرة في تلك المنطقة التي تركز فيها الجيش وتشتمل على جميع الأنواع والأصناف القتالية والإدارية من أسلحة وذخائر ومن طعام وملابس وغيرها ، عندما وصل الجيش المملوكي إلى عكا في طريقه إلى عين جالوت استفاد من العتاد والطعام والمياه والحاجيات الأخرى التي كانت متوفرة والتي كان يقدمها الفرنج ويسهلون وصولها إلى هذا الجيش ولما كانت عكا قاعدة إمدادية^(٤٨) فقد هيأت للجيش المملوكي استعاض جميع المواد التي استهلكها أثناء تحركه من مصر وحتى وصوله إلى هذه المنطقة وأن يسعف مرضاه . يضاف إلى ذلك أن السكان المحليين قدموا الاحتياجات والوسائط المادية بسخاء^(٤٩) وهذه الوسائط ساعدت هذا الجيش - على الأقل - في التفكير بأمد المعركة وابتعاد عن شح النقص في هذه الوسائط أو نفاذها أما الجيش المغولي فكان يعتمد اعتمادا كبيرا على المواد المتوفرة التي كانت معه كالغنم والبقر والخيول والمال . إذا جاعوا أكلوا من لحوم هذه الحيوانات وإذا عطشوا شربوا من الينابيع والأنهار الموجودة في تلك الأراضي ، وكذلك فإن وسائط نقلهم والخيول فإنها ترعى من الحشائش والأعشاب المحلية التي تنبت في الأراضي التي وصلوا إليها أو تركزوا فيها^(٥٠) ومن

(٤٦) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٩٠/٢/١

(٤٧) : البيهقي : ذيل مرة الزمان ٣٣/٢ ، ٣٤ ، كرد علي : خطوط الشام ١١٣/٢ ، تسيترشتين : تاريخ السلاطين المماليك ٣٠

(٤٨) : Rey - Ley Colonies Franques De Syrie Aux XII(me) Et XIII(me) Siecles Phges 196.279

(٤٩) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٣٠/٢/١

ابن جبير : رحلته ٢٩٣ ، العريبي : المغول : ٢٥٩ ،

(٥٠) : البغدادي : الافادة والاعتبار ١٢٦

الغريب أن دوابهم اعتادت على حفر الاراضي بحوافرها لتأكل من جذور النباتات وهم بهذه الحالة لا يحتاجون إلى امدادات أو قواعد مادية تنقل ما يحتاجون إليه أو إلى مستودعات يخزنون بها تلك المواد أو خطوط تتوفر فيها شروط النقل والصلاحيات الفنية للمسير عليها، كما لا يتعرضون إلى تأخير الامدادات أو انقطاعها أثناء العمليات الحربية^(٥١)

(٦) - اللباس :

لقد اعتنى الجيش المملوكي باللباس أيما اعتناء، والتفنن في الوشي والتطريز عليها وأضاف إليها الاشارات والعلامات التي كانت تميز الجندي عن الضابط الامير، ولونها بألوان زاهية يغلب عليها اللون الاصفر، وطعمها بالذهب المكثف وفي الحرب يضيف إليها الدروع والاسلحة الاخرى^(٥٢) وأهم هذه الالبسة :

(١) - لباس الرأس :

يلبس الجندي على رأسه طاقية صغيرة من الصوف الملون بأصفر مضرية بالقطن بخط عريض وفوقها عمامة دكناء وكانت تدعى «الناصرية» في أيام الناصر، ثم تغير لونها إلى الصوف ذي اللون الاحمر في عهد السلطان قلاوون، ثم لما ازدادا حجمها في زمن الملك الاشرف دعت «الطرخانية»^(٥٣)، للطاقي كلاليب تعقد تحت الذقن لتثبيت لباس الرأس كانت الطاقية عند المملوكي «كلوته»^(٥٤) وقد تسمى «كلفته»^(٥٥) والكلاليب «كلبنده» جمع كلاليب^(٥٦). أما العمامة فهي عبارة عن شاش من النوع الجيد يصنع في الاسكندرية يقال له

(٥١) : أسعد : ماركو بولو ١٢، الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ١٦٧/٢

(٥٢) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤/٩٩، المقرئ : الخطط ٣/٥٤، ٧٥، هندي : الجيش العربي في مصر عصر الفتوحات ٤١

(٥٣) : المقرئ : الخطط ٣/٥٥، الكلداني : الالفاظ الفارسية العربية ١١١

(٥٤) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧/٣٣٠، ابن شاهين الظاهري : زيد كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ٨١، دوزي الملابس عند العرب ٣٧٨

(٥٥) : ابن تغري : المصدر نفسه ١٢/٥٣، تونجي : المعجم الذهبي ٤٧٤، السيوطي : حق المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١/٢

(٥٦) : المقرئ : الخطط ٣/٧٥. سيتنجاس : المعجم الفارسي الانكليزي ١٠٩٦، تونجي : المعجم الذهبي : ٥٠٩، مبارك : الخطط التوفيقية ١/١٣٧، السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة

«الاسكندارني» وهو من الحرير المنسوج بالذهب^(٥٧)، لونه دخاني يلف حول «الكلوة» كانت العمامة صغيرة في بدء تكوين الجيش ثم زيد في طولها وبولغ في تطريزها وزخرفتها ونسجها منذ أيام دولة الاشرف شعبان بن حسين. وكان يطلق عليها تسميات كثيرة ومختلفة في كل حقبة أو في عهد كل ملك، ولقد بلغت قيمتها خمسمائة دينار عدا الحرير والغزل وطولها مائة ذراع وفيها رقعات منسوجة بالذهب^(٥٨)، أما شعر الرأس فكان مضافاً ومدلى خلف الجسم بأكياس حريرية ملونة^(٥٩)، وينسب هذا الحرير إلى ديق وهي بلد صغير في مصر وشاع استعمال الدبايق^(٦٠) والثياب «الدبيقية» وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون حلق الجند شعورهم تأسيا بالقائد العام الذي حلق عندما حج في أواخر أيامه، وبقوا على هذه الحالة حتى زوال المماليك، وكذلك كان المماليك يلبسون «الشربوش» وهي قبة يلبسها الأمراء بدلا من العمامة وقد بطل استعمالها فيها بعد^(٦١).

ب - لباس الجسم:

يلبس المملوكي على جسمه قباء جمعها أقبية وقد اختلف في أصل هذه الكلمة ف قيل أنها فارسية وقيل أنها عربية و(أنشد أبو علي القالي لأبي النجم: تمشُّ الراح في قبائه،) وقيل: أن أول من لبسه النبي سليمان بن داود^(٦٢) وهو ثوب يلبس فوق الثياب وللقباء عندهم تسميات عديدة تطورت وتغيرت مع تبدل الملوك فكان يعرف ب «السلاري» أيام الملك الناصر ومحمد وب «البنلطاق» قبل ذلك وكان لونه أبيض أو مخططاً بأحمر وأزرق ومرصعاً بالجواهر، للقباء أكرام ضيقة مثل زي الجندي الصليبي، ثم كان القباء الاطلسي المعدني في زمن الاشرف خليل^(٦٣)،

(٥٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٣٠/٧، المقرئزي: الخطط ٧٤/٣، الزبيدي: تاج العروس ٣٤١/٦

(٥٨): المقرئزي: الخطط ٥٤/٣، ٥٥، دوزي: الملابس عند العرب ٢٣٦ - ٢٤٠

(٥٩): مبارك: الخطط التوفيقية ١٣٧/١، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١٤٨/١/٢

(٦٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٣١/٧، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١١/٢

(٦١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٠١/٣

(٦٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٣١/٧، الزبيدي: تاج العروس ٢٨٦/١٠

(٦٣): المقرئزي: الخطط ٥٤/٣، ٧٤، مبارك: الخطط التوفيقية: ١٣٨/١، دوزي: الملابس عند العرب ٣٥٢ -

يشد القباء الذي هو على شكل معطف ويضمه على الجسم «كمر»^(٦٤) وهو الخزام المفرغ من وسطه لوضع الاموال في داخله وللكرم حلق و«ابزيم»^(٦٥) كما توضع الحوائص^(٦٦) على خواصر الجندي، وكان لها سوق يدعى سوق «الحوائصيين»^(٦٧) تباع فيه، ولهم قيم متفاوتة فجوائص الاجناد مثلاً بأربعمائة درهم فضة، ثم طورها الملك قلاوون فازداد سعرها ووصل إلى ثلاثمائة دينار للامراء والامراء الطبلخانات بمائتي دينار ولقدمي الحلقة بمائة وخمسين دينار^(٦٨) ثم صارت الحوائص فيما بعد من ذهب إذ أنعم الملك الناصر بحياصة من ذهب مرصعة بالجواهر للامير سلار^(٦٩)، ثم أضيف إليها حلقات من ذهب أو معدن مصفح بالذهب وهناك أنواع من الحياصات مصنوعة من الفولاذ^(٧٠)، أما البند فيربط من الجهة اليمنى وهو ذو ألوان مختلفة حسب رتبة الضابط وكان السلطان (القائد الأعلى) يلبس البند الاطلسي الأحمر^(٧١) وهناك بنود بعلبكية ملونة جميلة يربط المنديل بها^(٧٢).

أما المزودة وكان يطلق عليها «الصولق» جمع «صولق» وهي من جلد يضعها المقاتل ويعلقها في حزامه من الجهة اليمنى^(٧٣)، كما كانوا يطلقون عليها أيضاً «الجلواز»^(٧٤) وكان الجنود يضعون

(٦٤): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/١/٣٤٢، تونجي: المعجم الذهبي ٤٧٦، الحجاري: النجوم

الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٢٩

(٦٥): المقرئزي: الخطط ٢/٩٨، مبارك: الخطوط التوفيقية ١/١٣٨، الحجاري: النجوم الزاهرة في حلى

حضرة القاهرة ٢٩

(٦٦): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/١١١، المقرئزي: الخطط ٣/٧٦، القلقشندي:

صبح الاعشى ٢/١٢٧

(٦٧): مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٨

(٦٨): المقرئزي: الخطط ٣/٧٤

(٦٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/١١، ١٨

(٧٠): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٩/١٠١، ١٠/٧٤

(٧١): المقرئزي: الخطط ٣/٥٥

Magazine Orientalia Vol.IV/363

(٧٢): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٣٧٩، مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٨

(٧٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤/٤٠، ١٣٣

(٧٤): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/١١١، مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٨

الارغفة والفراغ وأنواع الاطعمة^(٧٥) وهي تتسع لنصف «وبية»^(٧٦) أما الجعبة وهي الكنانة التي يوضع فيها الشباب والقسي وفي بعض الاحيان السيف الثاني الاحتياطي إن كان مع الفارس سيفان^(٧٧) وكانوا يطلقون عليها اسم «تركاش»^(٧٨)

جـ - لباس الرجلين :

هو الخف ويكون من جلد الفرس مبطناً بجلد ذئب، وقد اشتهر عند المقاتلين المماليك «الخف البلغاري»^(٧٩) وهو من الصوف يلبس فوقه خف مبطن من الكتان ويخفف في الصيف فلا يلبس الصوف من الداخل، وقد يطلقون على الخف «سقمين»^(٨٠) جمع «سقامين» وهو خف فوق خف، كما ويلبسون المهماز على الاخفاف وهو من حديد، ثم صار من فضة، ثم من الذهب الخالص وقد يكون بكواح من ذهب^(٨١).

وهكذا فإن لباس الجندي بالكامل قباء تتري، وفوق هذا القباء تحشد الاسلحة، وعلى الرأس الكلوة وفي الرجلين الخف^(٨٢)، ويتميز الامراء بالحياصة التي يلبسونها إذ تكون مطرزة بالذهب أو بغيره حسب رتبة الامراء^(٨٣) وقد أشار إلى هذا اللباس الرحالة (هاتف) عندما شاهد بعينه السلطان والمماليك من حوله بقوله: «على الرأس عمامة لفت حوله طاقية، وعلى الجسم لباس فضفاض ذو أكمام واسعة وعلى خصره كمراة بحلق وابزيم، وفي رجله خف يقال له

(٧٥): تسيتر شتين: تاريخ السلاطين المماليك ٢٧

(٧٦): السوية اثنان أو أربعة وعشرون مداً، وهذه اللفظة مولده استعمالها أهل الشام ومصر وأفريقية. والمدج أمداد وهي ملء كف الانسان المعتدل إذ املاها انظر الزبيدي: تاج العروس ١/٥٠٩، ٢/٤٩٨، ٧/١٨٠، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١١/٢.

(٧٧): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٣٧١، ابن بطوطة رحلته: ٢/٦١٢

(٧٨): تركاش كلمة فارسية بمعنى الكنانة أو الجعبة. انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٩/١٤١، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/٨١١، ابن بحيمى: تاريخ بيروت ٦٥

(٧٩): ابن بطوطة: رحلته ١/٣٩٣، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١١/٢.

(٨٠): مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٨

(٨١): المقريري: الخطط ٣/٥٥، Magazine Orientalia Vol. IV/363

(٨٢): المقريري: الخطط ٣/٥٤، زكي: الجيش المصري في العصر الاسلامي ٢٠

(٨٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٢/١٢٧

السقمان» وهو من الجلد البلغاري الاسود وفي وسطه من الامام سيف معلق إلى اليمين^(٨٤)
د - لباس المراسم :

وهو «الطرز وحش» وهي كلمة مركبة وتعني الثياب التي يلبسها الامراء الخاصون وقادة الجند
المقربون وهي على شكل جلد الوحش ، مطرزة بألوان مذهبة وهي من جوخ سندس وأطلس
ذات ألوان وأنواع مختلفة تتناسب مع رتب الامراء ، فالاطلس الاول مثلا كان للامراء من رتبة
كبيرة والاطلس الثاني لمن دونهم وهكذا للرتب الاخرى^(٨٥) لقد غير السلطان المنصور قلاوون
تلك الالبسة إلى ألبسة جديدة وعدل كثيراً من المهفات التي كانت في دولة الايوبيين^(٨٦) كما
أضاف الملك أشرف على العمامة علامة خضراء لكل الاشراف من عائلته في جميع اراضي
المملكة، وصار يعرف الشريف من هذه العلامة، وقد امتدح الشعراء تلك العلامة واثنوا على
الملك الاشراف واعتبروا ذلك شيئا عظيما^(٨٧) وأضاف أيضا إلى مقدمي الممالك السلطانية قباء
أزرق مطرزا، وإلى مقدمي الالوف الخاصكية أقبية حرير فروسمور باطواق من هذا الفرو
ومزركشة ومطرزة، وإلى أمراء (الطلبخانات) والعشرات أقبية حرير مطرزة بفراء مختلف^(٨٨)،
وكان للسلطان تاج يلبسه في المواكب والمراسم والتشريفات مكان العمامة التي تلبس في الايام
العادية، وللتاج جوهرة نفيسة تدعى اليتيمة زنتها سبعة دراهم وحوها جواهر أخرى دونها^(٨٩).
لقد كان اللباس متقاربا ومتشابها فيما بين الملوك وبين من سبقهم من الايوبيين إلا في بعض
التغيرات التي لاتبدل شيئا من شكل اللباس .

هـ - مهفات العسكري الفردية والجماعية :

تلك ملابسه التي تكلمنا عنها، والتي تتعلق بلباس الرأس والجسم والرجلين . وهناك مهفات

(٨٤) : الباشا : القاهرة تاريخها فنونها، آثارها ٨٢

(٨٥) : المقرئزي : الخطط ٧٤/٣

(٨٦) : السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٠٠/٢ ، مبارك : الخطط التوفيقية ١٣٥/١

(٨٧) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١٩٩/١/٣ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من

ذهب ٢٢٦/٦/٣ ، الشرقاوي : تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٣٨ ، الجبرتي : عجائب
الاثار في التراجم والاخبار ٣٥ ، ٣٤/١

(٨٨) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥٨/١١

(٨٩) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٢/٣

أخرى^(٩٠) كما يطلقون عليها اليوم وأهمها: الخيم وهي ماكانت تصطحب في القتال وفي الانتشار وفي المعسكرات وفي السفر^(٩١) وهناك خيمة تسمى «القائول» خاصة بالسلطان طول عمودها سبعون ذراعاً بأعلاه سفرة فضة تسع راوية ماء وسعتها كبيرة^(٩٢) أما المغول فكانت خيمتهم من الصوف وهي تتألف من عدة عصي مربوط بعضها ببعض يغطيها القماش السميك، وهي قابلة للنشر والطي في مدة زمنية قليلة يقوم بصنعها النساء^(٩٣)، أما خيمة الامبراطور وخاصة القائد الاعلى للجيش المغولي فإنها واسعة، وبابها الى الجنوب، إلى جانب هذه الخيمة الكبيرة خيمة يستقبل فيها القائد المغولي كل من أراد أن يبيت إليه حديثاً خاصاً، أما بقية الخيم فهي موزعة ومنصوبة بصورة منظمة^(٩٤).

والفوانيس: وهي تشبه فوانيس اليوم القديمة تضيء الدرب أمام الجيش المتحرك ليلاً أو أمام القائد العام^(٩٥)، والمشاعل: وهي آلة من حديد توقد بالحطب كالشعلات التي نشاهدها في المهرجانات توقد بالمازوت، ومهمتها كمهمة الفوانيس^(٩٦).

والحزكاه: وهوييت مصنوع من خشب كما تصنع الان البيوت المسبقة الصنع التي هي من صنع الاشغال العسكرية في الوقت الحاضر وكانت تستخدم لايواء العسكريين، وتبطن بالجوخ ونحوه، وتستخدم هذه البيوت في السفر والعمليات الحربية^(٩٧).

ظهر الجيش المملوكي بكامل ألبنه الأنفة الذكر في معركة عين جالوت عند شروق الشمس ولعب السلاح الحربي واللباس القتالي وبرزت الفرسان والتقى الجيشان^(٩٨).

(٩٠): القلقشندي: صبح الاعشى ٣٩/٤، ومابعدها، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١٧٢/٤

(٩١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٩٧/٧، ٢٩٩، القلقشندي: صبح الاعشى ١٣١/٢

(٩٢): سميت الخيمة بهذا الاسم لان فراشا سقط منها فبات انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٥/٣

(٩٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٥/٣

(٩٤): أسعد: بولو ١٢

(٩٥): أسعد: بولو ٥٠

(٩٦): القلقشندي: صبح الاعشى ١٣٠/٢

(٩٧): القلقشندي: المصدر نفسه ١٣١/٢

(٩٧): القلقشندي: المصدر نفسه ١٣١/٢

(٩٨): القلقشندي: المصدر نفسه ١٣١/٢، ستينجاس: المعجم الفارسي الانكليزي ٤٥٦

٧ - الخدمة الطبية .

نقسم الخدمة الطبية أيام الممالك إلى طب ميداني وأهلي وطب خاص . فأما الطب الخاص فكان مقتصرأ على الملوك والامراء وقادة الجند حيث كان لكل واحد منهم عدد من الاطباء الذين يشرفون على مرض الملك وحاشيته وأولاده، ومثل هذا النوع فإن أطباءه من الاطباء الذين لهم شهرة واسعة وخبرة كبيرة، كذلك كان العتاد والمشافي، وإذا خرج القائد إلى القتال كان يصطحبه الطبيب الخاص به^(٩٩)، وأما الطب الأهلي فكان متطورا فيه المشافي الكثيرة ذات الاختصاصات المتعددة كالجراحية والدخلية والعينية والبولية والجلدية، ومنها الاطباء الاختصاصيون^(١٠٠) منهم طبيب العيون ابن حمدان الحنبلي^(١٠١) وابن أبي أصيبعة الذي كان علامة في الطب وله مؤلفات كثيرة في هذا المجال أشهرها «طبقات الأطباء»^(١٠٢) والشيخ أمين الدولة يعقوب بن القف وعز الدين طرخان والحكيم شمس الدين الكلي^(١٠٣)، وأما الطب الميداني فهو الذي كان يرافق الجيوش والحملات إلى مختلف الجهات لمعالجة الجنود وتضميد جراحهم والاشراف على صحة قائد الجيش أو الحملة ويكون الطبيب أثناء تمرکز القوات بجانب القائد، وعند الاشتباك تراه يحضر نفسه لاستقبال الجرحى .

وقد كان الطبيب ابن المطران مرافقا للسلطان صلاح الدين في غزواته ومسؤولا عن الخدمة الطبية الميدانية، وتحت تصرفه مجموعة من الممرضين والاختصاصيين يساعده ويعملون حسب توجيهاته وكذلك الطبيب الحافظي الذي لازم الملك المظفر قطز عند الاستيلاء على دمشق وطرد التتر منها^(١٠٤) والطبيب رشيد الدين ابن أبي حليقة الذي كان طبيب الملك الظاهر بيبرس ومن قبله الملك العادل الأيوبي^(١٠٥) .

(٩٩) : Magizine Orientalia Vol. IV/ 363

العبادي : قيام دولة الممالك الأولى في مصر والشام ٥٦ ومابعدھا .

(١٠٠) : عيسى : تاريخ البيهارستانات في الاسلام ١١ ومابعدھا .

(١٠١) : عيسى : تاريخ البيهارستانات في الاسلام ١٠، ١١، المؤسسة المصرية العامة - القاهرة في ألف عام ٢٣

(١٠٢) : الكتبي : فوات الوفيات ٣٧٨/١، ٤٣/٢، البستاني : دائرة المعارف ٥١١/١

(١٠٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧

(١٠٤) : الكتبي : فوات الوفيات ٣٧٨/١، الصفدي : الوافي بالوفيات ٣/٢

(١٠٥) : ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ٦٥٢، ٦٦٩

لقد حل بالبلاد الشامية أوبئة راح ضحيتها أكثر السكان بما فيهم المقاتلون وذلك في سنة ١٢٥٨/٦٥٦ قبل معركة عين جالوت، ومع ذلك كان الجيش المصري قادرا على حسم المعركة، ولم يعتمد قطز إلا على الأقوياء والأصحاء من بلاد الشام الذين ساهموا مساهمة فعالة في القتال، وقد مات إثر هذا الوباء أناس كثيرون وشخصيات كبيرة كالصاحب بهاء بن يحيى المهلبى كاتب إنشاء الملك الصالح^(١٠٦)، كانت تحدث مثل هذه الأوبئة في أوقات مختلفة يموت من جرائها آلاف الناس من البلدان التي تقع تحت الحكم المملوكي مثل دمشق، حمص، عجلون، بيت المقدس، غزة، المحلة الكبرى، الاسكندرية القاهرة^(١٠٧)، قد تنتشر الامراض والوبئة بعد المعارك الكبيرة مباشرة، والتي يحدث فيه الكثير من القتلى الذين يتفسخ أجسادهم وتنتشر روائحها^(١٠٨).

أما في معركة عين جالوت فقد قتل من الطرفين أعداد كبيرة إلا أن الجيش المملوكي سارع إلى دفن الجثث بعد انتهاء القتال ولم يتركها كما تركها المغول في بغداد وغيرها من المدن التي فتحوها^(١٠٩).

بلغت الخسائر الطبية وعدد القتلى في الجيش المغولي حوالي نصف الجيش، وبلغت الخسائر في الجيش المملوكي نسبة أقل لا تتجاوز ٧٪ وقد بلغت النسبة الكبيرة في الجيش المغولي عندما انهزم وانسحب من المعركة وخرجت عليه الكمائن على طريق انسحابه وأثناء المطاردة وفي كل الأحوال فإن الخسائر في اليوم الأول من المعركة كانت أقل من الأيام التي تلت^(١١٠).
وسائط إخلاء المرضى والجرحى إلى المشافي الاختصاصية كانت الجمال التي تحمل «المحفة»^(١١١) التي هي عبارة عن محمل أعلاه قبة وله أربعة سواعد، ساعدان من الامام وآخران من الخلف وتكون المحفة مريحة للجريح عند إخلائه لمسافات طويلة.

(١٠٦): ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء من طبقات الاطباء ٥٩٠ ومابعدها، الصقاعي: وفيات الاعيان ٤٣، ٤٤، ابن الفرات: تاريخه ١١٢/٧

(١٠٧): ابن الوردي: تاريخه ٢٨٧/٢، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١٧٤/١

(١٠٨): ابن بطوطة: رحلته ٧٤٩/٢ ومابعدها، الشهابي: تاريخه ٤٣٨

(١٠٩): ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٣١، العزاوي: تاريخ العراق ٤٠/١

(١١٠): البغدادى: الافادة والاعتبار ١٣٩

٨ - المستودعات :

هي الأمكنة المعدة لتخزين المواد والعتاد وحفظها واستلامها وتوزيعها وتوجد هذه المستودعات فقط على مستوى القاعدة وهي مركزية ، ولا توجد مستودعات على مستوى الجيش أو مستوى التشكيلات المقاتلة ، وأهمها :

أ - مستودعات الاسلحة : وهو مايعبر عنه «خزانة السلاح» أو «السلاح خاناه» أو «الزردخاناه»^(١١٣) وفي هذا المستودع تخزن الاسلحة المختلفة من الدروع ذات الزرد والرماح والسيوف والقصي والنشاب والخنود وجميع الأنواع الأخرى التي كانت مستخدمة آنذاك وهي على درجات من الجودة والزخرفة ونسب الذهب الداخلة فيها^(١١٣) وللمستودع خازن وصانع وعدد من الجنود يشرفون على صيانتها وإصلاح الاسلحة وتجديدها إذا دعت الضرورة^(١١٤) ، وكان يطلق على أمين المستودع أو الخازن «خاناه» وعلى صانع هذه الاسلحة «الزردكاش»^(١١٥) هذه المستودعات كانت موزعة في مصر لدى السلطان والامراء وقادة الجند^(١١٦) ، وكذلك كانت القلاع مستودعات للأسلحة والذخائر وغيرها من الوسائط المادية^(١١٧) .

ب - مستودعات الاطعام : يطلق على هذا المستودع «خزانة الطعام» أو «الحوائج خاناه» يحتوي على الارزاق الناشفة وكل ما يحتاجه العسكري من سكر وحبوب وزيت وغيرها أما الارزاق الغضة فإنها تأتي وتشترى بحسب الحاجة اليومية^(١١٨) وكانت مخازن الحبوب منتشرة في مصر

(١١١) : الشرقاوي : نخبة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والساطين ١٢٦

(١١٢) : القلقشندي : صبح الاعشى ١٣٠/٢

(١١٣) : الزرد والزردية ثوب ينسج من الحديد ويلبس في الحرب وقاية من سلاح العدو وخاناه بيت السلاح انظر القلقشندي : صبح الاعشى ٧٨/٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٣٢/٤ ، ٨٠ ، التونجي : المعجم الذهبي ٢٣٣ ، الكلداني : الالفاظ الفارسية المعربة ٧٧

(١١٤) : القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٧/٣ ، المقرئ : الخطط ١/٤٠٧ ، ٤١٧ ، ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ٦٤

(١١٥) : القلقشندي : صبح الاعشى ١١/٤

(١١٦) : انظر كتاب الانيق في المناجيق للزردكاش ، زكي : السلاح في الاسلام ٣٠

(١١٧) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٠/٦٩

(١١٨) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٠/٢٧

والولايات الأخرى التابعة ويطلق عليها «الأهراء»^(١١٩).

ج - مستودعات المهيات : يطلق عليها «الطشت خاناه»^(١٢٠) فيها من جميع أنواع المهيات المختلفة والالبسة العسكرية والخلع والاقمشة الفاخرة^(١٢١).

د - مستودعات المفروشات : أما أن تلحق هذه المستودعات بمستودعات المهيات كما نراها اليوم في بعض الجيوش العالمية، وأما وأن تكون مستقلة - عندما تحتوي على مواد كثيرة ومتعددة كما كانت في الجيش المملوكي وكان يطلق عليها «الفراش خاناه»^(١٢٢) وفيها الخيم والبسط والسجاد والمفروشات الأخرى أو كانوا يسمونها «خزانة الفرش» لهذه المخازن كما لغيرها رئيس وعدة فراشين يقومون أيضا بما يترتب عليهم من أعمال الحفظ والصيانة والتسليم والاستلام^(١٢٣).

هـ - مستودعات الرواحل : وهو ما كان يعبر عنها «خزانة السروج» أو «الركاب خاناه» وتحتوي على عدة الخيل من سروج ولجم وكنابيش ومهاميز وركاب ومقارع وغيرها وهي تخص الأمير والعسكري، وفيها درجات منها العادي ومنها المذهب^(١٢٤)، ويلحق بهذه المستودعات الاصطبلات التي كان من مهمتها إيواء الخيول والدواب الأخرى والمحافظة على صحتها وإبقاؤها في حالة جاهزية كاملة عند إعلان الحرب والتعبئة، وسرعة تحضيرها وتجهيزها عندما تدعو الحاجة لاستخدامها، وسهولة الإشراف عليها، وتقديم الطعام والشراب والخدمة البيطرية، للاصطبلات جهاز خاص أعلاه أمير آخور يشرفون على الخيل ويعتنون بها ويحافظون عليها منهم البيطري والسقاء والسواس والهجانة للهجن والمكارية للبالغ والواجبة والسلاخورية وغيرهم وقد اختص كل واحد منهم بمهمة أو وظيفة^(١٢٥).

(١١٩): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٦/٣، المقرئزي: الخطط ٤٢٠/١، ابن شاهين الظاهري: زبدة

كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٢٤ (١٢٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٣/١٢

(١٢١): لفظ عربي فارسي مؤلف من الطست وهو الوعاء الذي يغسل فيه وخانه وهو المخزن فيكون المعنى

بالكامل مستودع المهيات أي الملابس انظر القلقشندي: صبح الاعشى ٤٦٩/٥، الكلداني: الالفاظ الفارسية

المعربة ٧٧

(١٢٢): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٦/٣، المقرئزي: الخطط ٤٠٩/١، ٤٢٣

(١٢٣): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٧/٣، المقرئزي: الخطط ٤٢٦/١، ٤١٨

(١٢٤): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٢٤

(١٢٥): القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٧/٣، المقرئزي: الخطط ٤١٨/١

و- مستودعات (الادوية) الاشربة : وكانت تدعى «خزانة الشرب» أو «الشراب خاناه» وفيها أواني الشرب والكؤوس والفضيات والمربيات والعطريات والاشربة المختلفة^(١٢٦).

ز- المستودع الخاص : وهو الذي كان يطلق عليه «خزانة التجميل» وهو خاص بالسلطان أو الامير أو الوزير وفيه جميع ما تحتاجه المواكب والاستعراضات^(١٢٧)، وهو في الوقت الحاضر لا يوجد مثل هذا المستودع في القوات المسلحة إنها يمكن أن توزع محتوياته على باقي المستودعات.

ج- مستودعات الكتب : فيها كتب قيمة، تحتوي على أنواع العلوم وبخاصة المصاحف والتفاسير التي توضع في أدراج منظمة ومبوبة ومفهرسة^(١٢٨).

لاتتحرك هذه المستودعات المذكورة خلف القوات المسلحة أثناء القتال إنها يستطيع السلطان أو الامير أن يجهز جنوده بما يلزمهم لأول مرة ثم يتوجه إلى المعركة بسلاحه وعتاده القتالي وطعامه العملياتي وملابسه الحربية هذا فيما إذا تحرك الجيش لمسافات طويلة كما حدث في معركة عين جالوت. ثم تحمل الجمال والبغال الاحتياط المتحرك الذي يستهلك أثناء التحرك وأثناء القتال، إذا صادف أن نفذت هذه التموينات فإنهم يستعينون بالوسائل المحلية المتوفرة كما حدث أن تزودوا قبل القتال من مدينة عكا بما يلزمهم (وأما إذا كان الجيش في وضع دفاعي كما حدث للمليك في الأيام الأخيرة عندما اندحروا من قبل العثمانيين والتجأوا إلى القاهرة فإنهم في هذه الحالة كانوا يتمنونون كلما سنحت لهم الفرصة من هذه المستودعات.

٩- الرواتب والتعويضات :

هي المبالغ والمواد المخصصة للمقاتل وتدفع من خزينة الدولة وللرواتب ديوان يتولى شؤون التسجيل ومنح الاكراميات والأعطيات^(١٢٩)، تصدر الرواتب بمشور سلطاني يحدد الرواتب والطعام والعليق والخيل والملابس والتعويضات الأخرى^(١٣٠)، تخفض الرواتب وتزداد تبعاً للظروف المالية والاقتصادية والحربية. وفي كل الأحوال فإنه عند دخول المملوك إلى الجيش يحدد له بأقل ما يمكن من الدنانير، إذ يكون راتبه ثلاثة دنانير ثم ارتفع إلى خمسة ثم إلى سبعة ثم

(١٢٦): ابن ممتي : قوانين الدواوين ١٩

(١٢٧): القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٦/٣، المقرئزي : الخطط ٢٠/١

(١٢٨): القلقشندي : المصدر نفسه ٤٧٧/٣، المقرئزي : المصدر نفسه ١٤/١

(١٢٩): القلقشندي : صبح الاعشى ٤٧٥/٣

(١٣٠): القلقشندي : المصدر نفسه ٩٢/٣

إلى عشرة، وذلك حسب رتبته وقدمه هذا بالإضافة إلى ما يخصص للجندي من طعام أغلبها من اللحم وأنواع المأكولات الأخرى^(١٣١) وكانت الرواتب السنوية كما يلي:

- أمير مئة ومقدم ألف من ثمانين ألف إلى مائتي ألف دينار أو أكثر وذلك حسب وظيفة الأمير وقدمه.

- أمير طبلخاناه من ثلاثة وعشرين ألف إلى ثلاثين ألف دينار.

- أمير العشرين والعشرة يصل حتى سبعة آلاف دينار.

- مقدم حلقة الاجناد يصل حتى ألف وخمسمائة دينار.

- الجندي (بابات)^(١٣٢) لا يتجاوز راتبه مائتين وخمسين دينار.

- أولاد الامراء يخصص لهم راتباً من حين ولادتهم وغير خاضع للاحكام المرعية الاجراء^(١٣٣)

إن أكبر الرواتب كما يتبين يتقاضاها الامراء والخاصية والنواب والوزراء ثم الامراء الخرجية تبعاً لمستوى قياداتهم العسكرية ثم الكشاف فمقدمو المالك السلطانية فمقدمو الحلقة فنقباء الالوف فالبايية، للرواتب حد أعلى وحد أدنى تبتدأ بالادنى ثم تتدرج بالارتفاع^(١٣٤)، هذا الراتب يسلم نقداً، أما الراتب فيسلم لامراء المثين أصحاب الخيول المرسجة ثم أصحاب الخيول العادية. ويوزع السلطان الخيول مرة عندما يخرج إلى مرابط الخيل في الربيع ومرة عند لعبة الكرة بالميدان^(١٣٥)

يخصص للأطباء الخاصين بالسلطان راتب شهري يقدر بخمسين ديناراً، وللأطباء في المستشفيات الثابتة أو الميدانية خمسة عشر، وللذي لديه وظيفتان بثلاثين ديناراً وقد تبلغ رواتب بعضهم ألف درهم وتعويضات سنوية يتلقاها الطبيب قد تصل إلى عشرة آلاف درهم^(١٣٦).

ولا يتلقى المملوك الكتابي أي راتب أو تعويض أو سلاح أو غيره خلال تدريبه أو تعليمه في

(١٣١): المقرئ: الخطط ٥٣/٣

(١٣٢): البابا: لفظ روحي يطلق على كل من يعمل الاعمال البيتية كالغسيل والتنظيف والامور الأخرى. انظر

القلقشندي: صبح الاعشى ٥٧١/٥

(١٣٣): المقرئ: المصدر نفسه ٤٨/٣ - ٥٠

(١٣٤): المقرئ: المصدر نفسه ٥٣/٣ - ٥٤

(١٣٥): المقرئ: المصدر نفسه ٥٧/٣ وما بعدها. ابن طولون: مفاكهة الخلال في حوادث الزمان ٢٠/٢

(١٣٦): المقرئ: المصدر نفسه ٥٣/٣، ٥٤

الطباق، إلا أنه يستفيد من الامور الادارية الاخرى كالا طعام والملابس والنوم والمسائل الاخرى الضرورية لحياته ومعيشته ولكنه وفي أحوال إستثنائية يمكنه أن يتقاضى راتباً وذلك في الازمات السياسية وعند حاجة السلطان لقوة تدافع عن النظام، فيأمر بتخريجهم قبل انتهاء فترة تدريبهم المقررة ويلحقهم بالتشكيلات المقاتلة، وكذلك فإنهم يتخرجون في الازمات الاقتصادية والمجاعات والابوثة، أما إذا تخرج بحالته الطبيعية فإنه يتقاضى راتباً كغيره من الممالك^(١٣٧).

كانت الرواتب تؤخر على العسكريين مدة شهرين إما لعدم وجود أموال أو لإهمال بعض المسؤولين وكان الجند في كل الأحوال يثيرون شغباً ويطالبون برواتبهم علناً وأمام قادتهم وروؤ سائهم^(١٣٨) وفي بعض الاحيان كانت تعجز الدولة عن دفع الرواتب لكثرة نفقات الخدم والحواشي ولاخذها أموال الناس بالباطل^(١٣٩) وبسبب النقص في الموارد وكان الملوك يشهدون دفع الرواتب^(١٤٠)، كما كان يقطع الراتب في حال غياب الجندي بدون إذن أو مبرر قانوني عن مدة الغياب^(١٤١)، كما كان يقطع جزء من الراتب في حال حصول الجندي على إقطاع، فإذا كان راتب الجندي ألف دينار أقطع بعد ثلاثة أشهر فإنه يحسم من الراتب إجرة ربع السنة أي مائتان وخمسون ديناراً^(١٤٢).

تختلف رواتب جند المغول عن الجنود والممالك وكذلك العملة، فأمر تومار يتقاضى راتباً عشرة آلاف دينار وأمير أكثر من تومار أي قائد فيلق كما نسميه في الوقت الحاضر يتقاضى عشرين ألف دينار أما قائد اللواء (قائد ألف فيتقاضى ألف) وباقي الامراء والجند فإن رواتبهم تبلغ مائة دينار^(١٤٣).

-
- (١٣٧): القلقشندي: صبح الاعشى ٥٢٥/٣، عيسى: تاريخ البيارستانات في الاسلام ٢٤
(١٣٨): ابن تغري بردي: النهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١٣/٢، ٢١٧، ٣٢١، ٣٥٤/٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٠٢/٥، ٦٥٠/٧، ابن الفرات: تاريخه ٦٧/٩، السخاوي: الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ١٩/٣، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٩٣/٤، ٤٣٠
(١٣٩): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١١١٣/٣/٣
(١٤٠): المقرئزي: المصدرن فسه ٧٢٤/٣/٢
(١٤١): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢٤/٣
(١٤٢): ابن مماتي: قوانين الدواوين ٢١
(١٤٣): ابن مماتي: قوانين الدواوين ٢٠

إن النظام في القوات المسلحة المملوكية يقضي أن تدفع الدولة إلى كل عسكري من مختلف الرتب منحة مالية عند إعلان الحرب والمباشرة بالأعمال القتالية ويختلف مقدار هذا المبلغ تبعاً للمهمة المكلف بها أفراد هذا الجيش وقوة وطبيعة العدو والمسافة والمدة الزمنية المتوقعة للعودة إلى البلاد، وقوة البلد الاقتصادية وتوفر الأموال اللازمة، والوظيفة والرتبة فكان أمراء الألوف مبالغ كبيرة ثم يأتي بعدهم أمراء الطبلخانات ثم أمراء العشروات ثم الخمسوات ثم الجنود، وكان التفاوت كبيراً ما بين الأمراء والجنود في هذه الاعطيات إذ تبلغ عشرات الأضعاف^(١٤٤)، هذه المنحة تشكل التموين الأساسي للمقاتل حيث يستطيع أن يشتري بها معه من القرى أو المدن التي يمر بها من الوسائط المحلية المتوفرة كما حدث تماماً للجيش المملوكي عندما اشترى احتياجاته من عكا قبل بدء القتال^(١٤٥)، وكذلك كان على طول الطريق وكان العادة أن يقدم السكان المحليون هذه الاحتياجات لقاء دفع الثمن نقداً، ومن الخطأ أن يعتمد هذا الجيش على تلك القاعدة في تموين تشكيلاته المقاتلة إذ سيصاب بضربة إذا امتنع هؤلاء السكان عن تقديم أي شيء وكذلك فإن تفكير المقاتل بطعامه وكسائه وأموره الإدارية يحرفه عن المهمة القتالية المكلف بها ولكن هذا الجيش يجد المبرر عندما يجد أن حركته ومناورته في الميدان تكون أجدى فيها لوجروراء ذيل إدارياً كبيراً وكذلك فإنه كان يتحرك في الطرق ويمر في المدن أو المحطات الموالية التي لا تجد غضاضة في تموينه وتقديم المساعدة الإدارية له وهذا النظام المالي كذلك كان متبعاً في الجيش المغولي حيث يعطى لكل واحد منهم مبلغ من المال وبنفس الوقت يعطى لامراء الجيش وقادته مبالغ كبيرة احتياطية يصرفونها وينفقونها على المقاتلين لتأمين احتياجاتهم الكاملة^(١٤٦).

إن أعلنت الحرب فعلى المقاتلين وكل واحد قادر على حمل السلاح أن يلتحق بالجيش وأن يلبي نداء السلطان، إلا أن هناك بعض المتخلفين لأسباب قاهرة يضطرون للتخلف، فإن

(١٤٤): الفلقشندي: صبح الاعشى ٤/٢٥٥

(١٤٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٢٦٧، ٣٦١، الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٢/٧٨، الحلبي: تحفة الظرفا في مناقب الملوك والخلفاء ٧٥٦، بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٩٩

(١٤٦): Rey-Les Solonies Famques De Syrie Aux XII(me) Et XIII(me) Siecles Pages 19, 279

ابن جبير: رحلته ٣٩٢، العربي: المغول ٢٥٩

(١٤٧): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢٣٨

تختلف المقاتل المملوكي فعليه غرامة نقدية يختلف مقدارها من نفرة إلى نفرة، ومن زمان إلى زمان ومن سبب إلى سبب، وهذه المبالغ كانت تجمع وتصرف لصالح الجيش الذي خرج للقتال^(١٤٧).

إذا ألغيت التجربة، وكان الجنود قد استلموا هذه المنحة، فإن السلطان يأمرهم بردها كليا وجزئيا، وترد على مضض، وإذا صادف أن صرف منها العسكري شيئا فإن هذا المبلغ المصروف يقتطع من راتبه^(١٤٨).

(١٠) - الغنائم:

لقد غنم الجيش المملوكي في معركة عين جالوت الشيء الكثير من أهمها: الخيول والأسلحة والاعتدة القتالية^(١٤٩)، إن هذه الغنائم تشكل مصدرا تموينا للجيش المملوكي وكذلك فإن الجيش المغولي يعتمد عليها اعتمادا كبيرا ويعتبرها مصدرا مهما من مصادر التموين وتوزع بدون نظام وبمعرفة القائد العام^(١٥٠)، أما الجيش المملوكي فتقسم الغنائم بين الأفراد كما نصت عليه الأحكام الإسلامية، للفارس سهم وللفرس سهمان^(١٥١)، وكان الظاهر ببيرس يقسم الغنائم بعد القتال ويشرف بنفسه على القسمة، ويحذر من أخذ شيء من الغنائم، وكان يحلف الأمراء والمقدمين على ذلك وكان يعاقب كل من يخالف ذلك النظام حتى ولو كان في منصب ورتبة عالية ولا يبقى لنفسه أحيانا^(١٥٢).

يعامل الأسير حسب الحالة، فإذا أن يمن عليه، أو أن يقتل، وكان المالك يميلون في أكثر الأحيان إلى القتل كما فعل ببيرس في معركة عين جالوت والمعارك التي حدثت من بعد مع الصليبيين عند الاستيلاء على طرابلس^(١٥٣).

(١١) - النقل:

يجري الامداد وتحمل الوسائط المادية من مختلف الاحتياجات على الجمال والبغال والحمير في

(١٤٨): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٨/٣، ٢٢، ٢٣، ٢٦

(١٤٩): ابن إياس: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١٢٦، ابن إياس: بدائع الزهور في

وقائع الدهور ٣٠٦/١

(١٥١): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢، ٢٥٥، ٣٠٠

(١٥٢): الدمياطي: مخطوطة فضائل الخيل ٢٣٣. وما بعدها.

(١٥٣): المفريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/١، ٥٦٦، ٥٦٨، ٦١٨

كلا الجيشين^(١٥٤) المملوكي والمغولي، ونادرا بالوسائط البحرية كالسفن التي كانت تنقل الثلج وأحيانا يكون النقل مركبا من الوسائط البرية والبحرية^(١٥٥)، تتحرك وسائط النقل خلف القوات حاملة معها جميع الاحتياجات ومواد التموين اللازمة والمتوفرة.

تعتبر الجمال واسطة النقل الرئيسية في الجيشين المملوكي والمغولي فكانت تنقل المؤن والاطعمة والمياه والخيم والاعتدة الادارية المختلفة كما تنقل المجانيق وأسلحة الحصار والمدافع والادوات الهندسية المختلفة اللازمة لنصب الجسور، والمراكب والاسلحة التابعة لها^(١٥٦)، وللجمال أهمية كبرى عند التحرك لمسافات طويلة فهي تستطيع أن تقطع وتسير لمراحل طويلة دون أن تحتاج إلى طعام ومياه وقد كان المالك يطلقون عليها «الهجن» ويعولون عليها في الحروب^(١٥٧). ولقد رافق الحملة إلى معركة عين جالوت الكثير من الجمال التي كانت تحمل مختلف الاحتياجات: إلا أننا لم نفق على عددها أما الجيش المغولي فكان لديه بالإضافة إلى الابل الثيران التي كانت تجر عربات ذات عجل خلفها يحمل فيها جميع الاعتدة والاسلحة والتموين وكذلك النساء والاطفال الذين كانوا يرافقون المقاتلين في معاركهم وأسفارهم^(١٥٨)، وتأتي الخيل في الدرجة الثانية في وسائط النقل عند الجيش المغولي حيث كان يفرز بعضها إلى هذه المهمة، وبعضها للقتال، والثالث للركوب. على أن خيل القتال تتصف بصفات معينة وكذلك الخيول الاخرى^(١٥٩) في حين أن الجيش المملوكي كان يستخدم الخيل فقط للقتال وعلى ظهرها الفارس الذي تدرب واعتنى بفرسه وساسه واستخدمه في الحروب والمعارك^(١٦٠)، كما

(١٥٤): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٥٦٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٩، ٨٢، الجبرتي: عجائب الاثار في التراجم والاختبار ١/٢٩

(١٥٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/١٠٦، القرمانى: اخبار الدول وآثار الأول ٢٨٣

(١٥٦): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١١٨، حقي: تاريخ العرب ٧٨٦

Demombynes La Syrie a Le Pogue Des Mamelouks 255

(١٥٧): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٦٠٧، ٦١٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة

٣١٢/١٢

(١٥٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/١٦٤

(١٥٩): أسعد: بولو ١٢، ١٣

(١٦٠): القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول ٢٨٣

اعتنى المماليك بالبالغ والحمير فاستخدموها لمهام ضيقة ومحدودة^(١٦١)، ويعتبر النقل البحري من وسائل النقل الاداري والقتالي وكان هناك عدد كبير من المراكب البحرية التي اشتركت في القتال في معركة عين جالوت أهمها الشواني والمراكب المستخدمة للتعدية من شاطئ الى شاطئ والاعزبة والدراميد وغيرها^(١٦٢).

١٢ - الاشغال العسكرية :

هي الجهة المكلفة في الوقت الحاضر بإنشاء المباني والثكنات بغية إيواء العسكريين في مناطق التعسكر الدائمة وهي الجهة التي كانت مكلفة في العصر المملوكي بالايواء واستخراج المياه وفتح الطرقات وتتلاقى مهامها مع مهام الهندسة العسكرية في كثير من الاعمال على أن الصفة البارزة كانت في ذلك العصر هو بناء الثكنات التي كان يسكنها المماليك البحرية والبرجية^(١٦٣)، وكذلك الطباق والمنشآت العسكرية التي كانت منتشرة في جميع الاراضي^(١٦٤).

عند الخروج إلى القتال كانت تستخدم الخيم^(١٦٥) إذ يخرج الجيش من ثكناته ويتجمع في منطقة الريدانية^(١٦٦) القريبة من القاهرة ثم يتحرك باتجاه منطقة القتال ويفتح الخيم عند التمرکز وقد استخدمت في سهل مرج ابن عامر قبل القتال^(١٦٧).

مهمة الاشغال العسكرية استخراج المياه، وجر الاثقال الكبيرة بقوة يسيرة وكانوا يطلقون على هذا العمل «الحيل»^(١٦٨) لقد استفاد المختصون في الاشغال العسكرية في العصر المملوكي من المؤلفات العديدة التي كانت منتشرة قبلهم وطبقوها في نواح عديدة وفي جهات عسكرية مختلفة كاستخراج المياه وحفر الآبار^(١٦٩)، وكان الظاهر بيبرس يستعين في جيشه من

(١٦١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣١٢/١٢

(١٦٢): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ١٠٦/١٢

(١٦٣): ابن الفرات: تاريخه ٨٣/١/٤، زكي: السلاح في الاسلام ٤٢، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك

٥٩٣/٢/١، النوري الاسكندر: اللام ٢٣٠/٢، ٤٩، ابن عماتي: قوانين الدواوين ١٦

(١٦٤): شوبلر: العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٠٨، ١٣٩

(١٦٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩٢/١٠. المقرئ: الخطط ٢١٣/٢

(١٦٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٩٧/٧، ٢٩٩، القلقشندي: صبح الاعشى ٤٧٥/٣

(١٦٧): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٦/١، سليم: عصر سلاطين المماليك ٢٥٠/٢

(١٦٨): الشهابي: تاريخه ٤٣٩، مرمري: بلدانية فلسطين العربية ٩٢، ٩٦

المهندسين الذين يحفرون الآبار على طول الطريق التي يسلكها الجيش^(١٧٠) وقد شاع استخدام هذه الآبار حتى في القطاع الاقتصادي حيث كان المهندسون يحفرون الأرض بآلات لأعماق مختلفة، ويجرون الماء إلى مسافات بعيدة للاستفادة منها في الري^(١٧١).

١٣ - دور المرأة في الجيش :

تتكون مؤخرة المغول فيما تتكون، من النساء والاطفال الذين يصطحبون في الحروب^(١٧٢) ومن مهام النساء تقديم الاسعاف الأولي وتقوية معنويات الرجال، وتتمركز هذه الفئة في الانساق الاخيرة من الجيش في حراسة وأمن. ومن الوجهة العملية فإن هؤلاء يشكلون ثقلاً كبيراً وعبئاً إدارياً وبخاصة عند انهماك الجيوش المغولية أو انسحابها بصورة غير منتظمة ففي معركة عين جالوت فر الجيش المغولي ومعه النساء والاطفال الذين عوقوا الهروب وأثقلوا المؤخرة.

للنساء عند المغول والمهاليك منزلة عظيمة وحظوة كبيرة، إلا أن المرأة المملوكية لا تترافق الجيش عند الحروب، في حين أن المرأة المغولية تترافق زوجها وأخوتها وعشيرتها ظناً منهم أنها ترفع المعنويات وتبعث في الرجال النشاط وحب القتال^(١٧٣).

١٤ - المكاتبات والمراسلات :

كانت تصدر بأسلوب خاص، ونمط كتابي متميز وذلك حسب رتبة ووظيفة المخاطب، فإذا صدرت عن السلطان فإنها تتضمن عبارات متعارفاً عليها، تبدأ بمقدمة وتنتهي بخاتمة وكثيراً ما كانت تتضمن هذه المكاتبات الأوصاف والتجملات التي قد تخرج في بعض الأحيان عن الحد المألوف أو عن المدح المتعارف، ومن الطبيعي أن يكون للكتابة ديوان وعناصر تعمل في صناعة الكتابة، وتؤدي المهام المطلوبة منها، وهي على معرفة بكل المكاتبات التي تجري بين السلطان ومروءه وسبه بدءاً من نائب السلطنة إلى الجندي إلى الأمور الخاصة والعامة إلى النشاطات الداخلية والخارجية ويراعى في هذه المراسلات أمور هامة من أبرزها البسملة وحجم الورق الذي منه القطع الصغير ويكتب عادة للتشكيلات المقاتلة، ثم الكتابة إذ تكون على الجانب

(١٧٠): بنوموس: الحيل ٣٧٤، ٣٧٦

(١٧١): تستيرشتين: تاريخ سلاطين المهاليك ٣٠

(١٧٢): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥١٤/٢/٢

(١٧٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٢/٧

الايمن «إلى فلان» وعلى الجانب الايسر «بسبب كذا . . .» ثم الفراغات التي تكون في آخر
الالقاب، ثم التوقيع والخاتم وغير ذلك من الامور المعهودة^(١٧٤).
قبل معركة عين جالوت أرسل القائد العام للجيش المغولي كتابا إلى القائد الاعلى للجيش
المملوكي يحذره فيها من إقدامه على الوقوف أمام القوة المغولية ويهدد فيها ويتوعد، فرد عليه قطز
بعبارات فيها الانفة والكبرياء واللهجة الصارمة، ثم قتل الرسل واستعد للحرب^(١٧٥).
وبعد المعركة ووضوح النصر أرسل قائد الجيش المملوكي رسائل إلى الداخل والخارج،
وإلى العالم الاسلامي، فأرسل رسالة إلى الشام يخبر أهلها متقيدا بأصول المراسلات التي مر
ذكرها يبشرهم فيها هذا الانتصار الكبير ويقدمه إليهم. ورفع الظلم عنهم^(١٧٦)، وكذلك فإنه
أرسل رسالة إلى القاهرة تتضمن تلك المقدمات والاصول ويعلمهم فيها عن النصر^(١٧٧)، وبشر
بالخبر إلى جميع أرجاء المملكة وغيرها^(١٧٨) وكان يطلق على هذا النوع من الرسائل «البشارات»
التي لها نمط كتابي خاص وأسلوب متبع معروف، ففيها التصريح بالنصر وأنه فتح من الله،
والاشادة بالجيش وذكر مناقبه . . . والاستهتار والتعرض بجيش العدو وما إلى ذلك^(١٧٩).

(١٧٤): القلقشندي: صبح الاعشى ١٥١/٧، ٢١٠ وما بعدها ١٣٢/٨

(١٧٥): القرماني: اخبار الدول وآثار الأول ٩٨

(١٧٦): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٦٧/١

(١٧٧): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣٠٧/١

(١٧٨): الجبرتي: عجائب الآثار وفي التراجم والاخبار ٢٩/١

(١٧٩): الاصفهاني: الفتح القدسي ١٨٣، ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ٧٢

الفصل التاسع آثار المعركة

لقد انعكست آثار هذه المعركة على العالم العربي ، وعلى الصعيد الداخلي والخارجية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ، فعلى الصعيد الداخلي أجريت الإصلاحات الادارية العديدة وقسمت الدولة إلى عدد من النيابات وهي: دمشق ، حلب ، طرابلس ، حماة ، صفد ، الاسكندرية ، الكرك ، غزة ، ملطية ، وأخيراً القدس^(١) . وعلى الصعيد الخارجي أقام الممالك علاقات دبلوماسية وتجارية وحددوا وصنفوا على ذلك الاعتبار دول الملوك ، وعلى الصعيد الاقتصادي اعتمدت الدولة على الموارد الزراعية والتجارية والزكاة وما في حكمها كالحراج والعشور^(٢) ، وأما على الصعيد العسكري فقد كانت الدولة المملوكية دولة عسكرية اهتمت بالجانب العسكري وفضلته على جميع الجوانب الاخرى^(٣) فكانوا أشداء على أعدائهم مبالغين إلى القوة والعنف ، متصفين بصفات الجد والعزيمة^(٤) .

آثارهم باقية ، وبصماتهم مطبوعة في كل مناحي الحياة حتى الآن ، وتاريخهم حافل بالابحار والبطولات ، كل ذلك تقديم معركة عين جالوت ونتائجها وأهم هذه النتائج والآثار :

أولاً : ظهور الجيش المملوكي كجيش قوي :

لم يكن الجيش المملوكي شيئاً مذكوراً ، ولم يعد من الاوائل قبل معركة عين جالوت ، فهو الذي لم يخض معارك مهمة كهذه المعركة ، ولم يكن قد زج في القتال لاختبار جاهزيته القتالية وقدرته الحربية ، فهو الذي اشترك بصورة غير موحدة مع الأيوبيين ، وقاتل في معركة المنصورة ، وبرزت عبقرية قادته وكفاءتهم الحربية في هذه المعركة^(٥) ، أما الجيش المغولي فكان الجيش الذي

(١) : ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/ ٣٤ ، الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢/ ٢٧١ ، المنظمة العربية للترية والثقافة والعلوم - دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ١/ ١٤١ وما بعدها .

(٢) : زيادة : دمشق في عصر الممالك ٦٥

(٣) : شبولر : العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٠٩

(٤) : ابن صاعد : طبقات الامم ٨ ، القلقشندي : صبح الاعشى ٤/ ٤٥٨ ، لوبون : حضارة العرب ٢١٧ ،

العربي : الممالك ٢٤٦

(٥) : ابن العباد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣/ ٢٣٨ - ٢٤٠ ، ابن تغري بردي : النجوم

الزاهرة ٦/ ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٦٢ ، المقرئ : السلوك ١/ ٢/ ٣٦٨

لا يقهر وقد روع العالم، وأوقع في نفوس الجيوش التي تقايله الرعب والخوف. توجه نحو تركستان فاستولى على بلادها، ثم قصد بلاد ماوراء النهر فاكتمسحها وعبر بلاد خراسان فأذاقها أنواع العذاب والتخريب، ودخل العراق فطمس حضارتها وقضى على الأخضر واليابس، وشرد أهلها، وتجاوز بلاد أذربيجان وأرمينية فقضى على الحياة فيها شاملا الإنسان والحيوان والنبات، وبلغ الخوف مبلغه من النساء والرجال، ولهذا فإنه عندما نزل إلى الشام، استولى على البلاد بسهولة مدينة فمدينة وقرية فقريّة، وهويزحف دون أن يبقى أويذر. وهويقتل فلا يفرق بين الرجل والمرأة، وهويدمر فلا يدع طفلا ولا حاملا، فالمياه غورها، والبنيان هدمه، والأراضي عطلها، والأهل أفقرهم وتركهم دون مال أو مأوى أو طعام أو مياه، هذا الجيش بهذه الصفات عندما ينهزم سيكون للجيش الذي هزمه دور كبير وسمعة قتالية في العوالم العربية والإسلامية والأوروبية. وسيتطلع إليه العالم على أنه منقذ، ويستحق كل إعجاب وتقدير. من هنا جاء موقعه البطولي، واعتبر كجيش له وزنه، وقوة يحسب حسابها^(٦).

ثانياً: انحسار المد المغولي وخطره على العالم ولاسيما العالم العربي والإسلامي:

لقد كانت معركة عين جالوت من المعارك المهمة في التاريخ، فهي التي أوقفت المد المغولي الذي اجتاحت العالم، وقضى على معظم الدول، وخلصت الدول العربية والإسلامية من خطر محقق كاد يعصف بما تبقى من الحضارة والتراث، وكاد يقضي على آخر معقل في سورية ومصر، فلو أتيح للقوات المغولية الدخول إلى مصر لتغير وجه العالم العربي والإسلامي، ولما تكونت فيما بعد دولة قوية امتد سلطانها من شمال الرها شمالاً إلى البحر الأحمر وأسوان جنوباً، ومن الشرق البادية والجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً^(٧)، ترى لو هبى للجيش المغولي الانتصار على الجيش المملوكي، فهل يتوقف عند هذا الحد، أم يتابع مسيرته نحو أوروبا؟ من خلال انطلاقته الأولى واجتياحه البلاد المتعددة، فإنه سينطلق لاحالة إلى تلك البلاد، ويعمل ماعمل في سابقتها^(٨) وليس في العالم المسيحي من الجيوش آنذاك من يقف في طريقه أو يعيقه من

(٦): الرمزي: من تلفيق الاخبار وتلفيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ٣٥/١، الجاحظ: البلدان ٤٧٣، العزاوي: تاريخ العراق ٦٨/١ وما بعدها.

(٧): Runciman: A History of the Crusades, Vol.III The Kingdom of Acre book 3/ chapter 3/312.

(٨): شبولر: العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٠٩

التقدم وحينئذ تقع الكارثة ويعم البلاء، ولهذا فإن تلك البلاد مدينة إلى الجيش المملوكي الذي قضى على الجيش المغولي قبل أن تصل ناره فتحرق الارض ومن عليها وتهلك الحرث والنسل في أوروبا^(٩).

بعد هذا الانحسار وبعد هذه الهزيمة حاول المغول عدة محاولات لاستعادة مجدهم، ورد اعتبارهم، وإرجاع سمعتهم الحربية - التي تلطخت بالعار - مع الجيش المملوكي، فقد شنوا عدة غارات وسيروا الحملات العسكرية لكي ينالوا من المماليك، فالحق قد يملأ قلوبهم، والانتقام يتميز غضبا في نفوسهم، إنهم كانوا أقوى جيوش العالم والآن يمسون بعد الجيش المملوكي الذي أذاقهم من العذاب وانتصر عليهم انتصارا حاسما^(١٠)، إنهم سيستمتتون في أخذ المبادأة من جديد، وسيعيدون الكرة تلو الكرة حتى ترد إليهم كرامتهم، وحتى لا تشمت بهم الاعداء، وقد كان أعداؤهم كثيرين ويغضونهم عديدين من أمم العالم^(١١).

ومن جهة ثانية فقد أحس قادة الدولة المملوكية بأن المغول سيقدمون على مغامرة قد تعصف بالمكاسب وتبدد بالنصر وتنزل قيمة ومكانة الجيش المملوكي وتدمر الآمال في إنشاء دولة إسلامية كبيرة مترامية الاطراف. ولهذا فقد سارع بيبرس الذي استلم القيادتين السياسية والعسكرية في البلاد بعد مقتل قطز إلى تثبيت نفسه كسلطان على البلاد، وانتزاع التقليد الخلفي، وتقوية مركزه الداخلي، وإلى التصدي للمغول، وإلى بذل كل طاقاته وإمكاناته لمنع هذا العدو من تحقيق أهدافه، وإلى اتخاذ إجراءات هامة تكفل له التركيز على هذا العدو وتكثيف جهوده الرئيسية على هذه الجبهة، وكانت أهم هذه الاجراءات:

١ - الاستقرار الداخلي والتغلب على جميع الصعوبات الداخلية:

بعد الانتصار الساحق في معركة عين جالوت صمم الملك قطز على نقل الخلافة العباسية إلى مصر لتدعيم مركز الدولة المملوكية على المستوى الاسلامي في العالم، ولتزعج الدول الاسلامية آنذاك وتكون لها الكلمة العليا في ذلك وليستكين الذين حاولوا من قبل فلم يستطيعوا أمثال الطولونيين والاخشيديين والايوبيين. ويشعر الايوبيون بصورة خاصة بأن القادة

(٩): الشيال: تاريخ مصر الاسلامية ١٦٩/٢، العربي: المغول ٢٥

(١٠): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٠

(١١): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٢

المملوكيين قادرون على فعل شيء لم يستطع فعله القادة الايوبيون، ولتكون القرارات سريعة وبخاصة على المستوى العسكري سيما وأن المجلس العسكري كان يضم في عضويته الخليفة بعد نقله إلى مصر، في حين أنه كان بعيدا قبل هذا، وبحاجته السلطان إلى استصدار بعض الاوامر، أو استشارته في بعض المسائل الحيوية.

وأكثر من هذا وذاك أن السلطان كان بحاجة إلى استصدار التقليد، أو الخليفة الخليفية عندما ينتخب كملك للبلاد، وقد رأينا تدخل الخليفة في خلع شجرة الدر عندما أرسل برسالة ينتقد فيها تنصيب هذه المرأة، وحث القائمين في الدولة على أن يكون هذا المنصب لرجل^(١٢) لقد بدأ هذه المحاولة الملك قطز؛ فأرسل بطلب أحد العباسيين «أبي العباس» الفارين إثر اجتياح المغول لبغداد وبإيعه بالخلافة ورده إلى العراق، فذهب وافتتح بلادا، لكن قطز قتل فتوقفت فتوحات الخليفة وعاد إلى دمشق، ثم تولى بيبرس بعد قطز فأكمل مابدأ به من سبقه، فاستدعى أحد العباسيين «أبا القاسم» الذي سمي فيما بعد «المستنصر بالله» إلى القاهرة وبإيعه السلطان بالخلافة، وطلب إلى ملوك الاسلام والنواب في المملكة أن يبايعوا الخليفة الجديد، وأن يدعى له على المنابر، ثم يدعى للظاهر بيبرس، وأمهده بالسلح والمال وأرسله إلى بغداد ليقوم بتحريرها من أيدي المغول^(١٣)، لكن الظاهر بيبرس أدرك بثاقب بصره وتطلعاته البعيدة أن الخليفة سينازعه الملك في حال انتصاره، فبدأ يعمل منذ ذلك الحين بنقل الخلافة، فعقد مجلسا لأبي العباس الذي قدم إلى مصر وبإيعه بالخلافة بعد إثبات نسبه، وتقلد الظاهر بيبرس قيادة البلاد.

وبذلك اكتسب الصفة الشرعية، وقوى مركزه وظهر سعده، وأبقى الخليفة في مصر في بيت في القلعة الذي لم يكن له أي قيمة سياسية أو قيادية^(١٤)، وتركزت كل السلطات بيد الملك الظاهر بيبرس الذي أراد أن يحكم البلاد بفردية مطلقة ومركزية شديدة لا ينازعه أحد،

(١٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١١/٧، الشيال: تاريخ مصر الاسلامية ١٧٥/٢ ومابعدها.

(١٣): ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ٣/٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

١١٧/٧، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٦٦

(١٤): أبو شامية: الذليل على الروضتين ٢١٣، ٢٢١

(١٥): الدوميلي: العلم عند العرب ٢٩٣، ابن القاسم: غاية الاماني ٤٤٧/١

ولا يعارضه معارض، فمن نازعه قتل كما جرى لقطز، ومن عارضه حبس كما جرى للخليفة الذي كان حبيس القلعة والفكر، وبرز كملك يتمتع بمكانة عالية في العالم الاسلامي وبحماية تامة لمصالح المسلمين، وتألفت القاهرة من عواصم العالم بأنها المركز الريادي وبأنها مقر الخلافة^(١٦).

ساعد الاستقرار الداخلي على الاصلاحات الادارية الكبيرة على مستوى الدولة فنظمت النيابات في كل مدينة، وجددت عمارة القلاع، وبنيت الجسور وانشئت القناطر والخلجان^(١٧): وشقت الطرق الجديدة لتربط أجزاء المملكة ومدنها ببعضها، وبنيت المحطات على الطرق لتكون محط استراحة المسافرين التي يوجد فيها كل ما يحتاجه المسافر، واهتم المالك اهتماما زائدا بالبريد وبالحمام الزاجل^(١٨)، وكذلك بالخدمة الطبية وبخاصة في المشافي وبالطب الجراحي وبطب العيون وغيرها من الاختصاصات^(١٩).

إن التأييد الشعبي على المستوى الداخلي كان عاما بعد الانتصار الذي حققه الجيش المملوكي، ما أن دخل المغول الاراضي الشامية قبيل المعركة حتى اذاقوا أهلها البأس والضراء، فقتلوا وسبوا وخربوا ودمروا وظلموا الشعب، وعينوا القادة الذين ينفذون لهم كل ما يطلبون، وبات الشعب يترقب تلك الفرصة السانحة التي يفلت فيها من قيود هذه الطغمة الباغية، لكنه لم يستطع أن يحرك ساكنا مخافة أن ينقلب عليه المجن فيهلك، ومخافة البطش الشديد الذي اتصف به هؤلاء الحكام الجدد، وما أن دارت المعركة في سهول فلسطين وتبين النصر للجيش المملوكي حتى نهض الشعب من رقدته، وأعلن العداء للسافر للمغول، وسارت مظاهرات كبيرة في أحياء دمشق تندد بالطغاة، وتحمل على الذين ساندوهم وساعدوهم في تثبيت

(١٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ١١٨، القلقشندي: صبح الاعشى ٣/ ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٠، الشيال: تاريخ مصر الاسلامية ٢/ ١٨٢ وما بعدها.

(١٧): ابن الفرات: تاريخه ٧/ ٨٢، ٨٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/ ١٧٩، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠/ ٢٣٦.

(١٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/ ١٨٦، حتي: تاريخ العرب ٧٦٧.

(١٩): ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء ٦٥٥ وما بعدها، السيوطي: الرحمة في الطب ٤٨، ٧٨٩، حتي: تاريخ العرب ٧٦٧.

حكمهم فقتلوا الفخر محمد بن يوسف في جامع دمشق والشمس بن الماكسيني وابن البفيل، ومن كان له علاقة بالحكام المغول، ثم مالوا إلى بعض الكنائس فخرّبوا الكنيسة اليعقوبية، وأحرقوا كنيسة مريم، وقتلوا العديد من النصارى انتقاما لاستطاعتهم على الناس وتشفيا لأنهم ساعدوا في الاعتداء على المسلمين وهي الكثرة الغالبة من الشعب^(٢٠)، وفرض الملك قطز على النصارى ضريبة فردية قدرت بمائة وخمسين ألف درهم، وبقيت الخلافات بين النصارى والمسلمين تذرّقنها كلما حدثت حادثة، أو ظهرت بعض المشاكل حتى البسيطة منها^(٢١)، لكن قطز عاقب كل الذين اساءوا الى النصارى او تعرضوا لهم^(٢٢) ولقد كان الاثر البارز هو اضطهاد المسيحيين وتخريب وحرق كنائسهم وبيوتهم، وخسارة حامياتهم فيما بعد، كما بدأ العد التنازلي بالنسبة للمغول فبدأوا يخسرون المعارك مع الممالك، وكذلك بقيت إيران والعراق تحت السيطرة المغولية المباشرة^(٢٣)، أما جنود المغول وأعوانهم فقد هربوا من منطقة دمشق حال سماعهم نتائج معركة عين جالوت، لكن بيرس البندقداري كان قد حشرهم في اتجاه دمشق وأباد قسما منهم بالقتال وبحملة مطاردة ساعده في ذلك أبناء الشعب الثائرون على الحكام السابقين، وتوصل بمساعدتهم إلى الاهتداء إلى مخابثهم ومكان وجودهم، وكانوا لا يتورعون في أن ينزلوا بالهاريين من التتر أشد العقاب^(٢٤): وكذلك في مصر فقد هلك الشعب بهذا الانتصار وزفت البشائر، وأقيمت الاحتفالات وابتهل المشايخ والناس، ودعوا إلى الله تعالى وشكروه على هذا النجاح^(٢٥).

(٢) - الدعم والتأييد الخارجي:

لابد لنجاح معركة ما أو حرب ما من سياسة قوية تسبقها ومن دعم خارجي يعقبها، وبدون ذلك يبقى النصر العسكري مكبلا لا يؤدي إلى نتائج إيجابية، ولهذا فقد بادر قطز قبل المعركة

(٢٠): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ٣٦١/١ وما بعدها، ابن العميد: أخبار الايوبيين ١٧٥

(٢١): المقرئزي: الخطط المقرئزية ٤٠٣/١/٣

(٢٢): ابن العميد: أخبار الايوبيين ١٧٦

(٢٣): انظر كتاب: (المسيحيون السريان في عهد المغول ص ٢٧ ل ج م. م. فيه

(٢٤): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ٣٦٦/١، ابن الوردي: تاريخه ٢٩٧/٢ وما بعدها.

(٢٥): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ١٣٦/١

فحيد القوى المعادية والتي قد تتدخل فتؤثر على نتائج المعركة، ومن أهم هذه القوى الصليبيون الذين كان يخشى من انضمامهم إلى المغول، وأخذ عليهم عهداً، واتفق معهم على أن يكونوا على الحياد، فإن نكثوا فقد يتحملون المسؤولية. بهذه السياسة وبهذا السير تمكنت القيادة السياسية للدولة المملوكية من أن تطلع عن كذب على الموقف الحيادي الصليبي، ومن ذكاء هذه القيادة أنها هددت الصليبيين في حال قيامهم بأعمال عدائية أنها ستقلب عليهم وتقاتلهم لوحدهم، وتترك المغول إلى ظروف موأية لجولات قادمة وبالرغم من الاطمئنان الذي حصلت عليه هذه القيادة فإنها -زيادة في الحيلة والحذر- بثت عيوناً ومراقبين في البلاد الصليبية لينقلوا إليها المعلومات الجديدة والمتبدلة في نواياهم^(٢٦). وما أن انتهت المعركة حتى بادق طر أيضاً إلى إعلام الدول وأخذ تأييدها على هذا النصر، وبذلك يتمكن من كسب الحرب سياسياً وعسكرياً إذ أرسل الرسل والرسائل إلى الدول ومنها إلى اليمن الذي بادق سلطانه إلى مباركة هذا الانتصار وإلى احترام إعلام سلطان مصر عندما حج في العام الذي تلى المعركة، وكانت هناك مودة وتبادل هدايا واتصالات مستمرة فيما بين الدولتين^(٢٧)، ثم أكمل بيبرس مابدأه سلفه.

اضطرب هولاء عندما سمع بهذا الانتصار وبمقتل كنبغا قائد جيشه، وكان لهذا النبأ تأثير كبير على المغول وعلى قياداتهم، لكن هولاء ورغم أنه قد غضب كثيراً لهذا، فإنه لم يستطع أن يحرك جيوشه ولم يستطع عمل أي شيء نظراً لانشغاله في قتال مع أخيه^(٢٨)، أما الفرنج فقد فرحوا بنتائج هذه المعركة الحاسمة لتعرضهم لأذى المغول، ولاحتلال جزء من أراضيهم وعدد من مدنهم من قبل هذه الفئة، ولخوفهم إن انتصر المغول على الممالك أن يقوضوا ملك الفرنج، وأن يذيقوهم سوء العذاب^(٢٩).

دعم بيبرس سياسته الخارجية بإقامة علاقة ود وصداقة مع مغول «الفقجاق» القبيلة الذهبية وذلك لكي يحدث شرخاً كبيراً بين هذه الفئة وبين الفئة الثانية التي تناصبه العداء وهي فئة

(٢٦): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٤٣٠، سرور: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ٥٠

(٢٧): الخرجي: العقود اللؤلؤة

(٢٨): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢/٣٣٧، أبوشامة: الذليل على الروضتين ٢٢٠

(٢٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/٧٧، يشير ج. م. في كتاب المسيحيون السريان في عهد المغول

إلى أن قسماً من الصليبيين والافرنج وسكان جرمانيا الشمالية والأرمن كانوا مع المغول ضد الممالك انظر ص ٢٦

مغول فارس، ولكي يضمن انحياز تلك الفئة لصفه، فإنه ان لم يضمن الانحياز على الاقل يضمن حيادها، وبذلك يضعف قوة مغول فارس، وتتهيأ له فرص الانتصار على عدوه^(٣٠)، لقد أرسل السلطان رسلا عديدة إلى بركة خان زعيم القبيلة الذهبية الذي أسلم وتبادل الرسائل والسفراء مع الدولة المملوكية. وكانت لهذه السفارات دور كبير في تحقيق الصداقة وفي حث هذا الزعيم على القتال بجانب الجيش المملوكي ضد أبناء قومه والذي استجاب لهذا النداء، واتفق مع بيبرس على محاربة هولاكو^(٣١)، نتيجة هذه الصداقة والسفارات المتبادلة وحسن الاستضافة والاكرام لأفراد القبيلة الذهبية والتشويق المتزايد في الدخول إلى الاسلام، والتركيز من قبل بيبرس على هذه القبيلة، فقد وفد إلى مصر من المغول عدد كبير شكلوا فيما بعد جزءا من الجيش المملوكي سمي (الفرقة الوافدية)^(٣٢).

بالاضافة إلى ذلك فقد عقد بيبرس التحالفات مع الدول المجاورة وكان هدف هذه التحالفات منع هذه الدول من مساعدة المغول في حال قيام حرب بين المماليك والمغول، إذ كانت هناك فكرة تحالف بين الصليبيين والمغول ضد الجيش المملوكي^(٣٣)، فهذه التحالفات التي أنشأها بيبرس استطاع أن يقوض هذا التحالف المعادي بين هاتين القوتين. وسارع مباشرة إلى تحالف منفرد مع Manfred ملك صقلية وتسكانيا، ومع ميخائيل باليولوجس Michael Palaeologus امبراطور الدولة البيزنطية^(٣٤) لم يكن بيبرس - بعد أن ثبت ملكه وقوى جبهته الداخلية والخارجية يخشى المغول أو غيرهم من الاعداء، سيما وأنه كان على اتم الاستعداد لمجابهة جميع التحديات وذلك بإعداد جيشه إعدادا قويا والتركيز على تحديثه^(٣٥).

(٣٠): الرمزي: تلفيق الاخبار وتلفيق الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ١/٤١٤، ٤٣٧

(٣١): الرمزي: تلفيق الاخبار وتلفيق الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ١/٤٣١، وما بعدها.

(٣٢): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢/٣/٧٥٠، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة

٢/١٢٩، الشيال: تاريخ مصر الاسلامية ٢/١٩٥

(٣٣): الدوميلي: العلم عند العرب ٢٩١، ويست: الحضارة العربية ٢٦٩

(٣٤): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ١/٥٣٧، المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٥٦٩، سرور: الظاهر

بيبرس وحضارة مصر في عصره ٧٦

(٣٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/١٥٥، ١٧٩، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠/٣٣٨، الكتبي:

فوات الوفيات ١٧٠/٠

كان الاثر البارز على المستوى السياسي توحيد مصر والشام، ومما لاشك فيه أن الشام مسرح للعمليات الحربية التي وقعت في العالم من قبل ذلك لأهميتها الجغرافية، فهي الطريق إلى القارات كما هي البوابة للولوج إلى فلسطين والديار المقدسة وهي القلعة الحصينة أمام هجمات المغول المتتالية وأمام ضغط الصليبيين كما هي الخط الأول للدفاع عن مصر والبلاد الإسلامية على اتساعها، وقد رأى القادة المماليك أن هذا التوحيد يعطيهم ميزات قتالية يستطيعون بها مواجهة أعدائهم الذين انتصروا عليهم في معركة عين جالوت لقد كانت الشام بحاجة إلى هذا التوحيد السياسي لأنه يدعم أمنها ويحقق لها حمايتها.

رحبت الشام بهذا التوحيد وفتحت ذراعيها للظاهر بيبرس، لأنه على الأقل خلصهم من نير الشر، وبالتالي فهم أصحاب عقيدة دينية واحدة، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن تكون النفوس مطمئنة إلى الحكم الجديد، وأن تكون راضية به، مما يساعد على استتباب واستقرار ذلك النظام وترسيخه بين أفراد القوات المسلحة والشعب^(٣٦)، يدل على ذلك تلك الاحتفالات والابتهاجات التي أظهرها الشعب في مصر والشام على أثر ذاك الانتصار الكبير على الجيش المغولي^(٣٧).

إن الدفاع ضد العدو المشترك يستلزم بالضرورة توحيد هذين القطرين فقد تصدى المماليك للتتار الذين مافتشوا يغيرون على البلاد الشامية حتى بعد هزيمتهم المنكرة^(٣٨)، فقد ظلت حملاتهم تتعاقب على القسم الشمالي والوسط في حلب وحمص^(٣٩)، وكانت الغلبة في أكثر المعارك والاغارات للمماليك وتصدوا كذلك للصليبيين الذين كانوا يعتدون على الساحل

(٣٦) : Lewis: The Arabs in History 9/155, 156, 157.

(٣٧) : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١/٣٦١، ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٣٠٧، ابن الوردي : تاريخه ٢/٢٩٧ وما بعدها.

(٣٨) : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ١/٣٦١، الهمداني : جامع التواريخ ٢/١٣١٤، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧/٧٩، ١٠١.

(٣٩) : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ٢٨٢، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧/١٠٧، أبو شامة : الذيل على الروضتين ٢١١.

Lane Poole: A History of Egypt in The Middle Ages, 10/279, 280.

الشامي ، وقد بنوا به قلاعهم الحصينة ، وركزوا به أسلحتهم المتطورة ومن أهم حصونهم المرقب وقرقية وبلاطنس وصهيون وبرزية وبرج اللاذقية^(٤٠) .

ومما لاجدال فيه أن العامل الاقتصادي له أهمية كبرى في مسألة الوحدة ، فهو يعمل على توسيع القاعدة المادية . وتنوع الأسلحة ، وتكثير الصناعات الماهرة ، وتلاقي الأيدي العاملة التي كان من أبرزها صنع السفن في مصر^(٤١) ، وصنع الأسلحة في الشام^(٤٢) ، لقد ظلت المنافذ الاقتصادية مفتوحة بين القطرين ، والتنسيق تاما ، وإن كان هناك بعض الاستقلالية والحكم المحلي والحرية في توجيه الفعاليات الاقتصادية إلا أن الشيء البارز والمهم كان في مركزية الاقتصاد الحربي . والاشراف عليه بصورة مباشرة من قبل سلطان مصر ونائبه في دمشق ، ومما يجدر ذكره لم تكن لتتم لو لم يسبقها وحدة داخلية آمنت بأن الوحدة هي سبيل الخلاص من العدو الذي يطمع في سحق تلك البلاد وجعلها خرابا ودمارا ، وذلك أن المماليك اعتادوا على المنازعات والشقاق فيما بينهم ، طيلة فترة إقامتهم في الحكم ، إلا أنه يلاحظ من خلال تلك السنين أنه كلما اجتاحت البلاد جائحة أو شعروا بالخطر انضموا إلى بعضهم وتكتلوا ، فبعد أن كان الظاهر يبرس وبعض الأمراء على خلاف مع قطز ، عادوا متحابين متحدين في سبيل الدفاع عن البلاد^(٤٣) .

ثالثا : حقد الجيش المغولي ومحاولته الثأر من الجيش المملوكي :

ثارت ثائرة المغول ، وأرادوا الانتقام من المملوكيين بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت ، والنيل منهم بكل الوسائل والطرق التي يرونها كفيلة بتحقيق هذا الهدف ، تصدى الجيش المملوكي لكل هذه المحاولات ، وكانت المعارك المتتالية بين الجيشين المملوكي والمغولي سجلا ، يحاول كل واحد منهما أن يقضي على الآخر ، ومن أهم المعارك التي جرت بين الفتين معركة

(٤٠) : ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ٧٨ وما بعدها

(٤١) : ابن ممتي : قوانين الدواوين ١٦ ، ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣/٣٠٢ ، ٣٠٣ ، مبارك :

الخطط التوفيقية ١/١٠٦ ، عدوي : الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط ١٤٧

(٤٢) : زيادة : دمشق في عصر المماليك ١١٠ ، زكي : السلاح في الاسلام : ٣٥ الاسكندري : تاريخ مصر ٢٢١

(٤٣) : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٧/٥٤ ، ٥٥ ، ابن عبد الظاهر : تشریف الأنام والعصور في سيرة

الملك المنصور ٢٦٤ ، بيشون : حلب الشهباء ٨٠ .

حصص التي حدثت في سنة ١٢٦١/٦٥٩، إذ استطاع الجيش المغولي في هذه المعركة أن يحتل بلاداً عديدة من المنطقة الشمالية لسوريا، لكن لجيش المملوكي تصدى لهذا الاعتداء واستعاد البلاد، وطرد الجيش المغولي^(٤٤)، وكذلك فإن ابن هولاكو في نفس السنة قاد جيشاً هاجم به بلاد الشام، لكن بيبرس كان له بالمرصاد، فهرب قبل الملاقاة^(٤٥)، وكذلك فإن جيشاً آخر قصد الرحبة سنة ١٢٧٢/٦٧١ ونزل البيرة^(٤٦)، فجهز بيبرس جيشاً ونقل مراكب الصيادين على الجبال، وأسرع في التحرك من حمص، الباب، منبج شط الفرات، واجتاز النهر ووقعت معركة انتهت بخسارة المغول وتفرقوا في الأرض بعد أن خلفوا الكثير من القتلى والأسرى^(٤٧). وفي سنة ١٢٧٦/٦٧٥ وردت معلومات أن الروم والمغول قد اجتمعوا بالقرب من نهر جيحان وكان عددهم أحد عشر ألفاً بقيادة «تارون» المغولي فانبرى الجيش المملوكي لهذا الجمع واستطاع أن يهزم الجيش التتري في صحراء بلستي وهوتي، فكان تمركز الجيش المغولي في الصحراء وعلى أرض منبسطة يتهاى للقاء، وقد قسم الجيش إلى ١٢/ لواء في قلب وميمنة وميسرة، الجيش المملوكي من الحركة هاجم عدوه من الجبل مستخدماً بذلك المفاجأة والظهور الفوري، تقابلت الفئتان، ودافع الجيش المغولي إلا أن الجيش المملوكي استطاع بخفة الحركة والاندفاع الفوري أن يهاجم جوانب خصمه وجبهته، وتفرقت الخيول، ونزل جنود الجيش المغولي وقاتلوا راجلين، إلا أن السرعة في القتال من جانب الجيش المملوكي حسمت المعركة لصالح هذا الجيش، وانهمز المغول وولوا الأدبار، وتبعهم الجيش المملوكي يحصدهم ويوقع بهم الإصابات العديدة^(٤٨)، وفي سنة ١٢٨١/٦٨٠ جرت معركة كبيرة بين حمص والرسن بين الجيشين المملوكي والمغولي

(٤٤): ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٢، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:

١٠٧/٧، دحلان: الفتوحات الإسلامية ٣٥/١٢.

(٤٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥٥/٧.

(٤٦): البيرة هي قلعة في الشمال الشرقي من الفرات، وفي الشرق عن قلعة الروم على نحو مرحلة يفصل

الفرات بينهما. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ١٣٧/٤.

(٤٧): ابن تغري بردي: المصدر نفسه.

(٤٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦٨/٧، المقرئ: السلوك المعروفة دول الملوك

٦٢٨/٢/١، الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣٢٥/٢.

/٥٠,٠٠٠/ مقابل /٨٠,٠٠٠/ مقاتل، اجتاحت الجيش المغولي حلب فنهبها وقتل أهلها وسار باتجاه دمشق، فخرج له السلطان قلاوون من مصر التقيا بالقرب من حمص جرت معركة كبيرة ميمنة الجيش التتري تغلبت على ميسرة الجيش المملوكي وانهزم هذا الجناح، أما ميمنة الجيش المملوكي فقد تفوقت على ميسرة الجيش التتري. القلب صمد بقيادة القائد الاعلى قلاوون، تحرك نحو الحلف وسمح للجناح اليميني أن يتلف خلف الجيش المغولي، وبنفس الوقت فإنه وزع الكهائن في طريق اتجاه هذا الجيش، حتى إذا اخترقت جبهة وجناح الجيش التتري فر هاربا، فشن قلاوون هجوما معاكسا أدى إلى تمزق القوة المرتدة الهاربة وانتصر على الجيش المغولي انتصارا ساحقا^(٤٩) وهذه المعركة تشبه في تكتيلها القتالي معركة عين جالوت التي استخدمت فيها القوات المملوكية الاحاطة والالتفاف واستطاعت أن تبيد القوات المغولية في منطقة الابداء، كما قضت على ماتبقى من فلول هاربة بالمطاردة والكهائن. وفي سنة ١٣٠١/٧٠١ وقعت معركة كبيرة بين الجيشين في منطقة شقحب التي تقع شمال غرب غباغب عن طريق درعا في سورية.

فالجيش المملوكي بقيادة الملك الناصر محمد قلاوون بتعداد قدره ٨٠,٠٠٠ مقاتل، والجيش المغولي بقيادة قازان بتعداد يساوي الجيش المملوكي^(٥٠)، لا تقل هذه المعركة ضراوة عن سابقتها، وقد استخدم فيها أسلوب الدفاع المتحرك على مسرح عمليات مشابه لمسرح عمليات معركة عين جالوت التي لا تبعد كثيرا باتجاه الجنوب الغربي، وقد حدثت هذه المعركة في رمضان كما في المعركة الفاصلة، كما كان أسلوب القتال متشابها، وحاول الجيش المغولي في هذه المعركة الكبيرة أن يعيد اعتباره، وأن يلحق الهزيمة بخصمه، وذلك عن طريق استدراجه ثم الاحاطة به وتطويقه لكن الجيش المملوكي كان يقاتل عن تصميم وشجاعة ومعنويات عالية.

(٤٩): أبو الفداء: تاريخه ١٥/٢/٢

القرماني: أخبار الدول وآثار الاول ٢٠٠، الشرقاوي: تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين ١٣٢، المقريري: الخطط ٢٩٤/٣، كرد علي: خطط الشام ١١٨،

Lane - Poole: A History of Egypt in the Middle Ages: 10/279/280.

(٥٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥٧/٨، كرد علي: خطط الشام ١٣٨، تسيترشتين: تاريخ سلاطين المماليك ١١٠ وما بعدها.

وما أن انسحبت القوات المملوكية خدعة إلى الخلف حتى تبعتها القوات المغولية، ظنا منها أنها انهزمت، حتى إذا ما وصلت القوات المغولية الى منطقة الابداء التفت عليها القوات المملوكية من الجناحين اليميني والشمالي، بالتفاف قريب وبعيد، حتى إذا وقعت في الطوق هاجمتها بقوات القلب بقيادة الناصر محمد قلاوون، وبذلك أمكن إحكام الطوق وقتل في هذه المعركة ما لا يقل عن نصف الجيش المغولي، وانهزم هذا الجيش فتعقبه الجيش المملوكي باتجاه دمشق، وكان يضع في طريقه الكمائن فوصلت مطاردته إلى مابعد القريتين وجيرود إلى الشرق من دمشق بمائة كيلو متر، وتفرق الجنود المغول لا يلبون على شيء وهزموا شرهزيمة^(٥١)، وفي سنة ٨٠٣/١٣٩٩ اجتاحت القوات المغولية بقيادة تيمور الجزء الشمالي من سوريا مركزا هجموه على مدينة حلب ضاربا الحصار عليها، محيطا بها وبسورها. الجيش المملوكي كان خلف السور يدافع عن المدينة مدة يومين، وقد جرت معارك فردية وامتدت إلى قتال بالنشاب والمكاحل، اصطف الجيشان للقتال. فالجيش المملوكي، فرقة منه من الجنود الدمشقيين في الميمنة وفرقة منه من الجنود الحلبيين في الميسرة وفرقة أخرى مختلفة مع قيادة الجيش المملوكي كانت في القلب، وأمام هذا الجيش فرقة أخرى من المشاة كانت في أغلبها من الحلبيين ابتدأت المعركة وانقض الجيش المغولي على القلب، والتف جزء منه نحو الميسرة فخرقها، ثم التف نحو الميمنة فقضى عليها، وبذا تفرق الجيش المملوكي وانهزم، واندفع الجيش المغولي خلفه يقتل ويحرق ويدمر وينهب ويسبي النساء ويقتل الاطفال ويقطع الاشجار، متبعا في ذلك الارض المحروقة التي لا تبقى ولا تذر^(٥٢)، لقد كان ترتيب الجيش المملوكي ضعيفا من الناحية العسكرية، وكانت قيادته مفككة وليس لديه الاستعداد الكافي للدفاع عن مدينة حلب، كما كان أغلب العسكريين الداخلين في فرقة غير مدربين التدريب الذي يسمح لهم بمقابلة الجيش المغولي^(٥٣) ولو قاتل الجيش المملوكي مجمعا

(٥١): ابن خلدون: تاريخه ٦/٤١٧، ابو الفداء: تاريخه ٢/٢/٥٠، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في

ايعان المائة الثامنة ٣/٢١٤، الدواداري: الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر ٩/٨٥

(٥٢): الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٢٠٨ وما بعدها

(٥٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢٠/٢٢٠ وما بعدها، الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد

القرن السابع ١/١٧٥، كرد علي: خطط الشام ١٦٦ وما بعدها

لامجزءا لكانت النتيجة حقا لصالحه.

وهذه نقطة ضعف استغلها قائد الجيش المغولي، فدمر جيش حلب، ثم حماة ثم تقدم نحو دمشق يريد تدمير القسم الباقي قبل أن يلتحق القسم الأكبر من مصر وحينئذ يكون الانتصار على هذا الجيش المجمع ضعيفا، ويبدو أن الأفق الاستراتيجي لدى القادة المماليك كان ضعيفا بحيث لم يحتسبوا ملاقاته عدوهم في حلب، فتركوا الامر على غاربه كما أنهم لم يحتسبوا الوقت والمكان الاستراتيجيين للوقوف والتصدي للجيش المغولي.

واصلت القوات المغولية تقدمها نحو دمشق، في الوقت الذي وصلت فيه طلائع الجيش المصري، والتقى الطرفان في معركة حامية في سهول البقاع، وكادت القوات المملوكية تنتصر، لولا أن الامراء تركوا أمكنتهم في صفوف القتال، وتوجهوا نحو مصر خووفهم من انقلاب يجري عليهم وهم بعيدون عن أرض مصر، فالجنود بدون قادة لا يقاتلون، إذ تركوا أسلحتهم ورموا عتادهم ولحقوا بالقائد الاعلى وبقيادة التشكيلات، فلما رأى العدو هذا تبعهم ولاحقهم، ووضع السلاح في ظهورهم حتى قتل عدداً كبيراً منهم^(٥٥)، تراجع ما تبقى من الجيش المملوكي والذي كان يضم فلول الجيش الحمصية والحموية والحلبية والدمشقية ودافعوا عن المدينة^(٥٦)، لكن تيموز استطاع بحيلة أن يدخل دمشق ويحرق وينهب على عادته، وارتحل منها إلى حلب وفعل بها ما كان قد فعله من قبل^(٥٧).

كانت مؤخرة الجيوش المجتمعة في دمشق قوية، فالتموين متوفر، والأسلحة وكذلك المياه، والمدينة محصنة تحصينا قويا وفيها المستودعات المملوءة بأصناف الحبوب والارزاق^(٥٨)، لم يكن

(٥٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٢٢٢ ومابعدھا، القرمانی: اخبار الدول وآثار الاول ٢٠٨، ابن عمر بشاة: عجائب المقدور في أخبار تيمور ٨٨ ومابعدھا، المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/٣٢٣ ومابعدھا

(٥٥): ابن یحیی: تاریخ بیروت ٢٠١، الشوکانی: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/١٧٧

(٥٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٩ ومابعدھا

(٥٧): القرمانی: أخبار الدول وآثار الاول ٢٠٩، المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/٤٦، ومابعدھا،

ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور ٩٤

(٥٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٩

لدى قادة الجيش المملوكي التصور الحقيقي للمعركة التي دارت في ضواحي دمشق وفي المدينة بالذات فلما تبين لهم أن العدو تقدم تحاذلوا وخافوا ملاقاته، وانصاعوا لأوامره، وانطلت عليهم خدعة عدوهم بأن طمأنهم على أنفسهم، وأنه يريد الصلح معهم، فصدقوا ومضوا في ذلك حتى إذا خدعوا أتاهم بجيش وبقوة لا قبل لهم بها ففتح دمشق وقتل أهلها^(٥٩)، كما أن قيادة الجيش المملوكي كانت مختلفة فيما بينها، منهم من يقول بالقتال، ومنهم من يقول غير ذلك وتوسعت الخلافات، والعدو مستعد ويرسل استخبارات جيشه المختصين وبذلك تمكن من الانتصار بسهولة^(٦٠)، وأكثر من هذا أن قيادة الجيش المملوكي تركت الجنود بدون قيادة واتجهت نحو مصر، مما عجل في الهزيمة^(٦١)، فلقد شغلهم حبههم للاقطاع والمناصب عن أمور الحرب والدفاع عن البلاد، أما عدوهم فكان منصرفاً للمهمة واحدة هي القتال وحده^(٦٢)، ومن مجمل المعارك التي عرضناها، ومن الانجازات التي كانت بين الطرفين والتي قدمناها والتي لم نقدمها فإنه تبين مايلي:

١ - إن الجيش المملوكي بلغ أوج انتصاراته وفتوحاته في عهد الملك الظاهر بيبرس، ثم بدأ يضعف حتى كانت نهايته في معركة مرج دابق.

٢ - لقد كان الجيش المملوكي مدافعاً طيلة فترة الحكم المملوكي، ولم يستخدم الهجوم إلا في زمن الملك الظاهر بيبرس الذي كان يلاحق الجيش المغولي أينما كان وفي أي وقت ويتعقبه حتى في أراضيه وفي قواعده.

٣ - كانت المعارك سجالاتاً بين الجيشيين إلا أن أغلب المعارك كانت لصالح الجيش المملوكي لما امتاز من دقة في التنظيم، وشجاعة نادرة ودفاع مستميت عن الوجود المملوكي الذي انتزع النصر انتزاعاً، وسحافظ عليه بكل إمكانياته، بالزلا إرادة القتال، مقدماً المال والنفس، وحركة عالية في ساحة القتال، مطبقاً أسس ومبادئ الدفاع المتحرك الذي يتميز بالاحاطة والالتفاف القريب والبعيد.

(٥٩): ابن عريشه: عجائب المقدور في أخبار تيمور ٩٩، ١٠١، ١٠٢

١٧٧/١

(٦٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٣، الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع

(٦١): الصيرفي: نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ٨٤/٢ وما بعدها، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول

الملوك ٣/٣/١٠٤٨، ابن عريشه: عجائب المقدور في أخبار تيمور ١٠٠ وما بعدها.

(٦٢): القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول ٢١٠، المقرئزي: السلوك لمعرفة الدول ٣/٣/١٠٥١

٤ - تميزت الفترة التي أعقبت معركة عين جالوت بالآغارات المتتالية حتى لانستطيع أن نسميها في بعض الاحيان معارك نظامية، فكانت القوات المغولية تقاتل وهي خائفة، وقتالها بها كان يشبه الكر والفر الذي كان مستخدما منذ مئات السنين.

٥ - كانت البلاد الشامية مسرحا للعمليات الدائرة بين القوات المغولية والقوات المملوكية، فأغلبها تركز في الجزء الجنوبي في مرج ابن عامر وبلاد حوران، وفي الجزء الاوسط والشامي في حلب وحمص وامتد نحو الشرق إلى البادية قليلا وحول نهر الفرات.

٦ - إن الحذر والخوف كانا يتبايان كلا الجيشين المتنازعين، ولهذا فإن الجيش المملوكي كان يقاتل وليس لديه الوثوق الكامل بالانتصار، وكذلك فإن الجيش المغولي كان يقاتل وفي نفسه مرارة الهزيمة التي ذاقها في معركة عين جالوت، الأمر الذي يجعله يتردد كثيرا عند إقدامه على مجابهة خصمه، ويحذر كثيرا من ألا يورط معه في معركة طويلة أو مجابهة ساخنة.

٧ - إن العزل الذي اتبعه الجيش المملوكي سياسيا وعسكريا أفقده حركة المرونة، وأبعده عن كل أصدقائه الذين كانوا من المتوقع أن ينضموا إليه في حال تعرضه للجيش المغولي، وبخاصة مع (برخ) القبجاقى ومع قيصر الدولة الرومانية^(٦٣).

رابعاً: خمود القوى المناوئة التي لها تطلعات في الحكم أو التي لديها القناعة في أحقيتها على غيرها:

لقد قضى المماليك على ماتبقى من الايوبيين الذين كانت لهم بعض الزعامات داخل المملكة، فقد أرسل السلطان بيبرس في ربيع الآخر سنة ٦٥٩ / شباط ١٢٦٠ جيشا إلى الشوبك فاحتلها^(٦٤)، وبعد عدة أشهر أرسل جيشا آخر إلى الكرك لإظهار قوته^(٦٥) وفي شهر ربيع الآخر سنة ٦٦١ / شباط ١٢٦٢ توجه الملك الظاهر إلى دمشق، وأرسل في طلب المغيث ملك الكرك في حيلة استطاع على أثرها أن يقبض عليه ويزجه في سجن القاهرة^(٦٦) ثم

(٦٣): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٣٤، زقلمه: المماليك في مصر ٤٢

(٦٤): ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٤٨

(٦٥): ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٤٨

(٦٦): اليوناني: ذيل مرآة الزمان ٢/ ١٩٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/ ١١٩،

عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ١٧٥

قتله خنقا^(٦٧)، وسار بنفسه إلى الكرك مع جيش يحتوي على جميع صنوف الاسلحة بما فيها الصناعات والوحدات الفنية والهندسية. وضرب الحصار على المدينة فاستسلمت وأعادها، إلى حكم الماليك^(٦٨). وقد حدثت ثورات في الكرك ضد الحكم المملوكي، ووقعت الواقعة بين الايوبيين أنفسهم^(٦٩)، وفي ربيع الأول سنة ٦٧٤ / أيار ١٢٧٥ توجه الملك الظاهر إلى الكرك لقمع الفتنة، وقطع على أثرها أيدي وأرجل ستة ممن لهم علاقة، ونظم شؤون هذه المدينة وولى عليها رجلا موثوقين ثم عاد^(٧٠).

لم يكتف الملك الظاهر بملاحقة الايوبيين، وسلاطينهم، بل طاردهم وتعقب فلولهم حتى على مستوى جندي في القوات المسلحة، وذلك بتسريح كل أمراء وضباط وجنود وخدم الايوبيين، وذلك اعتقادا منه في تنظيف الجيش، وجعله مقتصرا فقط على أولئك الضباط والجنود الموالين فأحال على التقاعد الجندي فخر الدين، وتخلص من الأمير سيف بن نجم الدين الايوبي^(٧١).

وفعل الشيء نفسه بالدولة البدرية التي كانت تقع في الجزء الشمالي الشرقي من سوريا، وتضم الموصل والجزيرة ونصيبين وماردين وبالوصا وحاصور وتورزوسوس، وكان على الموصل الملك الصالح بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الاتابكي وعلى الجزيرة أخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحاق، وكان على سنجار الأمير شمس الدين برلي، وعلى ماردين الملك المظفر^(٧٢)، عقد هؤلاء الملوك حلفا، وكان من أهدافه الوقوف أمام التتر، والاستقلال

(٦٧): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣٠٠/٢، الصقاعي: وفيات الاعيان ٩٨

(٦٨): ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ١٦٧، ابن أبي الفضائل: النهج السديد ٤٥١/١، ٤٥٢،

اليونيني: ذيل مرآة الزمان ١٩٤/٢، القريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٩١/٢، ٤٩٢

(٦٩): البخيت: مملكة الكرك ٩٧ وما بعدها.

(٧٠): ابن الفرات: تاريخه ٥٣/٧، ٥٤، ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ٧٩

(٧١): ابن الفرات: تاريخه ٦٢/٧، ١٠٤، وقد توهم العرب بانتهاك المغول بعد معركة عين جالوت فاطمأنوا إلى هذه النتيجة فانقلبت عليهم في الموصل انظر الرويشدي: إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ ٢٦٨ وما بعدها.

(٧٢): ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ٥، الرويشدي: إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ ٢٧٠ وما بعدها.

بالأراضي والمحافظة على الملك، ولتقوية هذا الحلف طلبوا من الملك الظاهر بيبرس مساعدتهم في حربهم فأبى، وجالت بنفسه فكرة القضاء على هذه الدويلات ليصفى له الجو، وليوسع مملكته الفتية في المستقبل فحرض هؤلاء وتركهم لوحدهم أمام قوة المغول، ثم سمح من جهة ثانية للمغول بالاعتداء على هؤلاء الملوك، فقد زحفت الجيوش المغولية إلى الموصل في سنة ١٢٦٠/٦٦١ وبعد معارك متتالية استخدم فيه المغول المجانيق لحصار المدن وتدميرها تمكنوا من فتحها وتخريبها وقتل من فيها، والتجأ بعض الملوك منهم إلى الدولة المملوكية فبقوا فيها حتى آخر حياتهم^(٧٣)، بهذه الخدعة السياسية استطاع الملك الظاهر بيبرس أن يقضي على الدولة البدرية التي تشكل عقبة في طريق مطامعه التوسعية وتطلعاته المستقبلية لبناء الدولة الجديدة.

وضغط الجيش المملوكي بشدة على قوى الاسماعيلية الذين كانوا يسكنون في مصيف والمنطقة الغربية في حمص وحماة، وكانت هذه المنطقة تتميز بالقلع والحصون، وفي سنة ١٢٦٩/٦٦٨ ركز الجيش المملوكي جهوده ضد هذه الفئة التي رأى منها تطلعات في استقلالية الحكم ضمن البلاد، ورأى من قادتها أخطارا عسكرية قد تؤدي إلى البلبلة والفوضى، وقبل أن يتهيأ الاسماعيليون للحرب فاجأهم بيبرس بهجوم استولى في نهايته على مصيف، ثم توالى هجماته حتى استولى على قلاعها منها العليقة، وانتصر عليهم انتصارا ساحقا^(٧٤).

خامسا: تشجيع الجيش المملوكي ودفعه إلى فتح الجهات للقضاء على جميع القوى التي بدأت تعد العدة للوقوف أمام هذا الجيش وتوسعته:

أظهر الجيش المملوكي - بالإضافة إلى المغول - العداء والتصدي للصليبيين والارمن وبعض الدول الافريقية وبنى عثمان وغيرهم وكان هدف القيادة المملوكية من هذه الحروب القضاء على كل القوى الخارجية، كما قضت على كل القوى الداخلية، والسيطرة الكاملة على الساحل وعلى الأراضي الشامية والمصرية، وأخذ مكانة الجيش المغولي في القوة والسيادة في العالم. إن معظم الحروب الصليبية كانت على الساحل في عكا، يافا، انطاكية، طرابلس، صيدا،

(٧٣): الهمداني: جامع التواريخ ١/٢/٣٢٧ وما بعدها، الصقاعي: وفيات الاعيان ٤، ٥، الصفدي: الوافي

بالوفيات ١٩٣/٩ وما بعدها

(٧٤): أبو الفداء: تاريخه ١٠/٢/٢، ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ٥، عمون: تاريخ مصر ٢٠٠

صور، وهذه المدن هي معقل الصليبيين ومكان تركيزهم. وقد تميز هذا القتال باستخدام السفن ومعظمها من الشواني^(٧٥) التي كانت تقاتل بمجموعات من ٦-٥ / شواني وفي كل مجموعة طاقم كامل من المقاتلين البحرين وجنود المشاة، والفنيين والخبيرين بصناعة وترميم هذه القطع البحرية.

كما في القتال الذي دار بين الجيشين في عكا^(٧٦) وقد تميز أيضا بالقتال البري والبحري معا إذ أن من المعلوم أن الجيش المملوكي هو جيش بري قبل أن يكون بحري، كما حصل في عكا وانطاكية^(٧٧) وبحصار المدينة مدة طويلة وقطع الامدادات عنها قطعاً تاماً حتى تستسلم في النهاية^(٧٨)، وبالرمي عليها بالمدفعية (المنجنيق) البعيدة المدى التي تؤثر في المباني والتحصينات وتحدث ثغرات كبيرة في الاسوار والدفاعات^(٧٩).

وبالاخفاء والتمويه وبالخدعة كما حصل في الهجوم على عكا سنة ١٢٩١م إذ كان المهاجمون المماليك من الخيالة قسم منهم يلبس لباس الفرسان الاستتار والآخر لباس فرسان الداوية، وقد توهم العدو أنهم من الفرسان الاصدقاء فلم يتعرض لهم، حتى إذا اقترب الجيش المملوكي من أهدافه قام بالانقضاض على الجيش الصليبي ودخل المدينة^(٨٠). وبالضغط المتواصل فلا يدع فرصة للجيش الصليبي أن ينظم صفوفه، أو يقوم بتحضيرات الدفاع أو الهجوم أو يصطف

(٧٥): الشيني: جمع شواني وهي قطعة بحرية قديمة استخدمها الاسطول الايوبي قبل المملوكي يقاتل على ظهرها / ١٥٠ / جندياً ولها مئة مجذاف، انظر ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ١١٩، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بن أيوب ٣٣/٤، ٩٥، ٩٦، ابن الفرات: تاريخه ٨٣/١/٤، مبارك: الخطط التوفيقية ٨١/١، العدوي: الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط ١٥٣

(٧٦): النويري: الامام ٩٤، ٩٦، المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٩٣/٢/١، تسيترشتين: تاريخ سلاطين المماليك ٣ وما بعدها

(٧٧): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٦٧/٢/١، الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٨٩/٢

(٧٨): القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول ٢٠٠

(٧٩): أبو الفداء: تاريخه ٢٧/٢/٢

(٨٠): المقريري: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥٦٧/٢/١، ٥٧٤، سرور: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في

عصره ٨٤

بترتيب القتال^(٨١) وبتجزئىء قوات العدو ، ومهاجمة جزء ليسهل التفوق ، وليتم الانتصار بسرعة^(٨٢) ، وبتشكيلة قتال على شكل نصف دائرة أو على أنساق متساوية ويجري القتال إما عن مناوشة سفينة إلى سفينة مع استخدام الاسلحة المختلفة ، وإما اقتحام واحدة إلى أخرى وخرقها باللجام وإما أن تقترب السفينة فتمد جسرا ويجري القتال وسط السفينة بالاسلحة القريبة وبالاشتباك المباشر كما حصل في جزيرة قبرص^(٨٣) وكما في ملطية التي حوصرت ودافع أهلها ولما استيأسوا استسلموا ودخل الجيش المملوكي فأكثر فيها القتل وأسر العدد الكبير وغنم الشيء الكثير وعاد من حيث أتى^(٨٤) وكما كانت الحروب في الساحل ولها ميزاتهما فإن في القلاع والحصون حروبا لها خصائصها منها حصن المرقب^(٨٥) . ومرقية^(٨٦) ، وبلاطنس^(٨٧) ، وبرزية^(٨٨) ، وقلعة صهيون^(٨٩) ، وغيرها ، وقد تميز قتال هذه القلاع والحصون بالرمي المدفعي وبالنشاب^(٩٠) وبالتحصين القوي لهذه الأمكنة مثل حصن مرقية الذي كان يتألف من سبع طباق بني بعضها على بعض ، فقواعده من الحجارة التي أتى بها من الجبال القريبة وشبكت على بعضها بقضبان حديدية ، وثبتت بشبك من الرصاص كما يحصل الآن في المناطق المحصنة

(٨١) : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢/٥٢٤ ، ٥٢٧ ، الذهبي : الدول الاسلام ١٥٧/٢

(٨٢) : الذهبي : دول الاسلام ١٢٨/٢

(٨٣) : الحلبي : تحفة الظرفاء في مناقب الملوك والخلفاء ٧٧٠ ، ٧٧١

(٨٤) : ابن الوردي : تاريخه ٣٧٥/٢

(٨٥) : حصن المرقب هي قلعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، تقع بانياس إلى جهة الغرب منها على بعد فرسخ وبينها وبين طرطوس اثنا عشر ميلا انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ١٤٦/٤ وهي حاليا في الاراضي الساحلية السورية يراها الراكب إذا مر من بانياس .

(٨٦) : يقع هذا الحصن بين طرطوس وبين المرقب على البحر الابيض المتوسط قبالة مدينة قرية وبينه وبين البحر ريمتان للسهم السريع ، انظر : ابن عبد الظاهر : تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ٨٧

(٨٧) : بلاطنس : يقع بالقرب من مدينة مصياف وعلى نصف مرحلة إلى الغرب ، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ١٤٥/٤

(٨٨) : برزية يقع بالقرب من مدينة اللاذقية انظر القلقشندي : صبح الاعشى ١٤٥/٤

(٨٩) : قلعة صهيون تقع بالقرب من اللاذقية مبنية على صخر أصم تبعد عنها حوالي ٢٠ كم تقريبا انظر القلقشندي : صبح الاعشى ١٤٥/٤

(٩٠) : ابن عبد الظاهر : تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ١٤٩ ، ١٥٠

«وداخله صهريج عظيم وفوق الصهريج قبو وفوق القبو أخشاب وفوق الأخشاب حصا صغار وفوق الحصى خيش وفوق الخيش حبال قنب مشددة»^(٩١) بهذا التحصين لا تستطيع المدفعية أن تؤثر فيه وفي اعتقادي أن المدفعية الحديثة التقليدية في الوقت الحاضر لا يمكن أن تؤثر بهذا التحصين القوي الذي كانت سماكته لا تقل عن ثلاثة أمتار وهذه السماكة كافية لأن تصد أية قذيفة منجنيقية في ذلك الوقت، وقد تميز أيضا بالحصار فإن الجيش المملوكي يعلم أن القذائف لا تؤثر فيه فيعمد إلى ضرب الحصار لكنه يحاصر من جهة البر ويبقي البحر مفتوحا، وبهذا ولنجاح هذه العملية فإن الحصار يجب أن يكون كاملا من البر والبحر وبال دخول إلى هذه الحصون من قبل قوات خاصة تفتح الابواب، وبال حرب النفسية وإدخال الرعب وكلها أساليب ليتمكن الجيش المملوكي من الاستيلاء والولوج إلى داخل هذه القلاع^(٩٢).

لقد كانت القيادة المملوكية حازمة في قراراتها مستمرة في عملياتها، يقود القوات القائد الأعلى بنفسه ويقترح المصاعب والامكنة القتالية الخطرة، ويضرب المثل في الشجاعة والإقدام^(٩٣) وقد كانت السمعة القيادية والشهرة القتالية تسبق الجيش المملوكي في حروبه إذ كان بمجرد توجهه إلى ناحية ما أو عدو فإن هذا العدو ترتعد فرائصه، ويضع في حسبان أنه لا طاقة له بمواجهة جيش قادر على إحراز النصر في المرات السابقة اللاحقة^(٩٤).

لقد خسر الصليبيون الحرب أمام المماليك لتنازلهما واختلافهما وعدم وجود قيادة موحدة تجمعهم بتضارب المصالح وعدم تجانسهم، كل هذا أدى إلى فشلهم وهزيمتهم^(٩٥). إن الحرب على الجبهة الأرمنية قد ابتدأ بهجوم معاكس قامت به القوات المملوكية ردا على هجوم قام به الأرمن بمساعدة الصليبيين والمغول بعدما وصلوا إلى عنتاب الحدود الشمالية من سوريا.

في سنة ١٢٦٣/١٢٦٤ هاجم الجيش المملوكي الأرمن في عقر دارهم إذ جهز الظاهر بيبرس جيشا قويا بقيادة الملك المنصور صاحب حمه، وكان الأرمن بقيادة هيثوم بن قسطنطين، وعندما

(٩١): ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ٨٨

(٩٢): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٥/٢/١ وما بعدها.

(٩٣): سرور: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ٩٢

(٩٤): كرد علي: خطط الشام ١٢٤، ١٢٧، أرنولد - حضارة الاسلام ٨٥

تقابل الطرفان لم يثبت الطرف الارمني ولجأ إلى الحصون ونصب عليها المجانيق والاسلحة الدفاعية إلا أن الملك المنصور استطاع تعقب فلولهم، وخرق المناطق المحصنة واستولى على حصن الدربندات وعلى قلعة العامودين، وقتل وأسر الكثير ثم قفل راجعا^(٩٥) وفي سنة ٦٨٤/١٢٨٥ في عهد السلطان قلاوون هوجمت أراضي الارمن وفتحت البلاد وقبل أهلها شروط السلطان الذي انتصر عليهم انتصارا ساحقا^(٩٦) وفي سنة ٦٩٧/١٢٩٧ خرج الملك المنصور حسام الدين لاجين للقتال في بلاد الارمن، وكانت نقطة التجمع، للجيش المملوكية في حلب، - مصر، الشام، حماة، حمص، - ثم انطلق هذا الحشد، وتلاقت هذه الجيوش جميعا على نهر جيحان، ومن هنا أيضا بعد أن تلقت مهامها القتالية - انطلقت في أنحاء البلاد وقاتل كل جيش لوحده ثم عادوا جميعا إلى حلب، ثم عادت بعد فترة تلك الجيوش فحاصروا المدن والقلاع الارمنية وقطعوا عنها المياه، حتى مات قسم كبير نتيجة قطع المياه، واستولى المملوكيون على كثير من البلاد وكانت الحرب شبه مستمرة فيما بين المملوكيين والارمن وكان المماليك كلما فتحوا مدينة أو قلعة عينوا لها نائبا لتنظيم أمورها الادارية^(٩٧) وكان نهر جيحان حدا فاصلا بين الارمن والمماليك الذين كانوا إلى جنوب النهر^(٩٨) وفي عام ٧٥٣/١٣٥٢ اقتصر من الارمن لمساعدتهم القبارصة عند هجومهم على مصر سنة ٧٤٩/١٣٤٨ واجتاح الجيش المملوكي تلك البلاد واتجه نحو عاصمتهم سبسطية وتقدم باتجاه كليكية وأسر ملك الارمن (ليون) وأتى به القاهرة ثم أطلق سراحه فيما بعد ومنع من العودة إلى بلاده وفي سنة ٧٥٠/١٣٤٩ ضمت جميع أراضي أرمينيا إلى الدولة المملوكية وخضعت نهائيا لحكمهم^(٩٩).

لقد تميزت هذه الحروب بالهجوم الصاعق نحو الارمن، ثم بالضغط المستمر حتى لم يترك لهم

(٩٥): أبو الفداء: تاريخه ٢/٣، الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢/٣١٦، كرد علي: خطط الشام ١١٥/٢

(٩٦): ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ٣٠ ومابعدها

(٩٧): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/١٢، ٤٨، ٩٠، ١٩٤، ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر ٢/٣٤٧، ٣٨٤، ٤٤٥

(٩٨): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/٣٨

(٩٩): الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/١٧٦ ومابعدها ١٩٠ ومابعدها، زقله: المماليك في مصر ٦٢ ومابعدها.

فرصة للتفكير، أو لإعادة تنظيم فلولهم^(١٠٠) وبقتال الجيوش المتلاحقة التي انطلقت من نقطة واحدة عند ابتداء القتال أو عند انتهائه وكان التعاون بين هذا النوع من القتال علامة مميزة، وبالحصار الكامل وقطع الامدادات وبخاصة المياه^(١٠١)، وقد حاول الارمن مرات كثيرة التحالف مع أعداء الدولة المملوكية أو التخلص من الالتزام لكنهم في كل مرة يكون نصيبهم الفشل، وتكون هذه الاعمال سببا في إرسال حملة تعيدهم إلى ماكانوا عليه^(١٠٢).

لم يجد الجيش المملوكي أية صعوبة في الانتصار على الارمن واحتلال بلادهم، ذلك أن هذا الجيش بحق هو الجيش الهجومي الذي دلت أكثر معاركه أنه يتقنها ويحيدها بالمناورة والالتفاف والخرق وتحطيم الجزء القوي في الجبهة الارمنية، وكذلك فإن هذا الجيش اتبع سياسة المتتالية في إخضاع الارمن والاستيلاء على بلادهم، فهو قد بدأ منذ عهد الظاهر بيبرس واستمر بالهجوم والتوسع وبقي متابعا حتى سنة ١٣٧٥/٧٧٧ حيث قضى على خصمه نهائيا.

على الجبهة الافريقية كان بنو حفص في تونس وبنو عبد الدار بتلمسان وملوك الاندلس بغرناطة، على أن العلاقات مع بني حفص ودية تتميز بالهدايا والتبادل بالكلمات الطيبة والاشتراك مع الجيش المملوكي في الحرب وبخاصة في فتح قبرص، وتعتمد هذه العلاقة على تشابه العقيدة الدينية مع بعض الاقطار الافريقية، وعلى وجود الاثار المقدسة للمسيحيين في الاراضي المملوكية الذين كانوا يحقدون على الممالك بسبب إستيلائهم على تلك الاراضي المقدسة التي كانوا يطمعون فيها^(١٠٣).

الدولة الرسولية في اليمن كانت تعاصر الدولة المملوكية في مصر، وكان بينهما مودة وتقارب واتصالات مستمرة، حتى أن بعض الالفاظ والتعابير العسكرية الدارجة في الجيش المملوكي كانت تستخدم في الجيش الرسولي مثل الدبوس، الرمح، النشاب، المنجنيق العرادات^(١٠٤). والألقاب والرتب مثل نائب السلطان أمير، أتابك العساكر، طبيلخان خازندار، جاندار،

(١٠٠): ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ٣٥٥

(١٠١): أبو الفداء: تاريخه ٣٦/٢ وما بعدها

(١٠٢): الطياخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣٢٣/٢ وما بعدها

(١٠٣): طرخان: مصر في عصر دولة الممالك الجراكسة ١٤٢ وما بعدها

(١٠٤): ابن القاسم: غاية الاماني ٦٣٣/٢، ٦٣٦، ٦٣٧، الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة

الرسولية ٢/١٨٥، ٢٠٦

مقدم الجيش، فكان الجيش الرسولي بهذه وتلك جزء من الجيش المملوكي أو تشكيل منبثق عنه (١٠٥).

أما مع بني عثمان فقد قام تحالف ودي في بادئ الأمر، ومساعدات عسكرية فيما بين الطرفين لوجود خطر مشترك يهدد الاثنين هو الوجود المغولي ولوجود نية عدائية مستورة لدى الدولة العثمانية بغية بسط سيطرتها على الأراضي المملوكية وأخذ السيادة والزعامة الإسلامية منهم، وبخاصة على الأراضي المقدسة ونيابة القدس، وبدأ التنازع واضحا حين أراد العثمانيون بسط نفوذهم على إمارتين تركمانييتين هما قرمان والغادر اللتين كانتا تحت الحماية المملوكية (١٠٦)، حدث أول صدام مسلح في زمن السلطان قايتباي سنة ١٤٨٤/٨٨٩ حيث أرسل حملة بقيادة تمتاز الشمس انتصر فيها على بني عثمان وبالمقابل فإن سلطان بايزيد أغار على بعض البلاد المملوكية وكان نصيبه الفشل (١٠٧)، ثم تعقدت الأمور ودخلت الدولتان في حرب حقيقية، وقاد معظم حروبها الأمير ازبك الذي استولى على كثير من البلاد العثمانية وقهرهم في عدة معارك وبخاصة المعركة التي دارت على مشارف حلب ١٤٨٧/٨٩٣ حيث قتل فيها عدد كبير من الطرفين، ووصل الجيش المملوكي إلى حدود أضنه (١٠٨) وما أن وصل السلطان سليم إلى الحكم حتى أخذ بالاستعدادات واختلاق الخدع، وتنظيم الاتصالات مع أعداء المماليك وإخفاء كل تحركاته، لكن السلطان الغوري المملوكي كان يميل إلى الصلح وأرسل عدة هدايا ومفوضين وحاول عدة مرات للوصول إلى الصلح، لكنه فشل أمام إصرار السلطان سليم على الحرب (١٠٩)، ووقعت معركة مرج دابق التي انتهت بها دولة المماليك (١١٠)، وأما عن البرتغاليين فهم الذين خاضوا معارك بحرية مع الجيش المملوكي واستولوا على القواعد، وقطعوا طرق الامداد البحرية،

(١٠٥): ابن القاسم: غاية الاماني ٢/٦٣٣، ٦٣٦، الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية

١٨٥/٢، ٢٠٦

(١٠٦): الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ١/٢، ٤٤، ٨٨، ١٠٤، ١٦٨

(١٠٧): كرد علي: خطط الشام ١٩٥ وما بعدها ٢٠٨

(١٠٨): كرد علي: خطط الشام ١٩٦

(١٠٩): كرد علي: خطط الشام ١٩٦ وما بعدها

(١١٠): الاسحاقى: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٤٤، القرمانى: أخبار الدول وآثار

وحاصروا ومنعوا عن الجيش المملوكي كل الوسائط الامدادية التي يحتاجها^(١١١)، في هذا الوقت بالذات كان الاسطول المملوكي غير قادر على مجابهة الاسطول البرتغالي بسبب ضعفه وقلة المواد الاولى لصناعة السفن^(١١٢).

من هذا يتبين أن الجيش المملوكي قد ضعف على المستويين البري والبحري، وتراجع تدريبه إلى الوراء وأسحلته إلى الاهتراء دون تطويرها ومواكبتها مع جيوش العالم الحديثة آنذاك وكثرت الفتن الداخلية والاضطرابات الداخلية وتنازع السلطان والامراء على السلطة وتباغض الحكام والمحكومون، وسرت العدوى للفوضى داخل الجيش، واندرس العملاء والجواسيس في قلب الدولة والجيش، وضعفت القاعدة المادية التي أثرت بصورة حادة على الامداد وعلى التصنيع الحربي وعلى تطوير الاسلحة والمعدات القتالية، وتراجعت المعنويات بسبب الانقسام وامتناع بعض الفئات المقاتلة عن متابعة القتال.

سادسا: تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته القتالية:

ازداد حجم الجيش بعد معركة عين جالوت وتعددت تشكيلاته القتالية ففي أعقاب المعركة وفي زمن الملك الظاهر كان هناك ثلاثة جيوش أحدهما في مصر وثانيهما في دمشق وثالثهما في حلب ولقد اطلق على الجيش (الجیوش) الذي يقوده القائد الاعلى «جيش الزحف»^(١١٣) وبلغ عدده /٤٠٠٠٠/ مقاتل^(١١٤) وبلغت إحدى التجريدات في عهد الملك الناصر /١٥٠٠٠٠/ مقاتل^(١١٥) ثم تطور هذا الجيش فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات احتياطية ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والاكراد ووصل حجمه إلى /٣٥٧٠٠٠/ ^(١١٦). وكذلك فإنه طرأ تطوير كبير على نوعية الاسلحة والاختصاصات المتعددة في الجيش فلقد

(١١١): ماهر: البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ٢٨ وما بعدها، يوزيكي: تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي ١٣٣

(١١٢): ابن مماتي: قوانين الدواوين ١٧

(١١٣): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٦٣٨/٢/١

(١١٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٩٧/٧

(١١٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٢٦/٩

(١١٦): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ١٠٦/١٠٤

أشاد سلاح الهندسة برج كبير في بيروت على أنقاض برج القلعة المخرب^(١١٧).
وبنى الجسور والقناطر والترع^(١١٨)، كما كان سلاح النفط والنيران في مقدمة الاسلحة التي أصابها التطوير إذ تنوعت المواد الحارقة، واستخدمت على نطاق واسع^(١١٩) وكان لها تأثير كبير على العدو اذ كان الجيش المملوكي يستخدم السلاح في الزمن والمكان المناسبين، وربما استخدمه في معركة، ولم يستخدمه في معركة مشابهة، وذلك نظرا للظروف القتالية، وشروط استخدام هذا السلاح فهو لم يستخدمه في معركة حمص سنة ١٢٨١/٦٨٠، بينما استخدمه في معركة وادي الخزندار سنة ١٢٩٩/٦٩٩ ففي هذه المعركة أدخل الجيش المملوكي خمسمائة قاذف لهب وهو عدد لا يستهان به حتى في المعارك الحديثة وبعد ذلك انتشر هذا السلاح واستخدمه الجيش المملوكي وطوره^(١٢٠) وكذلك السلاح الكيميائي الذي وصل الى ان يتوفر لديه من القنابل الهجومية والدفاعية كالتي نراها في الجيوش التقليدية في الوقت الحاضر وكان الجير وبعض المواد الكيميائية تدخل في تركيب هذه القنابل^(١٢١) وهناك سلاح المدفعية الذي تطور تطورا ملحوظا إذ بعد أن كان يحمل على الكتف صار على عجل وبعد أن كانت أجزاؤه الحركية بطيئة التجهيز صارت سريعة وزادت قوة الرمي ومسافته وسرعته وأصبحت حشوته من البارود ومعدنه من النحاس أو الحديد^(١٢٢)، وأما السلاح البحري فقد احتوى على مكاحل البارود والفؤوس والاسلحة النفطية والكيميائية وقدور الحيات والعقارب وغيرها، غير أن هذا السلاح قد ضعف في أيامه الاخيرة، وأصبح عاجزا عن مواكبة غيره في دول العالم^(١٢٣)، أما الاسلحة

(١١٧): ابن يحمى : تاريخ بيروت ٤٢

(١١٨): المقرئزي: الخطط ٥٨٦/٢ وما بعدها

(١١٩): الرماح: مخطوطة الفروسية والحرب والاسلحة ٣٦، الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن

وحفظ الدروب ٧٧

(١٢٠): David Ayalon: Gun Powder and Fire arms in the Mamluk Kingdom 14, 27

(١٢١): الناصري: مخطوطة الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ٢٠٥، النويري: الامام ١٤٤

(١٢٢): الزردكاش: الانبيق في المناجنيق ٤١ وما بعدها، ابن يحمى: تاريخ بيروت ١٠٥، ابن غانم الاندلسي:

مخطوطة العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ١٥، ٢٦، ٤٩

Rey-Les Colonie Franque Syrie Aux Xlme Et Xllme Siecles pages 37-38

(١٢٣): ماهر: البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ٢٠٣، العدوي: الاساطيل العربية في البحر الابيض

الفردية كالدرع والترس والزردية والجوشن والقرقل والدبوس والخوذة والمغفر والخف والتركاش والطارق والرمح والخنجر والطبر فقد تحسن نوع المعدن الذي يصنع منه السلاح وأضيف إليه الذهب أو الجواهر، كما اتقنت الصناعة بالسقي كالسيف الدمشقي^(١٢٤)، والجروح التي كانت ترمي البندق إلى مسافات بعيدة^(١٢٥) وكذلك الشباب والزراقة وغيرها من الأسلحة^(١٢٦)، يخطيء من يظن أن الدولة المملوكية استسلمت للاقدار في آخر حياتها ويخطيء من يرى أن السلاطين والقاعدة العسكريين قعدوا وتفرغوا للهوهم وأمورهم الخاصة، صحيح أن الاختلاف والشقاق قد دب فيها، لكنها لم تنزل باقية على حرصها الشديد أن تقاوم التيارات الخارجية والداخلية، وأن تهض بمسؤولياتها وتتلافى السلبات فمن الوجهة العسكرية إزداد حجم الجيش. واستحدثت قطعات عسكرية، فالظاهر بيبرس شكل فرقة عسكرية من المغول من القبيلة الذهبية التي هربت من الظلم والجور، والتي رغبت أن تدخل في الاسلام كما دخل سلفهم من قبل ومما شجعهم على ذلك قوة الجيش المملوكي «الفرقة الوافية»^(١٢٧) وكان الهدف من تشكيل هذه الفرقة تعزيز قوة الجيش المملوكي، وبالمقابل اضعاف قوة الجيش المغولي، وتشجيع المغول الآخرين على الهروب والانضمام إلى القوات المسلحة المملوكية وتمتين العلاقة بين القادة المماليك (الظاهر بيبرس) وبين المغول المنتمين إلى القبيلة الذهبية، وإيجاد تحالف يربط ويجمع بين الطرفين ضد مغول فارس الذين كانت لهم عداوة مع المماليك شكلت نواة هذه الفرقة من الذين أرسلهم بركة خان المتحالف مع بيبرس وكان عددهم ٢٠٠ / فرد ما بين رجال ونساء وأطفال وكان ذلك في سنة ٦٦٠ / ١٢٦١^(١٢٨) أي بعد معركة عين جالوت بعامين، وبعد سنة

(١٢٤): زيادة: دمشق في عصر المماليك ١١٠، الاسكندري: تاريخ مصر ٢٢١، ويسلر: الحضارة الاسلامية ١١٧ وما بعدها

(١٢٥): الدواداري: الدر المسلوب في أخبار بني أيوب ١٠٦/٧، النويري: الامام ١٣٨/٢

(١٢٦): الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ٦٣، الحجازي وزملاؤه: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ١٦٣

(١٢٧): المقرزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٧٥٠/٣/٢

(١٢٨): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢٩/٢، المقرزي: الخطط ٦٣/٣، الشيال:

تاريخ مصر الاسلامية ١٩٥/٢

واحدة أي في سنة ٦٦١/١٢٦٢ قدم إلى مصر / ١٣٠٠ / فارس^(١٢٩) ثم نظمت هذه الفرقة طبقاً لما هو متبع في تنظيم القوات المسلحة المملوكية فكان منهم الامراء طبلخانات عشرينات، عشرات وقد ازداد عدد هذه الفرقة في عام ٦٩٥/١٢٩٥ في عهد السلطان كتبغا إذ قدم إلى مصر حوالي / ١٨٠٠٠ / فارس^(١٣٠) وبهذا أصبحت هذه الفرقة قوة ضاربة بمستوى فيلق (جيش) أو فرقة مشاة أو ميكانيكية في الوقت الحاضر، ثم التحق (الاوراتية) وهم الفئة التي تميزت بالجمال والفتنة في صفوف الجيش المملوكي، فكان منهم الامراء من مختلف الرتب واختلطوا مع الممالك وتزاوجوا من بعضهم وأسكنوا في حي الحسينية في القاهرة^(١٣١)، ومهما قيل بشأن هذه الفرقة فإن الفرق الأخرى المملوكية التي جاءت عن طريق الرق تعتبر من حيث القيمة والمكانة فوق هذه الفرقة وذلك للوشائج والروابط الخاصة التي كانوا يعتزون بها وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الفرقة لم يستلم منها أمراء على مستوى القادة والاتباعية أو أمراء ألوف، وبهذا تبقى دون بقية التشكيلات المملوكية المسلحة وكذلك فإن السلطان الغوري شكل فرقة من المماليك أطلق عليها «عسكر الطبقة الخامسة» هدفها القضاء على الفتن الداخلية والتصدي للخطر الخارجي الذي كان يتهدد الدولة من جانب الشاه إسماعيل الصفوي في إيران، ومن البندقية وفرنسا، ومن العثمانيين الذين أعدوا العدة لغزو مصر وبلاد الشام^(١٣٢) وكذلك فإن الجيش جهز بأحسن المعدات والأسلحة وتم شراء جزء من الخارج^(١٣٣).

استحدثت بعض الوظائف والرتب العسكرية في الجيش المملوكي منها نائب السلطان أو نائب الغيبة الذي يوجد مركزياً في مصر وهو نائب القائد الأعلى، وهناك نواب آخرون في المدن في

(١٢٩): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/١٩٠، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ٢/١٩٥

(١٣٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/٦٠، أبو الفداء: تاريخه ٢/٢/٣٤، ابن الوردي: تاريخه

٢/٣٤٣، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ٢/١٩٧

(١٣١): المقرئ: الخطط ٢/٢٠/٢٢، مبارك: الخطط التوفيقية ١/٨٤، ٨٩، ١٣٤

(١٣٢): ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤: ٣٣٧،

الباشا: القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها ١٤٤

(١٣٣): الباشا: القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها ١٤٤، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤/٣٩١،

كل مملكة^(١٣٤) ورأس نوبة (رؤوس النوب) الذي أطلق عليه فيما بعد (الامير الكبير)^(١٣٥) ومقدم الرفر ف أي رئيس حرس القصر^(١٣٦) وما يسمى اليوم الحرس الجمهوري أو الملكي وغيرها، كما أن المواكب السلطانية قد تطورت في المبالغة فيها في مظهرها والاتفاق عليها، وهي من العسكريين الخاصين الذين يلبسون ألبة زاهية من الحرير مزينة بالذهب^(١٣٧)، وكذلك فإنه أحدثت الدرجات في الرتبة الواحدة كأن يكون فيها أول وثاني وثالث ورابع وخامس مثل أمير آخور وأمير حجاب^(١٣٨).

طراً تعديل على نظام اللباس العسكري من حيث اللون الاصفر إلى الاحمر وفي بعضها من الاحمر إلى الاصفر، ومن حيث الحجم والطول فقد ازداد حجم الطاقية، وازداد طول الشاش الذي يلف على الطاقية ومن حيث التسمية فالطاقية مثلاً تسمى (كلوته) ثم سميت بعد ذلك (طرخانية) فالرداء مثلاً يسمى (القباء) ثم (البغلطاق) ومن حيث ما يدخل اللباس من حرير وذهب تتفاوت أسعاره تبعاً لوجود هاتين المادتين، فالحوائص مثلاً منها ما يبلغ سعرها فوق مائة وخمسين ديناراً، ومنها ما يكون دون أربع مائة درهم^(١٣٩)، وكذلك فإنه طراً تغيير على لباس المراسم الذي يرتدى في المناسبات وفي الاحتفالات وعدل كثيراً من اللباس العادي الذي كان مستخدماً من قبل^(١٤٠).

ارتقى التدريب وتطور وركز على اللياقة البدنية وعلى المرحلة الاولى من تعليم الفرد على العتاد والسلاح، وفي المرحلة الثانية على التدريب الجماعي، كما ركز بصورة خاصة على تأهيل

(١٣٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٠٩/٨

(١٣٥): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٣٢/٢

(١٣٦): المقرئزي: الخطط ٢١٣/٢

(١٣٧): ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ٨٦، ابن إياس: بدائع الزهور في

وقائع الدهور ٣١/٣، ٣٦/٥، ابن بطوطة: رحلته ٦٢/١

(٣٨): السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٢٦٩/١، ابن طولون: مفاكهة الخلال في حوادث الزمان

٦٦، ٥٢/١

(١٣٩): المقرئزي: الخطط ٣/٥٥، ٧٤، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١١/٢،

مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٧، ١٣٨، ابن تغري: النجوم الزاهرة ١٠١/٩، ١٠/١٠، ٧٤

(١٤٠): السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١١٠/٢، مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٥

الأفراد على جميع الفنون الحربية والخصائص القتالية وبخاصة على الرمي^(١٤١). لقد كثرت ميادين التدريب في المملكة وانتشرت انتشارا واسعا واجتمع فيها المقاتلون يمارسون فيها جميع أنواع التدريب القتالي، أصبح هذا العمل الشغل الشاغل لكل المقاتلين أبناء الشعب^(١٤٢)، أشرف السلطان بنفسه على التدريب وتدريب مع العسكريين وشجعهم وقدم لهم الهدايا، ورفع مستوى التدريب وأيقن أن هذا هو السبيل إلى النصر، وكان من أعظم المهتمين هو الظاهر بيبرس الذي استطاع أن يجعل من جيشه جيشا قادرا على خوض أي نوع من المعارك^(١٤٣)، وقد وصل التدريب إلى أن يسبح الجندي بسلاحه الحربي، وهذا هو أشق أنواع السباحة في الظروف القتالية^(١٤٤)، توصل القادة المملوكيون إلى ذلك التدريب قبل العمليات الحربية وبمجرد الانتهاء منها يخوضون الحرب وهذا النوع يجري في ظروف مشابهة تماما لم يتوصل إليه جيش قبل الجيش المملوكي، فقد كان يتقن الاعمال الفردية والجماعية حتى القتال والتنقل في أرض مشابهة للأرض المتوقع أن تكون ميدانا للقتال المقبل^(١٤٥).

أصاب الشؤون الادارية تطور كبير في توفير مواد وعتاد التعيينات وتنوعها، وفي المهمات والملابس والخيم وفي النقل البري إلى مسافات بعيدة، وفي النقل البحري عبر البحار والانهار، وفي الخدمة الطبية وقد كان جيش ثان يخدم في المؤخرة ولا سيما على مستوى القاعدة، فقد كان الجندي يخدم لدى السلطان والامراء بوظائف إدارية مختلفة ففي مطبخ السلطان والامراء وفي بيوتهم يعمل عشرات بل مئات المقاتلين القادرين على حمل السلاح، وكذلك في حراستهم ومرافقتهم من المماليك الذين ضاق بهم المكان لكثرتهم وتفنن القادة في الترف والتبذير والاستهلاك لجميع أنواع المواد، ولا سيما مواد الطعام^(١٤٦).

(١٤١): الرماح: مخطوطة نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال الفروسية ٧٩، ٨٤، ابن حرز الله الحاسم:

مخطوطة هواية الرامي الى طريق المرامي وعلم الرمي بالبندق ٢٩، الاشرفي: مخطوطة رمي النشاب ٣٦

(١٤٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦٥/٧، ٨٨/٨، المقرئ: الخطط ١١١/٢، الحلبي: تحفة

الظرفا في مناقب الملوك والخلفاء ٧٦٠

(١٤٣): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٥١٨/١، ٦١٢/٢، مبارك: الخطط التوفيقية ٨٢/١

(١٤٤): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٦٠٨/٢/١

(١٤٥): المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ٦٢٦/٢/١ ومابعدها. مبارك: الخطط التوفيقية ٨٢/١

(١٤٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩٩/١٠، مبارك: الخطط التوفيقية ٨٢/١

قد يؤثر الامداد على مجرى القتال إذ يتوقف الجيش عن متابعة الهجوم، أو يبدل من خطته، كما حصل للجيش المغولي عندما اجتاح قلاع الاسماعيليه، ونفذت تمويناته وبخاصة فيما يتعلق بعلف الدواب^(١٤٧)، وهاجم بيرس المغول في سنة ٦٧٥/١٢٧٦، في عقردارهم مجتازاً مسافة كبيرة من بلاد الشام إلى آبلستان، ثم انحدر إلى قيصريه وقد قل الامداد ونفذ التموين وعجفت الخيل من قلة العلف مما اضطره إلى التوقف عن متابعة الهجوم ورجع من حيث أتى^(١٤٨).

ومن الشؤون الادارية برزت الخدمة الطبية في تطورها، وقد كانت الدولة المملوكية من أوائل الدول في ذلك العصر في هذا المجال فقد ظهر أطباء كثيرون اشتهروا بالمداداة وصنع الادوية والمعالجة فلا يرتقي إلى هذه الوظيفة إلا من كان ذكياً، عارفا لهذه المهنة لا يشغله عنها شاغل، محبا للمرضى رحيماً بهم، حظيا عند السلاطين والملوك خادماً لهم، تربى على أيدي أطباء أخصائيين، محمود السيرة، منحدرين من سلالة طبية مشهوراً لها بالحقق والمعرفة أمثال رشيد الدين الذي يدعى أبا حليقة الذي عاصر الدولتين الايوبية والمملوكية الذي كان طبيب الملك العامل الايوبي ثم الملك الظاهر بيرس المملوكي، والشيخ أمين الدولة يعقوب بن القف، وعز الدين طرخان والحكيم شمس الدين الكلي وغيرهم^(١٤٩).

كانت مهنة الطب عند القادة المملوكيين محترمة ومفضلة على كثير من المهن، ولذلك كانوا يشجعون الاولاد على الانتساب إليها ويعترفون بأنها أفضل من الجندية التي كانت رمز الفروسية والبطولة معتبرين أن الجنود كثيرون، وأن الأطباء قليلون، وأنه بالامكان انتقاء العدد الكبير من الجنود الذين تنطبق عليهم شروط الانتساب، أما طبقة الطب فما يمكن العثور إلا على عدد قليل جداً ممن تنطبق عليهم تلك الشروط المطابقة^(١٥٠).

إن طب الاعشاب هو الذي كان يشتغل به الاطباء وقد شاع استعماله وكثرت فوائده، وعقد

(١٤٧): الهمداني: جامع التواريخ ٢٥٤/١/٢

(١٤٨): الهمداني: جامع التواريخ ٦٢/٢/٢

(١٤٩): الصفدي: الوافي بالوفيات ٣/٢، ابن الصقاعي: تالي وفيات الاعيان ٤٣، ٤٤، ابن أبي أصيبعة:

عيون الانباء في طبقات الاطباء ٥٩١

(١٥٠): ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء ٥٩١

المشتغلون به مؤتمرات عديدة بحثت قيمة هذا وفوائده الطبية المتعددة ومن الطبيعي أن تكون تلك النباتات من إنتاج الأراضي المصرية، واشتهر ابن البيطار في مصر بهذا العلم وسافر إلى البلاد الأجنبية كبلاد الروم، كما أخذ عن غيره من العلماء، وحقق في كثير من هذه الأعشاب، وركب الأدوية، وألف الكتب التي تبحث في هذا الجانب (مثل المغني في الطب والأدوية المفردة) (١٥١).

إن الطب الجراحي تطور ونما بصورة ملحوظة إذ عالج فيه الأطباء كثير من العمليات الجراحية منها جراحة الفكين والأنف والأسنان والمرارة والرحم والثدي، كما ذكروا أمارات الأمراض الصفراء والجذري والطاعون وغيرها كما أفردوا بحوثاً خاصة بالأدوية المرافقة للعمليات الجراحية كالأسفيداج والابنوس والكافور وغيرها، على أن أغلب هذه الأدوية هي نباتية مركبة وقد برع في مضمار الجراحة علماء كثيرون وكان أشهرهم ابن القف المتوفي سنة ١٢٨٦/٦٨٥، الذي كان علامة في هذا الميدان على المستويين الجراحي والعلاجي (١٥٢).

وكذلك انتشرت المشافي (البيمارستانات) في جهات مختلفة من المملكة، وبخاصة في مصر، منها مشفى ابن طولون وكافور والمنافر والكبير المنصوري والمؤيدي وغيرها ومن مهمة هذه المستشفيات إجراء العلاج للمرضى وتقديم العون الطبي اللازم مع المداواة والخدمة حتى شفاء المريض، وتعليم الطب حيث كانت تقوم هذه المشافي بمهمة التدريس كالمعاهد العلمية والكليات المختلفة المتخصصة ويتخرج منها الأطباء المختصون في الجراحة والكحالة والأدوية، إن للطب كليات ومدارس كما نعددها اليوم، فهي تهتم بدراسة جسم الإنسان وتشريحه والأدوية والأمراض والحميات، ويقوم عليها أساتذة أخصائيون وقفوا أنفسهم لهذا العلم وتفرغوا له كشراف الدين الرضي وعز الدين السويدي، وابن النفيس، وجمال الدين الدمشقي وعمار الربيعي وشمس الدين اللبودي وابن أبي أصيبعة وغيرهم ومن أشهر كليات ومدارس الطب: الداخورية، الدينسرية، اللبودية وغيرها (١٥٣)، وفيها عدد من الأطباء ذوي الاختصاص ومن

(١٥١): ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٥٩١

(١٥٢): ابن القف: العمدة في الجراحة ١٥/١ وما بعدها ٢٥/٢ وما بعدها

(١٥٣): النعيمي: المدارس في تاريخ المدارس ١٢٧/٢، ١٣٣، ١٣٥، البستاني: دائرة المعارف ٧٢٣/١،

المؤسسة المصرية العامة القاهرة في ألف عام ٢٣

الممرضين والعاملين ويقسم المستشفى إلى عدد من الغرف حسب نوع المرض وفيه الامكنة المناسبة للأمراض المختلفة والعيادة الخارجية^(١٥٤).

سابعاً: بدء الخلافات وتصعيدها بين الامراء والماليك والاقتيال فيما بينهم على السلطة:
ذو قرن الخلافات بين الامراء أنفسهم، وبين الأفراد والماليك، وبين السلطان والامراء بعد معركة عين جالوت، وإذا استعرضنا تلك العلاقات بين هؤلاء جميعاً نجد السلطان لا يلبث بعد استلامه حكم البلاد أن يخلع أو يقتل، ويظل فترة حكمه غير مستقر يخاف أقرباءه، ويخشى زملاءه ويحذر إخوته وأصحابه، وهذا الوضع غير الطبيعي أثر على قوة الدولة وبالتالي على قوة الجيش، وأصبح في أيامه الأخيرة ضعيفاً لا يقوى على الصمود أمام أعدائه المتربصين، وسرت في أوصاله الفوضى والفساد، وابتعد عن الانضباط وتحلل من القيم الاخلاقية مما عجل في زوال هذه الدولة، وبقيت أثراً بعد عين.

تشير المصادر إلى أن قتل قطز قائد هذه المعركة كان بسبب هذه الخلافات التي لا تستوجب قتل قائد أنقذ الشام ومصر والعالم من ويلات المغول وبطشهم، أقدم بيبرس قائد الطليعة ورئيس الأركان على قتل السلطان بسبب امتناعه عن تسليم نياحة حلب التي كان بيبرس بنيته أن يكون نائباً هناك ومهما يكن السبب فإن بيبرس قتل قطز وهو عائد من القتال^(١٥٥)، وقبل أن يتبين للقاتل الصورة الجديدة للحكم وذلك للأسباب التالية:

١ - كان بيبرس يطمح في اعتلاء عرش مصر منذ أن دخلها من بلاد القبحاق هارباً مع من هربوا من بطش التتر، وبيع كما يبيع غيره، وتقدم على أقرانه في زمن الملك الصالح فتسلم الجندارية، ولما ولي ابيك التركماني حسده على ذلك وأراد الإيقاع به وجرت محاولة من قبله ومن قبل بعض الامراء بتحريض منه وحاولوا إجراء انقلاب أبيض أو دموي، لكنهم لم ينجحوا فخافوا على أنفسهم فخرجوا من القاهرة ملتجئين إلى الملك الناصر في الشام ومعلنين العداء لأبيك وظلوا هناك يمحكون المؤامرات برئاسة الظاهر بيبرس^(١٥٦).

(١٥٤): المقرئزي: الخطط ٤٠٥/٢ ومابعدھا، الباشا: القاهرة: تاريخھا، فنونها، وآثارھا ١٣٨، عيسى: تاريخ البيارستانات ٤، ١٠، ٧٢

(١٥٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٢/٧

(١٥٦): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٦/٤/٧ ومابعدھا، الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٢٩/١٠، ٣٣٠

٢ - إن بيبرس كان مهووساً في القيادة باعتقاده يجب أن يكون القائد في كل شيء سبباً وأن له كل الصفات التي تؤهله لاستلام قيادة ما، فعندما كان بعهدة الملك الناصر تميز عن الأمراء الذين رافقوه، فأقطعه الملك بحلب، ومنّ عليه من الاموال والخلع ما لم يمن على غيره^(١٥٧).

٣ - إن العداوة وقعت بين قطز وبيبرس منذ سنة ٦٥٦/١٢٥٨، حين جهز بيبرس وهو في المنفى وفي بلاد الكرك جيشاً لاحتلال مصر، لكن قطز كان في ذلك الوقت قائد الجيش المصري استطاع أن ينتصر على جيش بيبرس، وأن يأسر ويقتل عدداً منه، ففر بيبرس وعاد إلى الملك الناصر يستحثه لقتال الجيش المصري فلم يجبه إلى طلبه^(١٥٨).

٤ - لما لم يجد بيبرس إلى القوة سبيلاً، مال إلى استخدام الخدعة والحيلة، فأرسل إلى قطز يستحلفه، فعفى عنه وعاد إلى القاهرة فاستقبله قطز، واحتفى به وأكرمه وأنزله في دار الوزارة، لكن بيبرس كان يتحين الفرصة للانقضاض عليه واستلام السلطة^(١٥٩).

٥ - حدثت معركة عين جالوت، واشترك فيها بيبرس وكان له دور كبير فيها، وفي مقاتلة المغول، ومطاردة فلولهم المهزومة. وكان يرى نفسه أنه هو الذي صنع هذا الانتصار، وأنه هو الذي أوقف المغول وقضى عليهم، وهذا التصور كان يرى نفسه فوق قطز وفوق كل السلاطين لما يتميز به من مهارة في الحرب ودهاء في السياسة، وحنكة في تصرف الأمور، ولهذا فإنه يرى أنه هو أحق بالملك من غيره، فأقدم على قتل قطز بكل ما هو عادي وطبيعي، بعد أن حاول قتله من قبل وتوجه مباشرة بعد قتله إلى القلعة ونصب نفسه سلطاناً على مصر وزعيماً وحيداً لها^(١٦٠).

٦ - منذ ذلك الوقت بدأ بيبرس يستثمر النصر الذي أحرزه، بعد أن خلا له الجو وصفا له الزمن إذ تصور المفهوم الاستراتيجي الذي سيلعبه، والمنهاج الذي سيتبعه في المستقبل، والبرامج الواسعة لإرساء مملكته وتثبيت دعائمها، والتنظيم المدني والعسكري على المستويين الداخلي والخارجي والحرب التي سيشنها على أعدائه والتي سيوسع بها مملكته والاصلاحات الكبيرة التي

(١٥٧): الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٣٠/١٠

(١٥٨): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٤٥/٧ وما بعدها، الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٣٢، ٣٣١/١٠

(١٥٩): ابن تغري بردي: المصدر نفسه ٥٤/٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٣٢/١٠

(١٦٠): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٤/٧، الصفدي: الوافي بالوفيات ٤٨٤/٩، ٣٣٢/١٠

تتظره (١٦١).

هذا نموذج من الخلافات التي حصلت بعد المعركة، وهناك العديد من هذه الحوادث وقعت، وأدت إلى وقوع مزيد من القتلى والجرحى، وذعر الناس والمواطنون من هذه الاحداث المتتابة، وأثر ذلك على الوضع الداخلي والخارجي (١٦٢)، فالأخ يقاتل أخاه، كما حدث للملك الناصر أحمد الذي حوصر في الكرك من قبل أخيه الملك الصالح لمدة تزيد عن الستين حتى استسلم أخيراً لنفاد التموينات والمؤن والذخائر وقطع الامدادات (١٦٣)، وكانت الانقلابات تجري بصورة مستمرة، حتى أن بعض السلاطين، كان يشك بمجرد الظواهر المسلحة التي لا تؤدي إلى عمل عسكري كعرض السلاح لتفقدته أو صيانه أو إجراء تجربة على صلاحيته أو فحصه، وكان هذا العمل من قبل القائمين عليه كفيلاً بإنزال العقوبة الصارمة أو القتل (١٦٤)، وكان إذا حدث عصيان مسلح في نيابة ما وكثيراً ما كانت تحدث مثل هذه الاعمال كان السلطان يجهز جيشاً لإخضاع هذه النيابة فيتلاقى الجيشان الجيش المركزي وجيش النيابة كما حدث ذلك في ربيع الأول سنة ١٣٨٨/٧٩١، عندما حدث عصيان مسلح من قبل يلبغا وبعض الأمراء في دمشق فجهز السلطان الظاهر أبوسعيد برقوق جيشاً وأمره بالمسير إلى دمشق بقيادة أيتمش فوصل قاره وتفاوضا ولم تسفر على نتيجة وزحف الجيش السلطاني على دمشق والتقى مع تحالف جيش يلبغا بالقرب من دمشق وكانت وقعة كبيرة انهزم فيها الجيش المصري وقبض على بعض قادته وأودعوا السجن وظل يلبغا الناصري متجها نحو مصر حتى دخلها وانتصر على خصمه (١٦٥).

لقد كان المماليك أداة تنفيذ الانقلابات التي تحدث في المملكة، وكانوا مصدر الفتنة والفساد (١٦٦)، فقد كان لدى كل أمير عشرة أو مائة وذلك حسب درجته ووظيفته ورتبته، وكانوا

(١٦١): الصفدي: الوافي بالوفيات ٣٣٣/١٠ ومابعداها، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٢٨٢

(١٦٢): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٩٦/٧ ومابعداها، ٣٠١/١٠ ومابعداها، الحلبي: تحفة الظرفاء في مناقب الملوك والخلفاء ٧٤٥

(١٦٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩١/١٠، ٩٣

(١٦٤): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٨١/١/٢

(١٦٥): ابن خلدون: تاريخه ٤٨٨/٥ ومابعداها، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

٤٤١/٤ (١٦٦): ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ٢٧٠

يلازمون الامير في كل أعماله حتى إذا أراد القتال بهم أرسل إليهم في أي وقت يشاء، ويوجههم الوجهة التي يريدونها والعدو الذي يقصده، وينقسم الامراء فينضم قسم منهم مع ممالكهم إلى الامير الذي قام بالانقلاب، وعادة فإن هذه الانقلابات تنجح، فيقتل عددا كبيرا أو صغيرا من الامراء ومعاليتهم وينصب سلطان جديد ويأتمرون بأمره وينفذون طلباته، وحين يتم الانقلاب يتغير الامراء، ويعين آخرون، أو تبدل وظائف بعضهم، أو يرفع قسم منهم إلى مراتب عالية ووظائف كبيرة في الدولة وفي الجيش^(١٦٧).

لقد تميزت هذه الاختلافات بالمفاجأة واستخدام الاسلحة الخفيفة وتنظيم الكائنات والدوريات، وإشراك العامة في القتال، وأكثر ما يكون في المدينة والشارع وقلعة الجبل والميادين وفي النيل حيث تشترك المراكب البحرية، وإذا تغلبت مجموعة من الامراء على مجموعة أخرى كان يجري نهب أموال الغلوبين، وهدم دورهم، وسلب ممتلكاتهم، وقتلهم والتمثيل بهم أو نفيتهم أو إغراقهم في النيل، وتعم الفوضى، وهذه الحالة كانت تتكرر دائما وبخاصة عند الاختلاف على المناصب أو لأسباب شخصية، أو عند خلع السلطان وتنصيب بدلا عنه، وفي كل الأحوال فإن هذه الحروب الداخلية والخلافات الذاتية كانت تضعف الجيش وتعمل على تفكيكه وتضعف الانضباط العسكري^(١٦٨).

كذلك كان المماليك على خلاف في أغلب الاحيان مع الأكراد، والتركمان، والأعراب، ولشد ما كانت هذه الخلافات مع الفئة الأخيرة التي اتخذت النهب والسلب والدخول إلى البساتين والمزروعات عملا لها، وكرد على هذه الأعمال كانت القوات المسلحة المملوكية تقوم بتأديب هؤلاء وترسل الحملة تلو الحملة وتفتك بهم وتطاردهم^(١٦٩)، وعلى الأرجح فإن هذه المناوشات كانت تدار بدافع عنصري من قبل القادة المملوكيين الذين يرون في أنفسهم أنهم أسياؤ تلك القبائل العربية، وأسياد الفئات الأخرى، وبالمقابل فإن الأعراب كانوا يعتقدون

(١٦٧): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/١٦٨، ١٨٧ وما بعدها

(١٦٨): المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/١٣٤/١٤١، ١٥٠، ٣٨٣، ابن خلدون: تاريخه ٤٩٥/٥ وما بعدها.

(١٦٩): القرماني: أخبار الدول وآثار الأول ٢٠٤، تسيترشتين: تاريخ سلاطين المماليك ١٠٧. ابن إياس:

بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/٨٨، ٣/١٣

أنهم هم أصحاب الأرض وأن المماليك هم دخلاء عليها ولهذا فإنهم كانوا يقومون بين فترة وأخرى بالاغارة على هذه الممتلكات والمزارع التي يمتلكها الجنود المماليك^(١٧٠)، في سنة ١٣٥٤/٧٥٥، جهز الملك الناصر جيشاً مملوكياً كبيراً ضم اثني عشر مقدماً وبعض الأمراء بقيادة الأمير سيف الدين شيخو العمري، ففرق هذا الأمير جيشه إلى تشكيلات صغيرة تكس العرب، ولا تستثني منهم أحداً. وتقدم نحو ديارهم التي يرتادونها وعلى أراضيهم التي يسكنونها، وحذر غيرهم من إخفاء أحد منهم، وعت الحملة عليهم من كل ناحية وصوب، حتى لم يبق أمام العرب إلا القتال أو الهرب أو الاستسلام، ومضى قائد الجيش المملوكي ينتقل من منطقة إلى منطقة وهو يقضي عليهم، ويستولي على أموالهم المنقولة وغير المنقولة، ويأسر العديد منهم، ويستخدم الشدة في قتالهم فيسمر أو يشق ويجرحهم من مخابثهم فيقتلهم.

لقاء هذا الزحف وهذه المعاملة تجمعت بعض قبائل الأعراب مع أحلاف لهم بقيادة الأحدث شيخ عرب العرك، فتشكل بذلك حشد كبير بلغ عشرة آلاف فارس بالسلاح الكامل، عدا الرجال الذين كان عددهم كبيراً جداً، ولما علم قائد الجيش المملوكي بهذا العدد، أراد طلب النجدة من السلطان، ولكنه في اللحظة الأخيرة توقف عن هذا الطلب، ولجأ إلى تشكيلة جيشه على شكل مجموعات وهاجم القوات العربية جزءاً جزءاً فدمرها، ثم استخدم السرعة في القتال، فما كان يصل إلى تجمع لعدوه حتى يعاجله بضربة قوية ثم يمضي مسرعاً إلى تجمع آخر، وكذلك فإنه اهتم وركز على الاستطلاع الذي يكشف له قوة الأعراب وضعفهم ليستخدم العدد المناسب في الاغارة عليه والقضاء على جمعه قبل أن تكتمل قوته، أو يزداد عدده، وكان يقف بمن معه في اتجاه معاكس للرياح حتى إذا ثار الغبار حمل إلى الأعراب وألقي في أعينهم وجوههم حتى أصبحوا لا يرون مع من يقاتلون، فقد يقاتل العربي العربي، وقد يقتل الشخص أخاه دون أن يعلم، كما كان يستخدم السهام الطويلة المدى في حين أن العرب كان يستخدمون السيوف والدرق لترد السهام. وفي هذه اللحظة أعطى قائد الجيش المملوكي أمراً للالتفاف من الخلف والمجنبات فركبوا ظهورهم وانهزم العرب وولوا الأدبار، فتبعهم الجيش المملوكي وهنا بدأت المطاردة وكثر القتل، وجدوا في طلبهم حتى إذا دخلوا مغارة أحرقوها بهم، وإذا صعدوا جبلاً لحقوهم حتى كانت موقعة عظيمة، وعدد كبير من القتلى، وبعد انتهاء

(١٧٠): طرخان: قطز في عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٦٦ وما بعدها.

المعركة جمع وأعاد قائد الجيش المملوكي جيشه وقسمه إلى قطعات صغيرة ووزعها في طول المنطقة وعرضها بحثاً عن الأعراب الفارين أو الناجين فمن وجد منهم كان يشق أو يسمر أو يؤسر، وحصل على غنائم وأموال طائلة اصطحبها معه إلى القاهرة. فكان من الخيل ألف وثلاثمائة فرس، ومن الجمال ألف وخمسمائة، ومن الحمير سبعمائة، ومن الأغنام عدد كبير، ومن السلاح الشيء الكثير^(١٧١)، وفي كثير من الأحيان كان العرب ينتصرون على الجيش المملوكي عندما يكون غير متأهب أو مستعد للقتال، أو كان عدده قليلاً^(١٧٢)، وهكذا فإن المملوكيين كانوا لا يعرفون من الأمر إلا الحرب، ومن السياسة إلا البطش^(١٧٣)، وبلغ الظمأ مبلغه من بدو الصعيد في المعارك المتتالية التي جرت مع الجيش المملوكي الذي شرد هؤلاء الأعراب في مجاهل الأرض، فلم يكن معهم ماء، ولم يردوا مصدراً أثناء فرارهم أمام ضغط أعدائهم الذين لا حقوقهم، ولم يتركوا لهم فرصة البحث عن المياه حتى مات أكثرهم عطشاً أكثر مما ماتوا في السلاح^(١٧٤)، وكان بالامكان لو حسنت معاملتهم، وأداروا مملكتهم بتخطيط وتنظيم لاستطاعوا أن يستفيدوا من هذه القوة الأعرابية وأن يستخدموهم ضد عدوهم، سيما وأنهم قد اشتركوا معهم في معارك كثيرة ضد الروم والصليبيين، وضد المغول في معركة عين جالوت.

وأخيراً ماذا ترك المماليك من أثر؟ حقاً إنهم تركوا أثراً كثيرة، منها ما كانت مكتوبة، ومنها ما كانت ترى بالعين حتى الآن فلا تمر في بلد إلا شاهدت أثارهم، وقد رأى الباحث في حلب ودمشق وفي جميع أنحاء سوريا بعض هذه الآثار ففي المكتبة الظاهرية في دمشق يرقد ضريح الظاهريبيرس الذي كان له دور كبير في تأسيس الدولة المملوكية، وفي سنة ٦٥٩/١٢٦١، بنى هذا القائد تمثالاً في عين جالوت أطلق عليه «مشهد النصر»^(١٧٥)، تخليداً للذكرى الانتصار الكبير على المغول وتشجيعاً للأجيال القادمة للمضي في القتال ضد أولئك الذين طمسوا الحضارات الانسانية، وتمثيلاً لتلك البطولات الرائعة التي قاتل فيها المماليك في بدء انشاء دولتهم، وترسيخاً لقيم الشهادة والاستشهاد.

(١٧١): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٩٠٧/٣/٢ وما بعدها

(١٧٢): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١٧٥/١/٢

(١٧٣): ابن خلدون: تاريخه ٤١٥/٥

(١٧٤): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٩١٢/٣/٢

(١٧٥): المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٤٦/٢/١

«الخاتمة»

لقد تعاظم دور العسكرية في عصر المماليك، فكانوا بحق حملة السيوف والضرب بها، والطعن بالرمح، والركوب على الخيل، حتى غدا كل فارس بيضة من غيره، وكل تشكيل من تشكيلات القوات المسلحة بأضعاف من الجيوش الأخرى.

بهذه العسكرية تغلب المماليك على منافسيهم في أكبر معركة في التاريخ، وتصدوا لاعدائهم بكل حزم وقوة، وأدخلوا الرعب في أقوى الجيوش، وسيطروا سيطرة تامة على حدود بلادهم وثورها، وحموها من كل من سولت له نفسه بالنيل منها، ولو أتيح لهم باستمرار مابدأوا به لنفذوا إلى العالم، ولكان نصيبهم على الأقل مثل المغول الذين قهروا العالم، إلا أن الخلافات الكبيرة بين المماليك فيما بينهم وبخاصة بين الأمراء^(١)، والخلل في الانضباط^(٢)، وسوء سلوك العسكريين^(٣)، وتعديمهم على أموال الشعب^(٤)، وظلمهم للجماهير^(٥)، وتطاول الرؤس على قادتهم^(٦)، والضغط عليهم من أجل مكاسب شخصية^(٧)، ومخالفة النظام والقوانين^(٨)،

(١): المقرئزي: السلوك ١٣٤/١/٣، ١٤١، ١٥٠، ٢٨٣، ابن خلدون: تاريخه ٤٩٥/٥ ومابعدها، الصيرفي: نزهة النفوس ٣٤/١

Lane Poole: A History of Egypt in the Middle Ages: 11/327

(٢): ابن إياس: بدائع الزهور ٤٣/١، ٤٩، ٥٧، ٦٥، ٧١، ١٢٥، ١٧٠/٤، الدواداري: الدر الفاخر ١٤٧/٩، الصيرفي: نزهة النفوس ١٢٩/١

(٣): ابن إياس: بدائع الزهور ٢٦٠/٣، ٢٧٨، ٢٨٠

(٤): ابن إياس: بدائع الزهور ٣٢٣/٣، ٣٦٣، ١٧/٤، القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول ٢٠١

(٥): المقرئزي: السلوك ١٧٤/١/٣، ٣١٤، ٣٨٦

(٦): ابن إياس: بدائع الزهور ٥٧٨/٣

(٧): ابن إياس: بدائع الزهور ٣٢٣/٣، ٣٦٣

(٨): المقرئزي: السلوك ٦٠٢/٣/٢

والاسراف والتبذير في الاموال في وجوه مختلفة^(٩). واتباع حكم الهوى والنزوات الفردية التي لا تستند إلى أصول فقد يسمي المملوك أو يصبح أميراً والطباخ قائد^(١٠)، وانتشار الفساد والرشوة وتولي الوظائف والترقي إلى مناصب أعلى في الجيش ودفع الأموال^(١١)، والعصيان المسلح ضد السلطة^(١٢)، والاستقلالية الكاملة لكل تشكيل من تشكيلات الجيش، حتى ليحسب الأمير أنه غير مرتبط بالقيادة العامة، فيقدم على أعمال تضعف من قوة الجيش القتالية، وتقسمه إلى فرق متنازعة بعيدة عن التعاون والتنسيق فيؤدي ذلك إلى حدوث انقلابات تنتهي بتنصيب سلطان جديد^(١٣)، وانشغال السلطان والأمراء والقادة على مختلف مستوياتهم بجمع الأموال الكبيرة والحاجيات الثمينة والأراضي الزراعية، والحلي والمجوهرات، والجواري والعبيد، والبيوت الفسيحة التي كلفت آلاف الدنانير^(١٤)، وانفصال بعض النيابات عن العاصمة الذي يؤدي حتماً إلى حدوث قتال بين السلطان في العاصمة وبين أمير النياحة الذي أعلن الانفصال^(١٥).

وتبديل القوانين المستندة إلى العقيدة الإسلامية بقوانين المغول التي وضعها جنكيز خان «الياسة»^(١٦)، وانتهاء أفراد الجيش الولائي كالناصرين والاشرفيين والظاهرين والسيفيين

(٩): الصيرفي: نزهة النفوس ١/١٣٥، ١٥١

(١٠): ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ٢/٢١٥، الصيرفي: نزهة النفوس ١/٣٥

Darrag Ahmad: L'Egypte sous Le Regne de Barsbay, 13-18.

(١١): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٢٩٢، ١٢/١٠٤

Lane Poole A History Of Egypt in the Middle Ages 11/329

(١٢): ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ٤/٤٤١، ابن خلدون: تاريخه ٥/٤٨٨، ابن تغري: النجوم

الزاهرة ١١/٢٦٤

(١٣): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/١٦٨ وما بعدها ١١٧، هل: الحضارة العربية ٨٥

(١٤): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/٢٨١، الاسحقاني: أخبار الدول ١٤٣، ابن خلدون: تاريخه

١١٨/١، ١٢١، ١٣٩

Nassi, Selim, Histoire de Syrie depuis Les Temps anciens jus qua nos jours 99

(١٥): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/٢١٧، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ٤١٢، ٤٨١

(١٦): مبارك: الخطط التوفيقية ١/١٣٧

والمؤيدين وغيرها^(١٧)، والاعتماد على الكمية لا النوعية، وعلى القوة البدنية لا التقنية^(١٨)، وبساطة القادة الذين لم يألفوا المكر والخديعة في الحروب اللتان هما من صفات القائد المحنك، والمقاتل البارع والفارس النافذ^(١٩)، وإهمال التدريب في عصر العجز والهرم^(٢٠)، كل ذلك أدى إلى ضعف القوة الحربية في الجيش المملوكي التي لم تجد مايسندها من القوتين السياسية والاقتصادية، وسقطت تلك الدولة ولم تستطع أن تتقدم لتستفيد من المعارف والصناعات والتجارب التي مرت بها الجيوش التي سبقتها والتي حاربت على الاراضي العربية^(٢١).

ورث المماليك صنعة الحرب كابرا عن كابر، وتفوقوا بها على غيرهم طيلة المحافظة على قدرتهم القتالية وجاهزيتهم وشجاعتهم ووحدتهم بعد معركة عين جالوت^(٢٢)، فلما أهملوا تلك الصفة تراجعوا إلى الوراء، وعجزوا عن الوقوف أمام أعدائهم، وأمام التقدم التقني وتطوير الاسلحة والأعتدة القتالية، للعسكرة محاسن إن استمرت في اندفاعها وقوتها وحافظت على توازنها الاستراتيجي مع المتربصين شرا، ومع الطامعين، فالمماليك في مدة بسيطة استطاعوا أن يتغلبوا على أقوى القوى المغولية^(٢٣) وينبروا للصليبيين فيستولوا على الاراضي والمدن التي كانت بحوزتهم^(٢٤).

وبغيروا على بلاد سبيس فيجتاحوا تلك البلاد ويأخذوها عنوة وينهزم الجيش الارمني^(٢٥)، ويؤسر ملك الارمن (ليو) ويؤتى به إلى القاهرة^(٢٦)، لكن هذه العسكرة مألشت أن كبت وطمع

(١٧): ابن إياس: بدائع الزهور ٩٥/١

(١٨): ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢١٧/١٢، ابن طولون: مفاكهة الخلان ٣٠/٢، ٣١، ٤٥

(١٩): الغزي: نهر الذهب ٢٤٦/٣، كرد علي: خطط الشام ٢٠٩

(٢٠): الغزي: نهر الذهب ٩٤٩/٢

(٢١): لوبون: حضارة العرب ٥٨٧

(٢٢): كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ٣٣٣/١

(٢٣): اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٤٣٤/١، كرد علي: خطط الشام ١١٥/٢

(٢٤): المقرئزي: السلوك ٥٦٩/٢/١، اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٥٣٧، التويري: الالمام بالاعلام ٩٤،

القرماني: أخبار الدول ٢٠٠

(٢٥): ابن عبد الظاهر: تشریف الايام ٣٠

(٢٦): زقلمه: المماليك في مصر ٦٢٠ ومابعدها

الاعداء فيها، وأحاطوها من كل جانب فدحروها، ففي البحر خاض المماليك عدة معارك بحرية ضد البرتغال دون جدوى وانهمزوا في معركة (ديو) وأصيب أسطولهم بضربة قاضية^(٢٧)، وذلك بسبب قطع خطوط الامداد وقلة المواد الأولية المحلية لصناعة السفن والمراكب البحرية^(٢٨)، وفي البر خسر المماليك كل ما حصلوا عليه من امتيازات في آخر معركة برية خاضوها مع العثمانيين وذلك بسبب تفوق عدوهم بالاسلحة ذات المديات البعيدة وبسبب الحسد والخيانة^(٢٩).

اتصل المماليك بالعرب عن طريق العقيدة الدينية، فهم قد اعتصموا بالاسلام وحاولوا التمسك به والدفاع عنه وعن المسلمين أينما وجدوا وهذه الظاهرة ردوا المغول وحاربوا الصليبيين، وحافظوا على الخلافة، واحتضنوها في مصر، ووسعوا حدود مملكتهم الاسلامية^(٣٠)، وقد أخذ المماليك عن العرب أصالة اللغة وسمو التفكير ومصدر الالهام، وبدا التناغم والانسجام في بادئ الامر بين الطرفين إلا أن عنجهية المماليك الحربية، ونظرتهم الفوقية وعصبيتهم المملوكية أدت إلى خلافات حادة بينهم وبين المواطنين^(٣١).

وبينهم وبين البدو^(٣٢)، فثار الاهالي في وجه السلطان والوالي والامير معبرين عن سخطهم وكراهيتهم، ومطالبين بتحتيتهم وعزلهم، حتى إذا تضايق أحدهم عمد إلى جمع مماليكه وخاصكيته فاستوقف عدداً من المواطنين، وضربهم بالمقارع، أو أودعهم في السجن، أو قتلهم،

(٢٧): ماهر: البحرية في مصر الاسلامية ١٢٨ وما بعدها، اليوزبكي: تاريخ تجارة مصر ١٣٣، الاسكندري:

تاريخ مصر ٢٤٩

(٢٨): ابن مماتي: قوانين الدواوين ١٧، العبادي: تاريخ البحرية الاسلامية ٢١١

(٢٩): Lane Poole: A History of Egypt in the Middle Ages 11/353

كرد علي: خطط الشام ١٩٦ وما بعدها. طرخان: مصر في عصر المماليك الجراكسة ١٦٢ وما بعدها، ريسلر:

الحضارة العربية ٢٧٠

(٣٠): جرونيانوم: حضارة الاسلام ٣٠٤، ٤٠٦

(٣١): طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٢٦٣ وما بعدها

(٣٢): المقرئزي: السلوك ٩٠٧/٣/٢، ابن خلدون: تاريخه ٤١٥/٥، طرخان: مصر في عصر دولة المماليك

الجراكسة ٢٧٠، ابن إياس: بدائع الزهور ٨٨/١، ١٣/٣، ١٠٢

ويشتد قتال الشوارع والبيوت، إلا أن المعركة غير متكافئة، فالشعب لا يملك من السلاح شيئاً، والجنود المماليك مدججون بجميع أنواعه^(٣٣)، أما الاعراب فإنهم يعبرون عن سخطهم بالنهب والسلب والدخول إلى البساتين والمزروعات ولكن لا يلبث أن يأتيهم العذاب من قبل المماليك بتجريد جيش يقضي على أكثرهم ويشردهم ويردهم إلى الطاعة والإذعان^(٣٤).

صحيح أن العرب كانوا يشكلون في تاريخهم القديم قوة حربية، إلا أنهم كانوا بجانب هذه القوة يشكلون قوى سياسية واقتصادية وحضارية عمت العالم، ووصلت الشرق والغرب^(٣٥)، أما المماليك فقد ركزوا على القوة الحربية وأهملوا غيرها^(٣٦)، مما جعلهم يتأخرون عن الركب الحضاري والصناعي، ويضعون على أنفسهم فرص التطوير التي سبقهم إليها غيرهم من الأمم المعاصرة لهم. وكانت الكبوة كبيرة عندما استولى العثمانيون على مقاليد الحكم في مصر، وفرغوها من محتواها العلمي والصناعي^(٣٧).

إن القوة الحربية التي ظهرت في عين جالوت إذا لم توجه الوجهة الصحيحة، وإذا لم تقيد بقيود وضوابط وإذا لم يوضع لها خطة تحدد معالمها وتبين أهدافها، وترسم مساراتها نحو المنفعة والاستفادة من طاقاتها فقد انقلبت يوماً من الأيام إلى ضرر يلحق بالامة ويدمرها. اختل التوازن بين القوتين، فضعفت القوة البحرية التي حاول بعض السلاطين تطويرها لتكون بمستوى القوة البرية، لكن قلة المواد الأولية التي تصنع منها السفن حال دون

(٣٣): المقرئزي: السلوك ١٧٤/١/٣، ٣١٤، ٣٨٦، ٦٧٦/٢/٣

(٢٤): القرماني: أخبار الدول ٢٠٤، ابن إياس: بدائع الزهور ١٣/١٠٢، تسيترشتين: تاريخ سلاطين

المماليك ١٠٧، شبيكة: مملوكة الفونج ١٤، ١٥

(٣٥): جرونيباوم: حضارة الاسلام ٤٠٨ ومابعدا

(٣٦): شبولر: العالم الاسلامي في العصر المغولي ١٠٩، ١١٤

(٣٧): لوبون: حضارة العرب ٥٨٧، كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ٣٣٤/١ ومابعدا.

نجاحهم^(٣٨)، وكذلك فإن إهمال بعض القادة فيما بعد شجع فرسان الاستبصار والبرتغاليين على الإغارة على السواحل والموانئ والطرق البحرية^(٣٩)، مما حال دون القوة البرية وإنقاذ الموقف وهنا كان يكمن عجز المماليك وتراجعهم فإن مثل هذا الأمر هو من الخطأ العسكري الكبير.

(٣٨): النويري: الامام بالاعلام ٥، ابن مماتي: قوانين الدواوين ١٧، ماهر: البحرية في مصر الاسلامية

١٦٨، العدوي: الاساطيل العربية ١٥١

(٣٩): اليوزبكي: تاريخ تجارة مصر البحرية ١٣٢

«المصادر والمراجع»

أولاً : المخطوطات :

- ابن حرز الحاكم (العصر المملوكي)
كتبت سنة ١٠٨٠هـ، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن سبط بن حرز الله الحاكم هداية الرامي إلى طريق الرامي وعلم الرمي بالبندق، دار الكتب المصرية رقم ٧٦ فنون حربية، رقم المصور في معهد التراث العلمي العربي بحلب ٨٩٣.
- ابن رسول الغساني (١٣٨٩/٧٦٤)
علي المؤيد بن داود بن المظفر يوسف بن المنصور بن عمر بن رسول الغساني، التذكرة في معرفة البيطرة، كوبرني رقم ١/١٢٢٥ - ف ٧٧٣، رقم المصور في معهد التراث العلمي بحلب ٨٩٣.
- ابن غانم الاندلسي (العصر العثماني)
إبراهيم بن أحمد، كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، الخزانة الملكية بالرباط رقم ٢٦٤٦، رقم المصور في معهد التراث العربي بحلب ٦٧٤ بلا تاريخ علي بن عبد الرحمن، في الخيل والسلاح وما يتعلق بهما.
- إبراهيم (العصر المملوكي)
محمد، الفروسية برسم الجهاد في سبيل الله، المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٨٢٩ بلا تاريخ.
- البلقيني (١٤٢٨/٨٠٥)
سراج الدين عمر بن رسلان، قطر السيل في أمر الخيل، المكتبة الظاهرية بدمشق ٨٩ ط رقم قديم ٢٦٠٥، رقم المصور في معهد التراث العلمي العربي بحلب ٣٠٨/٥.
- الدمياطي (العصر المملوكي)
الحافظ شرف الدين عبد المنعم بن خلف، فضل الخيل، في المكتبة الظاهرية بدمشق ٧٢ ط، رقم قديم ٣٢٣١، رقم المصور في معهد التراث العلمي بحلب ٤١٩/٢٠ بلا تاريخ.

- الذهبي (العصر المملوكي)

محمد بن لاجين بن عبد الله الذهبي ، غاية المقصود في العلم والعمل في البنود، المكتبة الوطنية
بباريس رقم ٢٨٢٧ ، بلا تاريخ

- الرملي (العصر المملوكي)

نجم الدين بن خير الدين الحنفي الرملي ، اسبال الذيل في ذكر جياذ الخيل ، المركز الثقافي
العربي بحماة (سوريا) رقم ٩٨ ، بلا تاريخ .

- الرماح (١٣٦٢/٦٩٥)

حسن الأحذب بن أيوب نجم الدين .

آ - كتاب الفروسية برسم الجهاد، مكتبة أحمد الثالث رقم ٢١٢٩ ، رقم المصور في معهد التراث
العلمي بحلب ٢٦٨ مجموع .

ب - الفروسية والحرب والاسلحة، المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٨٢٥ ، رقم المصور في معهد
التراث العلمي العربي حلب ٨٦١

ج - في عمل الرمح على الارض والفرس، مكتبة الفاتيكان رقم ٣٠٠ ، رقم المصور في معهد
التراث العلمي العربي بحلب ١٣٤

د - اللعب بالرمح في معرفة الفروسية رقم المصور في معهد التراث العلمي بحلب ١٤٥٠

هـ - الفروسية برسم الجهاد، رقم المصور في معهد التراث العلمي بحلب ١٣٧٦

و - في علم الفروسية برسم العمل به، مكتبة أحمد الثالث رقم ٣٤٦٧ ، رقم المصور في معهد
التراث العلمي العربي بحلب ٢٦٧

ز - الفروسية والمناصب الحربية، مكتبة الحرم المكي الشريف رقم ٥٠

- الرماح (العصر المملوكي)

نجم الاحذب محمد بن عيسى بن إسماعيل الحنفي نهاية السؤال والامنية في تعلم أعمال
الفروسية، كتبت بخط احمد المصري الحلال سنة (٧٧٥/١٤٠٠) مكتبة أحمد الثالث باستنبول

رقم ٢٦٥١ ، رقم المصور في معهد التراث العلمي العربي بحلب ٢٢

- الاسكندري (١٢٤٢/٦٤٠)

حسن بن محمد القرشي العدوي ، الحيل البابلية للخزانة الكاملية، المكتبة الوطنية في انقرة تركيا
رقم ٦٦٨

الاشرفي (٧٩٧/١٤٢١)

طبيغا الاشرفي البكلميش اليوناني، رمي النشاب الناسخ محمد بن عبد الرحيم التلواني سنة (١٤٢٨/٨٠٥) المكتبة الوقفية بحلب العثمانية رقم ٨٠٢ خاص.

- الطرابلسي (٧٣٨/١٣٦٢)

لاجين بن عبد الله الذهبي الملقب بحسام الدين الطرابلسي، تحفة المجاهدين في العمل بالمبادين، المكتبة الوقفية بحلب الاحمدية رقم ١٣٧٢

- الكندي (القرن الثالث الهجري).

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، السيوف وأنواعها وسقيها، مكتبة أحمد الثالث باستنبول رقم ٦٥١

- ناصر الدين (العصر المملوكي)

الرماح، المخزون لارباب الفنون في الفروسية ولعب الرمح، الناسخ شاهين الزيني سنة ٩٨٦ - ١٥٧٨، المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٨٢٦

- الناصري (٧٧٨ / ١٣٧٦)

محمد بن منكلي، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، الخزانة العامة بالرباط رقم ٢٣/ج

- مجهول

الحيل والحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب من حكم الاسكندر بن فيلبس اليوناني.

- مجهول

علم الفروسية برسم المجاهدين، المكتبة الوقفية بحلب الاحمدية رقم ١٣٧٢

- مجهول

في علم الفروسية ورمي النشاب على ظهور الخيل، المكتبة الوقفية بحلب الاحمدية رقم ١٣٧١،

- مجهول

كتاب الخيل، المكتبة الوقفية بحلب المولوية رقم ١٧١

ثانيا: المصادر

- ابن الاثير (١٢٣٢/٦٣٠)
عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني،
المعروف بابن الاثير الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٣٩٩ / ١٩٧٩
- ابن أبي أصيبعة (١٢٦٩/٦٦٨)
موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، عيون الأنباء
في طبقات الأطباء، منشورات مكتبة الحياة بيروت طبعة ١٩٦٥
- ابن إياس (١٥٢٣/٩٣٠)
محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار المعارف بمصر ١٩٥١
- ابن بطوطة (١٣٧٧/٧٧٩)
أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٥ / ١٩٧٥
- ابن تغري بردي (١٤٦٩/٨٧٤)
جمال الدين أبو المحاسن يوسف،
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى
١٩٢٩/١٣٤٨ .
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٧٥/١٩٥٦
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، القسم الأول ٨٤٥ - ٨٥٦، مطبعة وليام بوير،
منشورات جامعة كاليفورنيا ١٩٣٠
- ابن جبير (١٢١٧/٦١٤)
محمد بن أحمد بن جبير الكنافي الاندلسي، رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام
وصقلية، دار مصر للطباعة ١٣٧٤/١٩٥٥
- ابن حجر العسقلاني (١٤٤٨ / ٨٥٢)
أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مطبعة

مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند ببلدة حيدر آباد الركن ١٣٤٨

- ابن خرداذبة (٣٠٠ / ٩١٢)

أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد

- ابن خلدون (٨٠٨ / ١٤٠٥)

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر
وديون المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،

منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ١٣٩٧ / ١٩٧١

- ابن خلكان (٦٨١ / ١٢٨٢)

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء الزمان، دار

صادر بيروت ١٣٩٧ / ١٩٧٧

- ابن دقيق (٨٠٢ / ١٣٩٩)

إبراهيم بن محمد أيذمر العلاني، الانتصار بواسطة عقد الامصار، المطبعة الكبرى ببولاق،

طبعة ١٣١٠ / ١٨٩٧

- ابن رسته (آخر القرن الثالث الهجري)

أبو علي أحمد بن عمر، الاعلاق النفيسة مطبعة بريل بليدن ١٨٩١.

- ابن الساعي (٦٧٤ / ١٢٧٥)

أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن.

الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير المطبعة السريانية الكاثوليكية ببغداد

١٣٥٣ / ١٩٣٤

- ابن سيده (٤٥٨ / ١٠٦٥)

أبو الحسن علي بن إسماعيل الاندلسي، المخصص المطبعة الاميرية الكبرى بمصر ١٣١٨

- ابن شاکر (٢٥٩ / ٨٧٢)

بنو موسى محمد وأحمد والحسن، كتاب الحيل، تحقيق الدكتور أحمد يوسف الحسن، مطبعة

جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي ١٩٨١

- ابن شاهين الظاهري (٨٧٣ / ١٤٦٨)

- عرس الدين خليل بن شاهرين الظاهري . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مطبعة الجمهورية ببافيس ١٨٩٤
- ابن الشحنة (١٤٨٥/٨٩٠)
- ابو الفضل محمد بن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي بسوريا ١٩٨٤/١٠٤٠
- ابن شداد أبو عبد الله (١٢٨٥/٦٨٤)
- عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ١٩٥٣
- ابن شداد أبو المحاسن (١٢٣٤/٦٣٢)
- بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم، سيرة صلاح الدين الايوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في مطبعة الاداب والمؤيد بمصر ١٣١٧
- ابن صاعد (١٠٦٩/٤٦٢)
- أبو قاسم مساعد بن أحمد بن صاعد الاندلسي، طبقات الامم، المطبعة الكاثوليكية للادباء واليسوعيين بيروت ١٩١٢
- ابن طولون (١٥٤٦/٩٥٣)
- شمس الدين محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٢/١٣٨١
- ابن ظهيرة (١٥٧٨/٩٨٦)
- جاء الله جمال الدين محمد بن نور الدين، الفضائل في مجلس مصر والقاهرة مطبوعات دار الكتب المصرية بوزارة الثقافة ١٩٦٩
- ابن عبد الحق البغدادي (١٣٣٨/٧٣٩)
- صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٥٤/١٣٧٣
- ابن عبد ربه (٩٣٩/٣٢٨)
- أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والنشر بمصر ١٩٦٥/١٣٨٤

- ابن عبد الظاهر (١٣١٧/٧١٧)

محي الدين بن عبد الظاهر، تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦١

- ابن العبري (١٢٨٦/٦٨٥)

غير يغوريوس الملطى المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨

- ابن العديم (١٢٦١/٦٦٠)

الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله، زبدة الحلب في تاريخ حلب، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٨/١٣٨٧

- ابن عربشاه (١٤٥٠/٨٥٤)

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الانصاري، عجائب المقدور في أخبار تيمور، المطبعة العامرة العثمانية بمصر ١٣٠٥

- ابن عساكر (١١٧٥/٥٧١)

ثقة الله أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر، التاريخ الكبير، مطبعة روضة الشام ١٣٢٩

- ابن العماد الحنبلي (١٦٧٨/١٠٨٩)

أبو الفلاح عبد الحي؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛ المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان؛ بدون تاريخ.

- ابن الفرات (١٤٠٤ / ٨٠٧)

ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات؛ تاريخ ابن الفرات؛ مطبعة حداد بالبصرة ١٣٨٦ / ١٩٦٧ الجزء السابع من منشورات الجامعة الأميركية والمطبعة الأميركية ببيروت ١٩٤٢.

- ابن الفقيه (٩٥١ / ٣٤٠)

أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني؛ البلدان؛ مطبعة بريل بمدينة ليدن ١٣٠٢.

- ابن قاضي شهاب (١٤٤٧ / ٨٥١)

تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهاب الأسدي الدمشقي؛ تاريخ ابن قاضي شهاب؛

المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٧٧ .

- ابن القاسم (١١٠٠ / ١٦٨٨)

يحيى بن الحسين ؛ غاية الأمانى في أخبار القطر اليانعى ؛ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .

- ابن قتية (٢٧٦ / ٨٨٩)

عبد الله بن مسلم بن قتية الدينورى ؛ عيون الأخبار (الحرب والفروسية) ؛ وزارة الثقافة والارشاد القومى ١٩٧٧ .

- ابن القف (٦٨٥ / ١٢٨٦)

أمين الدولة أبو الفرج بن موفق الدين يعقوب بن أبى إسحاق المعروف بابن القف المتطبب المسيحى الكركى ، كتاب العمدة فى الجراحة ، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الركن ١٣٥٦
- ابن القيم (٧٥١ / ١٣٥٠)

أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى ، الفروسية ، دار الكتب العلمية بيروت
- ابن كثير (٧٧٤ / ١٣٧٢)

إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ، البداية والنهاية مكتبة المعارف بيروت مكتبة النصر بالرياض ١٩٦٦

- ابن ممتى (٢٢٧ / ١١٣٢)

الوزير الاسعد الخطير شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد ابن ممتى ، قوانين الدواوين مطبعة إدارة الوطن ١٢٩٩

- ابن واصل (٦٩٧ / ١٢٩٧)

جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٢

- ابن الوردي (٧٥٠ / ١٣٤٩)

زين الدين عمر ، نعمة المختصر فى أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) الناشر دار المعرفة بيروت لبنان ١٣٨٩ / ١٩٧٠

- ابن يحيى (أواسط القرن التاسع)

صالح، تاريخ بيروت وأخبار الامراء من بني العرب، سعى بنشره وتعليق حواشيه وفهارسه
الاب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية بيروت، طبعة ثانية معجمة ١٩٢٧

- ابن شاکر الکتبی (١٣٦٢/٧٦٤)

محمد بن شاکر بن أحمد، فوات الوفيات، مطبعة السعادة بمصر، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١
- أبو البقاء (ولد سنة ٨٤٧/١٤٤٣)

عبد الله بن محمد البدری المصري بدمشق، نزهة الانام في محاسن الشام، المطبعة السلفية
بمصر ١٣٤١

- أبو شامة (١٢٦٦/٦٦٥)

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي،

آ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٦

ب - تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين روجع على النسخة
الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الملكية بالقاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧.
- أبو الفداء (٧٣٢/١٣٣١)

السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الافضل نور الدين علي بن جمال محمود بن محمد بن
شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة:

آ - تاريخ أبي الفداء دار الطباعة العامرة الشاهية بالقسطنطينية ١٢٨٦

ب - تقويم البلدان: دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨٤٠

- الابشهي (٨٥٠/١٤٤٦)

شهاب الدين أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، المطبعة المحمودية التجارية بمصر.

- الادريسي (٥٦٠/١١٦٤)

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن الادريسي نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار
والجزر والمدائن والآفاق.

- الاسحاقى (١٠٦٠/١٦٥٠)

محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن عبد الغنى بن على الاسحاقى ، أخبار الأول فيمن تصرف في
مصر من أرياب الدول ، المطبعة الازهرية المصرية ١٣١١

- الاصطخري (٩٥٧/٣٤٦)

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارس ، ويعرف أيضا بالكوفى :

آ - الاقاليم : نشر وتحقيق ج . س مولير .

ب - مسالك الممالك ، مطبعة بريل بلندن ١٩٢٧

- الاصفهانى (١٢٠٠/٥٩٧)

أبو عبد الله بن صفى الدين بن محمود ، ويعرف بالعماد الكاتب الاصفهانى ، الفتح القسى في
الفتح القدسى ، تحقيق وشرح وتقديم محمود محمود صبح الدار القومية للطباعة والنشر .

- البغدادى (١٢٣١/٦٢٩)

عبد اللطيف ، ويعرف بابن اللباد وبابن نقطة والمطحن ، الافادة والاعتبار ، مطبعة خالد بن

الوليد بدمشق ١٤٠٣/١٩٨٣

- البكرى (١٠٩٤/٤٨٧)

أبو عبيد الله عبد العزيز البكرى الاندلسى ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع مطبعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٦٤/١٩٤٥

- بيشوف

د - تبدور الجرماي ، تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء المطبعة الادبية في بيروت ١٨٨٠

- الثعالبي (١٠٣٧/٤٢٩)

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٣٨٤/١٩٦٥

- الجاحظ (٨٦٨/٢٥٥)

أبو عثمان بن بحر ، البلدان ، مطبعة الحكومة ببغداد ١٩٧٠

- الحجازي (القرن السابع الهجري)

عبد الله بن إبراهيم وخمسة من أهل الاندلس النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، مطبعة دار

الكتب المصرية في وزارة الثقافة ١٩٧٠

- الحلبي (١١٨٢/٥٧٩)

جلال الدين النوري المعروف تاج الملوك الحلبي ، تحفة الظرفا في مناقب الملوك والخلفاء ، مطبعة جامعة كاليفورنيا بيركلي ، ولوس انجلوس ١٩٤٢

- الحنبلي (١٥٢١/٩٢٨)

مجير الدين ، الانس الجليل بتاريخ القدس والجليل ، توزيع دار الجبل بيروت - لبنان ومكتب المحتسب بعمان - الاردن ١٩٧٣

- الخزرجي (القرن الثامن الهجري)

علي بن الحسن ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر مطبعة ٩١٤/٣٣٢

- الدواداري (١٣٣٥/٧٣٦)

أبوبكر عبد الله بن أبيك :

آ - الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٦٠/١٣٧٩

ب - الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٧٢/١٣٩١

- الديار بكري (١٥٥٨/٩٦٦)

الشيخ حسن بن محمد بن حسن الديار بكري ، تاريخ الخميس في أحوال أنفـس النفـيس المطبعة الوهـيبة بمصر ١٨٣٠/١٢٨٣

- الدينوري (٨٩٥/٢٨٢)

أبو حنيفة أحمد بن داود ، الاخبار الطوال ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة الطبعة الاولى ١٩٦٠

- الذهبي (١٣٤٧/٧٤٨)

شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي ، دول الاسلام ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بعاصمة الدول الاصفية خيدر آباد الركن ، الطبعة الثانية ١٣٦٥

- الزبيدي (١٧٩٠/١٢٠٥)

محمد مرتضى الحسيني الواسطي، تاج العروس المطبعة الخيرية بمصر الطبعة الاولى ١٣٠٦

- الزردكاش (١٤٦٢/٨٦٧)

أبن ارتبغا، الانيق في المناجيق، تحقيق الدكتور إحسان هندي، منشورات جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد المخطوطات العربية

١٩٨٥/١٤٠٥

- السبكي (١٣٦٩/٧٧١)

تاج الدين أبونصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، الطبعة الاولى للجزئين السابع والثامن ١٩٧٠ - ١٩٧١

- السخاوي (١٤٩٦/٩٠٢)

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت - لبنان.

- السكيت (٨٢٨/٢٢٤)

أبويوسف يعقوب بن إسحاق، مختصر تهذيب الالفاظ، تحقيق الاب لويس شيخو اليسوعي المطبعة الكاثوليكية للادباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٧

- السيوطي (١٥٠٥/٩١١)

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
آ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية بمصر، الطبعة الاولى

١٩٦٧/١٣٨٧

ب - كتاب الرحمة في الطب والحكمة، المطبعة العامرة الشرقية بمصر، ١٣٢٤

- شاهنشاه (١١٤٨/٥٤٣)

تاج الدين شاهنشاه بن أيوب، من منتخبات كتاب التاريخ لصاحب حماة، مطبعة المؤيد والاداب بمصر ١٣١٧

- الشهابي (أواخر القرن التاسع عشر)

الامير حيدر محمد، تاريخ الامير حيدر أحمد الشهابي كتاب الغرو الحسان في تواريخ حوادث الزمان، مطبعة الاسلام بمصر ١٩٠٠

- شيخ الربوة (١٣٢٦/٧٢٧)

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

مطبعة الاكاديمية الامبراطورية بمدينة بطرسبورغ ١٨٦٥/١٢٨١

- الصفدي (١٣٦٢/٧٦٤)

صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي .

آ - الوافي بالوفيات جميعة المستشرقين الالمانية ودار النشر فرانزشتايز بقيساوت ، الطبعة الثانية

١٣٨١ - ١٩٦٢

ب - أمراء دمشق في الاسلام ، من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، مطبعة الترقى

بدمشق ١٩٥٥/١٣٧٤

- ابن الصقاعي (١٣٢٥/٧٢٦)

فضل الله بن أبي الفخر الصقاعي ، تالي كتاب وفيات الاعيان ، المعهد الفرنسي بدمشق

للدراستات العربية المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٧٤

- الصيرفي (١٤٩٤/٩٠٠)

الخطيب الجوهري علي بن داود ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان مطبعة دار الكتب

بمصر ١٩٧٠

- طاش كبرى زاده (١٥٥٤/٩٦٢)

المولى أحمد بن مصطفى بطاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، دائرة المعارف

النظامية بحيدرآباد الدكن الهند ، الطبعة الأولى ١٣٢٨

- الطبري (٩٢٢/٣١٠)؛

أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، مؤسسة الأعلمي ببيروت مأخوذة عن النسخة

المطبوعة بمطبعة بريل بمدينة ليدن ١٨٧٩

- الغزي (١٦٥٠/١٠٦١)

نجم الدين . الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة نشره محمد أمين دمج وشركاه بيروت .

لبنان .

- الفوطي (١٣٢٣/٧٢٣) .

عبد الرزاق بن أحمد الفوطي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة مطبعة الفرات

بيغداد ١٣٥١/١٩٣٢

- الفيروز آبادي (١٤١٤/٨١٧)

مجد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط، دار مكتبة التربية للطباعة والنشر بيروت.

- قدامه (٩٣٢/٣٢٠)

أبو الفرج قدامه بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، مكتبة المثنى بيغداد بدون تاريخ.

- القرمانى (١٠١٩/١٦١٠)

أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي أخبار الدول وآثار الأول، مطبعة دار السداد

بيغداد ١٢٨٢

- القزويني (١٢٨٣/٦٨٢)

زكريا بن محمد بن محمود.

آ - آثار البلاد وأخبار العباد، مطبعة بريل بمدينة ليدن، تصوير ١٨٤٨

ب - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مطبعة بريل ليدن، تصوير ١٨٤٩

- القلقشندي (١٤٢٠/٨٢١)

أبو العباس أحمد، صبح الاعشى، المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٣/٣٨١

- محمد بن شاكر أحمد - مطبعة السعادة بمصر ومكتبة النهضة المصرية؛ ١٩٥١.

- المسعودي (٩٥٧/٣٤٦)

أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة التجارية

بمصر، الطبعة الرابعة ١٣٨٤/١٩٦٤

- المقدسي (٩٩٠/٣٨٠)

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري. أحسن التقاسيم في معرفة

الاقليم، مطبعة بريل بمدينة ليدن، طبعة ثانية ١٩٠٦

- المقرئ (١٦٣١/١٠٤١)

أحمد بن محمد المقرئ التلمساني نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، دار الكتاب العربي

بيروت بدون تاريخ.

- ناصر خسرو (١١٤٨/٥٤٣)

علوي، تعريب يحيى الخشاب، سفرنامه مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة

- الواقدي (٨٢٢/٢٠٧)

محمد بن عمر، فتوح الشام دار العهد الجديد للطباعة بمصر، الطبعة الاولى ١٣٧٤/١٩٥٥

- ياقوت الحموي (١٢٢٨/٦٢٦)

شهاب الدين أبوعبد الله بن عبد الله الحموي الرومي البغدادى، معجم البلدان، دار صادر بيروت ١٣٩٧/١٩٧٧

- اليعقوبي (٩٠٤/٢٩٢)

أحمد بن أبي يعقوب بن واضح.

أ- البلدان: مطبعة بريل ليدن مطبعة ١٨٩١

ب- تاريخ اليعقوبي، مطبعة الغزي بالنجف ١٣٥٨

- اليونيني (١٣٢٥/٧٢٦)

قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند، الطبعة الأولى ١٩٥٤/١٣٧٤

- النعيمي (١٥٢٧/٩٢٧)

عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، مطبوعات المجمع العلمي

العربي بدمشق، مطبعة الترقى بدمشق، الجزء الثاني ١٣٧٠/١٩٥١

- النويري (١٣٣١/٧٣٢)

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الارب في فنون الادب، مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٤٢/١٩٤٣

- النويري (١٣٧٣/٧٧٥)

محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني، الامام بالاعلام في ما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن الهند ١٩٧٠/١٣٩٠

- الهروي (١٢١٤/٦١١)

أبو الحسن علي بن أبي بكر، الاشارات إلى معرفة الزيارات - المعهد الفرنسي بدمشق

للدراستات العربية، نشر وتحقيق جانين سورديل طومين، دمشق ١٩٥٣

- الهمذاني (١٣١٨/٧١٨)

رشد الدين فضل الله، جامع التواريخ، -ار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٦٠

ثالثاً: المراجع

- أبو خليل

شوقي، أطلس التاريخ العربي، دار الفكر بدمشق، الطبعة الاولى ١٤٠٤/١٩٨٤

- الاسدي

خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ١٩٨٤

- أسعد

إبراهيم، ماركوبولو من قصص الرحالة والمكتشفين، دار المعارف بمصر طبعة ١٩٥٨

- الاسكندي

عمرو الميجر ١ - ج سفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر،

الطبعة السادسة ١٣٤٢/١٩٢٣

- أكرم

جنرال أ. أ. - سيف الله خالد بن الوليد، منشورات هيئة التدريب في القوات المسلحة العربية

السورية ١٩٧٦

- الالوسي

محمود شكري، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية

١٣٤٣/١٩٢٤

- الباشا

د. حسن عبد الرحمن فهمي وعبد الرؤف علي يوسف، وحسين عبد الرحيم عليوي ومحمد

مصطفى نجيب، القاهرة تاريخها فنونها، آثارها، مطابع الاهرام التجارية طبعة ١٩٧٠.

- باشا المصري

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى ١٤٠٠/١٩٨٠، لواء محمد مختار، كتاب

التوقيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية، الافرنجية والقبطية.

- البخيت

د. محمد عدنان، مملكة الكرك، ضعة أولى ١٩٧٦

- البستاني

(١٨٨٢/٣٠٠) معلم بطرس، دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن ومطلب) مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، نهران ناصر خسرو وباسار مجيدي (١٣٣٩ خ ١٨٧)

- بيلي

أحمد، حياة صلاح الدين الايوبي، المطبعة الرحمانية الطبعة الثانية (١٣٤٥/١٩٢٦)

- التونجي

محمد، المعجم الذهبي فارسي عربي، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠

- حاجي خليفة

(١٠٦٧ / ١٦٥٦) مصطفى عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب حلبي، كشف النطنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى ببغداد. بدون تاريخ

- الجبرتي

(١٢٣٦ / ١٨٢٠) عبد الرحمن بن حسن، تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار، دار الجليل بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٨

- حتي

فيليب:

أ- تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع طبعة خامسة ١٩٧٤.

ب- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة بيروت ١٩٨٣

- حمادة

محمد ماهر، الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي، منشورات مؤسسة الرسالة بيروت، طبعة أولى ١٤٠٠/١٩٨٠

- حمزة

عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول، مطبعة أحمد علي نجيم بمصر طبعة ثانية ١٩٦٨

- الخطيب

حب الدين الزهراء، مجلة علمية أدبية اجتماعية شهرية تنشرها إدارة المطبعة السلفية ومكبتها بالقاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥

- الخضري

محمد، تاريخ الامم الاسلامية، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، طبعة ثالثة، بلا تاريخ.

- خمار

قسطنطين، موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية بيروت.

١٩٦٩

- دائرة المعارف الاسلامية، انتشارات جهان - مدينة طهران.

- دحلان

(١٨٨٦/١٣٠٤) أحمد بن السيد زيني دحلان، الفتوحات الاسلامية، المطبعة الحسينية

بمصر.

- الرمزي

(القرن العشرون) م. م. تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة

الكريمة والحسينية (آنبورغ) (١٩٠٧/١٣٢٥)

- الزركلي

خير الدين، الاعلام، دار العلم للملايين بيروت - لبنان الطبعة الخامسة (١٩٨٠/١٤٠٠)

- زقلمة

أنور، الممالك في مصر، مطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة، بلا تاريخ.

- زكي

عبد الرحمن:

آ - الجيش المصري الاسلامي من عين جالوت إلى رشيد، ١٨٠٧/١٢٦٠، مطبعة الكيلاني

١٩٧٠

ب - السلاح في الاسلام، دائرة المعارف بمصر ١٩٥١

- زيادة

نقولا، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت ونيويورك ١٩٦٦

- زيدان

جرجي، آ - تاريخ التمدن الاسلامي، مطبعة الهلال، الطبعة الرابعة ١٩٣٥

ب - تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال ١٩٥٧.

- سرور

محمد جمال الدين، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره دار الفكر العربي بالقاهرة
١٩٣٨/١٣٥٧

- سليم

محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي، مكتبة الاداب ومطبعتها ودار
الحمامي للطباعة بمصر، ١٩٦٥/١٣٨٤

- سمكوع

أمين، مدخل إلى تاريخ الشراكسة، دار دمش، بيروت الطباعة الاولى ١٩٨٤
- السيد

أحمد، مفتاح الذهب (تاريخ ملوك الاسلام وخلفاء العرب) مطبعة المعارف بمصر، بلا تاريخ.
- شيكة

مكي، مملكة الفونج الاسلامية، معهد الدراسات العربية العالية، مطبعة الرسالة بمصر،
مجموعة محاضرات ألفت في عام ١٩٦٣ - ١٩٦٤
- الشرفاوي

(١٨١٢/١٢٢٧) عبد الله، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، المطبعة
الازهرية المصرية، الطبعة الاولى ١٣١١

- الشوكاني

(١٨٣٤/١٢٥٠) محمد بن علي، البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع، مطبعة
السعادة بمصر، الطبعة الاولى ١٣٤٨

- الشبال

جمال الدين، تاريخ مصر الاسلامية، دار المعارف بمصر ١٩٦٧

- شير الكلداني

أدي شر، الالفاظ الفارسية العربية، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨
- الطباخ

(١٣٧٠/١٩٥٠) محمد بن راغب بن محمد بن هاشم الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء بتاريخ

حلب الشهاب، المطبعة العلمية بحلب، الطبعة الاولى ١٣٤٢/١٩٢٤

- طرحان

إبراهيم علي، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

١٩٦٠

- طوطح

خليل، جغرافية فلسطين، مطبعة بيت المقدس في القدس، ١٩٢٣

- عاشور

سعيد عبد الفتاح:

آ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، مطبعة دار الامد (البحيري إخوان) بيروت

١٩٧٧/١٣٧٩

ب - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٢

- العبادي وزميله

أحمد مختار: قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت

١٩٦٩

- العدوي

إبراهيم أحمد، الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٥

- العريني

السيد البار:

آ - المماليك: دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٦/١٩٦٧

ب - المغول: دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٧/١٩٦٨

- الغزاوي

عباس. تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد ١٣٥٣/١٩٣٥

- العسلي

بسام: المظفر قطر ومعركة عين جالوت، دار النفائس بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠/١٩٨٠

- عطية الله

أحمد، القاموس الاسلامي، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٣٨٣/١٩٦٣

- عمون

اسكندر، تاريخ مصر، مطبعة المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٣٣١/١٩١٣

- عنان

محمد عبد الله، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية بالقاهرة،

الطبعة الثالثة ١٣٧١/١٩٥٢

- عيسى

(١٣٦٥/١٩٤٥) أحمد، تاريخ البيهراستانات في الاسلام، المطبعة الهاشمية بدمشق

(١٣٧٥/١٩٣٩).

- الغزي

(١٣٥١/١٩٣٢) كامل بن حسين بن مصطفى البالي الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب،

المطبعة المارونية بحلب، (١٣٤٥/١٩٢٦)

- كحالة. عمر رضا. معجم المؤلفين، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٠/١٩٦٠

- كرد علي

(١٣٧٢/١٩٥٢) محمد بن عبد الرزاق:

آ - الاسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٥٠

ب - خطط الشام، الجزء الثاني بيروت - الطبعة الثانية (١٣٩٢/١٩٧٢)

- ماجد

عبد النعم، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة

١٩٦٣

- ماهر

سعاد، البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بمصر

١٩٦٧

- مبارك

علي، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، مطبعة دار الكتب بمصر ١٩٦٩

- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (وزارة الثقافة) القاهرة في ألف عام ٩٦٩ - ١٩٦٩،
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٩

- مجموعة التأليف في أكاديمية فرونزي العسكرية، التكتيك، وزارة الدفاع بدمشق ١٩٦٧
- مرمرجي

١ - س الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية، مطبعة جان دارك بيروت ١٩٤٨
- المفتي

شوكت، أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس، مكتبة الاندلس بالقدس، الطبعة الاولى ١٩٦٢
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، جامعة حلب
١٩٨٤/١٤٠٤

- هندي

إحسان، الجيش العربي في عصر الفتوحات، وزارة الدفاع السورية - دمشق - ١٩٧٣
- اليوزبكي

توفيق، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر
بجامعة الموصل، ١٩٧٥/١٣٩٥

رابعاً: المراجع العربية

- أرنولد

سيرتوماس وجمهرة من المستشرقين، تراث الاسلام، تعريب جرجي فتح الله دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٢

- بارتولد

ف: تاريخ الحضارة الاسلامية، نقله من التركية إلى العربية حزة طاهر، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٣٧١، ١٩٥٢

- بتلر

الفرد. ج، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٣/١٣٥١

- بول (لين)

استانلي، طبقات سلاطين الاسلام، ترجمة للفراسية عباس إقبال، ترجمه عن الفارسية مكي ظاهر الكعبي، دار منشورات البصري، ١٣٨٨/١٩٦٨

- تسيترشتين

ك. ف. تاريخ سلاطين المماليك في أعوام ٦٩٠ - ٧٤١ هـ بالاستناد إلى المخطوطات العربية بريل ليدن ١٩١٩

- جرونيباوم

جوستاف ١ - فون، حضارة الاسلام: نقله إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد وعبد الحميد العبادي، دار مصر للطباعة ١٩٥٣

- حوارني

جورج فضلو، العرب والملاحه في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بالقاهرة ونيويورك، مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥٨

- ريسلر

جاك س، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- زامباور

أدوارد فون (مستشرق نمساوي) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي،
مطبعة جامعة فؤاد الاول ١٩٥١

- شبولر

برتولد، العالم الاسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم
له سهيل زكار، نشر وتوزيع دار حسان بدمشق، طبعة أولى (١٩٨٢/١٤٠٢)

- فشر

ه. أ. ل. تاريخ أوربا (العصور الوسطى) نقله إلى العربية الدكتوران محمد مصطفى زيادة
والسيد الباز العربي، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة ١٩٦٩

- لوبون

غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية عماد زعيتر مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،
الطبعة الرابعة ١٣٨٤/١٩٦٤

- متر

آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، أوعصر النهضة في الاسلام، نقله إلى
العربية، محمد عبد الهادي، أبو زيدة ز مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، المطبعة الثالثة
١٩٥٧/١٣٧٧

- ميلي

الدو، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم
النجار والدكتور محمد يوسف موسى، مطابع دار العلم بالقاهرة الطبعة الاولى ١٣٨١/١٩٦٢

- هل

ي، الحضارة العربية، ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الانجلو المصرية
١٩٥٦/١٣٧٥

خامسا - المراجع الاجنبية

المراجع الافرنسية :

DARRAG,A.: L'Egypte sous le rigue de Barsbay; Institut Francais de Damas, Damas 1961

DOZT,R. : Supplement aux Dictionnaires Arabes; Librairie de Liban, Beyrouth 1968.

FIEY, J.M. : Chretiens Syriaques sous les Mongols; (IL-Khanat de perse, XIIIe-XIVe s.), Louvain, 1975.

GAUDEFROY, DEMOMBYNE: La Syrie L'epoque des Mamlouks; Librairie Orientaliste. Paris 1923.

LAOVST, H. : Les Gouverneurs de Damas Sous les Mamlouks et les premiers Ottomans.

NASSIM, S. : Histoire de Syrie, depuis les temps anciens jusqu'a' nos jours; Librairie Internationale deditions sociologiques.

RAY, E. : Les Colonies Franques de Syrie aux XIIme et XIIIme siecles, Librairie des Archives Nationales, Paris 1883.

SMBAT : La chronique attribue au connetable smbat, paris 1980.

المراجع الانكليزية

AYALON, D. : Gun powder and Fire Arms in the Mamluk Kingdom; Gainsborough House, England and in the U.S.A. Frank Gass and Company.

BROWNE, E. : Literary History of Persia; Vol. III, first printed in Great Britin at the University Press, Cambridge. reprinted in Great Britin by Redward Burn Ltd. reprinted 1976.

GRIGOR OF AKANE: History of the nation of the Archers; Harvard University Press, 1954.

LANE POOLE, S. : A History of Egypt in the Middle Ages; Frank Gass and Company Ltd. Fourth edition 1968.

LEWIS,B : The Arabs in History; Litho reprinted 1977 The Anchor Press Ltd. in Great Britin.

RASHID AL-DIn : The Successors of Genghis Khan; Translated from the Persian by john Andrew Boyle, New york and London, Columbia University Press 1971.

RUNCIMAN, S. : A History of the Crusades; Volume III The Kingdom of Acre; Cambridge University Press

STONE, C.G. : A Glossary of the Construction Decoration and Use of Arms and Armor in all countries and in all times; New Yourk.

المحتوى

رقم الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
١٢	خطة البحث
٣١	مدخل تعريف تقويمي باهم المصادر
٥٩	الفصل الأول: معركة عين جالوت والمعارك التي سبقتها
٦١	موقع فلسطين الجغرافي
٦٥	معركة اليرموك
٦٩	معركة حطين
٧٩	الفصل الثاني: مسرح معركة عين جالوت
٨١	مسرح المعركة
٨١	الانهار والوديان
٨٤	الينابيع
٨٧	الجبال
٨٨	السهول
٩٠	المدن
٩١	محاور القتال في أرض المعركة

٩٥	الفصل الثالث: القوام القتالي للطرفين المتقاتلين
٩٨	القوام القتالي للجيش المملوكي
٩٨	الترك
٩٩	المماليك القراصنة
١٠٠	المماليك الجلبان
١٠٢	المماليك السلطانية
١٠٢	أجناد الحلقة
١٠٣	المماليك الخاصة
١٠٣	أجناد الامراء
١٠٣	الشراكسة
١٠٥	الاکراد
	الترکمان
١٠٦	المغول
١٠٦	العرب
١٠٧	العربان
١٠٨	المواطنون
١٠٩	المشايع
١١١	القوام القتالي للجيش المغولي
	الفصل الرابع: قادة الجيش المملوكي والمغولي وأركانها والصفات القيادية للقادة والاركان
١٢٣	أولاً - قادة وأركان الجيش المملوكي
١٢٣	الملك المظفر سيف الدين قطز
١٢٨	الظاهر ركن الدين بيبرس
١٣٦	فارس الدين أقطاي المستعرب
١٣٦	سنجر الحلبي
١٣٧	شمس الدين الفارقاني

١٣٧	ايفان بن عبد الله الركني
١٣٧	جمال الدين
١٣٨	ثانيا - قادة وأركان الجيش المغولي
١٣٨	هولاكو
١٤٠	كتبغا نوين
١٤١	أشموط
١٤١	بايجونين
١٤٢	بيدرا

١٤٥	الفصل الخامس : التنظيم والتوجيه المعنوي
١٤٧	أولاً - الوظائف والرتب العسكرية
١٤٧	١ - القيادات العسكرية والمؤسسات القيادية
١٥٤	٢ - التشكيلات المقاتلة وحجم الجيش
١٦٦	حجم الجيش المغولي في معركة عين جالوت
١٦٧	٣ - الوظائف والرتب الاختصاصية والإدارية في الجيش المملوكي
١٧٤	٤ - الوظائف والرتب العسكرية في الجيش المغولي
١٧٥	ثانيا - القضاء العسكري والانضباط
١٨٠	ثالثا - المراسم والعلاقات العامة
١٩٠	رابعا - التوجيه المعنوي

١٩٥	الفصل السادس : الصنوف والأسلحة المشتركة في القتال
١٩٧	أولاً - صناعة الأسلحة
٢٠٣	ثانيا - الصنوف
٢٠٣	سلاح الفرسان
٢٠٨	سلاح المدفعية

٢١١	سلاح الهندسة العسكرية
٢١٤	السلاح الكيميائي
٢١٥	ثالثا - الاسلحة
٢١٥	الوسائط القتالية في سلاح الفرسان
٢٣٤	الوسائط القتالية في سلاح المدفعية
٢٣٦	الوسائط القتالية في سلاح النفط واليران
٢٣٨	الوسائط القتالية في سلاح الهندسة العسكرية
٢٣٨	الوسائط القتالية في سلاح البحرية
٢٣٩	الوسائط القتالية في السلاح الكيميائي
٢٤٧	الفصل السابع : التدريب والعمليات
٢٤٩	التدريب
٢٥٠	أولا - صفات التدريب
٢٥٠	١ - العمومية والشمولية
٢٥١	٢ - ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي
٢٥٢	٣ - التدريب بشكل متواصل
٢٥٣	٤ - التخصص في التدريب
٢٥٤	ثانيا - المنشآت التدريبية
٢٥٩	ثالثا - تدريب الصنوف والاسلحة
٢٥٩	١ - التدريب على الخيل
٢٦٣	٢ - السيف
٢٦٤	٣ - الرمح
٢٦٥	٤ - الرمي
٢٦٧	٥ - تدريب اللياقة والقوة
٢٦٨	٦ - التدريب البحري

٢٨١	العمليات
٢٨٢	أولا - الخصائص القتالية
٢٨٢	آ - الاقتصاد في القوى
٢٨٣	ب - تجميع وحشد الجيوش على الاتجاهات الرئيسية
٢٨٥	ج - الضغط على الاعداء
٢٨٦	د - تحقيق المفاجأة
٢٨٧	هـ - وضوح الهدف
٢٨٧	و - المناورة بالقوى والوسائط
٢٨٨	ز - السرعة في الاعمال القتالية
٢٨٩	ح - الاستطلاع والمخابرات
٢٩١	ط - التنسيق والتعاون
٢٩١	ي - التأمينات القتالية
٢٩٢	القسوة والشدة في القتال
٢٩٣	الاحذ بالدفاع المتحرك كنوع رئيسي من أنواع القتال
٢٩٦	الاحتراف العسكري وانعكاساته النفسية
٢٩٩	التواءم بين العقيدة القتالية والعقيدة الدينية

٣٠١	ثانياً - الافاق الحربية
٣٠١	(١) - الرد الفوري على الانذار
٣٠٢	(٢) - مجلس الحرب
٣٠٣	(٣) - التحضير والاعداد للحرب
٣٠٣	(٤) - منطقة التحشد
٣٠٤	(٥) - التوجيهات العملية
٣٠٥	(٦) - المحاور القتالية
٣٠٦	(٧) - الطليعة

٣٠٧	(٨) - التحييد
٣٠٨	(٩) - التفوق
٣٠٩	(١٠) - الاخفاء والتمويه
٣٠٩	(١١) - المعركة التصادمية
٣١١	(١٢) - منطقة التمرکز
٣١١	(١٣) - اختيار زمن المعركة
٣١٣	(١٥) - الخدعة
٣١٣	(١٦) - الكمين
٣١٤	(١٧) - التضليل الاستراتيجي
٣١٥	(١٨) - المطاردة
٣١٧	(١٩) - المحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر
٣١٨	(٢٠) - القتال الاستراتيجي بالجيش المتلاقية
٣١٩	(٢١) - الترتيب القتالي والتشكيلات القتالية
٣٢٥	(٢٢) - البريد الحربي
٣٢٦	(٢٣) - وسائط الاتصال
٣٢٧	(٢٤) - ميزان القوى
٣٣٠	(٢٥) - التصميم
٣٣١	(٢٦) - النصر السياسي قاد إلى نصر عسكري

٣٤٧	الفصل الثامن : الشؤون الادارية
٣٥٠	(١) - التحضير المادي
٣٥١	(٢) - مؤخرة القوات المسلحة
٣٥١	(٣) - محاور الامداد والاخلاء
٣٥٢	(٤) - الطعام والمياه
٣٥٧	(٥) - الوسائط المحلية

٣٥٨	٦ - اللباس
٣٦٤	٧ - الخدمة الطبية
٣٦٦	٨ - المستودعات
٣٦٨	٩ - الرواتب والتعويضات
٣٧٢	١٠ - الغنائم
٣٧٢	١١ - النقل
٣٧٤	١٢ - الاشغال العسكرية
٣٧٥	١٣ - دور المرأة في الجيش
٣٧٥	١٤ - المكاتبات والمراسلات

٣٧٧	الفصل التاسع : آثار المعركة
٣٧٩	أولا : ظهور الجيش المملوكي كجيش قوي
٣٨٠	ثانيا : انحسار المد المغولي وخطره على العالم
٣٨١	١ - الاستقرار الداخلي
٣٨٤	٢ - الدعم والتأييد الخارجي
٣٨٨	ثالثا : حقد الجيش المغولي ومحاولته الثأر من الجيش المملوكي
٣٩٤	رابعا : خمود القوى المناوئة
٣٩٦	خامسا : تشجيع الجيش المملوكي
٤٠٣	سادسا : تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده
٤١١	سابعا : بدء الخلافات وتصعيدها بين الامراء والمماليك

٤١٧	الخاتمة
٤٢٣	المصادر والمراجع
٤٢٥	أولا - المخطوطات
٤٢٨	ثانيا - المصادر

٤٤٠	ثالثا - المراجع
٤٤٧	رابعا - المراجع المعربة
٤٤٩	خامسا - المراجع الاجنبية (الافرنسية)
٤٤٨	المراجع الانكليزية
٤٥١	المحتوى

صدر للمؤلف

- الاستراتيجية الادارية
 - مكانة المرأة في الشؤون الادارية والبطولات القتالية
 - دور الزمن في الادارة
 - الادارة العسكرية في حروب الرسول محمد ﷺ
 - الحداثة في مؤخرة الفيلق
 - معركة عين جالوت (٦٥٨/١٢٦٠) دراسة في الجيشين المملوكي والمغولي
- سيصدر قريباً

- السبيل في المعارك النبوية والخصائص القتالية
- الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- استراتيجية الحرب والفتوحات في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- استراتيجية الحرب والفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يطلب من

مؤسسة الرسالة بدمشق

هاتف ٢١٢٧٣٧

دار الفكر بدمشق

هاتف ٢١١٠٤١

مكتبة دار الكتاب الاسلامي بحلب

هاتف ٤٤٣٣٧٦

جدول الخطأ والصواب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٨	وصخبها	وضبغها
١٤	١٩	والتعليمات	والتعيينات
٩٧	١٢	أردت	أودت
١١٦	٩	دوراً كبيراً	دورٌ كبيرٌ
١٦٢	حاشية رقم ٩٩	مقام العساكر	مقام أتابك العساكر
١٨٢	٦	ولتوت	واللتوت
١٨٢	٧	الحدي	الحديدي
١٨٥	٥	المواساة	المواسم
١٨٦	٨	ومرداش	دمرداش
٢٢٢	١١	مرآة	امراة
٢٥١	٢	اللنجة	اللبخة
٢٥٤	٢	يكبوا	يكبو
٢٥٧	٦	ورفض	وفض
٢٥٧	١٩	مهمات مهمات	مهمات
٢٦٢	١٧	المجادلة	المجاوله
٢٩٠	١١	المسيرة	الميسرة
٣٠٤	١٩	محمد	محمد صلى الله عليه وسلم
٣٠٧	١٣	وهي	وهو
٣٠٨	١٠	جميع	جمع
٣١٢	١٥	آنذلك	آنذاك
٣١٧	٥	يخشى	يخش
٣١٨	١٢	المتلاحقة	المتلاقية
٣٢٥	١٠	والحجارات	والاحجار
٣٣٠	١٠	عار	أعار
٣٥٦	٨	كلما : اضطربت	كلما اضطربت البلاد
٣٦٣	٢	القانول	القاتول
٤٣٨	١٥	كامل السطر	يحذف كامل السطر

